تاريخ المصريين ٢٢١

حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف : سير ونستون تشرشل

ترجمة : عزالدين محمود



الهيئة المصرية العامة للكتاب

تصدر عن

الهيئة المصرية العامة للكتاب



حرب النهر

تاريخ الثورة المهدية

تأليف : سير ونستون تشرشل

ترجمة : عزالدين محمود

مراجعة وتصحيح

الأستاذ/ يوسف حسن



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٢

تقديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم هذه الترجمة لكتاب ونستون تشرشل «حرب النهر» الذى يؤرخ للثورة المهدية، ومعركة أم درمان والاحتلال الإنجليزى لمصر، واتفاقية الحكم الثنائى للسودان. وقد قام بترجمته الأستاذ عز الدين محمود، وهو حفيد القائد السودانى الأمير ود أرباب، ترجمة ممتازة تشهد بتفوقه فى اللغة العربية.

وبطبيعة الحال فإن الكتاب يقدم رؤية السياسى الشهير ونستون تشرشل، لتلك الفترة الصاخبة فى حياة وادى النيل، وهى رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا. وإن كان يحمد للكاتب موضوعيته فى كثير من الأحداث، وعدم إخفائه نوايا بريطانيا الاستعمارية فى السيطرة على وادى النيل.

وسوف يدهش القارئ حين يعرف من قراءة هذا الكتاب أن فهم تشرشل للعلاقة بين مصر والسودان. أفضل بكثير من فهم أبناء البلدين لها.

فقد شبه ارتباط السودان بمصر بارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، لا حياة له بدونها! ولكن ها نحن اليوم نرى السودان منفصلا عن مصر! بل نرى العلاقات بينهما تتعرض لأزمات وأزمات! كما شبه العلاقة بين السودان ومصر بعلاقة جذور شجرة النخيل بالساق. كل منهما مكمل للآخر، ولا غنى لأحدهما عن الآخر!

والكتاب يحتوى على ثروة من المعلومات التاريخية المثيرة، فهو يؤرخ للثورة المهدية وانتصاراتها وهزائمها. ويتكون من تسعة عشر فصلا، الفصل الأول بعنوان: ثورة المهدى، والثانى بعنوان: «مصير المبعوث»! أما الفصل الثالث فهو بعنوان: امبراطورية الدراويش. والرابع: «سنوات التحضير». والخامس: «بداية الحرب». والسادس: «حركة ٧ يونيو ١٨٩٦. والسابع: «استعادة مديرية دنقلا». والثامن: «سكك حديد الصحراء». والتاسع: «أبو حمد». والعاشر: «بربر». والحادى عشر: «الاستطلاع». والثانى عشر: معارك نهر عطبرة ٨ أبريل ١٨٩٨». والثالث عشر:

«الزحف الكبير». والرابع عشر: «معارك أول سبتمبر». والخامس عشر: «معركة أم درمان». والسادس عشر: «سقوط المدينة». والسابع عشر: «حادثة فاشودة». والثامن عشر: «على النيل الأزرق». والتاسع عشر: «نهاية الخليفة».

والكتاب على هذا النحو يؤرخ للثورة المهدية بلسان سياسى استعمارى قديم هو ونستون تشرشل، وبالتالى فعلى القارئ الكريم أن يضع هذا العامل فى اعتباره وهو يتابع أحداث الثورة المهدية، فالكتاب رؤية تاريخية إنجليزية أكثر منه تاريخا محايدا، ولكن ما يحويه من ثروة فى المعلومات التاريخية يجعله من أهم الكتب التى صدرت عن الثورة المهدية.

والله الموفق..

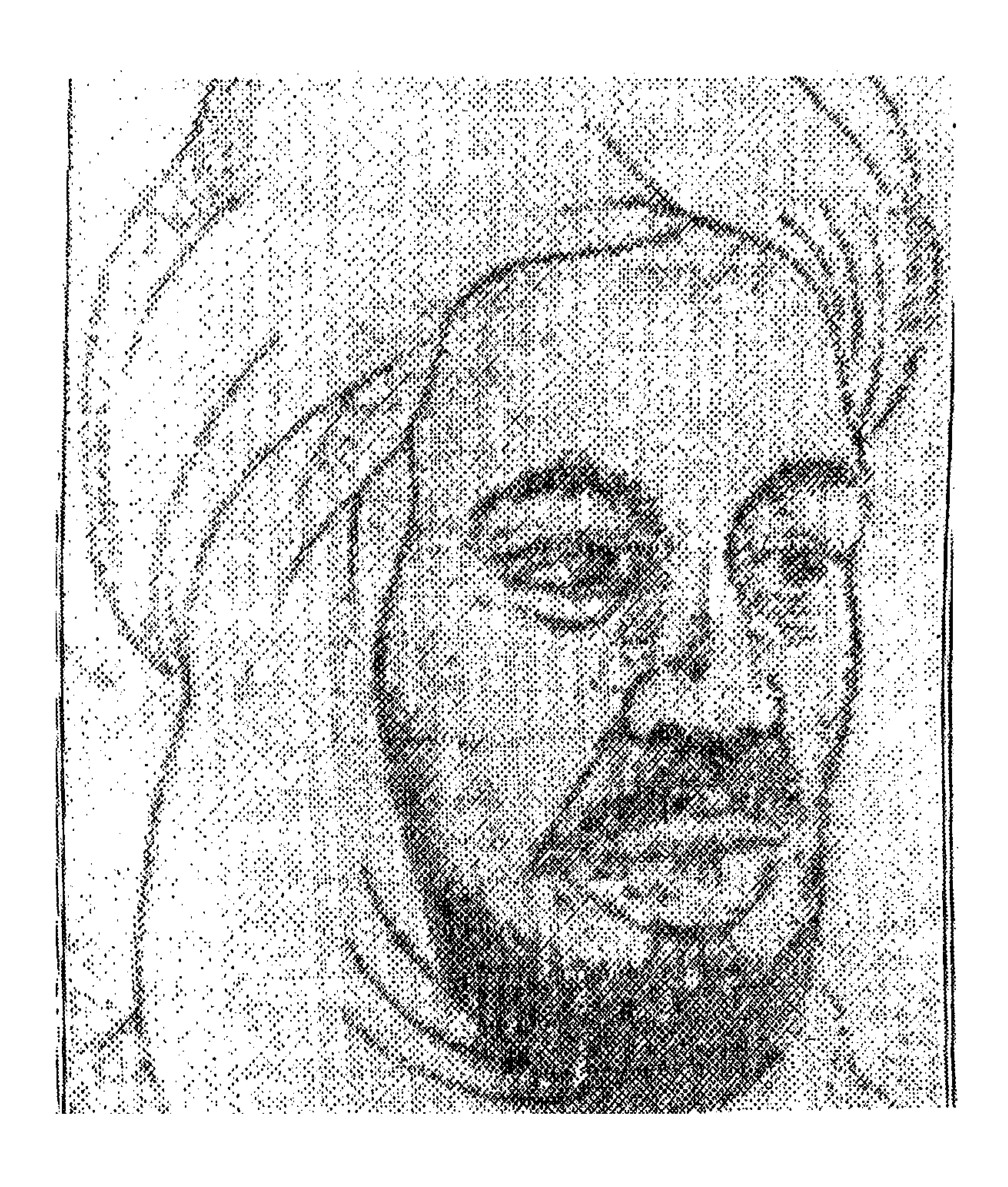
رئيس التحرير

د. عبدالعظيم رمضان

الإهداء

إلى روح جدتي الطاهرة " بنت الأمير " خديجة بنت محمد أحمد وداربباب، وإلى روح والدها الأمير " وداربباب " من عرب الكنجارة في غرب السودان أمير المهدية في القلابات على حدود السودان الشرقية مع الحبشة ، الذي جاء ذكره في الكتاب ، وإلى أرواح أبطال الثورة المهدية جميعهم ، الذين روت دماؤهم الذكية كل شبر من تراب السودان في بسالة وشجاعة نادرة ، حازت إعجاب الأعداء قبل الأصدقاء. رحمهم الله، وجعل الجنة مثواهم.

عز الدين محمود



الأمام محمد أحمد المهـــدي

تقـــــديم

أشكر الله العلي العظيم الذي أعانني على إتمام هذا العمل الوطني الهام.

أبادر فأقرر أن المنهج الذي اتبعته فى الترجمة هو أن أكون أمينا فى نقل وجهات النظـــر و الأفكار والأحكام كما جاءت على لسان المؤلف ، بغض النظر عن رأيى الشـــخصي . بل فى كثير من المواقف أجدني غير متفق معه في بعـــض الآراء والأحكـــام و التشـــدد لدرجة الغل ، وطرح القضايا من وجهة النظر الاستعمارية البحتة .إن دوري هو نقـــل وجهات النظر الخاصة بالمؤلف، وكل ما جاء فى الكتاب على مسئوليته هو وحده .

ثلاثة أسباب دفعتني لترجمة هذا الكتاب : –

الأول : أن كتاب " حرب النهر " هو الكتاب الثاني لمؤلفه ونستون تشرشل، وقـــد لقـــى قبولا عظيما وأسهم فى إرساء قواعد شهرته، ووضعه فى مصاف أعظم كتـــاب الأدب. وقد حرصت على ترجمته لمنفعة قراء العربية فى السودان و البلاد العربيـــة وغيرهـــا لقناعتى بأن الكثيرين يجدون مشقة في الحصول على الكتاب أو الاطلاع عليه فى لغتـــه الأصلية.

*يحتوي الكتاب على اعترافات صريحة ومثيرة عن نوايا بريطانيا على لســـان تشرشـــل الذي أصبح أحد دهاقنة السياسة الاستعمارية البريطانية * كما يتناول الكتاب عدة قضايـــا مهمة شغلت أذهان المثقفين العرب كثيرا وأهمها :كيف حكم كرومر مصر بيد من حديـــد * إعادة احتلال السودان ليكون تابعا الى إنجلترا أكثر منه الى مصر * اتفاقية الســـودان التي سلبت كل سلطات مصر فى السودان، الحق الوحيد هو رفـــع العلـــم المصـــري * وضعت كل الأمور فى يد الحاكم العام البريطاني للسودان * ويعترف الكاتب بأن خطـــط السيطرة على منابع المياه القضية الساخنة التى تؤرق كـــل العـــرب الآن قـــد وضعتـــها بريطانيا منذ أكثر من ثلاثمائة سنة !! * إجبار حملة مارشاند الفرنسية على الجلاء مـــن فاشودة فى أعالى النيل أو الحرب ضد فرنسا * اثبت التاريخ تداعيات سياسة الهيمنة هـــذه * حظر استيراد الصحف والمجلات والكتب المصرية الى السودان * إجبار المصرييـــن على الجلاء عن السودان عام ١٩٢٤ بعد مقتل سير "لي إستاك" فى القاهرة !! * جعـــل الجنوب منطقة مقفولة للشمالـــين ومفتوحة لتجار الإغريق ، الأرمن والشوام * تشـــجيع الإرساليـــات التبشيرية .

الثاني : لإعجابي بقدرات الكاتب الأدبية وأسلوبه القوي، وحرصي على تمكين القارئ العربي من قراءة كتاب يعتبر درة فى جبين الأدب الإنجليزي. و هدفي أيضا إثراء المكتبة العربية و ملء فراغ كبير فى هذا المجال ، مجال التاريخ و الأدب، خاصة أن الكاتب يؤرخ لفترة مهمة من تاريخ وادي النيل. يؤرخ للثورة المهدية منذ حضور المهدي للخرطوم من دنقلا وهو صبي، ونشأته الدينية، وانتصارات الثورة المذهلة فى الجزيرة آبا ، شيكان ، الأبيض ، الخرطوم والقلابات ، وحتى نهاية حكم المهدية. معركة أم درمان الى اتفاقية الحكم الثنائي للسودان، وتحديد حدود و دور كل دولة . ذلك دون أن يغفل ثورة عرابي، الاحتلال البريطاني لمصر ، تقليص النفوذ الفرنسي بمصر، نشاط اللورد كرومر ، الزبير رحمة، مقتل غردون ، عثمان دقنة ومعارك الشرق الى آخره .

والتفاصيل التي أوردها الكاتب هي بكل المقاييس ثروة من المعلومات المثيرة، التي يمكن أن يجدها القارئ بين ضفتي هذا الكتاب، وسيعجب أيضا أن تشرشل كان عادلا فى كثير من المواقف ولم يخف إعجابه الشديد بشجاعة المقاتل السوداني .

الثالث : سبب شخصي لذكرى عزيزة لدي ، عندما أبرقت لجدتي أقول لها: " أبشرى، إن إمارة ابيك ظهرت في الكتب " بمجرد أن وجدت ذكرى الأمير ود أرباب فى هذا الكتاب " حرب النهر " قد أنصفه الكاتب واصفا إياه " بالقائد الباسل " . أن بعض المؤرخين لتلك الفترة يبدأون " بأبي عنجة " و" الزاكي طمل " دون الرجوع للفترة السابقة أو السؤال : لماذا ذهب هؤلاء الى هناك أصلا ؟.من أحفاده أيضا أحمد الحاج عبد الله ، عقيد (م) عمر على محقر والفنان عبد الكريم الكابلى .

ولا أعتقد أن ما ورد فى هذا الكتاب مسلمات لا تقبل الجدل أو النقاش فسوف يظل الباب مفتوحا لكل ذي رأي مخالف للمؤلف أو مؤرخ يريد أن يصحح بعض المعلومات ووضع الأمور فى إطارها الصحيح ، البعيد عن الغرض. عسي أن يسهم هذا العمل المتواضع فى إعطاء الفرصة لكل من يهمه الشأن السوداني أن يدلي بدلوه، وأن يكون فاتحة لمشاركات عديدة تسهم فى التعريف بتاريخنا المجيد وتساعد فى إرساء قواعد المستقبل الواعد بإذن الله .

عز الدين محمود

- بالرغم من احترامي لحق المؤلف الكامل فى التعبير عن آرائه بالطريقة التي يراها تحقق ما يرمي اليه أو تحكمه الحبكة أو خدمة النص، إلا أنني قد عانيت كثيراً، قد كبلني الالتزام الذي أعلنته ، التقيد بالمنهج، مع عرض آراء المؤلف دون تدخل أو تعارض، حتي لا نخلق كتاباً داخل الكتاب، فهذه مهمة الدارسين والكتاب .
- عانيت كثيراً، ولا أعرف كم عدد اللحظات التي كدت فيها أجثم على السطور والكلمات بكلتا يدي، خاصة عبارات التشفى والسخرية. فالمؤلف يمر مرور الكرام على انتصارات المهدية ، ويصف انتصارات الغزاة فى إسهاب شديد .
- سوف يندهش القارئ لفهم ونستون تشرشل لخصوصية العلاقة بين السودان ومصر، وقد عبر عنها أبلغ تعبير، عندما قال "يرتبط السودان بمصر كارتباط الغواص بأنبوبة الأكسجين، بدونها لا شئ سوي الاختناق"، أو عندما قال" إذا نظر القارئ لخارطة النيل سوف يلاحظ على الفور وجه الشبه الكبير بين شكل النيل وشجرة النخيل ، فى أعلى الشكل تمثل الأرض الخضراء الخصبه الدلتا ، الفروع والأوراق الخضراء تهفهف فى كبرياء، الجذع فى انحنائه، النيل أيضا ينحني انحناءة جبارة عبر الصحراء ، جنوب الخرطوم تكتمل أوجه الشبه حيث تمتد جذور النخلة داخل السودان بعمق. إذا كان السودان جزءا مكملا لمصر فإن مصر لا تقل أهمية لتنمية السودان، ماهي فائدة الجذور والتربة الغنية إذا ما قطعت الساق فهى ضرورية لانتشار العطر فى الأجواء ؟.

♦ إشراقات تحسب لتشرشل: عدله ، وإنصافه للرجال الصناديد الشجعان ، الذين قاتلوا بشرف، واستشهدوا بشرف ، لقد كانت هذه البطولات هـــي مصدر القوة والأجنحة التي حملتني لأحلق فى الفضـــاء ، بكــل العــزة والفخر لأعلن " أن هؤلاء القوم هم أهلي أو " ديل أهلي " كما نقول فـــى السودان .

♦ شكر وعرفان

أشكر الزعيم السوداني السيد الصادق المهدي علـــى ملاحظاتـــه القيمـــة وحماسه وتشجيعه لهذا المجهود. والشكر موصول للكاتب الكبير مولانـــا الأستاذ/ يوسف حسن لمجهودة الكبير فى مراجعة وتصحيح هـــذا العمـــل فلهما الشكر وعظيم الامتنان والتقدير.

عز الدين محمود



المؤلف " ونستون تشرشل "

ولد المؤلف فــي عـــام ١٨٧٤م، تعلــم فــي هــارو وكليــة ســاند هيرســت العســكرية ، انضــم للفرقــة الانســرز ٢١ (الرماحــة) فــي الســودان حسـب تجربتــه مــع. "المورنــج بوســت " انتخــب ممثـــلا لحـــزب المحــافظين عــن دائــرة "أولدهــام " ولكنــه ســرعان مــا انضـــم الـــى حــزب الأحــرار وأصبــح رئيســـاً لإدارة التجــارة . كـــان وزيـــراً للداخليــة ثــم اللــورد الأول لســلاح البحريــة . اســتقال بعـــد أحـــداث "الدردنيــل". اســتمر فــي نشــاطه البرلمــاني وأصبــح وزيـــراً لشـــئون الذخــيرة، وأصبــح ســكرتيراً للحربيـــة والطـــيران، ثـــم ســـكرتيراً للمســتعمرات. ثــم عــاد وانضــم لحــزب المحــافظين وأصبــح وزيـــراً للخزانـــة .

عند قيـــام الحــرب العالميــة الثانيــة رجــع للبحريــة كلــورد أول . عيــن رئيســاً للـــوزراء فــي الحكومــة الائتلافـــية، وكــون مجلـــس حـــرب واحتفــظ لنفســه بوظيفــة وزيــر الدفــاع . قــاد الشــعب البريطــاني فـــي أهــم الأوقـــات حتـــى انــهيار ألمانيـــا . عندمـــا انـــهزم فـــي انتخابـــات ١٩٤٥ أصبــح زعيمــا للمعارضــة، ثــم أصبــح رئيســاً للـــوزراء مــــرة أخــرى فــي الفــترة مــن عــام ١٩٥١ إلــى ١٩٥٥. حصــل تشرشـــل على جائزة نوبل لـــلآداب فــي عـــام ١٩٥٣ . توفــي فــي عــام ١٩٦٥.

" حرب النهر " – السودان ١٨٩٨

سير ونستون تشرشل

ترجمة عز الدين محمود

مقدمة بقلم سير جون كولفيل

يعد كتاب " حرب النهر " ثانى كتاب يؤلفه ونستون تشرشل ، كتبه وعمره خمسة وعشرون عاماً ، استقبل الكتاب استقبالاً رائعاً ، وأسهم فى إرساء قواعد شهرته كمؤلف. إذ لم تشأ المقادير أن تهئ الفرصة الى ونستون تشرشل ليشترك فى الهجوم مع فرقة " اللانسر ٢١" فى معركة أم درمان ، فإن قصة هذه العملية التى دبرت بإتقان وتفان شديدين ، والتى أدت الى هزيمة إمبراطورية الدراويش فى السودان، كان يمكن أن يطويها النسيان ، و لم يكن هناك ممن خدموا كضباط تحت إمرة "كتشنر" من هو أكثر قدرة على تسجيل الأحداث أو يمكنه أن ينافس تشرشل فى مقدرته ككاتب ، أو أن ينال ما ناله من شهرة لاحقة .

وقد وصل تشرشل السودان بعد وساطة والدته السيدة " راندولف تشرشل " التى استعانت أولا بتوصية من أمير ويلز ورئيس الوزراء (لورد سالزبوري) والقائد العام ، كانت هذه التوصيات لازمة حتى يقتنع " كتشنر " الذى دائما ما يعارض تكليف الشباب بالمهام الكبيرة – على السماح لتشرشل بمرافقة الحملة .

لعله من الغريب جداً أن يلجأ شخص لمثل تلك الوساطة لكى يُسمَح له بالاشتراك فى معركة معرضا حياته للخطر ، لأنه مهما بلغت قيمة الكسب الشخصى فإنه لا يبرر مثل هذا التصرف . إلا أن تشرشل كان له طموح آخر بالإضافة للخلود العسكرى ، إذ أراد أن يسجل الأحداث للصحف ، وعندما كان هذا الأمر محرماً على أى ضابط انتظامي فقد أرسل أخبار المعارك لجريدة " المورنج بوست " تحت اسم مستعار، وبطريقة سرية .

كانت هذه المتابعات، ونشر الكتاب الذى اعتمد فيه على تلك الرسائل الصحفية أثره فى زيادة غضب وغيظ كتشنر . ولكنها أسهمت فى خلق كنز أدبى . وهذا هو المهم .

إن وصف الكاتب لتفاصيل التحضير للمعركة النهائية أمام جدران مدينة الخليفة الحصينة فى أم درمان، ليفوق وصفه للمعركة النهائية ذاتها، بالرغم من أنه اشترك شخصياً فيها .

إن وصفه الدقيق يترك القارئ على يقين بأن تشرشل مدين للكاتبين "جيبون"و"ماكاولى"ويتخيل كيف أنه كان يقضي العصارى وهو فى خدمة الفرقة الرابعة "هوسار"فى الهند فى قراءة واستيعاب ما كتباه.إن هناك فقرات فى كتابه،حتى جيبون وماكاولى كانا سيكونان فخورين بها.

إن أول انبهار لنا يتمثل فى وصفه للمعجزة التى حققها حكم اللورد كرومر الواعى لمصر. ففى عهده انتهى عصر الفساد وعدم الاهتمام ، وتحول الجندى المصرى الى جندى مقاتل وقوة ضاربة وفاعلة فى أقل من عشر سنوات ، وكذلك كان الحال بالنسبة للقوات السودانية العاملة بين صفوف الجيش المصرى ، فقد كان كرومر شخصياً مصدرا مهما للمعلومات بالنسبة لتشرشل ، وقد مده بمعلومات قيمة فى هذا المجال ساعدته كثيراً فى وصف ورصد هذا الإنجاز الكبير .

مثار الدهشة الثانية فكان المقدرة والقوة التى بنى بها خط سكة حديد عبر مئات الأميال من رمال الصحراء ، هذا الخط الحديدى الذى لولاه لما كان بإمكان كتشنر أن ينجح . ولا يمكننا إغفال نجاح سلاح البحرية الملكى وإصرارهم العجيب على إحضار مراكب حاملة للمدافع الى النيل، بتجميع أجزائها داخل السودان بعد إحضارها قطعة قطعة من بريطانيا:"مفككة" ثم العبور بها بعد تركيبها عبر موانع النيل الشرسة كالشلالات المعروفة "الكتراكت" .

إن تشرشل لم يترك أى فرصة أو مناسبة دون الإطراء المستحق للجيش المصرى الإنجليزى/ السودانى ، وهم يتقدمون جنوبا فى أوحال الرمال محملين بالمؤن والعتاد الحربى . كل ذلك فى قيظ حارق مستنزف القوى، مع قلة المياه فى أغلب الأحيان ، ومع تعرضهم للحمى فى أحايين أخرى .

لعله من المرغوب فيه، والمسموح به أيضا أن نعمل مقارنة أو اثنتين بحملات لاحقة، بالرغم من التطور الذى حدث بعد سنوات قليلة بالنسبة للتقدم فى التكنولوجيا وعلوم الطب، مما أحدث ثورة فى مجال الحروب .

لقد حارب كتشنر ضد قوة عقائدية . تلك التى كان على رأسها وزعيمها الشجاع "الخليفة"، فرغم قلة خبرته استطاع أن يجهز جيشا يعادل ستة أضعاف جيش كتشنر من

الجنود على أرض المعركة بالرغم من سوء النظام والتخلف فى التسليح . كانت هنالك مقولة شائعة فى ذلك الوقت:-

" مهما حصل فنحن نملك "

" مدفع المكسيم وهم لا يملكون "

بالرغم من تفوقه فى أسلحة النار والخبرة التكتيكية فإن " كتشنر " سيكسب فقط من هدوء تطبيق اساليبه ،وتماماً مثل الجنرال مونتجمرى - خمسة وأربعون عاماً بعده - فإنه لا يحتمل التعرض لأى مخاطر ، ولم يكن على عجلة من أمره . مونتجمرى ما بين عامى ٤٢و٤٥ واجه أحسن جنود العالم ، فى حين أن كتشنر لم يواجه ، ولكن أعداءه شجعان بالعقيدة . يعتقدون بأن أى استشهاد فى المعركة يعنى دخول الجنة . لذلك كان كل من كتشنر و منتجمرى على يقين أن أى تهاون فى الإعداد أو الدعم الحربى اللازمين ستكون نتائجه كارثة حتمية . لقد شاهد مونتجمرى ما حدث فى اليونان وكريت وشمال إفريقيا فكان على "كتشنر " أن يتحاشى المصير المأساوى للجنرال " هيكس " الذى حطم الدراويش جيشه بالكامل منذ سنوات قليلة .

مقارنة حروب لعب فيها سلاح الطيران دورا أساسيا بغيرها مقارنة يجب التأنى فيها ، إلا أن هناك تشابها كبيراً فى بعض الخصائص بين " حرب النهر " عام ١٨٨٩ وحرب الفوكلاند عام ١٩٨٢ م، فى كلتا الحالتين كان العدو على بعد آلاف الأميال وللوصول اليه كان يجب إرسال جيش كامل الإعداد مزود القاعدة آمنة يمكنه الرجوع اليها. وكان لابد من ترتيبات جمه لخلق خطوط مواصلات، تسهيلات كثيرة اعتاد الجنود عليها لم تكن متوافرة وحلقات تنسيق بلا نهاية كانت ضرورية . لقد كانت نتائج حرب الفوكلاند مذهلة . ولكن بمساعدة الأسلحة الحديثة المتطورة ، ولكنها لم تكن أبداً كالظروف المهولة التى واجهها كتشنر عام ١٨٩٦م . هذه الوثيقة التى كتبت على عجل، وتم نشرها بعد خمسة عشر شهراً من النصر النهائى قد تم تمديدها لتشمل تداعيات ما بعد الحرب، لقد شملت جزءا تعرض لحادثة فشودة التى مازالت ذكرى مريرة لدى الفرنسيين ، يسترجعونها كلما كانوا فى حالة مزاجية ضد الشعب البريطانى . كان هدف كتشنر تخليص السودان الذى كان سابقاً يرزح تحت الحكم التركي،من قبضة واستيلاء الدراويش الذين قتلوا الجنرال "غردون".

كانت نتائج مجهوداته خلق كيان جديد إنجليزى/مصرى مركز، والذى يجب أن نعترف بـــه أن هذا الكيان الجديد يفترض فيه ان يكون منحازاً كثيراً لبريطانيا أكثر من مصر .

لهذا كان من غير المحتمل أن تظهر فى هذا التوقيت بعد أن يتحقق النصر فئة قليلة مـــن الضباط الفرنسيين فى منطقة " فشودة " لتعلن أن السودان هو غنيمة فرنسية . لقد اســـتطاع كتشنر أن يعالج الموقف بحكمة ، وانتهى الأمر بانسحاب الفرنسيين . لكن بعد أن تركـــت تلك الحادثة جرحاً غائراً فى صدور الفرنسيين نحو بريطانيا .

الروح الاستعمارية لدى تشرشل ، والتى كانت تشمل مشاعر أبناء ذلك الجيل من بـــنى وطنه فى عهد الإمبراطورية ، تظهر بوضوح فى هذا الكتاب ، ولكن يجب علينا أن نحكم بمـــا كان سائداً إبّان العهد الفيكتورى ، وليس بما هو شائع هذه الأيام .

فى عام ١٨٩٨م لا البريطانيون ولا الفرنســـيون ولا حـــتى البلجيكيـــين ، وكذلـــك الايطاليون والبرتغاليون كان يساورهم أدنى أسف أو تردد فى تقسيم إفريقيا فيمـــا بينـــهم كدول أوربية ، مع العلم بأن بريطانيا وفرنسا كان لديهما تقدير واعتبار لمصالح رعايـلهم إلا أن تشرشل كان مستاء من معاملة كتشنر غير الإنسانية وغـــير الرحيمـــة لضحايـــاه مـــن الدراويش الذين احترم تشرشل ثباتهم فى المعارك وشجاعتهم النادرة .

لقد كتب تشرشل هذا الكتاب عام ١٨٩٩م . فى الفترة التى عاد خلالها لفرقته بـــالهند كضابط صغير أراد أن يحقق طموحاته السياسية ، لأنه كان دائم التفكير فى نجاحات اللـــورد راندولف تشرشل في النشاط السياسى فى الفترة السابقة . و بالرغم من السرعة التى كتـــب بها هذا الكتاب فإنه لم يغفل التفاصيل ، وقد استغل أقوال شهود العيان أحسن استغلال.أمـــا تغطيته وتفاصيله المثيرة عن معركة أم درمان، فقد كان هو شخصياً الشـــاهد الأول لتلـــك الأحداث.

كان الجزء الخاص بسكة حديد الصحراء أكبر دليل على حرصه على التفاصيل الدقيقـــة الحقيقية، وكجندى محترف فإنه يكتب عن التكوينات والمعارك العسكرية بفهم عميق، أمـــا حديثه عن المتاريس ومنصات المدافع والمواقع ، وسلاح الفرسان المدجج بالسلاح فهو يصلح أن يكون وصفا لمثل حرب جزر البلقان بدلا من وصف أحداث للجزء الأخير من القـــرن التاسع عشر .

اعتمد المؤلف فى البحث الذى قام به على معلومات الآخرين ، وكان تسجيله جيـدا إذا علمنا أنه لم يلحق بكتشنر إلا من أسبوع قبل بدء المعركة النهائية الفاصلة . ألف الكتـاب فى وقت وجيز ، وكان لحقيقة أنه كتبه بخط يده أثره الواضح فى تحقيق تفوق وأضح عن بـاقى أعماله اللاحقة التى كان يمليها على الغير.خاصة تلك التى شارك فيها البعض.إن افتتاحيتـه ووصفه لوداى النيل يضاهي فى روعته القطعة التى خلد فيها جيش السوم فى "أزمات العـالم" التى تعتبر جوهرة مضيئة فى سماء الأدب الإنجليزى.

" السير جون كولفيل "

الفصل الأول

ثورة المهدى

إن الربع الشمالى الشرقي للقارة الإفريقية يجف ويروى بالنيل ، وبين مصادر منابع هـذ النيل العظيم وفروعة تقع المديريات ذات الأراضى الواسعة الخصبة التى تعـرف بالسـودان المصرى، موقعها فى أواسط البلاد تماماً ، يحدها من كل جانب حوالى ٥٠٠ ميل من البحـر تتوسطها الجبال ، و المستنقعات ، والصحراء . إن النهر العظيم هو المصدر الوحيد للنمـو وقناهم الوحيدة للتقدم . بالنيل وحده يمكن لتجارهم أن تصل الى الأسواق الخارجية ، وهـو الممر الوحيد للحضارة الأوروبية لاختراق المناطق النائية الداخلية المظلمـة . إن السـودان يرتبط بمصر عن طريق النيل كالغواص الذى يرتبط بالسطح بأنبوبة الأكسجين ، بدونها ليس هنالك سوى الاختناق ، لا حياة بدون النيل " لا نيل . لا حياة " .

مدينة الخرطوم التى تقع عند ملتقى النيلين الابيض والأزرق هى النقطة التى تلتقى فيـها التجارة من جنوب البلاد . وهى ملتقى كل التجارة قبل عبورها الى شواطئ البحر الأبيـض المتوسط ، وهى تمثل أقصى نقطة شمالية خصبة . إذ يجرى النيل ما بين الخرطـوم وأسـوان بحوالى ألفا ومائتى ميل عبر صحارى قاحلة ، الى أن تظهر الحياة على شاطئيه مـرة أخـرى بمصر والدلتا .

تعنى الصفحات التالية بالأحداث التى جرت بين هاتين النقطتين . إن السودان الحقيقـى المعروف لدى رجل الدولة أو المستكشف يقع فى أقصى نقطة جنوبا وهـو رطـب ملـئ بالأحراش ، لكن هناك سودان أخر وهو الذى يعتبره البعض السودان الحقيقى الذى يغطـى حدوده نهر النيل من الحدود المصرية شمالا حتى أم درمان جنوبا ، هذا هو " سودان الجندى " بلا ثروة، ولكنه غنى بالتاريخ .

إن أسماء قراه المتناثرة على امتداد البلاد معروفة ومعلومة لرجال وأناس كثيرين مـهتمين بأصول الحضارات فى بلاد بعيدة، وإن المساحات الخالية قد تم رسمها بأقلام جيده وقديرة .

لقد ذاقت صحاريها الواسعة دماء الرجال الشجعان . أما حجارتها الصلبـة السـوداء الحادة فتقف شاهدا على مآس مشهورة . إنه " مسرح الحرب " .

إن هذا الجزء الذى يمكننا تسميته "السودان الحربي" يمتد بغير تحديد على وجه القـــارة. أراض مسطحة ذات رمال ناعمة لونها يميل الى الأحمر فضى أخف قليلا من لون السلمون لا يعرضها إلا بعض الربوات الحجرية البارزة . لونها يميل الى السواد ، ودون أشكال مستقيمة. بينما ترقص بدون عناء. العواصف غير الممطرة على قشرة الأرض الحارة ، وتتحرك الرمـال الناعمة بفعل الريح.حيث تستقر على جانبى وداخل الأحجار السوداء على التلال ، تمامـــاً كما تلتصق حبات الثلج على جبال الألب ، ولكن هذه تماماً كأنها تسقط مـــن الجحيـم . تحترق الأرض بعطش العصور الذى لا يرتوى وفى كبد السماء الزرقاء لا أثر لأى ســـحابة عابرة يمكن أن تحجب انتصار الشمس .

يجرى النهر فى قلب الصحراء كخيط من الحرير الأزرق يسبح على مجرى بنى هـــائل ، وحتى هذا الخيط ينقلب لونه الى بنى غامق كل نصف عام . عندما تصل المياه الى جانبى النهر بعيداً عن الرمال ، تنمو بعض النباتات الخضراء التى تبدو منظراً رائعا بالمقارنة مع الصحـــراء الممتدة بلا جدود. إن للنيل قيمة كبيرة فى كل المسار الذى يتخذه على مدى ثلاثـــة آلاف ميل لكل هؤلاء الذين يعيشون بجانبه . أما هنا فإن قيمته عالية جداً .

إن المسافر يعانق النهر كعناقه لصديق قديم فى وقت الشدة :-

(كتراب الحقل كحفنه ماء * كعناق صديقين عزيزين)

إن كل العالم يلتهب ، ولكن هنا ظل ، الصحراء حر ، ولكن النيل رطـــب إن الأرض جرداء ولكن المياه متوافرة ، الأرض المحروقة بلون السينا يخفف حدة لونها الخضرة المنتشـــرة على شاطئيه .

إن الذى لم يشاهد الصحراء أو يشعر بحرارة شمسها على كتفيه لا يمكنـــه أن يعجـــب لخصوبة هذه الشجيرات القليلة .. أو الجريد والأعشاب التى تنمو بنظام وغير نظـــام علـــى حافة الماء ، بينما تجف التربة السوداء وتتشقق ، وتتحول الى كرات صغيرة بفعل الجفـــاف الذي يخلف الفيضان السنوى. إن المكون الخضرى يتكون من بيئة غير مرحبة أو مضيافـــه، شجيرات كلها أشواك تبرز كالقنفذ ، فى تحد واضح تمنع المرور ، أما النخيل فـــهو النبـــات الوحيد الحنون، ويتوق المسافر الى أعلى النخيل حيث ينضج البلح الرطب الذى يمنحـــه زادا طيبا، حتى يعرف الإنسان أن الطبيعة ليست هى بالضرورة دائما شريرة وقاسية.

إن شواطئ النيل لولا المقارنة مع الصحراء ، تعطى إحساسا كبيراً بالخواء والجمود. ولعل سر الإعجاب يكمن فى إحساس الحزن. إلا أن هناك ساعة يتغير فيها كل شئ عندما تنحدر الشمس الى المغيب،وترسل شعاعها المحمر الضئيل على تلك التلال الغربية،تهب نسمات تضئ المكان وتمنحه حيوية،كأن هنالك فنانا جباراً قد رسم الكون بظلال أرجوانية تضئ وتجمل كل شئ .

يتحول النهر الذى يبدو كبحيرة من اللون البنى الى لون رمادى أو فضى ، والسماء من اللون الأزرق الممل الى لون بنفسجى فى الغرب ، وكل شئ بلمسه سحرية يضج بالحياة وتختفى الشمس تدريجياً خلف الصخور. تبدأ الألوان فى الخفوت فى السماء ، تلال الرمال وأشعتها الذهبية تختفى ، وفجأة يتغير كل شئ الى اللون الرمادى الأسود كخدود جندى ينزف حتى الموت ، ونشعر بالحزن والأسى لهذا الظلام حتى تظهر النجوم تسبح فى الفضاء ، لتذكرنا بأن هنالك دائما شيئا ما فى اللانهاية. فى سكون الليل الهادئ وعندما تكون السماء صافيه ترفع ناظريك الى الأعالى فترى النجوم تتلألأ فتحسبها" كأنها اليواقيت قد رصعتها يد القدرة ".

فى أرض يكون الجمال فيها هو جمال اللحظة ، ووجهها قاس شديد الوحدة .. وشخصيتها حزينة فإن لعنة الحرب بالكاد يمكن أن تكون هى وحدها سبباً للكارثة . كيف يمكن أن تنمو النباتات فى مثل هذا الجو الحارق فى صحارى وحجارة تتضرع للسماء طلباً لنقطة ماء، وهل هى خدعة تضاف لخداع السراب ؟ .

إن المساحة الواسعة تضاعف الشعور بالوحدة والانعزال. فإن الحياه توجد فقط حول النيل، إذا ترك الرجل النيل واتجه غربا فسوف لا يجد أثرا لأحد اللهم إلا إذا وجد مخيما لأعراب الكبابيش أو قافلة لبعض التجار حتى يصل الى مشارف شواطئ أمريكا أو يتجه شرقا فلا يجد شيئا غير الرمال والبحر والشمس حتى تظهر بومباى فوق الأفق . إن خيط الماء العذب فى وحدته يعيش وحيداً فى بعض المناطق حيث تفتقد كل الأشياء الحية للصحبة .

فى سرد قصة حرب النهر فإن النيل له اليد الطولى والقدر المعلى ، بالطبع إنه اللحن الذى يظل يتردد فى كل أجزاء الأوبرا ، القائد الذى يخطط للحرب ، رجل الدولة الذى يهم باتخاذ قرارات خطيرة ، والقارئ الذى يريد أن يعرف مصير الجميع يجب عليه التفكير فى النيل باعتبار أنه حياة البلاد التى يجرى خلالها، إنه سبب الحرب، ومن خلاله نحارب وهو النهاية التى

نرغبها. إن الخيال يجب أن يرسم النيل على كل صفحة فى القصة ، إنه يتردد بين أشجار النخيل. أثناء المعركة، إنه الجواب لكل تحرك حربى ، على ضفافه يعسكر الجند بالليل، وعلى جانبيه، أو على شاطئيه يبدأون أو يقبلون المعركة ، بالنهار يقبل الجميع على شاطئيه عند الصباح ، وفى المساء صفوف طويلة من الجمال والأبقار المعدة للذبح تجرى جميعها فى اتجاهه ، الكل يركع لهذا الذي كان الإلها لمصر القديمة ، الكل يملأ كل يوم ما يحتاجه من ماء فى قربته الجلدية أو فى الزمزميه.

بدون النيل ما كان لشئ أن يبدأ ، بدونه ما كان لأحد أن يستمر ، بدونه ما كان لأحد أن يرجع .

إن كل من يسافر على النيل سواء للحرب أو التجارة سوف يمنح احترامه وتقديره للنيل . لأن النهر العظيم كان صديقا للجميع مع كل العصور ، وكان مصدراً للخير لكل الأجيال عن طريق المعجزة السنوية " الفيضان " .

عندما تصب الأمطار على جبال وهضبات إفريقيا الوسطى ، وتذوب الثلوج فى أعالى الجبال هناك يموج رأس النهر بهدير المياه ، ويتمدد شمال البحيرات بالمياه فى كل الفروع التى تصب فيها . تبدأ المستنقعات فى تخزين مياه الفيضان كانها بحيرة من الأسفنج، تغطى أى نقص فى كمية المياه حتى قدوم الفيضان القادم . فى مصر الأمير والخفير ، والفلاح ورجال الدين يتوجهون نحو الجنوب لترقب الزيادة حتى يبدأ الفيضان . تدريجياً يتحول بحر الغزال من قناة مياه راكدة .. الى نهر يمكن الإبحار فيه ، السوباط وعطبرة يتحولان الى أنهار صغيرة. ولكن كل هذا بعيدا عن مصر. عندما يلتقى نهر عطبره مع النيل من هناك يجرى حوالى سبعمائة ميل خلال الرمال ، أو يهدر عند الشلالات بين الأحجار النوبية . بالرغم من جفاف المنطقة الصحرواية وحرارة الجو بمجرد أن يصل أسوان تكون هناك كميات كبيرة من المياه تكفى لإمداد تسعة ملايين نسمة بما يحتاجون ، وكل ما تطلبه مشاريعهم من طاقة وخلافه ، ومع ذلك يتبقى جزء يصب عند البحر الأبيض المتوسط بما يعادل ٦١,٥٠٠ متر مكعب فى الثانية . الماء ليس هو الهبة الوحيدة . إذ يحمل النيل الطمى الغنى بالمواد الفعالة والضرورى لإنشاء مزارع تجعل من الصحراء حديقة غناء . عالم الجغرافيا يمكن أن يعطينا وصفا لايكاد يخلو من عناد الطبيعة : إنه نهر عظيم يجرى بعد أن يتغذى من الأمطار

الاستوائية. تتحكم فيه بحيرات كبيرة عند منبعه ثم يأتى الفيضان ، تتصرف مياهه عن طريق فروعه الكثيرة . إن كل من ذاق طعم مائه المميت، مميت لأنه يمكنه أن يعطى الحياة، كما يمكن أن يكون سببا للموت ، سوف يقدر دور النيل فى حياة المصريين ، وسر سحره العجيب فى النفوس .

جنوب الخرطوم " السودان الجربى " نجد أن الأرض مثمرة . الفروع التى تصب فى النيل تكون فى ازدياد ،وتلك التى تخرج منه تاتى بكل الخصوبة ، ومع ازدياد كمية الامطار كلما اتجهنا نحو خط الاستواء تكثر النباتات ومظاهر يمكن أن تهئ الحياة للإنسان. إن أغلب أجزاء القطر شديدة الحرارة ومليئة بالأمراض التي سوف لا تساعد أى أوربى على المعيشة فيها بالرغم من ذلك فليس معنى هذا أن كل أجزاء القطر لا فائدة منها . فإن الشرق مثلا مديرية سنار ، تنتج الحبوب بكثرة ، ويمكنها أن تنتج القطن بكثرة أيضا . فى غرب البلاد حيث عرب البقارة والمراعى الشاسعة التى ترعى فيه مئات الأبقار ، وكذلك مجموعات من الزراف والنعام ، فى الجنوب ببحر الغزال مساحات شاسعة من القطر مملوءة بالأحراش والغابات . فى أقاصى الجنوب عند خط الاستواء تكثر الغابات والأحراش والمستنقعآت التى تكون مرتعا للأفيال غير المبالية بالصيادين ، ويكون عددها اكثر من أربعمائة . يمثل سن الفيل ثروة حقيقية .كانت كميات العاج كبيرة للدرجة التى جعلت أمين باشا يصرخ بالشكوى . وبالرغم من اعتماد الباش دريم والقبائل على صيد الأفيال بالحراب والبنادق المحلية فإن الكميات التى يتم تصديرها كل عام تفوق المائة وعشرين ألف كيلو . كل أنواع الحيوانات المفترسة الكبيرة تعيش فى هذه المناطق . تجد وحيد القرن وسيد قشطة (فرس النهر) التماسيح والجاموس البرى القوى كلها فى ازدياد مستمر ، مئات الغزلان والوعول والثعلبين خطيرة السمية ، وملايين من الطيور والفراشات والخنافس كلها نتاج الطبيعة تملأ أركان المكان. إن المخاطر الذى ينجو فى مغامرته بالدخول فى هذه الأجواء لقادر على عمل توثيق نافع لمراكز مثل متاحف التاريخ الطبيعى ، وينفع نفسه وشهرته فى ذات الوقت.

إن سكان السودان لولا فضائلهم وسوء طالعهم لا يمكن أن يكونوا أقل عدداً ممن حولهم من مخلوقات أو أقل سعادة . ولكن الحرب وتجارة الرقيق قد جنت عليهم . حتى أن تعداد سكان البلاد قد لا يزيد على ثلاثة ملايين نسمة على أكثر تقدير .

إن تنوع المناخ قد خلق أنماطا مختلفة من البشر . السودانيون قبائل كثيرة ، ولكن العناصر الرئيسية يمكن تحديدها بوضوح . سكان البلاد البدائيين (الأبورجين) والنازحين العرب . إن سكان البلاد الأصليين ينتمون للعنصر الزنجى الأسود كسواد الفحم ، أقوياء، عقولهم بسيطة ، شرسون ، يعيشون عيشة إنسان ما قبل التاريخ على الصيد والقتال. يتزوجون ويموتون ، وأقصى طموح لديهم هو إشباع رغباتهم الجسدية . كانوا يعيشون فى أجواء تملؤها الأشباح والإيمان بقوة السحر وعبادات السلف ، وأنماط أخرى مثل تلك التى تجدها مزدهرة فى الأوساط الدنيا . كانوا يحملون فضائل البربرية ، شجعان ، وأمناء . كان جهلهم هو مصدر براءتهم، إن بلاغتهم يجب أن تكون محدودة بحكم المناطق المختلفة التى يأتون منها إلا أن تاريخهم جميعاً هو خليط من الكفاح والشقاء ، وأسطورة من البؤس ، كان طبيعيا أن تترك كل ذلك بصماته على سحناتهم .

بالرغم من أن الزنوج هم الأكثر عددا فإن العرب كانوا هم الأكثر قوة . إن شجاعة القبائل البدائية لم تكن لترقى لقوة شخصية وذكاء الغزاة فى القرن الثانى للعهد الإسلامي عندما اجتاح سكان البلاد العربية العالم اتجه فريق مغامر منهم الى الجنوب . تبع المهاجرون الأوائل أعراب ليسوا من الجزيرة العربية فقط ، ولكن جاء بعضهم من قلب الصحراء من مصر والمغرب . ابتدأ هذا العنصر الجديد يتغلغل كسريان الماء على سطح الإسفنج .

وقد امتص الاهالى البدائيون هؤلاء الغزاه الذين لم يستطيعوا طردهم ، وقد سيطر العنصر القوى على العنصر الضعيف ، وتغلبت لغتهم وعاداتهم وفرضت على السكان الاصليين . وهكذا غيرت دماؤهم الحارة ملامح الشخص السودانى . ظلت الدعوة الاسلامية لأكثر من ألف عام تنال القبول الكبير لدى تلك القبائل التى فتنت بها ، وتحولت بعض القبائل الى الديانة الإسلامية والخلق والشخصية العربية، بالرغم من صعوبة نجاح الدعوة فى أوساط الجهلاء والمشاكل الطبيعية التى يواجهونها . أما فى شمال السودان،فكانت المهمة سهلة حيث استقر الغزاة واكتمل الاندماج بين القادمين الجدد وسكان البلاد فأصبح العربى فى السودان هو شخصية تتكون من عنصرين ، الزنجى والعربى رغم اختلافه مع العنصرين . ظلت القبائل فى جنوب وغرب البلاد بعيدة عن التأثر الكامل بالنفوذ العربى، وكان الاختلاف واضحا بين هاتين القوتين فى بعض الأجزاء . مع هذا الخليط العجيب نجد

بعض القبائل تتحدث العربية وتؤمن بالإسلام حتى قبل ظهور المهدى ، وفى أخـــرى فـــإن العربية اختلطت مع اللغات المحلية ، وتخلت القبائل عن الشـــعوذه ، ودخلـــت فى الديـــن الإسلامى. لكن بالرغم من كل الجهود لتوحيد العنصرين نجد دائما أن الاختلاف بينـــــهما واضحا جدا للعيان.

إن شخصية المولدين (نتاج عنصرين) لا تدعو كلها للإعجاب فى كل الأحيان ، ذلك أنه قد جاء عنصر أكثر ذكاء من البدائيين ، استطاع بمرور الوقت أن يكون هو المسيطر، إن قبائل العرب كانوا رُعاه أبقار وأغنام ، وبعضهم يربى الجمال. استمرت قوافل العبيد مئـــات السنين تتيجه الى سوق العبيد فى جدة. لقد سارع اكتشاف البارود فى أن يشـــدد العـــرب قبضتهم على الزنوج الجهلاء ، وهكذا فإن الحالة فى السودان يمكن تلخيصها فى الآتى :

جاء العرب واختلطوا بسكان السودان ، و أعطوهم الدماء واللغات والعادات العربية !.

يمكننا أن نتخيل الحالة التى سار فيها المجتمع مع ظروف مثل تلـــك . بـــدأ العـــرب فى النضال للسيطرة ، وحارب بعضهم البعض ، وكان بعض الزنوج يرتجفون خوفا من الأسر . بينما حاول البعض الآخر التمرد على أسيادهم . تكونت ممالك صغيرة تحت سيطرة بعـــض الشيوخ عندما تتجمع أكثر من قبيله تحت إمرته تمده بالسلاح والرجال . فيـــها المحـــاربون والتجار والرقيق . وتنعم المملكة الصغيرة بالحياة حتى تغير عليها مملكة أخرى أقـــوى منـــها وتحل محلها .

كل هذا الذى كان يجرى فى السودان لم يهتم به أحد فى العالم الخارجى . السودان بلـــد تفصلة الصحارى ، وبدا كأن التطورات البطيئة سوف تمضى بدون مســـاعدة وبـــدون أى تدخل لكن أخيرا تغير سكان أوروبا ، وجاءت حضارة أخرى علـــى أنقـــاض الحضـــارة الرومانية والدعوة الإسلامية، حضارة أقوى وعظيمة ولكنها ليست متحفزة . فإن المد الـــذى أسرع بالفرنسيين والإنجليز الى كندا وجزر الهند الغربية والهولنديين الى رأس الرجاء الصالح ، والأسبان لبيرو قد امتد لإفريقيا ، وجاء بالمصريين الى السودان .

وفى عام ١٨١٩م وجد محمد على عذراً، وفرصة فى قيام بعض الاضطرابات وأرسل ابنه إسماعيل على رأس جيش كبير الى أعالى النيل . كانت القبائل العربية منهكة وبعيـــدة عـــن عقيدة الإسلام ، وكذلك حال الرقيق يرثى لها فلم يبدوا أى مقاومة للجيش الغـــازى ، وتم

احتلال مساحات كبيرة بدون قتال ، وبعد أن ترك إسماعيل حاميات بالسودان رجع بجيشه المنتصر الى الدلتا .

أى فائدة يمكن أن تحتسب على شعب متحضر عندما يستولى على أراضى شعب متخلف غير الاستيلاء على أراضى خصبة وسكان كثيرين ، يمكن أن تكون أكثر نبلا من إحلال السلام بين القبائل المتحاربة ، وقيام العدل بدل العنف السائد ، أو فك أغلال الرقيق، وبذر البذرة الأولى للتجارة والمعرفة حتى تتحرر طاقات البشر لتنتهى الآلام وينعم الجميع بالخير والمتعة ؟؟. ليس هنالك أجمل أو أعلى متعة للعقل والمجهود البشرى عن هذا التصرف الملئ بالفضائل ، مساعيه حميدة ونتائجه مربحة . إلا أن الأيام جاءت بعكس كل ذلك تماما تعطلت الطاقات البشرية القوية ، وجاء الاستعمار . وكيف للناس أن تهنأ به وبطونهم خاوية؟؟.

القبائل البدائية الجاهلة التى اعتادت على حريتها وعدم المبالاة لم تحتمل الوافد الجديد حتى إن حسنت نواياه فقاومته ودحر من دحر ، ومات الآلاف ، ولم يفلح كفاح الناس البسطاء لنيل حقوقهم المشروعة ، وصاروا لقمة سائغة للتاجر الجشع ، والمبشر الانتهازى والجندى الطموح. الخمول والاستكانة زادت من محنه المقهورين ، وفتحت شهية القاهرين للمزيد. عندما يفكر المرء فى هذه الظواهر المأساوية يدرك تماما أن طريق هؤلاء البشر لاخلاص منه ولا أمل فى أى عدل طالما بقى أسلوب الغزاة على حاله .

أصبح العنف لا يطاق خاصة إذ كان عنف الحاكم يغلفه القانون وتحميه السلطة .

كانت الأرض فقيرة وغير متطورة ، بالكاد تكفى لإعاشة السكان فجاء الغزو بجنوده واحتياجاته وزاد المعاناة ،وساءت الحالة الاقتصادية ، وشحت الأشياء الضرورية، انتشرت المجاعات على فترات بينما كان يتم تغيير الحكام والجنرالات المرتشين عن الخرطوم واحدا بعد الآخر، مما أدي لعدم جدوى أى سياسة ثابتة للحكم. وكان نجاح الإدارة بالسودان يقاس بكمية النقود التى يتم جمعها من السكان وتصديرها لمصر ، أو عدد المكاتب عديمة النفع التى يتم إنشاؤها . كان هناك رجال أمناء ومثال للخلق ولكن هذا أدي الى أن يظهر الضد بوضوح ،مما زاد من عدم الرضا .

لقد كان الحكم ضعيفا ، ولكنه آمن ،أحد مظاهر سلطة الاستعمار . كان الحاكم يعيش فى دار على مقرن النيليين ،بينما انتشر سكن ممثلي الدول الأجنبية فى المدينة . ظلت التجارة القادمة من جنوب البلاد تعبر عن طريق الخرطوم ، وجاء حكام الاقاليم من محافظاتهم يقدمون تقاريرهم وتسلم أى أوامر جديدة . بدأت الثروات تتدفق نحو الشمال . سن ا ى ، من الاستوائية ، ريش النعام من كردفان ،الصمغ العربى من دار فور ، والحبوب من سـ نا ـ بالإضافة للنقود التى يتم جمعها كضرائب على اهالى البلاد . وحيوانات غريبة يتم صيدها من المستنقعات والغابات كانت تجد طريقها الى القاهرة وأوربا . كانت الإيرادات والمصروفات تسجل ، وتقدم فى شكل تقارير منتظمة سنويا ، ويتم حفظ مكاتبات بين مصر ومحميتها العظيمة . حتى يعجب المرء من مقدرة مثل هذه الحكومة وهؤلاء الناس الشرقيين ، ومقدرتهم غير المحدودة . مما جعل من السهل تصديق ما كان يهمس به نوبار باشا للخديوى إسماعيل "نحن لم نعد فى إفريقيا ولكننا فى أوروبا ".

كانت الضرائب الجزافية تجبى من الناس على حد سنجة البندقية ، إذا تاخر شيخ فى جمع الضرائب سلط عليه جيرانه ليهبوا ضده، إذا عصى شيخ قبيلة أرسلت له حملة مسلحة . على كل حال كان العرب أكثر استعدادا للدفع طالما تجارة الرقيق رائجة والأرباح وفيرة فإن الدولة سوف تستفيد . كانت الحكومة المصرية قد انضمت الى التجمع العالمى ضد تجارة الرقيق.

وفى تلك الظروف المحزنة من ملاحقات الحروب وحملات جمع الضرائب ، كانت مكاسب الحكام أكثر من الاختلاسات والفساد ، من استعمال القوة. وكانوا يجدون سعادة بالغة فى أمر مرءوسيهم بالتشفى فى ضحاياهم . كان الأمر – أمر الحكم والسلطة متروكان تماما فى أيدى نواب الحكام حسب وظائفهم ورتبهم ، ومواقعهم ، وكانوا بعيدين عن أعين المدنية مما أتاح لهم رخصة كاملة للتصرف ، وكلما قل تعليمهم زادت تجاوزاتهم. وكانوا يجلسون فوق بركان صامت ، اطاعت القبائل العربية وجبنت الفصائل السوداء .

كانت القوة التى تساند الحكومة غير العادلة عبارة عن جيش ، حوالى أربعين ألف رجل موزعين على اكثر من ثمانى حاميات منتشرة بالبلاد ، وتفصلها مساحات شاسعة بلا طرق سوية وتتخللها عقبات طبيعية مهولة، فهم محاطون بسكان شرسين، عقائديين وذوى

طبائع قتالية. يزداد سخطهم كلما زاد بؤسهم . لم يحم الحكام إلا براعة ضباطهم وتفوقهم في النظام والسلاح، كانت السمعة الشريرة للسودان تمنع أى ضابط متعلم من الإقدام للخدمة فى تلك المناطق النائية ، وكل من استطاع تجنب ذلك فعل . كان جيش الخديوى فى الدلتا -- حسب نظرة الأوربيين له -- جيشا ضعيفا ، غير مدرب ، قليل الأجور،وقد كان أضعف أفراد هذا الجيش هم خيرة الجيش الذى أرسل للسودان .

وهكذا فإن الغالبية كانوا قد أرسلو الى هناك . إما مغضوباً عليهم ، أو للحاجة نتيجة لفقرهم ، بعضهم أمضى سنوات طويلة فى مناطق قاحلة غريبة عليه ، وبعضهم قضى عمره كله، سعيا وراء المغامرة والبعض الآخر لمآرب أخرى.

فى مثل تلك الظروف حتى الجندى الجيد سوف يفقد حماسة وتدريبه. كانوا قد تم دفعهم للجنوب، كانوا ضعفاء التدريب، ولم تكن تلك هى مصيبتهم الوحيدة . ففى حين كان هذا الجيش النظامى فى تدهور وفى حالة معنوية سيئة، كان هناك فى الجهة الأخرى قوات البازنجر غير النظامية حاملو (حاملى البنادق السودانيين) تسلحيهم جيد، أكثر عددا وأكثر شجاعة. الذين كانوا ينظرون لأعدائهم بخوف ولكن ظل الخوف يقل مع مرور الأيام وظل الكره يزداد تدريجيا ، وخلف كل هذا جيش نظامى وغيره من أعراب الصحراء وسكان الغابات السود الذين ظلوا يشعرون بأن الأجنبى هو سبب كل الشقاء والعذاب وأن القدرة فقط هى التى تمنع مسحهم من على وجه الأرض .

كان احتلال مصر للسودان كبيت من ورق ولم تكن الغرابة فى استمراريتة كل تلك المدة، ولكن كيف بقى كل هذه المدة دون أن ينهار .

هناك اسمان سوف يرتبطان ارتباطا وثيقا بالانفجار الذى حد ث . أحدهما جنرال إنجليزى والآخر رجل دين عربى . بالرغم من الاختلاف الكبير بين حالتيهما ، فانهما متشابهان فى كثير من الأمور ، كل من الرجلين ذو حماس وحمية ومشاعر أكيدة وعواطف جياشة . كل منهما ذو عقيدة دينية قوية ، وذو أثر كبير فى كل من حوله. كما أن كليهما مصلح كبير، كان العربى نسخة من الإنجليزى، وكان الإنجليزى نسخه متقدمة ومتحضرة من العربى ، وفى النهاية تقاتلا حتى الموت ، ولكن سوف يظل نفوذهما على سيرة الحياة فى السودان يتجه نفس الاتجاه. سوف نناقش محمد أحمد " المهدى " فى الجزء الخاص به . أما

غردون فقد سبقت شهرته وعمت كل أرجاء أوروبا عندما ذاعت أخبار " الجيش المنتصر دائما " لأبعد من حدود حائط الصين العظيم .

أن سوء إدارة الحكومة، وبؤس السودانيين قد بلغ مرحلة حاسمة فى العقد السابع للقرن الماضى . الشيء الذى لم يترك بديلاً للحرب، فالعرب قد بلغ فيهم السيل الزبى ، و لم يحتاجوا أكثر من باعثين:- الأول أن هناك حياة أفضل يمكن أن تنال ، والثانى إيمان قوى بقضية التحرر ، فجاء غردون وأعطاهم الأول ، وجاء المهدى وأعطاهم الثاني .

ومن المستحيل دراسة أي جانب من مسيرة شارلى غوردون المهنية دون التعرض بقيمتها جميعاً . ويتابعة القارئ صبوراً وخطه الجامح والمتنوع يقودة من سباسبتول إلى بكين من جرافيند الى جنوب إفريقيا، من موريشيوس للسودان. فكل مشهد عجيب ورهيب ومثير. ومع ذلك ، فمثلما أن المشاهد متميزة ، فان البطل استثنائي بدرجة أكبر، هو نوع لا مثيل له فى الأمنة الحديثة وقليلون من يشبهون فى التاريخ . أن الانسان الذي لا يبالى نادر وقيم حقاً. وقد تناقش عواهل بلدان كثيرة للحصول على خدماته – امبراطور الصين ، ملك البلجيك ، رئيس وزراء مستعمرة الكاب ، خديوي مصر. و لم يقل تيلين أهمية مناصبة عن أهمية طبيعتها. ففى يوم كان ملازماً أول فى سلاح المهندسين ونشر الالغام ، وفى يوم آخر قاد الجيش الصيني ، وفى يوم تال أدار ملجأ للأتيام، أو كان حاكما عاما للسودان. بسلطات سامية على الموت والحياه والسلم والحرب أو عمل كسكرتير خاص للورد ريبون. فى كل تلك المواقع كان جديرا بالسمعة التى اكتسبها. وكان غريب الأطوار ، عندما انتقد بشدة خطط " جراهام " التاكتيكية للهجوم على "ريدان " أو عندما جاء ملوحا برأس "لاروانسق" فى عنف وغضب أمام أغين ودهشة سير هالىدى ماكارتينى ، أو ذهابه منفردا لمعسكر خصمه سليمان حتى كسب احترامهم بعد أن كانوا يتربصون لقتله . أو عندما طالب الخديوى أن يحكم السودان كله ، ثم يطالب بتخفيض راتبه لأنه كبير ، ويحكم بلداً بحجم أوروبا ، لقد لخص لورد ريبون شخصيتة فى نثره الجيد : إننا أمام رجل لا يأبه بغضب الرجال أو ابتسامة النساء ، ولا بالحياة المرفهة أو الثروة ، و لا الشهر ة .

لعل من المحزن أن شخصية كهذه لم تتأثر بمظاهر المجتمع الإنسانى العادى لا تجد فى تفكيرها الاتزان اللازم . فكان متقلب المزاج حادا جدا فى ردود أفعاله ، عدو الصباح يصبح

أعز الأصدقاء عند المساء ، مندفع لأحكام بلا تردد. لا أحد يدرى ما يدور فى خلده، عصبى فى أغلب الأحيان ، وزاد من عصبيته إدمانه الشديد للتدخين فنادرا ما يشاهد إلا والسيجارة فى يده . كانت فضائله واضحة للجميع ، حماسه واندفاعه يرجح أى كفة ، إقدامه مثال يحتذى ، انجازاته تملأ السجلات ، ولكن كانت تنقصه الخبرة الإدارية والحنكة الدبلوماسية .

ظلت حكومة الخديوى تعلن بعدها عن تجارة الرقيق ، ولكى تثبت ذلك للعالم الخارجى اختارت غردون كحاكم للمديرية الاستوائية ،فقد كان اسمه ضمانا كافيا لكل المتشككين .

حدثان زادا من تأييد الخديوى لمبعوثه الجديد . الأول أن رائحة الجرائم القاسية التى يرتكبها تجار الرقيق قد فاحت ، والثانية أن المجموعة بقيادة الزبير رحمة رفضت أن تواصل دفع الراتب المقرر لحكومة الخديوى ، فحفروا بذلك قبورهم بأيديهم .

كان " الزبير " يوصف بأنه أخطر وأشرس تاجر رقيق عرفته إفريقيا ، طبقت شهرته الأفاق ، ووصلت تجارته الى بلاد الشمال والغرب البعيدة . تماما كما كانت سمعة "وليام هوايتلى" فى تجارة الأساسيات والأدوات ، كانت سمعه الزبير فى تجارة الرقيق . ظل يعمل منذ عام ١٨٦٩ كحاكم مستقل لمديرية بحر الغزال أراد الخديوى أن يحد من نفوذه فأرسل كتيبة برئاسة "بلال بك " ولكن الحملة كغيرها وصلت ، ورأت ، ثم ولت هاربة تجرجر وراءها عار الهزيمة . وكان التمرد مفتوحا . وعلى كل حال فإن الخديوى هو الذى سعى للصلح وكسب تاييد " الزبير" القوى خاصة بعد اعتذاره لما لحق بالحملة التى أرسلها الخديوى .

كان " الزبير " يخطط لغزو مملكة دارفور التى كانت مملكة مستقلة فى ذلك الوقت ورأت حكومة الخديوى أن تشترك معه فى هذه العملية وقد نجحت الحملة وقتل ملك دارفور، وتسلم الزبير كل المنطقة وأصبح كل السكان بعد انتهاء المعركة تحت تصرف " الزبير" هنا اعترف الخديوى للزبير بمكانتة وكرمه بمنحه لقب"الباشا" كانت هذه هى الأحوال فى السودان عند وصول " غردون " .

لم يكن فى وسع " غردون " عندما كان حاكما للاستوائية أن يوقف تجارة الرقيق ومؤسساتها. بالرغم من الضربات المرجعة التى وجهها إليهم. ولكن عندما عاد فى عام

١٨٧٧ الى إنجلترا ، ثم حضر للسودان مرة أخرى، وكان هذه المرة حاكما عامـــا لعمـــوم السودان، كانت الظروف مساعدة له إلى حد بعيد . الزبير الرجل القوى قد تم إحضـــاره لمصر و بمجرد أن وصل ووضع تحت حراسة مشددة ، ومنع من العودة الى مرابـــع الصيـــد المفضلة لديه .

بالرغم من خسارة مجموعة تجار الرقيق لقائدهم القـــوى كـــانوا لا يزالـــون أقويـــاء "سليمان"ابن"الزبير" الذى هاج لا حتجاز والده بمصر ، بدا التمرد ، إلا أن القائد المحنـــك فاجأ سليمان فى وسط معسكره وبمفرده وسط ذهول أتباعه ، فقبل سليمان شروط التسـليم واهتزت قوة المؤسسة . بعد قليل نقض سليمان شروط الاتفاقية ، وجاءت قوة تحت قيـــادة "جسى" أعدمت سليمان وعشرة من أتباعه ، وهكذا تم تدمير تجار الرقيق .

ترك غردون" السودان فى نهاية عام ١٨٧٩ م ، كان قد أمضى ٥ سنوات في المديريـات مع لحظات غياب قصيرة ، استطاع خلالها اقتلاع جذور تجارة الرقيـــق ، و حطـــم البنيـــة الأساسية للتجارة التى كانت من أكثر الأنشطة رواجا . ساعده فى ذلك كرهه الشديد لتلك الممارسات. وفى جو غير رحيم للأوربيين ، واستطاع أن يستغنى عن خمسة ضباط ، حتى أنه أقدم فى خطوة تحسب ضده على شراء بعض الرقيق وضمنهم لجنوده بعد تدريبهم على القتال لمقاتلة قوافل الرقيق .

كان لديه قطيع من الهجين السريع ظل يستعمله فى أسفاره الكثيرة قاطعـــا مســـافات شاسعة تفوق ٣٨٤٠ميلا متفقدا المحتاجين وناصراً للمظلومين ، حتى نال احترام الجميـــع . حتى القبائل البدائية كان يزور مناطقها بمفردة بينما لا تجرؤ أورطة كاملة على دخولها ، وقد ساعد بكل ذلك على جعل هؤلاء البسطاء يعرفون أن لهم حقوقا فى الحياة غير حياة البـؤس والشقاء ، وكلما تناقصت هذه زادت معرفتهم . كان كل الشعب يعيش حالة الاضطراب ، وبدأت عجلة التطور البطيئة تدور و لم تقف حتى شهدت الثورة الهائلة .

وكان الدور الذى لعبته القوة الثانية أكثر غرابة. إن الدارس لتطور الإنسان ليجـد أن فى كل الأزمان وبين كل الأجناس من يعتقد أن كل مشاريعه هى فى واقع الأمر بدافع أن المحرك الرئيسى لها هو المثل العليا وتحقيق العدل ، وترى كل جهة الشموخ والقوة فى أى مشـــروع تقدم عليه حتى إذ لم تجمع كل الآراء على نبل الأهداف، إنها تحية غـــير اختياريـــة، تحيـــه

متواضعة للأشياء غير الكاملة ، تحية للمعابد الخالدة للحقيقة والجمال . إن معاناة بعض الناس يمكن أن تكون غير محتمله ،ولكنها ليست بالقدر الذى يجعل الناس تحمل السلاح مخـــاطرة بحياتها. اللهم إلا إذا كانت هنالك أسباب قوية وغير شخصية تفرض عليهم هذا الأمـــر. وفى المجتمعات المستنيرة يوجد مثل هذا الحافز فى الفخر بالتقاليد المجيدة أو بالتعاطف الحســـيس بشقاء الآخرين ، عند القبائل البدائية ينتفى هذا الحافز، ويبقى فى نفس الوقت هو أى هـــذا الجهل هو القوة الحقيقة فى ميزان الطبيعة العجيب، إذ يمنحهم أكبر محرض "التعصب". يمكـن للشيوعين الفرنسيين أن يذكروا أنهم يكافحون من أجل حقوق الإنسان ، أو يمكن لقبـــائل الصحراء أن تذكرُ أنها قاتلت من أجل عظمة الرب ، ومهما يكن من تفسير فلسفى فـــإن نتائج قوة التعصب هى واحدة ، إعطاء الناس الإحساس بأنهم يحاربون من أجـــل غـــرض مقدس . الشئ الذى يعطى الضوء الأخضر لخوض حروب ،رغم أن أسبابها قد تكون أبعــد ما تكون عن ذلك الهدف .

تتكون روح جديدة تجعل الجميع ينسون كل الخلافات القبلية ، ويتحدون نحو هـــدف واحد ، وهكذا جاءت العقيدة الاسلامية لأهل السودان ركيزة للهجوم والدفاع معا. كـــان كل هذا وأكثر ، ولكنه لم يكن السبب الوحيد للتمرد . بعض الناس الذيـــن يعتقـــدون أن أممهم هى الوحيدة المحتكرة لكل الفضائل والعقلانية عندما يصفون أى حروب لدول بدائيـــة بأن أسبابها كلها دينية ، لم تكن أسباب الثورة فى السودان دينية على الاطلاق. إن الأسـباب كانت من القوّة بمكان، زيادة فى نفس الوقت على شدة ضعف دفاع الغاصبين .

لو نظرنا للأمر نظرة سياسية بحته لنجد أنه لم يكن هنالك سبب أوجه من هذا الـــذى أمامنا لقيام التمرد ، يحكم قلة من الأغراب كل أهلَ البلاد ، القلة الجبانـــة تحكـــم الغلبــه الشجاعة، الضعيف يجبر القوى . كانت كل هذه أسباب كافية .

إن أى تمرد ضد الحكومة محكوم عليه فقط عند النجاح ، إن القوة هى أكـــثر فضيلـــة ثورية ، فضيلة سوف يجلها العرب ، فقد كانوا أقوى مما يتصورن ، أو مما يتصور عدوهم أو العالم الخارجى، الكل سيعلم علم اليقين فى الوقت المناسب. تجمعت العاصفة وارتفعت المياه وجاءت موجات ثلاث عاتيات لتهب كالمد على جذر البيت المصنوع من رمال الصحـــراء. عانى العربى من البؤس والفقر والقهر ، ينظر فى رى أن كل أسباب شـــقائه أجنـــبى تركـــى

ضعيف وجبان، لقد زاد افتقاد العدل الاجتماعى حدة التعصب العنصرى ، وتهيأ الموقف تماما، ثم جاءت الموجه الثالثة موجة التعصب ، التى انضمت لباقى الموج، وغطت كل مياه الفيضان بزبدها الأبيض، وأخذت تضرب كالرعد حوائط المنزل.الضعيف حتى انهار، وياله من انهيار.

قبل عام ١٨٨١ لم تكن هنالك أى حركات تعصب فى السودان. بسبب البؤس هجر الناس عبادتهم ووصلوا حالة من الياس كانوا مستعدين لأى مغامرة يمكن أن تخلصهم من عبودية الغاصبين، كانوا فقط فى انتظار القائد الملهم الذى يستطيع جمع الشمل والكلمة ورفع الروح المنكسرة . وفى صيف ١٨٨١ ظهر القائد . و لأن سيرته ستلقى أضواء على طبائع العرب فى السودان . فإننا سنبحث فى جذوره منذ البداية .

ولد الرجل الذي كان السبب المباشر لحرب النهر على ضفاف النيل، فى مكان لا يبعد كثيراً عن دنقلة. كانت أسرته فقيرة وليس لها أهمية فى المديرية . ولكن مثلما أدعي النبي أنه من سلالة ملوك، ومثلما انبثقت"القدوة المقدسة" من نسل داو ودة فقد أكد محمد أحمد أنه كان من الأشراف ، وربما قبل هذا التاكيد طالما أنه لا يمكن نفيه. كان والده رجل دين متواضع ، ومع ذلك فقد جاهد ليوفر لابنه قدراً من التعليم فى الممارسات الدينية ومبادئ القرآن وفن الكتابة . ثم مات فى كرري أثناء رحلة له الى الخرطوم، وترك مهدي المستقبل. وهو طفل ، تحت رحمة العالم. أن الأشجار للتوحدة، إن نمت اصلا، تنمو قوية، إن صبيا حرم من رعاية الأب ، ينمي لديه عادة ، إن أفلت من مهالك الشباب ، استغلال وقوة التفكير الذي قد يعوض فيما بعد الحياه الخسائر الباهظة فى الأيام الأول. كذلك كان الحال مع محمد أحمد . فقد تطلع حوله باحثا عن حرفة ووسيلة للرزق. إن نسبة كبيرة من سكان البلدان المتدينة يعشون حياتهم فى دعه، يعولهم عمل المريدين وصمم الشاب على أن يتبع الحرفة التي شعرأن مواهبة تؤهله لها، والتي تتيح له أفقا أرحب. وأصبح شيخاً .

فى كل المجتمعات الدينية يعيش الناس فى دعة وفسحة من الوقت، مشغولين بالعالم الآخر عن أطماع الحاضر، تاركين أمور الدنيا وتدبير المعيشة لمريديهم المخلصين، كثير من مصلحي الدين الكفرة وفى بلاد كثيرة يوجهون جل حماسهم واهتمامهم للعالم الأخر لأن هذا يهئ لهم حياة أفضل فى هذه الدنيا. لحسن الحظ ليس هذا صحيحاً بالمرة ليس بالنسبة لمحمد أحمد.

برز محمد أحمد منذ الصغر فى علوم الدين وطاعة الله وخدمته، وبدون عناء وجـــد شـيخا يتتلمذ على يديه حيث يندر وجود أشخاص أذكياء ومملوءين حماسا فى قطـــر كالســـودان! وبمجرد انتهاء فترة دراسته أصبح تلميذا على يد الشيخ محمد شـــريف . كـــان لتفانيـــه فى التحصيل والعبادة وزهده الظاهر أكبر الأثر فى نفوس الذين من حوله، واكتســـب بذلـــك بعض الحواريين. أخذ حوارييه وذهب بهم الى الجزيرة آبا، وكان له أخوان يعملان فى صناعة المراكب على النيل الأبيض هما اللذان يصرفان على إعاشتة مما تدره عليهما هذه الصناعة. لم يكن هذا الأمر أمرا مكلفا على الإطلاق، فقد كان محمد أحمد صائما جلّ الوقت، واختار له كهفا على شاطئ النيل الأبيض يذهب ليتعبد فيه تقربا من الله، يظهر من حين لحين لزيـــارة شيخه ليؤدى فروض الولاء والطاعة. زادت قداسته وزادت الصدقات والزكاة من المسافرين على النهر بالإضافة لعائد أعمال الأخوين. هذه الحياه المتقشفة الطاهرة قد جـــاءت حادثـــة عسكرت صفوها. الشيخ المعروف بقداسته قد اقام وليمة احتفالا بمناسبة ختان ابنائه وزيـــادة الفرحة فى هذه المناسبة المباركة وحتي يسعد الضيوف بكرم الضيافة اصدر الشيخ تمشياً مـــع عرف التساهل فى ذلك الوقت فتوة شرعية بأن كل الزنوب التي ترتكب أثنـــاء الاحتفـــال مغفورة. واعلن باسم الله وقف أي قوانين تمنع الغناء والرقص كما تنص القواعد الدينيـــة. ناسك الجزيرة ابا لم يشترك فى تلك الافعال الراعرة وأن بدأت بريئة هي ضد كل الفضـــائل واعلن فى تأكيد العقيدة أن الله وحدة هو غفار الزنوب. وصلت هذه الاقـــوال الى مســـامع الشيخ المشهور وبكل السخط المصاحب لاكتشاف ارتكاب الخطأ أمر محمد احمد بالمســـئول أمامه. اطاع الأخير الذي يحترم استاذه ويعترف له بالفضل. اختفى غضبة بمجرد أن اعلنـــه وبكل تواضع طلب المغفرة ولكن دون جدوي . شعر الشيخ يجب أن يسود النظـــام بـــين حوارية وأنه يجب أن لا يتساهل فى عدم الطاعة للقانون المقدس. نهض الشيخ فى غضـــب وطرد تلميذة المدعي من مجلسه ناعتا اياه بكلمات مريرة ومعلنـــا شـــطبة مـــن ســـجلات المختارين. ذهب محمد الى بيته وهو محبطا ولكن شمائلة لم تنهد بعد. قداسته مـــازالت ذات قيمة إلا إذا شاء هو عكس ذلك، وهي رصيد لا يمكن انتزاعة. كان للشيخ المشهور منـــافس لا يقل عنه قداستة وأن فاقة اعمالا يمكنه أن يرحب بالشيخ الصغير. لكن محمد احمـــد لـــن

يتخلي عن سيده السابق بعد. وضع عمود من الخشب حـول رقبتـه وتلجـف بلبـاس كالمصلـح المتهـور اعتـراض تلك التصرفات التي من الخيش الخشن وعفر نفسه بالرماد، عاد لقائدة الروحي وهو فى هذة الحالة المزرية طالبا العفو ... ولكنه رد بشكل مهين . لم يشأ أن يزور شيخه غير الغفور ولكن حـدث أن جـاءت مناسبة بالشيخ للجزيرة أبا فظهر له حواريه السابق متلحفا بالخيش وملطخا بالرماد، بـدون مراعاة لحالته البائسة أو بدون أن يحركه ولاؤه الفريد الذي لم يكن ينتظره أحد ولكن الشيخ العنيد انهال عليه بالسباب. كان أكثرها إيلاما قوله " اغرب عن وجهي أيـها الدنقـلاوي التعس "كانت هذه هى القشة التى قصمت ظهر البعير، لقد تأسف محمد أحمد لكل ما بـدر منه، وكرر اعتذاره للشيخ محمد شريف دون جدوى، عندها قرر محمد أحمد وأعلن لكـل حوارييه ومريديه بأن العلاقة بينه وبين الشيخ قد انتهت، وأنه سوف يتجه بولائه الى الشـيخ القرشي. كتب محمد أحمد للشيخ القرشي بالقرب من قرية المسلمية ، وجاءه الرد بالترحيب فعزم على الرحيل. هنا شعر الشيخ محمد شريف بأنه من غير اللائق أن يفقد أحد تلاميـذه ولشيخ منافس آخر، فكتب لمحمد أحمد يقبل اعتذاره ولكن كان الوقت قد فات. شعر محمد أحمد بأنه لم يرتكب أى جرم يستحق تعنت الشيخ معه، وكان قرار الرحيل نهائيا.

انتشرت هذه الحادثة ووصلت أخبارها الى أقاصى الغرب. فى دارفـور ظـل النـاس يتداولون الحكاية، إذ كان نادرا أن يشق فتى عصا الطاعة على شيخه، فسر الناس هذا الأمـر بأن محمد أحمد كان يدافع عن الإيمان والعقيدة، وأنه أخيرا جاء من يطهر الدين ويرفع كلمته ويصلح حال الناس. بدأت مشاعر الناس تتجه نحوه لعله يكون المنقذ الذى يفك أسر رقـاب القبائل من استعباد الأتراك. ذاعت شهرة محمد أحمد، وبدا فى كل بقاع البلاد التفكير بأنـه فى يوم من الأيام سوف يظهر نبى ثان عظيم"المهدى المنتظر" الذى سوف يقـود النـاس الى الإيمان والقرب من الله، ويتردد السؤال : هل أنت هو المهدى المنتظر ؟؟ أم ياترى شـخص آخر قادم!! هنا قرر محمد أحمد أن الوقت قد حان، استأذن من شيخه الشيخ القرشـى فى العودة الى جزيرة آبا، حيث بدايته ومصدر قوته. عاد محمد أحمد منتصرا الى المكان الـذى شاهد تجربته القاسية، وجاء بعده الناس يحجون للجزيرة طلبا للتبرك والتقرب مع إحضـارهم هدايا كثيرة. كان محمد أحمد يوزعها على الناس إذ كان زاهدا فى متاع الدنيـا. بـدأ فى

الدعوة فى أنحاء كردفان، وقد بايعه الناس جميعا على الولاء فى الإخلاص لديـــن الإســـلام وخلاص البلاد. ثم بدأ رسائله لكل رؤساء القبائل والشيوخ التى لاقت قبولا طيبا عند قراءتها على الناس.

توفى الشيخ"القرشى" فسارع محمد أحمد للذهاب لكى يشرف بنفسه على بنـــاء قبـــة للشيخ الجليل. فأعطى هذا الأمر كل اهتمامه، وبينما هو منهمك فى هـــذا العمـــل وجـــد مساندة كبيرة من شخص ليس فى هيبته، ولكنه مشهور مثله هو "عبد الله" أحـــد أربعـــة إخوان. كان والده رجل دين، ولكنه لم يرث تدينه أو إيمانه بتعاليم الدين. كان عبـــد الله رجلاً حازماً وذا سلطة. كان له طموح فى اتجاهين. الأول أن يحرر السودان مـــن النفـــوذ الأجنبى، والهدف الثانى أن يحكمه. وقد حقق الهدفين معا. سبق بعد أن هزم الزبير مملكـــة الفور أن ظن عبد الله أن الزبير هو المهدى المنتظر فعرض عليه خدماته، ولكن الزبير اعـــترف له بأنه ليس قديسا، وعليه فعندما ظهر محمد أحمد ذهب اليه ، ووضع نفسه تحت تصرفـــه معلنا ولاءه .

من أمتع الحكايات سردا وترفيها الحكاية التى يرويها "سلاطين باشا" عن المشاكل الـــتى صادفت عبد الله قبل أن يصبح الخليفة ويحكم السودان كله يقول "سلاطين باشا" على لسان الخليفة:

"لقد كانت رحلة شاقة، وقتها لم أكن أملك سوى حمار، وكان بظهره جرح قـــديم ، و لم أستطع ركوبه ، لكن كنت أستعمله لحمل قربة المياه وكيس الذرة ، وأفرش عليه ثـــوبى المصنوع من الدمور المغزول وأسوقه أمامى. كنت ألبس القميص الذى يميز أفراد قبيلـــتى ، وما كدت أفتح فمي حتى يعرف الجميع أننى غريب عن الديار. عندما عبرت النيل كنـــت دائما ما أسمع نفس التحية "ماذا تفعل هنا عد الى بلدك ليس لدينا شئ يسرق!!".

أى حياة تلك من الصعود والهبوط ، لقد كانت رحلة طويلة من إنسان لا يملك غـــير حمار بجرح دائم فى ظهره الى حكم مطلق لإمبراطورية. إنها قصة ولا فى الأساطير . ومـــهما كان الطموح لا يمكن أن يتخيل الإنسان أنه يمكنه أن يمر بكل تلك التجارب، ولا كـــان فى حسبانه وهو يحكى قصة صعوده للسلطة "لسلاطين" أنه سوف يجئ اليوم الذى يقود فيـــه أكثر من خمسين ألف مقاتل لحتفهم وهلاكهم، أو تاتى ليلة يجد نفسه وحيـــداً فى بلدتـــه

البعيدة فى كردفان وأن الأسير سلاطين الذى كان يركع تحت قدميه بكل ذل وتواضع. هو الذى يوجه القوات المطاردة للحاق به!!.

استقبل محمد أحمد تابعه الجديد بدون حماس. ظل عبد الله يتابعه فى بناء القبة . قبة الشيخ "القرشى" بحمل الحجارة . بدا التقارب بين الرجلين ، صرح عبد الله لسلاطين بأنه قبل أن يعلن له عن سره كان قد عرف بأنه المهدى المنتظر.

إذا كان محمد أحمد هو روح الدعوة وحماسها الدينى الدافق فان عبد الله كان عقلها المفكر ، ورجل السياسة العملى،القائد.

بدأت الآن المؤامرة الجديدة ضد الحكومة المصرية . كان محركها هو عدم الرضاء ويبررها بؤس الناس فى السوذان .

بدأ المهدى فى جلب المؤيدين وزاد نفوذه الى باقى أنحاء البلاد ، كرر رحلته لكردفان ووجد تجاوبا واستعدادا للبيعة والمساندة بالروح والسلاح ، ولم تعد الدعوة سرا. هنا التقط العدو القديم الشيخ محمد شريف أخبار الدعوة، وأخطر الحكومة المصرية بالتآمر ضدها ، لكنها فسرتها بأنها مكيدة نتيجة للخلافات القديمة بين الشيخ وتلميذه السابق . إلا أن الأخبار عادت وتأكدت من مصادر أخرى .

عندها شعر رؤوف باشا حاكم السودان آنذاك بأنه يجب أن يتحرك فأرسل مندوبا لكى يحضر محمد أحمد للخرطوم للمثول أمامه للمساءلة وليفصح عن نواياه .

أخطر المهدي بسرعة بتحركات مندوب الحاكم . تشاور مع نائبة وقرر المخاطرة بكل شئ ويجب عليهم تحدي الحكومة دون ابطاء.عندما نتذكر كيف يمكن لجيش نظامي رغم سوء حاله أن يخمد أي تمرد وسط الجماهير وبسرعة فائقة لا يسعنا إلا الإعجاب لشجاعة قرارهم.

جاء الرسول ومثل أمام المهدي بعد أن قابله عبد الله أولاً بما يلزم. سلم رسالته وتوسل للمهدي لكي يقبل أمر الحاكم العام، كان المهدي ينصت فى صمت لبعض الوقت ولكن عندما أضاف لكي يخفف ويبرر موقفة، أنه يخاف على حياته ولذلك ينصحه بالذهاب للخرطوم هنا صرخ المهدي وهب واقفا ضاربا صدره بيده صائحاً "بأمر الله ورسوله أنا سيد هذه البلاد وسوف لن أذهب للخرطوم للمساءلة " .

انسحب الرسول مرعوباً وبدأ تمرد المهدي بدأ كل من الحاكم ورجل الدين فى التحضير للمواجهة ، أعلن المهدى الحرب المقدسة والجهاد فى سبيل الله لخلاص البلاد من الأجانب أعداء الله والوطن . بدأ فى جمع المقاتلين وكتب لكل أنحاء السودان معلناً بدء الجهاد، ومناديا الجميع للارتفاع لتحمل المسئولية، واعدا العزة والمجد لهؤلاء المنتصرين، وواعدا الخلود للذين يستشهدون . وانتشر الشعار " يجب خلاص البلاد من الترك" ألف قبر ولا دولار واحد ضرائب (عشرة فى تربة ولا ريال فى طلبة).

لم يضيع رؤوف باشا وقتا كبيرا . أرسل فرقتين من المشاة على رأسهما ضباط برتبة نقيب لكل فرقه واعدا إياهم بالترقية حين ينجحون فى إلقاء القبض على محمد أحمد ورجاله، زاد هذا من حماس الضباط ، ووصلوا بالباخرة الى الجزيرة آبا ، وفى نفس الليلة قررا الهجوم من اتجاهين متضادين . مع جنح الظلام فتح كل فريق النار على الآخر ، وفى قمة الصراع هجم المهدى ورجاله، على قلتهم ، وأعملوا فيهم السلاح حتى أبادوهم . نجح القليل من الجنود فى الهروب الى شاطئ النهر لكن عندما أحس قائد الباخرة بالخطر لم يسعه المخاطرة بالانتظار ، وترك أولئك الذين لا يستطيعون العوم نحو الباخرة الى مصيرهم المحتوم. عادت الحملة للخرطوم بالخيبة. لقد جرح محمد أحمد أثناء المعركة فسارع عبد الله بتضميد جراحه بحيث لا يرى أحد أن رسول الدعوى يمكن أن يصيبه سلاح العدوان . كانت أخبار الانتصار مذهلة ، وانتشرت الأخبار. كيف لقلة من المحاربين بالعصى والحراب أن ينتصروا على جيش الحكومة المسلح بالبنادق والذخيرة، هذا أكيد هو المهدى المنتظر. استفاد المهدى من هذا الانتصار بأن دعم موقفه وقرر مع الخليفة الانسحاب غربا . إذ من المؤكد أن الحكومة سوف ترسل حملة أخرى ، خاصة أنهم على مقربة من الخرطوم ، وكان عبد الله واثقا بأن الجيش قادم . قبل الهجرة وحسب التقاليد عين المهدى أربعة خلفاء له. أول خليفة هو عبد الله ومن الآخرين على ود حلو شيخ إحدى القبائل التى سارعت بالانضمام للمتمرد .

بدا الانسحاب وكان له كل مظاهر الانتصار إذ التف حوله الناس ، وتبعه الكثيرون مبهورين بالمعجزة والانتصار الكبير.

ذهب المهدى الى جبل فى كردفان احتمي به ، وأسماه جبل ماسا. الجبل الذى ذكر القرآن (حسب ظن المؤلف) أن القائد المنتظر سيظهر فيه. أصبح الآن بعيدا عن يد الخرطوم.

ولكنه أقرب الى فشودة . كان حاكم فشودة "راشد بك" رجل ذو مبادرة ، ولكنه قليل الخبرة بالنسبة لأمور الحرب قرر أن يأخذ المبادرة للقبض على المتمرد ورجاله. بدون أن يأخذ أى احتياطات، سقط هو وجنده فى كمين فى يوم ٩ ديسمبر وقتل هو ومعه ١٤٠٠ مقاتل من جنوده على أيدى العرب . رغم نقص التسليح لديهم إلا أنهم محاربون أشداء. اهتزت كل البلاد لتلك الأخبار . وضحت خطورة التمرد على الحكومة وجهزت حملة ضخمة قوامها ٤٠٠٠ مقاتل بقيادة يوسف باشا المعروف بسمعته. فى هذا الأثناء كان المهدى ومن معه يعانون الحاجة لا يملكون أى شئ. كل ما تحصلوا عليه ينفق على الناس، وكان أغلبية المجاهدين هم بسطاء الناس الذين لا يملكون شيئا ، إذ امتنع الأغنياء من الاشتراك فى هذه المرحلة. كان المجاهدون شبه جوعى ولا يملكون غير العصى والحجارة، يملك محمد أحمد حصانا واحدا بينما يمشى الخليفة على قدميه. كان استهتار الجيش القادم باعداده، وكان متأكدا من الانتصار بصورة جعلته يغفل حتى عن مراقبة العدو ، ودخل زريبة كبيرة ونام الجميع . قبيل شروق الشمس هجم المهدى وخلفاؤه وجنوده العراة وذبحوهم عن آخرهم أصبحت كردفان تحت إمرة المهدى ،إذ كان النصر حاسما ، وتجمعت لدى المهدى كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة .

هرع الآلاف للانضمام للحركة من كل طوائف المجتمع، وتأكد للجميع انه "المهدى المنتظر" الذى جاء لإنقاذهم من الذل والهوان. انتفضت كل القبائل العربية مرة واحدة . بدأ التمرد تلقائيا فى كل من سنار ودارفور ؛ هوجمت كل الحاميات المصرية فى المناطق النائية قتل كل جامعى الضرائب والإدارين و لم تنج إلا الحاميات الكبيرة، وحتى هذه انقطعت سبل الاتصالات بها. وضرب الحصار عليها و لم تبق أى سلطة إلا سلطة المهدى.

لعله من الضرورى أن ننظر الآن الى مصر ، نفس الإدارة الحكومية التى أفرزت التمرد فى السودان هى نفسها التى قادت الى ثورة عرابى باشا. عندما كان السودانيون ينادون بالخلاص من الأجانب، القاهرين المعروفون "بالإتراك" كان الناس فى دلتا مصر ينادون بخلاصهم من النفوذ الأجنبى والأتراك الحقيقيين!!. مثلما اعتبر ظن الذين يعيشون عند منابع النيل أن القبائل لم تخلق لكى يستعبدها الموظفون، كذلك اعتقد الذين يعيشون عند مصبه بأن الأمم لم تخلق لكى تكون مستغلة من قبل الأجانب والدائنين. لقد وجد الجهلاء فى

الجنوب فى رجل الدين قائدا لهم ، ووجد الأكثر استنارة فى الشمال فى الجندي ذلك القائد . محمد أحمد حطم تسلط الاعداء، وفتح عرابي الباب أمام كراهية المصريين للأتراك ، ولكن بينما نجح العرب فى تشتيت جحافل الأعداء، لم ينجح المصريون فى زحزحة قوات أوربا الصلبة. بعد كثير من التردد والمحاولات لايجاد مخرج للازمة قرر "قلادستون" رئيس وزراء بريطانيا من حزب الأحرار إرسال الأسطول للإسكندرية الذي أسكت حامياتها تماماً، وعمت الفوضى فى المدينة أعقبه احتلال من جيش كبير قوامه ٢٥ ألف جندى بريطانى نزلوا فى الإسكندرية.ولقد تمت العملية بإتقان ونجحت فى هزيمة التمرد، وحكم على زعيمهم عرابي بالموت والنفى خارج البلاد واستولت بريطانيا العظمي على مقاليد الحكم فى البلاد. واستطاع البريطانيون بسط الأمن فى مصر وطُرح التمرد فى السودان على مجلس الخديوى. وبالرغم من الفقر الذى كانت تعانية الحكومة فإن رغبتها فى التمسك بالأجزاء الجنوبية من محافظاتها كانت كبيرة عندها أبدت حكومة بريطانيا موافقة بتحفظ لأنها كانت تود أن تسلك سياسة الحياد تجاه ما يجرى فى السودان ، وتم الإعداد لحملة كبيرة لقهر (النبى) المزعوم حسب ما كان يعتقد البريطانيون أو المهدى المنتظر حسب ما يعتقد أهل السودان. ومن ثم تم إرسال ضابط متقاعد من الجيش البريطانى فى الهند مع بعض الضباط الأوروبيين للخرطوم لتجهيز القوة اللازمة. فى هذه الأثناء كان المهدى يحاصر مدينة الأبيض بعد أن فشل فى فتحها وهى عاصمة كردفان. فى صيف ١٨٨٣م بدأ تجميع القوات الحكومية فى الخرطوم حتى تكون جيش كبير. لكنه كان حسب ماجاء فى رسائل "جنرال هيكس" أسوأ جيش، ولقد كتب "السير أى وود" فى يونيو ١٨٨٣م يقول: هرب ٥١ جندى من سلاح المدفعية فى الطريق الى هنا رغم تقييدهم ، ضباط وجنود هزموا وهم يقاتلون لنيل حريتهم فى التل الكبير، أرسلو الى هنا ليهلكوا فى قتال وليسلبوا الآخرين حريتهم فى السودان!! لم تكن عندهم أى روح للقتال لا نظام أو تدريب، وفى قوة من ٨ آلاف محارب يوجد بالكاد دستة ضباط أكفاء. اثنان من هؤلاء جديران بالذكر، جنرال هيكس قائد المجموعة والكونيل فارقر رئيس الأركان .

سقطت الأبيض قبل أن "تبدأ الحملة" سيئة الحظ رحلتها من الخرطوم وكان لتماسك "سلاطين بك" حاكم دارفور بارقة أمل، سلاطين كان ضابطاً نمساويا فى خدمة الجيش

المصرى. تحرك جيش هكس فى ٩ سبتمبر ، وكان يتكون جيشه من ٧ آلاف جندى مشاه، ٤٠٠ جندى باش بوزك محمولة ، ٤٠٠ سلاح فرسان ، ١٠٠ سار كيسيان ، ١٠مدافع محمولة ٤ كروب و٦ رشاش " نوردان فيلد " ترك الجيش أم درمان متحركا نحو الدويم. كانت رئاسة الحملة للجنرال هيكس ، ولكن كانت هنالك تدخلات وآراء للحاكم العام "علاء الدين باشا" الذى حل محل "رؤوف باشا". كان الخلاف فى وجهات النظر كبيراً ، وتوجس الضباط من مصير أسود ينتظرهم ، اتجهت الحملة جنوبا عن طريق شط الرهد. كانت الأحوال العامة سيئه حتى أن خادما ألمانيا اسمه جستاف كولتنر قد فر هاربا، وانضم لمعسكر المهدى حيث ظنه الجميع ضابطاً إنجليزيا ،تم عرضه فى طابور فى انتصار وتهليل . عندما وصلت قوات الحكومة لمشارف المدينة خرج المهدى بجيشه الى العراء، وبدأ فى عمل تدريبات عسكرية للقوات فى تشكيلات حربية . لقد تجمع أكثر من أربعين ألف مقاتل تحت علم المهدى ، مسلحين هذه المرة ، بآلاف البنادق وبعض المدافع مع السيوف والحراب. الى هذا الحد تطورت الزمرة الصغيرة التى حاربت فى الجزيرة آبا. وكتب المهدى "لهيكس" عارضا عليه أن يستسلم ، ولكن قوبلت الشروط بالرفض بالرغم من أن الاتفاقية كانت ممكنة . لم تتعرض الحملة لأى هجوم حتى وصلت للرهد ماعدا بعض دوريات الفرسان التي جاءت في طلعات تراقب تحرك الجيش البطئ. وفى أول نوفمبر تحرك المهدى بجيشة من الأبيض لملاقاة العدو. وقع الصدام يوم ٣ نوفمبر ، فى ذلك اليوم كان جيش الحكومة يجاهد فى سبيل الحصول على الماء مما جعلهم صيدا سهلا لسلاح جيش المهدى فسقطوا تاركين أسلحتهم. فى اليوم الثانى هجم الجيش كله ، كسر جيش الحكومة وفرقه واستمرت المعارك ليوم آخر حتى تم تدمير الغزاه فلم ينج أكثر من ٥٠٠ فرد من جيش الحكومة ، واستشهد مثلهم من جيش المهدى ، و قتل كل الضباط الأوربيين بما فيهم القائد هيكس، الذي مات وسيفه فى يده وكان مقاتلا اكتسب احترام أعدائه الشرسين. فكرم وتم دفنه بمراسيم تليق بالشرف العسكرى .

أطلق المهدى مائة طلقة احتفالا بالانتصار الكبير السودان الذي ملكه الآن بنصر من عند الله ورسوله ، وفهو الآن سيد السودان ، وقد حقق هذا أيضا بقوة السلاح .

لم ترسل أى حملات أخرى بعد ذلك انتصر السودانيون بجرأتهم وشجاعتهم ، ونالوا الحرية تحت راية قائدهم المقدس ، ولم يتبق للحكومة غير تجميع شتات الحاميات الباقية وإخلائها بأقل الخسائر ، وهذه بداية حكاية أخرى أكثر دموية ، بدأت بالعار والمأساة ، وانتهت بالانتصار ودعونا نأمل بالسلام أيضا.

أود الآن أن ألقى نظرة عامة عن حركة المهدى مما لم يسمح به المجال. إن حركة المهدى كانت اجتماعية وعنصرية. كان الناس يعيشون فى بؤس روحهم المعنوية منهارة، وما كان فى الإمكان حمل السلاح لمجرد الكسب المادى ، ثم جاء المهدى وأعطى القبائل الحماس الذى كانوا يفتقدونه وبدأت الحرب . ومن السهل أن نضع كل اللوم على محمد أحمد ونحمله كل الدماء التى سالت، ولكن فى رأيى أن المسئولية مشتركة ، يتحملها أيضا الحكام الظلمة الذين قهروا العباد، والحكام لغير الأكفاء الذين أضاعوا أرواح رجالهم، والوزراء الفاسدون الذين نهبوا الخيرات . ومهما قيل عن المهدى يجب ألا ننسى أنه وضع فى قلوب قومه الروح والحياة، وحرر بلاده من الحكم الأجنبى . إن بسطاء الناس الغلابة الذين كانوا يعيشون شبه عراة وقوتهم لا يخرج عن كونه بعض الحبوب الجافة، فجأة وجدوا معنىً جديداً للحياة بعد أن استطاع المهدى أن يغرس فى صدورهم الحس الوطنى الجارف والوازع الدينى القوى . وهكذا أصبحت الحياة ملأى بالإثارة والأهوال المبهجة، وهنالك حياه ملأى بالأشياء الجميلة فى دنيا الخيال ، وإذا ما كتبت لهم النجاة هنالك أشياء كثيرة جميلة تنتظرهم ، وهنالك الكثير الذى يجب عمله ، وإذا ماتوا فى قتال الأعداء فإن الجنة مثواهم ، إن كثيراً من المسيحيين يجلون الإسلام ولكن بعضهم يعتبرون أن المهدى ما هو إلا مدعى دين ساعدته الظروف لبلوغ تلك المكانة المهابة. ربما يكون فى بعض هذا التفسير بعض الحقيقة، لكننى أستطيع أن أعرف كيف أفرق بين النبى الحقيقى وبين نبى مدعٍ بمقياس النجاح. إن نجاح المهدى لا يقل عن نجاحات الفتوحات الإسلامية. مع الفارق . ذلك أنه واجه آلة الحرب الحديثة تدعمها العلوم والتقدم التقنى وإذا أخذنا كل ذلك فى الاعتبار، أجد أننى غير متفق مع أولئك المفسرين. إننى اعتقد أنه فى المستقبل وعندما يجد الناس السعادة فى أعالى النيل، وعندما يستتب الأمن ، ويأتى فى ركابه التعليم والرخاء، يجب على أول مؤرخ عربى يدرس تاريخ المنطقة عليه أن يذكر أن "محمد أحمد" كان من أعظم أبطال عصره .

الفصل الثانى

مصير المبعوث

تواجه كل الحركات العظيمة فترات ينخفض فيها وهج الثورة ويتآكل الحماس ويشعر الناس بتبخر كل آمالهم الوطنية .

يتحول النصر العسكري الى قوة جارحة، والحرية الى عربدة ، والتسامح الى الظلم والاستبداد. يتحول الفخر بالعنصر الى غرور أحمق، والخوف من الله الى تعصب وخرافة ويبدو حالة عامة بلا استثناء أن تنتهي كل أعمال الرجال ومجهوداتهم الكبيرة نهايات مؤسفة، تماما كالنبات الذي يطرح الفروع، ثم العقدة ثم تظهر الزهور الجميلة ، ولكن سرعان ما يأتي الشتاء فتذبل وتموت . اللهم إلا إذا اعتبرنا أن الورق الميت تحت شجرة البلوط يصيبه الصدأ والتآكل ليكون بذلك تربة صالحة للنماء تساعد فى إنبات أشجار أخرى بديلة عن تلك التي تموت وهذا من شأنه يشجع على ظهور أناس جدد على سطح الأرض يتألقون وإن الحركات المختلفة ما هي إلا نفس التغيير الذي يحدث فى دورة الحياة . الثورة المهدية لم تسلم من المصير المنتظر لأي حركة، ولم يمض وقت طويل حتى تحولت دماء الوطنية والتمرد الديني الى بقعة سوداء فى دم الإمبراطورية العسكرية . بعد أن تم طرد الأجانب وتحرير البلاد من التجار والجنود أخذ العامل العنصري فى الانحسار بعد أن اختفت أسبابه. مع تدنى الحاله الأمنيه، تدهورت الحالة الاجتماعية، وانحسر تذمر الأهالى الشيوعية هي ضمان الثروة، وثروات السودان قد بددت تماماً. لم يبق إلا الوهج العنصري والايمان بقدسية المهمة التي جاء من أجلها المهدي، ولكن بعد ان زالت الحوجة الى زعيم بدأت قداسته تضعف. فى هذه الأثناء بدأت تظهر قوي جديدة فى شخصية التمرد. الانتصارات التي حققها المهدي نتيجة لتخبط الأعداء قد أتت بروح عسكرية جديدة تختلف عن الاندفاع العاطفى لرجال القبائل، وهي روح العسكري المحترف .

جاءت فترة ساد فيها الهدوء وقلت فيها قوة الدفع المهدي الى أن ظهرت بوادر الغزو البريطاني لشرق السودان ، هذه الحادثة أعادت الحياة للحركة والحماس الوطني، وشعر الناس بأنهم بأن الاحتلال العسكرى لا يمكن أن يعود بعد أن تحرر وأمنه. وبالتالى كانت مقاومتهم عنيفة للغاية للعمليات التي قادها سير جيرالد جراهام واللورد وولزلى. كان التأخير فى إرسال حملة النجدة للخرطوم هو السبب في أن تنال هذا المصير، وبمجرد أن سقطت الخرطوم بسط رجال المهدية سلطتهم على البلاد بالقوة العسكرية التي بنيت عليها إمبراطورية الدراويش .

كل معارك المسلمين تتمثل فى قوة التعصب، ولكن بالرغم من هذا التصميم يمكننا القول إن القوة التي هزمت يوسف، وحررت الأبيض وقطعت أوصال هيكس كانت بقوة الدافع الديني. لكن العرب الذين قاتلو جراهام واستيوارت كان قتالهم دفاعا عن الأرض، والعرب الذين هزمهم "كتشنر" حاربو للفخر العسكري. كان التعصب فى شيكان، وكانت الوطنية فى أبو كيلي، وكان المجاهدون فى أم درمان. ولكي يمكننا وصف الثورة والتغيير الذي حدث لها يجب أن نرجع لمرحلة ضعف البنيان الاجتماعي والنفوذ القبلي قبل أن تشتد القوة العسكرية وتقوى، إذ كان مقتل يوسف قد جعل كل أهل السودان يحملون السلاح دفاعا عن حريتهم فإن مقتل هيكس قد اقنع البريطانيين بأن السودانيين قد فازوا بحريتهم عن جدارة. ولكن الرغبة الجامحة فى الاستمرار فى الحكم جعلت بجلس الخديوي يفكر مجددا فى الاحتفاظ بممتلكات البلاد إذا كان الأمر متروكا للحكومة وكانت هناك محاولات أخرى يائسة . هنا ظهر أن حكومة بريطانيا قد تخلت عن سياسة عدم التدخل فى شئون السودان، ونصحت الخديوي بالتخلي عن السودان. عندما احتج شريف باشا، اضطر اللورد قرانفل لإيضاح كلمة "تخلى" وعندما أيد الخديوي قرانفل،استقال شريف باشا واعتمدت سياسة إخلاء السودان . قال الوزراء :دعونا نجمع الحاميات ونرحل ، كان القرار سهلا، ولكن تنفيذه كان من الصعوبة بمكان . كانت أغلب الحاميات قد سقطت فى دارفور والأبيض والأخريات إما محاصرة كسنار وطوكر وسنكات، أو قطع عليها الطريق الى الشمال كما حدث

للمديرية الاستوائية من جراء التمرد هناك، كانت الخرطوم ملا تزال متماسكة. أول دور للحكومة المصرية كان واضحا .

كانت حكومة قلاديستون بعد أن قضت على ثورة عرابي تعتبر الحاكم الفعلى لمصر وبحكم السلاح . ومن مظاهر الاحتلال، تسلم الضباط البريطانيين تدريب وتنظيم الجيش المصري ، والشئون المالية وضعت تحت يد ضابط بريطاني، وكان هناك رجل أحد رجال الأعمال الخيرية البريطانيين ناصحا للخديوي توفيق، بينما يرسو الأسطول البريطاني قبالة أطلال الإسكندرية، وكان واضحا أن بريطانيا العظمي يمكنها ضم البلد اسما وفعلا. ولكن الاستعمار لم يكن أحد أهداف حكومة الأحرار، هدفهم كان لفعل الخير وبدون منافع ، وكما أصبحوا الآن مقتنعين بأن على مصر الجلاء عن السودان كانوا على يقين بأن بريطانيا يجب أن تترك مصر وترحل .

سوف يتضح من هذا الجزء أن كل الرغبة الآن هي الخروج من السودان، وأن هذا حجر الأساس للسياسة البريطانية، وكل قرار سواء للحرب والإدارة كان نهائيا . كانت كل إشارة أو رسالة تدعو الى قطع كل العلاقات بين البلدين السودان ومصر، بجميع الصلات الممزقة ، لكن تنفيذ هذا لم يكن بالأمر الهين.

إن من المعتاد فى البلاد المتحضرة أن يكون هناك سبب قوي لتدخل الدول لإعادة النظام. ظلت الحكومة البريطانية ترقب بحذر مجهودات مصر فى الجلاء عن السودان وإحضار الحاميات الى مصر سالمة. لم تقدم أي مساعدة عسكرية على الإطلاق. ولكنها قدمت النصائح وكان الرأي السائد أن هذه مهمة تحتاج الى رجال المهمات الصعبة، فكر الساسة البريطانيون كيف يمكنهم المساعدة بدون عناء تكاليف أو مجازفة، فى لحظة لعب فيها الشر نطق أحدهم باسم "غردون ". وعرض غردون على الحكومة المصرية إلا أن الحاكم "ايفيلين بارنج " وقف ضدها فى البداية على أساس أن التمرد فى السودان ذو صبغة دينية، وليس من المنطقي أن يبعث شخص مسيحي على رأس الحملة المنقذة . كان رجال الخديوي يفضلون الاستنجاد بالزبير رحمة ، هذا الرجل الذي قتلوا ابنه، صادرو أملاكه واحتجزوه عنوة، ولكن كانت ثقة الحكومة فى إمكانياته كبيرة. هذا هو

المندوب الذي تاقت له الحكومة، وقد أيد الفكرة لكل من كان على علـم بـالاحوال المحلية. بعد مضي أسبوع من رفض سير ايفلين بارنج فكرة الاستعانة بخدمات الجـنرال غردون كتب يقول " مهما كانت أخطاء الزبير يعتبر رجلا ذا قوة كبيرة وحزم شـديد. الحكومة المصرية ترغب فى الاستعانة بخدماته وبيكر باشا حريص على الاستفادة منـه. من المعلوم لو كان للحكومة حق الاختبار إذن تم اختيار الزبير وارسل للسودان لمواجهـة المهدي بعد أن يتم تعيينه سلطاناً على السودان ومدة بالرجال والعتاد كان الاحتمـال الكبير أن ينهار المهدي فى ذلك التوقيت بالذات إذ واجهه الزبير الذي لا يقل عنه شهرة بل ربما بفوقة فى الإمكانيات. أخيرا لم يكن للحكومة أي خيار وفرض غـردون. لأن الحكومة البريطانية ما كانت لتستطيع التعامل مع رجل كالزبير وتاريخه معـروف . إن الاختلاف بين الرجلين "غردون" و "الزبير" كالاختلاف بين خط الاستواء والقطـب الشمالى . عندما تتشابك المسائل فى عقول البشر فإن كل الأفكار أحيانا تصل الى نفس الاستنتاجات ، لم يكن هناك سجلات للرسائل الكثيرة المتبادلة بين الحكومة ومندوبها. لكن كان واضحا من البداية أن "ايفىلين بارينج " غير راض عن اختيار "غردون" نسبة لسمعته السابقة، وتخوفه من عودة نفس المشاكل والاضطرابات . كان المد فى صـالح "غردون" قويا حتى "إيفيلين" لم يستطع وقفه . طلب "اللورد ووزلي " فى السابع عشـر من يناير من " غردون " الحضور الى لندن، اجتمع مع المجلس يوم ١٨ يناير وفى نفـس تلك الليلة بدأ الرحلة التي لن يعود منها أبدا. انهمك " غردون " فى مهمته بروح عاليـة مزهوا بشخصيته ذلك الزهو الذي كثيرا ما يضلل عظماء الرجال وجميلات النسـاء، وذاكرا انه أعظم شرف يكلف به . كان الرضا يملأ الجميع . الوزراء ارتـاحوا لهـذا الاختيار، وقد أعطي المبعوث الكبير دلالات الثقة، وكان اجتماعه مع الخديوي جيـدا، حيث أعطي كل السلطة وكلف كل أعيان السودان وأهاليه بالتعـاون التـام معـه. الخارجية البريطانية مع اعترافها بعدم فهمها للأوضاع فى السودان قد أعطته سـلطات كاملة وحرية تامة للتصرف وضعت مائة ألف جنيه إسترليني فى الحساب الخاص به مـع وعد بدفعات جديدة متي احتاج اليها، مع التأييد الكامل سواء من جانب المصريـين أو

الإنجليز على التعاون الكامل. وأيد سير "ايفيلين بارنج"بأنه لاخلاف بينه وبين نوبـــار باشا وأفكار غردون . وهكذا تحت تأثير تنبؤات متفائلة بدأت هذه العملية المأســـوية المشئومة.

بالرغم من صعوبة المهمة إلا أن الأهداف كانت محددة .كرر له "سير ايفيلـــين بارنج" الهدف الواضح لمهمته هو الجلاء عن السودان"-كما أكد الخديوي أيضا،"عليك جلاء كل رعايانا من عسكريين ومدنيين وكل من يرغب من أهالى البلاد التوجه لمصر، ثم تعمل على تنظيم حكومة فى المديريات المختلفة". كان غردون يحس تماما بثقل المهمة ، حتى أنه سطر بعض الآراء فى المذكرة التي خطها وهو لا يزال على المركب "تـــانجور " الى س من الظلم أن نقهر هؤلاء القوم بدون أي ضمانات لحكومة عادلة . أيده فى هـــذا استيورات الذي كان يرافقه، كل من عاش فى السودان كان يشعر بكبر حجم هـــذه البلاد وقلة نفعها ، وكما ذكرت المذكرة: يالها من تركة ثقيلة على مصـــر . الى هنـــا والاتفاق كامل بين المبعوث وحكومة الأحرار .

ليس هذا مجال وصف رحلته عبر الصحراء من كورسكو الى أبو حمد ومقابلاتـــه مع أعيان بربر أو تصريحاته بالتخلي عن السودان التي كانت طامة عليه . وصل الخرطوم يوم ٢٢ فبراير واستقبل بالأفراح من كل الطوائف إذ كان حضوره مصـــدر اطمئنـــان للناس حتى الذين كانوا على وشك الرحيل شمالا تريثوا ظنـــا بـــأن كـــل إمكانيـــات الإمبراطورية تقف خلفه . كانت هذه الأخبار مصدر قلق للمهدي ورفاقـــه، وظـــن الجميع أن حضور "غردون " سيتبعه الجيش لا محالة . أثر هذا الأمر علـــى تحركـــاتهم وأزعجهم جدا . ولكن قد خدع الأصدقاء والأعداء معا- فغردون وصل الخرطـــوم، ولكنه سوف يبقي وحيدا .

الظواهر التي شاهدها فى رحلته للخرطوم لم تترك لديه أي مجال للتشكك فى حجم المحنة التي يحاربها . وجد نفسه محاطا بحركة وطنية جبارة ومد ثوري ضد كل ما هـــو أجنبي . حتى جنوده سودانيون وهو الأجنبي بالإضافة الى أن بين كل هؤلاء تجار الرقيـــق العرب الذين طالما عاداهم وحاربهم أكثر حتى من "سير صمويل بيكر " ثم إن الحركـــة

يدفعها حافز ديني قوي ، الإسلام يتحرك ضد الكافر ، وهو مسيحي ، حتى جنوده كانوا يؤمنون بالاسلام الذي جاءوا لمحاربته. كان جو العداء يملأ أرجاء المكان ، هنا شعر بقوة المقاومة وبالرغم من أهازيج الجماهير وفرحتها بمقدمه، وطلقات المدافع معلنة الفرحة، وبالرغم من الشعور عند الناس فى إنجلترا بأن المهمة قد أنجزت ، وبالرغم من ان رجالات الحكومة كانوا قد بدأوا فى تهنئة أنفسهم على حسن الاختيار. بالرغم من كل هذا، وفى نفس يوم وصوله جلس غردون وأرسل برقية رسمية للقاهرة مطالبا بحضور " الزبير باشا " .

إن علاقة غردون بالزبير علاقة مميزة . لقد قتل سليمان ابن الزبير، إن لم يكن بأمر غردون شخصيا فقد تم هذا أثناء فترة حكمه للسودان . وهكذا أو كما قال: هل يترك الله فراغا فى مستوي أعدائه ! لم يكن قد تحرك بعد من لندن ، أرسل برقية شديدة "لايفيلين بارنج " بأن الزبير شخص خطر جدا، ويجب إبعاده حالا الى جزيرة "قبرص " لم يكن هذا فى مقدور المندوب البريطاني فى مصر . وصل الجنرال كالعاصفة وراء برقيته وهاج وغضب عندما علم بأن الزبير ما زال موجودا بمصر .

زار غردون شريف باشا الوزير المستقيل قبل أن يبدأ رحلته، ووجد عنده الرجل الذي حاول أن يتفاداه " الزبير " ،حياه بحرارة، وتكلموا لفترة طويلة عن السودان بعدها أسرع غردون للسيد " إيفيلين بارنج " طالبا أن يرافقه الزبير الى السودان . استعجب بارنج من تصرف غردون وشعر بأنه وليد وقته ولا يعتمد عليه . إذ ربما غير رأيه غدا .ألح على الجنرال، وصارحه بأنه غير رأيه فجأة، ولكن بداخله شعور قوي بأن مشاركة الزبير فيها نجاح للعملية. سافر غردون والفكرة ما زالت مسيطرة على قناعاته بأهمية الزبير وعليه فإنه عندما كرر طلبه بطريقة رسمية من الخرطوم شعر " بارنج " بأن لدي غردون قناعة تامة بأهمية إرسال الزبير، وأن الأمر لم يكن وليد اللحظة .

باءت بالفشل كل محاولات " بارنج " والحكومة المصرية فى إقناع حكومة الملكة بالاستجابة لطلب غردون من منطلق أنها أي حكومة الملكة لا تريد أن تكون لها أي صلة بهذا الرجل السيئ . أصر غردون على طلبه وأيده زملاؤه فى ذلك وأبرق مرة

أخري فى واحد مارس يقول: من الاستحالة بمكان أن يجلي رعايا القاهرة بدون تنفيذ الطلب الذي أرسلته. رفض طلب اشتراك الزبير وأبرق مرة أخيرة يوم ٢٨ مارس "إن لم ترسلوا الزبير لا أمل فى إخراج الحاميات من هنا " أيد الجنرال " بارنج " هذه البرقيات بأن الجنرال غردون محق عندما يقول إن أهمية الزبير الرجل القوي لنجاح أي عملية أمر حيوي ، ساند نوبار باشا هذا الرأي، وكذلك الرحالة الدكتور بوهندورف ، أضاف غردون أن الباشا شرير، لكن لا يمكن الاستغناء عنه".

رفضت حكومة الملكة حتى مناقشة الأمر حتى لا تكون لها أي علاقة بالزبير، وسوف يذكر المؤرخون صواب أو حكمة هذا القرار. إذ كانت الحساسية بتلك الدرجة تساوي الثمن الباهظ الذي دفع، وهل كان فى الإمكان تفادي إحراج الكرامة بالأهوال التي حدثت أو منع حدوثها أصلا . فى رأي غردون لو تم إرسال الزبير فإن بربر لم تكن لتسقط. إذ كان فى الإمكان خلق حكومة تواجه المهدي لكنهم رفضوا مشاركته لماضيه فى تجارة الرقيق كأنهم يقولون لنترك ما هو أسوأ .

إذا جاز لنا أن نتشكك فى عدالة القرار فإن تبعات أسبابه واضحة للعيان. إما أن تكون الحكومة البريطانية مهتمة بأمور السودان أولا تكون . إذا كانت غير مهتمة كان لزاما عليها ألا تتدخل فى تعيين الزبير، وإذا كانت مهتمة فكان واجبا عليها تأمين جلاء الحاميات . لقد آمن غردون بهذا، وقال:" علينا أن نعمل على سلامتهم وإنقاذهم بأي ثمن " وقد ساند موقفه هذا بحياته . البعض يقول: ليست هي مسئولية الحكومة البريطانية، وليس من العقل أو الحكمة أن تترك كل الأمور لمشاعر النبل والفروسية لدي بعض مواطنيها تجاه الغرباء .إنجلترا لم تسئ حكم السودان أو تكون سببا فى التمرد أو زرع الحاميات، وليس على مصر توقع أي شئ سوي العطف . تغير كل هذا بمجرد أن رفض الزبير. إذ كان دلالة واضحة بأن ما يجري فى السودان يهم الشرف البريطاني تماما كالشرف المصري . عندما رفض الشعب البريطاني وليست الحكومة وحدها بسبب المبادئ التعامل مع الزبير فإنها تكون قد ألزمت نفسها بتحرير الحاميات سلما أو بالقوة إذا دعا الأمر. بعد رفض اشتراك الزبير ، ساءت العلاقة بين الحكومة والمبعوث. احتار

فى ردود الفعل لطلبه، وتخيل أن هذا سيكون مصير أي طلبات أخري ولكنه كان مجبرا على الطاعة، فراح يفكر فى خطط أخري للخروج من المأزق . لقد شعر بأنه مسئول عن جلاء هؤلاء البشر الذين وثقوا فيه، ولا يمكن أن يترك مصيرهم للمهدي. وثق فى البعض وعينهم فى وظائف إدارية وصمم على البقاء فى الخرطوم حتى جلاء آخر فرد.

كانت لدي الحكومة نفس روح العناد والإصرار مهما كلفهم ذلك. على ألا ترسل جنودا إضافيين، أو تتوغل فى مجاهل إفريقيا . قد تسقط المدينة وتباد الحاميات والمبعوث ، ولكن سوف لا يعلم بنواياهم نحو المبعوث الى أن ينقرض هذا الجيل والأجيال القادمة ويطويها النسيان .

قال البعض: كان على الخارجية البريطانية تقدم بعض المقترحات بالانسحاب مثلا على دفعات، طالما سوف تساندها عبارات الشكر والتمجيد والمنح اللاحقة، ولكن بينما كان الكثيرون سوف يرحبون بترك مثل هذه الوظيفة الخطرة، فان الرجل الذي أرسلوه كان قد خرج عن طوع الجميع وأصبح لا يهمه ما يمنعون أو يعطون . سارت الأمور من سيئ لأسوأ. إن كل المقترحات التي تقدم بها غردون أصبحت غير عملية بعد أن تم رفضها الواحدة تلو الأخرى . طلب الزبير رفض، كما رفض طلبه قوات من تركيا، لقوات مسلمة من الهند اعتذرت الحكومة عن إجابة الطلب ، ثم طلب المساعدة من السلطان رفض، كما اقترح أن يذهب الى الاستوائية بالباخرة رفض طلبه . اقترح أيضا إرسال ٢٠٠ فرد من الجيش الإنجليزي الى بربر أو حتى أسوان، لم يرسل أحد . وأخيرا اقترح أن يقابل المهدي ليتفاوض معه باسم الإنسانية لما قد يكون لديه من قلب رحيم وقوبل طلبه بالرفض التام . أخيرا أصبح الصراع واضحا و لم يخف استياءه. بعد هذا كتب يقول :أحملكم مسئولية التخلي عن الحاميات وكل الخزى والعار ، إنها قمة الخسة، ثم أكد بقاءه مع حامية الخرطوم .

سوف لن أترك هؤلاء الناس بعد كل ما عانوه ، وإنني لا أجد خياراً لدي غير أن أطلب من حكومة صاحبة الجلالة قبول استقالتي .

لم يبت فى طلبه ، عندما أحس بالغضب والمرارة . عندما شعر بأنه أصبح وحيـــدا أرسل مكتوبا خاصا للسير " إيفيلين بارنج " يقول:-

أنا اشعر بالرغم من مشاعرك الدبلوماسية بأنك تؤيد موقفى. وإن كل رجل يشعر فى مجال عمله بأنه إنسان كامل الأوصاف، وكآخر أمل أرجو أن تطلب مـــن السـيد "صمويل بيكر" أن يتوسط لدي الرأسماليين من مليونيرات بريطانيا وأمريكا أن يسهموا فى تدبير مبلغ ٢٠٠ ألف جنيه حتى أتمكن من إتمام عملية الجلاء ، بدون إذن أو حــتى موافقة الحكومتين فى لندن والقاهرة . أرسل سير صمويل بيكر خطابا طويـــلا للتـايمز اللندنيه مبديا احتجاجا مؤثرا ومطالبا فى التماس تقديم الدعم والمساعدة المطلوبة . هكذا كانت مظاهر العملية البائسة حتى السجلات الخرساء كانت تئن من مشاعر الإحبـــاط وكان هذا بعض الذي يجري. أما خارج الملفات والحبر والورق فكانت أحداث كثـيرة مثيرة تجري .

لقد أثار وصول غردون للخرطوم مشاعر التحفظ والحذر لدي المهدي وخليفتـــه بالرغم من أن تأكيدات غردون فى بربر قد طمأنتهم بعض الشيء وأيضا عدم وصـــول أي إمدادات لغردون. بكل شجاعة قرر المهدي وخليفته محاصرة الخرطـــوم نفســها . شجعهم فى ذلك عودة الروح الوطنية ومصادر قوة إضافية للثورة إذ يمكننا النظـــر الى الشرق حيث بالإضافة لكارثة هيكس قد حلت كارثة أخرى مثيلة. انضمـــت قبيلـة الهدندوه فى شرق البلاد للثورة المهدية لما عانته من سوء الأحوال وتعسف حكومـــي. كانت تحت قيادة القائد الخالد المشهور " عثمان دقنة " كانت الحاميـــات فى طوكـر وسنكات محاصرة وعانت كثيرا ، تخلت حكومة صاحبة الجلالة عـــن أي مسـئولية . عندما كانت هذه المناطق على ساحل البحر الأحمر لم يمنع هذا من تحـــرك الحكومـة المصرية لإنقاذ حاميتها وإنقاذ الجنود المحاصرين ، وعليه أرسلت قـــوة قوامـــها ٣٥٠٠ محارب من سنكات لنجدة طوكر فى فبراير عام ١٨٨٤ تحت قيادة الجنرال بيكر الـذي كان من أشجع فرسان " الهسار ". تمت مهاجمتهم عند آبار " تيب" فى ٥ فبراير مـــن

حوالى ١٠٠٠ عربي . انهار جيش الحكومة وهرب معظم جنوده تـاركين سـلاحهم وراءهم مما ساعد قوات " عثمان دقنة " على قتلهم بدون مقاومة .

فشلت كل محاولات الضباط الأوربيين وقائدهم فى جمع شمل الجنود وحثهم علـى الثبات والقتال . تراجع بيكر ومعه حوالى ١٥٠٠ مقاتل الى سواكن تاركين أسـلحتهم وعددا من القتلى، ٩٦ ضابطا وحوالى ٢٥٠٠ جندي على أرض المعركة . غنم العـرب كميات هائلة من مدافع كروب وبنادق رشاشة وجبخانه وأصابهم جنون الانتصـار. فهجموا على حاميات سواكن وطوكر واحتلوها بعد أن أبادو كل ما فيها من قوات .

جاء الشر وانتهت المذبحة ، وأصرت الحكومة البريطانية على أن تزيد عليها، هـذه الحاميات التي رفضت من قبل أن تنقذها وتريد الآن أن تنتقم لها .

بالرغم من نصائح غردون خوفا من أن تقفل عليه خطوط الرجعة المحتملة أرسلت الحكومة قوة كبيرة من الهسار العائدين من الهند، أرسلت القوة الى سواكن تحت قيـادة جراهام . تجمعت القوة بسرعة ، وأعطيت خيل الجندرمة (رجال الشرطة) وأرسـلت الى أرض المعركة. نفس المنطقة التي شهدت المذبحة السابقة . فى ٤ مارس قتلت الحملـة أكثر من ٣٠٠٠ هدندوى واجبروا البقية على الرحيل الى مناطق بعيـدة. واشـتركت القوة في معركة ثانية فى "كامامي" وكان النصر أيضا من نصيب الفرقة الإنجليزية مـع خسارة كبيرة عند العرب . لم يأت النصر بلا ثمن فقد فقدت القـوات الحكوميـة فى "التيب " ٢٤ ضابطا و١٦٨ مقاتلا و١٣ ضابطا و٢٠٨ مقاتلين فى تامي . أسفرت هذه العمليات عن تشتيت قوات " عثمان دقنة " ذلك القائد الماكر الذي عرف لأول مـرة ولعلها آخر مرة معني التقهقر.لقد كلفت تلك المعارك ١٠ آلاف قتيل فى أقل مـن ٣ شهور فى شرق السودان، واعتبرت قوات الحكومة انتصارها فى نظامها. دحروا أهـالى البحر الأحمر أمامهم ولكن فى النهاية كما كانت هذه المعارك بلا سبب كذلك كـان انتصارها انتصاراً بلا مقابل .

كان من الواضح فشل المهمة بمجرد أن رفض طلب اشتراك الزبير وأرسل الجنرال رسائل عديدة كأخر محاولة، ولكن تم رفض كل طلباته واقتراحاته، وأصبـح السـؤال

الآن كيف يمكن إرجاعه سالما ولو بالرغم منه . استعمال القوة هو الحل الوحيد وقد ساعدت الانتصارات فى شرق السودان فى فتح الطريق ، بربر لم تسقط بعد، واقترح أن ترسل قوة طائرة على ألف جمل سريع لمحاولة النجدة، لكن العملية لم تجد الحماس اللازم فى جهاز الحربية. بقي أن ترسل حملة كبيرة حسب إصرار مندوب الحكومة بمصر إلا أن الحكومة تماطلت وضاع وقت ثمين . فى ذلك الوقت كان المهدي لايزال فى طريقه من الأبيض الى الخرطوم .

لقد ساءت الأحوال فى الخرطوم حتى قبل القطيعة بين المبعوث " غردون " وحكومة الأحرار برئاسة قلاديستون. وبينما كانت الحكومة البريطانية منهمكة فى العمليات الانتقامية بشرق السودان ، تحرك المهدي على مهل الى الخرطوم يتبعه اكثر من ١٥ ألف رجل. فى ٧ مارس أرسل الكولونيل استيوارت برقية من الخرطوم تقول : "إن المهدي أرسل المناديب لتحريض أهالى شندي للانضمام للتمرد، ونخشى أن يقطعوا الطريق علينا" .

فى ١١ مارس أرسل غردون بنفسه رسالة تقول " إن الثوار على بعد ٤ ساعات على النيل الأزرق " لم تأت أي برقيات بعد ذلك، فى ١٥مارس تم قطع خط التلغراف بين بربر وشندي، وهكذا اكتمل الحصار.

سوف يحسب لغردون كيف أنه استطاع السيطرة وإدارة الأمور فى المدينة المحاصرة لأكثر من ٣١٧ يوما، وهو المسيحي الأجنبي وسط آلاف المسلمين والأفارقة، وانه استطاع السيطرة على ٧ آلاف مقاتل من أجناس مختلفة، وكيف أنه بث روح الشجاعة فى قلوب أكثر من ٣٠ ألفا من الأهالى من سكان المدينة، وكيف قاوم بشراسة عدوا قويا، عدوا رغم قسوته ربما يقبل التسليم .

لقد كانت الحادثة الفريدة والوحيدة فى التاريخ ولن تتكرر ربما لن تسمح الظروف لشخص أن يسجل خواطره ومذكراته، وفيها ذلك الكم من التفاصيل والتشويق،كما سجله الرجل بنفسه فيما اسماه "جورنال الخرطوم". لقد مست تلك الخواطر قلوب آلاف القراء فى أوربا وأمريكا. لأن غردون غير مكترث لنيل عطف

الرجال، فكان من السهل الحصول عليه ، وقبل أن يكمل الجزء الأول من الستة أجزاء للجورنال،كان قد استحوذ على إعجاب القارئ الذي أصبح فى تلك اللحظة ينظر للعالم بعيون " غردون": تعاطف معه القراء فى السخط على الدبلوماسيين ، واحتقار الحكومة ، وأيدوه لنفاذ الصبر عندما تحبط محاولات ضابط الاستخبارات " كتشنر " فى توصيل رسائله ، وعاش القارئ معه وهو يصف عساكر الاحتياطي من الشايقية المتعبين،أو استغرابه من تصرف الخدم السود عندما يشاهدون وجوههم لأول مرة على المرايا ، أو هو يراقب الديك الرومي وحريمه، بين زوجاته الأربع ويرتجف مثله لمصير المركب الصغير "الحسينية" ومؤخرها والصاري غارقين فى المياه الضحلة ، مركب صغير تحت وابل من القذائف .

ظل يوما بعد يوم يراقب من السطح بمنظاره المعظم النهر تجاه شلالات السبلوقه ، يتوق لأي أثر للبواخر القادمة بحملة الإنقاذ، وعندما شارفت المذكرات على النهاية فإنه من الصعب على أي رجل بريطاني المولد أن يقرأ السطور الأخيرة : أرجو أن تسجلوا "إذا لم تصل حملة الإنقاذ ، وأنا لم اطلب أكثر من ٢٠٠ رجل ، فى ظرف عشرة أيام فإن المدينة سوف تسقط ، لقد عملت كل ما فى وسعي لشرف بلادي ، مع السلامة".

وبدون إثارة، وفى اعتذارات جوفاء أو قرارات بلا قيمة انتهت المذكرات، وساد الصمت وعم الكون السكون .

أرسل الجزء السادس من الجورنال " فى ١٤ ديسمبر، وكان هذا آخر جزء ، عندها شعر القراء بحزن وأسف لفقد رفيق طيب وشعروا أيضا بغضب دفين، فالأشياء التي كان يغذيها الخيال أزاحتها جانبا قوة الحقيقة ، من تلك اللحظة لم تسجل اللحظات المأسوية فى نهاية "غردون " .

أريد هنا أن اختار أحد أجزاء " الجورنال " لكي تعطي صورة عن شخصية غردون الغريبة العبوسة وتصرفه حيال سلاطين . المعروف أن سلاطين كان ضابطا نمساويا فى خدمة الجيش المصري برتبة " بيه " وكان حاكما لدارفور استطاع أن يدافع عن المديرية، واشترك فى معارك كثيرة ضد قوات المهدية ، جرح عدة مرات ونجح

مرات، ولكن فى النهاية قل حماس المقاتلين الذين معه وشعر بعضهم بأن عدم نجاحـــهم النهائي يرجع الى كون قائدهم شخص كافر. فى الكتاب الذي ألفه بنفسه " السـيف والنار " شرح كفاحه أثناء المحن التي مرت به، بأن الكتاب يـدل علـى أن سـلاطين شخصية ذات مشاعر وشرف، وقد تعاظم شعور بأنه كافر وسط مقاتليه عندما أعلـن إسلامه واعتنق الدين الإسلامي فهلل رجاله لهذه الخطوة التي إن أطالت مقاومتهم بعض الشيء إلا أنها لم تنجح، واضطر أخيرا للتسليم لقوات المهدي. خاصـة بعـد هزيمـة هيكس. كانت خطوته فى الدخول فى الإسلام لنيل الانتصار قد حققت له السـلامة، إذ استطاع أن ينال إعجاب واحترام العرب، وظهر هذا فى معاملتهم الكريمـة فى بدايـة اتصاله بهم. لقد وصل سلاطين مع باقي الأوربيين لمعسكر المهدي خـارج الخرطـوم، وكان طليقا، لكنه مراقب بلا شك. لقد انتهز أول فرصة وكتب خطابـات لغـردون طالبا السماح له بالهروب واللجوء اليه مبينا عذره فى ارتداده عن الدين المسيحي: كـل الذي يقرأ تلك الخطابات لابد أن يتعاطف مع هذا الشخص الذي أمضـي ١٢ عامـا شاهد خلالها كل الأهوال، لكنها لم تحرك ساكنا عند غردون . تفسيره انه يخـاف إذ يتبع هروب سلاطين انتقام المهدي بقتل كل الأوربيين فى صحبته، وأثبتت الأيام خطـأ هذا الرأي. لم يقتل أحد عندما هرب سلاطين فيما بعد والأمر المعقول إذا نجح سلاطين فى الهرب فاللوم على ساجنيه ،وإذا قتل المهدي الأوربيين فإن الذنب ذنبـه . لم يكـن غردون مرنا. إذ كانت نظرته لسلاطين نظرة ازدراء حتى قبل أن يتسلم رسائله. كتـب غردون معلقا : يجد المرء تسلية فى تصور هذا المزيج العجيب من البشر الـذي يرافـق المهدي.أوربيون قساوسة وراهبات، إغريق وضباط نمساويون! عساكر وكباتن. كـان حذرا من الظروف التي أدت الى تسليمه للمهدي. يقول سلاطين كان عند الإغريقـي ٤٠٠٠ إردب ذرة وألف وخمسمائة رأس بقر وكمية كبيرة من الذخيرة،وقد أعطي هـو ثمانية خيول. أنه سوف لن يأمن لمثل هذا الرجل، وكتب يقول كل المعلومـات الـتي أرسلها يجب التعامل معها بحذر . اللحظة الحاسمة جاءت عندما طلب من سـلاطين أن يكتب لغردون ليعلن استسلامه ، غير سلاطين الطلب ليؤيد هروبـه. فى١٦أكتوبـر

وصلت اللحظة التي لارجعه فيها، وصلت خطابات سلاطين. فقال غردون إنه لن يعلق عليها ولا يدري لماذا كتب سلاطين ! إنه لأمر يؤسف له ، كأنه أسف رجل على فأر . وقال إنه لن يكون له أي صلة بسلاطين. يجب أن نذكر أن موقف سلاطين لم يكن موقف ضابط تحت التحفظ،ولكن سجين حرب ما زالت مستمرة، وكل الأعراف تعطيه الحق والتفكير فى الهروب لتحرير نفسه . بالطبع لم تتح أي فرصة لسلاطين لشرح موقفه. بعد أن اكتشفت خطاباته اعتقل وكبل بالسلاسل، وكان كل طعامه من الحبوب الجافة تماما كالحيوانات. وصلت كل هذه الأخبار لغردون،فكتب": سلاطين ما زال تحت الأغلال" و لم يشك لحظة فى صحة القرار الذي اتخذه حياله. قليلون هم الذين سوف يحكمون بأن وجهات النظر كانت متوازنة ، غردون لم يتردد وكان حازما رغم أنه محتاج لسلاطين . كانت حاجته ماسة لنائب كفء يثق فيه، رجال مثل "جسي" أو "ميتادقليا" يمكن أن ينوبوا عنه فى تكليف الجنود وإعطاء الأوامر ، لقد ظل يردد نفس الأمر أكثر من مرة حتى (زهج) من حياته .

هذا الرجل كان يريد خدمات الزبير لكنه انحني للعاصفة، ولو أن الزبير لم يرفض نداء سيده . تفاصيل الدفاع عن مدينة الخرطوم لم تكن ضمن مذكرات " الجورنال " وليست لدي رغبة فى تصنيفها حسب التسلسل الزمني . بعد ١٠ سبتمبر عندما أرسل غردون كل من " استيوارت" و "باور " و "هيربن " على ظهر الباخرة "عباس" التي لاقت مصيرا مشئوما ظل وحده تماما متحملا المسئولية كاملة بلا رفيق فى مكانته، ولا مساعد ثقة يمكنه أن يعتمد عليه وكانت النتيجة الحتمية هي الفوضى الكاملة ، التهاون والمؤامرات بين الضباط والجنود . تراخي نقاط الحراسة،سرقة المؤن،الجواسيس يملاون المدينة،انتشرت السرقات وانحدرت الروح المعنوية للأهالى،و لم تعد المدينة فى موقف يمكنها من الدفاع عن نفسها. ظل هو وحيدا يراقب معارك البواخر الصغيرة وهي تناوش قوات الدراويش،واضطر أن يترك أمر القتال الى ضباط مستهترين غير أكفاء .

ويأتي الظلام فيحرمه من مشاهدة أو مراقبة ما يجرى، وبالطبع لا أحد يشرح له ما يجري من أحداث حوله كان " الجورنال" هو مخزن أسراره ومصدر ثقته الوحيد،

وكان يظهر عمق ومرارة معاناته بنفس القدر الذي يظهر عظمة شخصيته . كتب يقول " ليس هناك عدوي تعادل عدوي الخوف" أصبحت قلقا وفقدت شهيتي للطعام بسبب القلق والانزعاج، وكان من يشاركونني المائدة يحسون بنفس الشعور والإحساس وأضيفت المعاناة العسكرية، كل أنواع الهموم التي تؤثر على روح أي إنسان. كان النساء يتصارعن على لقمة العيش ، كال السكان كل اللوم عليه. خلافه مع الحكومة البريطانية أثر على نفسيته وزعزع إيمانه بقدراته هل ياترى أخطأ التصرف ؟ هل كان عادلا ؟ ظلت هذه الأفكار تنخر فى شعوره وروحه.البؤس الذي أصاب الأهالى كان يؤثر على قلبه الطيب ، الوحدة القاتلة سببت له الإحباط الكثير ،وظلال الشك وعدم الىقين تملأ أركان المكان . كان لآخر لحظة يملؤه الأمل الخادع بأن كل شئ سيكون على ما يرام وأن الصبح سيأتي بالقوات الإنجليزية وملابسها المميزة تحملها البواخر ، لقد حرم الرجل حتى من الحذر الملازم لليأس .

أمران مكنا غردون من الصمود ، شرفه كرجل ، وإيمانه كمسيحي ، الأول جعله إنسانا واضحا ينفذ ما يؤمن به بدون تردد وبلا أي أسف أما الأمر الثاني فإنه كان سر قوته الحقيقي . لقد كان مؤمنا بأنه رغم كل الصعاب التي يواجهها فى هذا العالم، فإن هنالك عالماً فاضلا فى انتظاره .

قال مرة مازحا لأحد أصدقائه " انظر الى، معي حفنة جنود لأقودهم وليس لدي مدن أحكمها ، يوما ما سيطلق الموت سراح حريتي، وأذهب حيث هنالك جنود حاشدة ومدن كبيرة، كلها تحت إمرتي " ،هكذا كان أمله الناصع فى خلوده. وفى وسط شدة المعارك يشتد التحلي بالنظام والروح القتالية والمقدرة فى فنون القتال، ويزيد نتائج القتال الانصياع للأوامر وتحمل المصاعب طالما كانت المعارك قصيرة . لكن عندما تدهورت الأحوال تنعدم المؤن، وتفشل كل الترتيبات يضطر الرجال لقبول ما هو متاح. لأن الرفض يعني العدم . تبقي الحقيقة المرة هي أن الخوف هو أساس الطاعة . كانت المدينة وكل ما بها يتماسك من قوة الخوف، وكتب يقول "من المحزن والمؤلم أن

تري الرجال يرتعشون وهم فى مواجهتي" ومع كل استعمل كل الطرق ليكون القـــدوة لكل مجهوداتهم .

عندما دنا الشتاء بدأت المعاناة من الحصار وتناقصت الآمال فى الوعود بأن النجدة قادمة، وكان أمر التحكم فى الظروف والتمسك بالروح العالية يفوق طاقـــة أحســـن الرجال إلا أن " غردون " كان لها .

لم تشع روحه العالية كما توهجت فى أحلك الأيام ظلمة وصعوبـــة، وعندمـــا انعدمت النقود، كان يصنع الأوراق ويمضي عليها بنفسه ويعطيها للجنود، أمر فرقـــة الموسيقي أن تداوم على العزف وأن تطلق الصواريخ لطمأنة الناس ، عندمـــا ســـرت إشاعات بأن القائد أصبح وحيدا بعد أن قاطعته حكومته، وليس هنالك أي نجدة قادمة، سارع الى الأمر بأن تملأ جدران المدينة بأخبار الجيش الجرار وقوة انتصاراته فى طريقـــه للخرطوم ، وطلب أن تؤجر المنازل الضخمة على ضفاف النيل لسكن كبار قادة الجيش الإنجليزي القادمين !! استطاع بهذه المجهودات والمناورات أن تتماسك المدينة، وأطـــال الدفاع عنها طيلة صيف وخريف وشتاء عام ١٨٨٤ وحتى عام ١٨٨٥ .

خلال كل هذا الوقت كان القلق يتزايد ، إذا كانوا يتخلون عن غردون فانهم لـــن ينسوه، كانت أخبار حملته تتابع باهتمام فى كل أنحاء البلاد، وكان فشلها يسبب ضيقـــا شديداً، وحلت محل خيبة الأمل نذر الخطر .

لقد أثار لأول مرة عضو بمجلس العموم اللورد راندولوف تشرشـــل فى يـــوم ١٦ مارس قضية سلامة المبعوث العام، وانتهز الفرصة وهاجم الحكومة على المذابح فى شرق السودان وفشلهم فى فتح طريق سواكن وبربر، وواصل تحذيره من خطـــورة موقـــف الجنرال غردون فى الخرطوم .

أكد أيضا الكولونيل كوتكوجن بأن الخرطوم يمكن أن تسقط فى أي لحظـــة، وأن الجنرال غردون محاط بقبائل عدائية من كل جانب، والاتصال مقطوع بينه وبين القاهرة ولندن . وسأل ما هي الخطوات التي اتخذتها حكومة صاحبة الجلالة لنجدته وإخراجـــه

حيا.؟ وتساءل هل ستبقي الحكومة على عدم اهتمامها بالرجل الذى، أرسلته لتسـوية المشاكل التي تخصها وتتركه وحيدا يجاهد بمفرده دون خطوة واحدة لمساعدته .

استمرت الحكومة فى سلبيتها، أعطي اللورد "فىتذمورس" بعض الـردود مـع همهمة وهتاف بعض النواب، ولكن طالما فتح الموضوع فسوف يستمر النقـاش . ـ ه، الفضل لحماس الرجل الشاب ، فقـد ازدادت المعارضـة للحكومـة.وردود مسـتر "قلاديستون" كانت كلها تهرب، وانهالت الصحف المحافظة، وكبرت حملة المعارضـة حتى من بعض نواب الحكومة ! استمر النقاش طويـلا، وفى النهايـة ألمـح اللـورد "هارتينجتون " بأن هنالك حملة سترسل فى الخريف .

كشف مستر "فوستر" معارضته الرئيسية، وامتد النقاش خارج مبـاني البرلمـان وأصبح الضجيج عاليا.

إن الطريقة التي عالج بها مستر " قلادستون " الأمر لم تكن إطلاقا من منطلق عـدم الاهتمام، ولكنه كرجل وطني يدين للجماهير بالمكانة العظيمة التي وصل اليها كانت له وجهة نظر. إن إرسال جنود لمحاربة القبائل البدائية بالمقارنة مع إمكانيات الإمبراطوريـة ليس بالأمر الصعب أو مسئولية لا يستطيع تحملها رجل فى مثل وزنه. لكنه شعر بـأن الأمر لا يستدعي إقحام جيش الإمبراطورية فى أمور تجري فى قلب السودان لمجرد إنقـاذ شخص وطني واحد . كان يري أن ما على غردون لو رغب فى ذلك التحرك بـالبواخر لخارج السودان ، كذلك كانت مشاعر الرفض ضده وهو الضابط الذي جر كل هـذه المشاكل على الحكومة، ولكن بالرغم من كل قوته و نفوذه ففى النهاية اضطر للرضوخ للضغوط الكثيرة. كأن اللورد " هارتينجتون " سكرتير وزارة الحربية آنذاك الدينمـو المحرك وراء قرار سرعة التصرف بما يمليه الشرف على المجلس ومطالبة.. الشعب، وقـد أيده كذلك القائد العام ووزير الدفاع . كانت موافقة مستر "قلادستون" مشروطة بـأن تتكون الحملة من فرقة واحدة ، ابتدأت الحكومة فى التحرك، وأعلن على الأمة شـبه التحرك فى هذا الاتجاه . إلا أن القائد العام أصر على أن تتكون الحملة من عشـرة آلاف رجل يتم تكوينها من كل وحدات الجيش ، كان من المستحيل تغيير الخطـة فى هـذه

المرحلة، وبدأت حملة إنقاذ " غردون " واختير القائد "سيراتش كتشنـز" الذي كـان على علم بالمهام التي تواجهه. لم يكن يجري خلف اندفاع مثير يمكن أن يحقق انتصـارا مثيرا أو يأتي بمأساة فظيعة ، كان التخطيط المتأني هو طريقه للمعركة وخطط ودبر كـل شئ لكل الاحتمالات، متى يكون التقدم بطريقة مدروسة ومعلومة .

بدأت القوات والمهمات تتجمع عند وادي حلفا . تكونت فرقة الهجانة الجديدة ، تكونت من أربع كتائب بدأت الترتيبات اللازمة، ولكي تعبر البواخر فوق الشـلالات أحضرت فرقة بحرية من كندا ، تمت كل الترتيبات وبدأت العملية . كـانت الخطـة بسيطة. أن تعبر فرق المشاة بالبواخر على النيل ، وإذا تأخرت تكـون هنـالك فرقـة الهجانة الجديدة فى طريقها عبر الصحراء ، صحراء البيوضة من كورتي الى المتمة. عنـد وصولها هناك ترسل قوة مع بواخر " غردون " للخرطوم لتقوية الدفاعات حتى وصـول القوة الرئيسية فى مارس أو أبريل عام ١٨٨٥ حتى يتم فك الحصار تدريجيا .

كانت شخصية العملية الدرامية تملأ خيال الأمة وتابع الناس أخبار التقـدم عـن طريق النهر باهتمام شديد وانبهار بكل التفاصيل :

كان وصف مصير فرقة النهر من نصيب الشخص الذي اشترك بدور فعال فى هذه المحاولة . حملة الشلالات كانت عملا شاقاً تتابع يوما بعد يوم ، صفوف الجنود معـهم يجرون الحبال أو يدفعون المقاديف للمراكب ذات الأجواف العريضة ، حتى إذا ما جـاء الليل عسكروا على ضفاف النيل وعلى رمال " صحراء المناصير " الموحشة ، كان مـا يشجعهم أن ثمرة كفاحهم سوف تؤتي أكلها بمجرد وصولهم الى منحني النهر عنـد " أبوحمد " حيث ستحملهم من هناك الرياح الشمالية بسرعة للخرطوم بسرعة ٥أضعاف سرعتهم السابقة .

بدأت فرقة الصحراء رحلتها من كورتي يوم ٣٠ ديسمبر وكانت قوتهم لا تزيـد على ١١٠٠ ضابط ورجال، ولكنهم كانوا خيرة المقاتلين فى الجيش ، أنزلوا وسـائل الاتصال وأخذوا طريق القوافل الى المتمة . المعلومات التي تحصلنا عليها عـن مصـادر القوة عند رجال المهدي ، تجعلنا نتفهم حجم الخسائر التي منوا بها بالرغم من أنهم غـير

مدربين ولا يملكون أي سلاح حديث، إلا أن أعدادهم كثيرة ،قلوبهم لا تعرف الخوف.

كانت أسلحة القوة الإنجليزية أيضا ليست فى قوة الأسلحة التي استعملت فى العمليات النهائية ، كانوا مسلحين ببنادق " تي مدفورد " بدلا من " مارتيني هنري " يحملون " قاردنر " بدلا من " الماكسيم " المميت تلك البنادق التي هي نفسها التي فشلت فى " تامي " ومرة أخري فى " أبو كليا " بالرغم من هذا سارعت فرقة الهجانة بالالتحام بعدو يستحق أسلحة متطورة أكثر من هذه وجيش أقوي ١٢ مرة .

وصلت القوة يوم ٣ يناير آبار جقدول بعد ١٠٠ ميل من بدء الرحلة ، تأخر سفرهم لانتظارهم فرقة أخري تحمل المؤن الى " جقدول " وقضوا ذلك الوقت فى بناء طابية ومخازن للمؤن حتى وصلت باقي القوة، وأصبح العدد يفوق ١٨٠٠ محارب ، لم يتحركوا حتى يوم١٣يناير،عدد الجمال لم يكن كافيا وأكلها كان من نوع سيئ بالنسبة للعمل الشاق الذي تقوم به. وعندما وصلت القوة يوم ١٦ يناير الى منطقة "آبار أبوكيلى"، اصطدم الجيش بقوات من العدو . وصلت أنباء القوات القادمة الى المهدي بأنها لا تتعدى ٢٠٠٠ رجل من أعداء الله الكفار ، هل جنوا ؟لم يسمعوا بهزيمة هيكس وجيشه العظيم ، كما ذكر سلاطين سحبت قوات من قوات الحصار حول الخرطوم وأرسلت تحت إمرة أكثر من أمير حتى بلغت القوة حوالى ١٠ آلاف محارب بعد أن انضمت اليها قوات من قبائل الجعليين .

وقفت فرقة الهجانة عند " آبار أبو كيلي " وسمحت قوات المهدي للفرقة الصغيرة بأن تتقدم بحيث لا يمكنها التراجع . هنا بنت الفرقة طابية صغيرة ومخازن للمؤن ولإيواء الجرحى ، بدأت القوة الهجوم فى الصباح بعد أن هيأت نفسها تماما للقتال .

بدأت أشرس معركة تشترك فيها قوات بريطانية اقتحمت القوات العربية معسكر القوة وألحقوا بها إصابات عديدة . قتلوا ٩ ضباط و٦٥ جنديا ، وجرحوا ٩ ضباط و٦٥ جنديا أى حوالى ١٠% من القوة العسكرية القادمة . تم إجلاؤهم من المعسكر بعد مذبحة رهيبة، وعسكر الهجانة عند الآبار . فى صباح يوم ١٨ ارتاحت القوات، دفنت موتاها وراعت الجرحى فى الطابية التي بنيت لهذا الغرض، وعند الظهيرة استأنفت

المسيرة، وطوال الليل حتى قطعوا ٢١ ميلا وأصبحوا على مشارف النهر حوالى يوم ١٩ . تجمع جيش الأعداء واستطاع بعد ضرب مركز أن يلحق بعض الخسائر ، قتل سير " هيربرت استيوارت " من جراء جراحة، وحل محله سير " شارلس ولستون" . كان الموقف متأزما فقد أصبحوا على بعد حوالى ٤ كيلوا مترات من النهر، ولكن بينهم وبين النهر قوات الدراويش الغاضبين على خسائرهم. لكنهم يعلمون الحالة الصعبة التي بقي عليها عدوهم العجيب انقسمت القوة الغازية الى قسمين قسم بقي مع المؤن والجرحى، وحوالى ٩٠٠ مقاتل زحفوا نحو النهر ، هنا انتهز الدراويش الفرصة وهجموا من كل صوب ، هلموا يا أبناء الصحراء .انتم كثرة وهم قلة. إن النصر حليفكم وفجأة وقف إطلاق النار. انتهت الذخيرة لديهم. هنا انبري الجندي الإنجليزي المدرب لإصابة الهدف فى مقتل وتساقط الأبطال بجيادهم، ورجع البقية راحلين يمشون لأنهم لا يمكن أن يهربوا. المقاتل لا يجري ، عادوا الى المدينة .

جمع سير " شارلس وليستون " رجاله وبقي ٣ أيام فى المتمة قبل أن يتوجه الى الخرطوم. لقد كشف الأسباب المقنعة لنقاده عن أهمية الوقوف. إذ لا ينتظر من قوة حاربت بهذه البسالة أن تسمح بضياع لحظة واحدة . فى اليوم الرابع أخذ سير "ولستون" الباخرتين التابعتين لغردون اللتين كانتاً فى انتظار القوة، وأخذ ٢٠ جنديا بريطانيا وقليلا من ذوي الياقات الزرقاء، "البحارة" وأبحر نحو شلال السبلوقة.لقد كان ماجرى لهم أقرب الى الحكاوي الرومانسية أكثر من المعركة، كانت المراكب تندفع على مجري النهر مع تيار الشلال القوي بين طلقات بنادق الدراويش من كل جانب وأصيبت غلاية الباخرة بقذيفة، وتم إصلاحها فى نفس اليوم ، منظر سير "ستيوارت ووورتكي" وهو يجدف عائدا الى المتمة لطلب النجدة ، الرصاص ينهمر على الباخرتين من كل جوانب شاطئ النيل ، فجأة اتجهت أنظار الرجال الشجعان نحو القصر فلم يروا العلم، و عندها أحسوا أنهم قد جاءوا بعد فوات الأوان .

وصلت أخبار الخسائر فى " أبوكلي " و" أبو كروا " الى المهدي، وكان الموقف خطيرا ولا يحتمل أي فشل آخر إن نجاح الثورة كله مبنى على الانتصار، وقرر التحرك السريع، فى يوم ٢٥ يناير ، وجاء اليوم المنتظر .

عند المساء عزفت الموسيقي كالمعتاد ورويدا عم الظلام.. وخلد سكان المدينة الجوعى الى النوم . شعر القائد الذي لا يقهر بأن الأزمة على الأبواب، ولكنه عاجز عن تفاديها، وكان راضياً عن نفسه لأنه عمل ما عليه ربما خلد للنوم أيضا . فى هدوء الليل تسلل العدو الوحشي الى داخل المدينة. كان هنالك شك فى أن الجنود المتعبين الجوعي المنهكين من الحرب قد أعدوا الحراسة اللازمة ، انتهز العدو انحسار جزء من النيل الأبيض الذي ترك فراغا بين النيل والحائط، ومع سماع دوي هائل نتيجة لانفجار البارود والصياح دخل آلاف الدراويش الخرطوم من خلال الأجزاء غير المؤمنة .

ذهب جزء من القوة الى القصر، وظهر غردون لملاقاتهم. امتلأ الجو بالرعب ولمعان الرماح، بادرهم بالسؤال. أين قائدكم المهدي ؟ لقد ظن أن بإمكانه إنقاذ بعض السكان ، كان يعرف مدي نفوذه بين الأهالى المحليين ، جاءت لحظة شعر بأنه لا يواجه نبيا مزعوما لكن أيضا أوربيين تنكروا لدينهم عندما خيروا بين الموت أو القرآن وكان محاصرا بدائرة التعصب الوحشي ، مع شجاعة تدفعها قوة العقيدة واستهتار شديد بالموت طلبا للشهادة .

لم يتمكن من عمل شي مع جنون الفرحة بالانتصار والاندفاع الديني ، هجموا عليه و لم يحاول حتى استعمال مسدسة، وانهالوا عليه طعنا فى أجزاء مختلفة فى جسمه ، وقع على درجات السلم، هنالك أجهزوا عليه فقطعوا الرأس وحملوها للمهدي ، وأعملوا فى باقي الجثة حتي لم يتبق منه شئ إلا أكوام لحم وخرق ممزقة مليئة بالدم ، هذا الشخص العظيم الشهير ومندوب مملكة بريطانيا . ظلت بقع الدم الأسود فى نفس المكان كما قال "سلاطين"! كان العرب يزورون المكان مرارا، وذكر "أوهرولدر" أنه شاهد بقع الدم السوداء على السلالم بعد ٦ أسابيع من سقوط المدينة ، ولكنها اختفت بعد ذلك .

هكذا وباختصار كانت قصة الخرطوم ومقتل "غردون ". وكان وصول الباخرتين بعد يومين من سقوط المدينة قد جعل البعض يتساءل لولا التوقف فى المتممة لثلاثة أيام لكان بالإمكان تفادي الكارثة . هذه المقولة غير صحيحة. كانت الخرطوم تحت رحمة العرب منذ وقت طويل، كان أملهم فى نجاح الحصار حتى يدخلوها بدون قتال، ولا يكرروا تجربة الأبيض المريرة ، غردون نفسه كتب فى الجورنال . "إن المدينة لا يمكن الدفاع عنها منذ منتصف ديسمبر" . إن وصول ٢٠ جنديا بريطانيا ما كان ليغير من الأمر شيئا بل بالعكس كان سوف يزيد فى حجم الخسارة .

ولكن كان الشعور السائد عند الجميع وكل من يقرأ الحكاية ، يأمل لو أن أي نجدة وصلت للرجل الوحيد قبل حلول الظلام، لو صافحته يد إنجليزية حتى يشعر أن أبناء جنسه لم يتخلوا عنه لم ينسوه ولن ينسوه .

من الاستحالة أن نعرف المكانة التي يتبوؤها "شارلس غردون" فى التاريخ الإنجليزي ولكنها حتما مكانة سامية . هل سيوضع فى مكانة القائد تماما كبيتر بروه ، وولف ، وكلايف ،سيقرر فى ذلك الذين سوف يأتون من بعدنا .

يمكننا أن نقرر على كل حال أنه رجل مثال للشرف والشجاعة المتناهية ولقد دلت شخصيته على عبقرية خلاقة . لم يكن يعنيه التشريف والمباهج الدنيوية ، كان على يقين بأنه سيجد المكافأة فى دنيا مستقبلية . كان تشدده الديني لا يقف فى طريق شخصيته الودودة . كان تقلب المزاج عنده سببا فى عدم رجاحة بعض أفكاره،ولكنها لم تؤثر على صدق نواياه . إن التمثال الذي وضع لغردون مع الضباط العظام الذين خدموا فى البحر أو الأرض أصبح مزارا لافتا للنظر لكل المارة. لأن قصته يعرفها الجميع حتى سكان الأحياء الفقيرة فى لندن ومن كل أنحاء المملكة المتحدة . يقف التمثال فى هدوء بالرغم من ضجة حركة المرور ، محني الرأس فى تفكير عميق ، حول مشاكل السودان المظلم ، غير عابئ بضجيج الرجال وسائلا.. ما هو المقبول عند الرب؟ !! .

بعد الاستيلاء على المدينة وموت المبعوث اختفت أسباب الحملة، و لم يبق إلا انسحاب القوات . المؤن التي جئ بها عبر الصحراء مع كل التكاليف ، تم التخلص منها

بسرعة برميها فى النيل. البواخر المصابة والتي انتظرت طويلا فى المتمة تم تفكيكها ، فرقة الهجانة بعد أن ماتت كل الجمال التي أتت بهم رجعوا راجلين الى كورتى ، كان يجب الإسراع فى الانسحاب نسبة لقوة العدو المنتصر. قوات النهر التي استطاعت أن تعبر آخر حاجز للبواخر اضطرت أن ترجع مع التيار الذي كافحت ضده كل تلك المدة ـ سارعت بالعودة بكل قوة الحملة. وحدات الهايلندرز ،البحارة، الهسار، والجنود الهنود ، البغال ، الهجانة ، والمدفعية كلها تراجعت زحفا على رمال الصحراء ، تاركة وراءها المد الهجمى الذي غطي كل أنحاء البلاد . استطاع ضابط مصري شجاع الصمود لبضعة أشهر فى حامية كسلا. لكن المجاعة والحصار أجبراهم على التسليم و ونالهم نفس مصير الحاميات فى الأبيض ودارفور. وسوباط وطوكر وسنكات وسنار والخرطوم، وهكذا تم الجلاء عن السودان .

الفصل الثالث

إمبراطورية الدراويش

ربما تبادر للأذهان الميزات الكثيرة والعظيمة التي نالها شعب السودان ليتحول من تجمعات قبلية متناحرة الى مجتمع متحد حرر نفسه ويعيش كأسرة موحدة قوية تربطها قوانين محدودة ، ويحكمها نظام واحد للحكم . لكن كان هناك بعض أشكال الحكم المركزي السيئ البعيد عن أي إصلاح، حكم رجعي ، ومكلف وظالم ، وهو الحكم العسكري . هذه الثنائية تعتمد لا على حسن الثقة وحسن النوايا، ولكن تعتمد على المحافظة على النظام والطاعة العمياء للأوامر، الخوف المشترك، وليست الثقة المشتركة هي التي تحكم علاقات الأعضاء وتطور التعاون . أثبتت سجلات التاريخ وجود كثير من مثل تلك النظم ، سواء فى العهود السابقة أو العهود الحديثة ، المتحضرة أو الهمجية. بالرغم من التفاوت حسب التعليم والثقافة، إلا أنها جميعها لا تسطيع تغيير شخصيتها النمطية، المتمثلة فى تجاهل القانون وجعله وسيلة، عدم الاهتمام بمعاناة الناس، تدهور الفضائل الأساسية وانحطاط المثل وجهل تام بأمور الاقتصاد . إن الصفات الشريرة لأى إرث عسكري هي واحدة فى كل الأزمان، ونتائج الحكم العسكري هي دائما سيئة عالميا .

إن الدرجات تتفاوت من مكان لآخر حسب الزمان والمكان، ولكن تبقي الحقيقة دائما ، إن السلطة العسكرية غالبا ما تفرز التمركز فى عاصمة كبيرة فيها كل شئ، مع إهمال تام لبقية الاقاليم ، يصحبه تدهور كامل لأحوال الناس المسالمين نتيجة للضغط والحاجة ، خراب التجارة ، وتدهور التعليم وتدنى الروح المعنوية. حتي للضبط والربط فى الجيش نتيجة للنفخة الكذابة واستمراء الزهو والإعجاب بالنفس .

ربما لم تسجل كتب التاريخ حكومة عسكرية أسوا من إمبراطورية الدراويش. بعض الحكومات الأخري كانت تتحلي ببعض الفضائل التي تعوض عن بعض النواقص، الشعور بالشرف الشخصي يعوض الانخفاض فى العدل القومي، النزعة الوطنية،

تسامح الإخفاقات الاقتصادية يغطي على بؤس الناس ، المظهر العسكري المهول، التدني في المثل العليا يعوضه في بعض الأحيان حسن الخلق . كانت فضيلة إمبراطورية الدراويش هي الشجاعة، وهي صفة تنال الإعجاب وإن لم تكن نادرة ، جاءت الثورة بالحرب ، عاشت بالحرب وانتهت بالحرب.

ما بدأ يوم الاستيلاء على الخرطوم، حتى انتهى فجأة بعد ١٣ عاما في معركة أم درمان. تماما كبركان فرعي ثار بعد انفجار كبير،استمر يهدر أثناء الاضطرابات ثم خمد نتيجة لصدمة عنيفة .

بعد أن غادر الجيش البريطاني الخرطوم، أصبح المهدي هو حاكم السودان المطلق ، كل طلباته مجابة، وكعادة القادة في عهد الإسلام، كان له ما أراد من حريم، وكل ما يطلبه من غنائم الحرب الشئ الذي ربما نظرت اليه بعض العقول في الغرب كتجاوزات صارخة، عم الخير على أتباعه أيضا، وحلت الجبة الزاهية محل جبة المحارب، وحتى المدينة نفسها لم تكن صالحة للمعيشة مع كثرة المستنقعات، فاختار المهدي مدينة أم درمان على الضفة الغربية للنيل، وبنى لنفسه مسكنا وجامعا ومخازن لأموال الدولة وأسلحتها في منتصف شهر يونيو ولم تمض خمسة أشهر على تلك الانتصارات حتى مرض المهدي ولزم الفراش، ولم يعد قادرا على الظهور في الجامع. وظل الخليفة عبد الله بجواره، وكذلك كبار القادة والأمراء طيلة فترة مرضه، وقد قال البعض إنه قد أصيب بحمى التيفوئيد. ظل في غيبوبة إلا في لحظاته الأخيرة حيث تمالك نفسه، وأعلن للجميع حول سرير المرض أن الخليفة عبد الله هو خليفته، وعليهم طاعته والولاء له بنفس القدر، ثم تشهد وقال اللهم أرحمني واسلم روحه لبارئها.

ملأ الحزن أرجاء المدينة، وبالرغم من تحريم العويل والبكاء، ظل صوت النحيب يسمع في كل بيت. حرمان الناس من قائدهم الروحي وحاكم البلاد قد أثر في قلوب الناس وامتلأت نفوسهم بالخوف. تم تكفين جثة المهدي ودفن في قبر عميق في نفس الغرفة التي مات فيها، ولم تلمس إلا بعد الاستيلاء على أم درمان عام ١٨٩٨ عندما أمر سير "كتشنر" بإخراج الجثة .

أعلن المهدي فى أخر نفس له خلافة عبد الله له لكن عبد الله أراد أن يثبت أمـــر الخلافة بطريقة البيعة. جمع الناس فى الميدان الفسيح خارج الجامع، وألقى خطبة بليغـــة ومؤثرة فسارع الجميع لإعلان البيعة له .

استمر هذا الاجتماع الى ما بعد منتصف الليل. أكد "سلاطين" الذي كان حاضرا أنه سمع وتأكد من التفاف الناس حول الخليفة والولاء له بنفس قدر الولاء للمهدي .

استلم الخليفة مقالىد الحكم وكان عليه أن يحافظ عليه، وكانت الدعـــوة الـــتي وجهها المهدي للجهاد ما زالت مشتعلة واستمرت من بعده .

بعد وفاته ظهرت حركات متفرقة لبعض التمرد والقلاقل. بعد رحيل المصريـــين حل محلهم حكام وطنيون للمديريات، وكان هناك حكام عسكريون أنيط بهم حفـــظ النظام وجمع الضرائب. كانت المشاكل التي تواجه الخليفة ذات طابع سياسى، عسكري وديني. كانت حدود السودان مهددة. فى الشرق تلوح القوة الحبشية الجبارة، كـــانت الحرب مستمرة مع مصر فى الشمال وحول سواكن مع الإنجليز، مع الأخذ فى الاعتبـــار تهديد الايطاليين من مصوع، وبقي أمين باشا، مسيطرا على الاستيوائية.

انتصر الخليفة فى كل معاركه فى كل الجبهات تقريبا على كل اعدائه. وشـــهدت الفترة من عام ١٨٨٥ حتي عام ١٨٩٨م أقوي فترة للسودان، هي نتاج قـــوة حكمـــه المتمكن رغم ظروف صعبة للغاية. ظل الخليفة يواجه الأخطـــار متخطيـــا الصعـــاب، وجاهزا لمواجهة كل تحد. من الصعب أن نتصور أن يسجل التاريخ أحداث تلك الفـــترة بطريقة يمكن أن تكون ذات أهمية، خاصة بالنسبة للأجيال القادمة .

وعلى كل ليس هناك حافز. بل زاد على ذلك صعوبة الأسماء الغريبة وعدم توافـــر السجلات بالمراجع، الأمر الذى سوف يعجز عنه أي مؤرخ. فكل الحكـــاوي، هـــي حكايات حرب ومعارك شرسة دامية، حروب بين قبائل بدائية، نفس الحـــوار يكـــاد يكون متكررا لدرجة الملل . التصفية الجسدية سواء كان المجرم حاكمـــا أو قـــائدا أو مستشاراً تجد رأسه مكانا لها فى حفرة كبيرة فى أم درمان .

لقد طبق كل اساليب حكام الشرق. لم يترك طريقة إلا ولجأ اليها . كانت سياسته واضحة، ،هي أن يزيح عن طريقه أي منافس قوي يمكن أن يطمع في الحكم، أو أي قائد طموح أكثر من اللازم يمكن أن يشكل عقبات في طريق تنفيذ السياسة التي وضعها الخليفة. والتي هي كما وصفها سير " الفريد ميلز " هي سياسة مخطط لها بعناية، تعمل على تركيز القوة العسكرية، مع عمل توازن بين قوة القبائل وقبيلته هو شخصيا .

أي مغتصب للعرش في الشرق عادة ما ينصب المشانق لأي مدع او مطالب بكرسي الحكم، ولكن الخليفة استطاع أن يتجنب هذا التصرف. استطاع الخليفة أن يبتز الموافقة على البيعة من اثنين من الخلفاء الآخرين، وأيضا من الأشراف الذين ينتمون الى نسب النبيﷺ ولكن سرعان ما ارتد هؤلاء وأعلن كل منهم عن استقلاله . استقل كل واحد بأتباعه ونحاسة (النحاس هو رمز للمكانه والقيادة، وهو طبل كبير يقرع في المناسبات المهمة). أعلن الخلفاء المبعدون عن تمردهم ضد الخليفة، وبدأوا في الاستعداد للمواجهة. استطاع الخليفة الداهية أن يستقطب قبائل البقارة، وهي قبائل قريبة لقبيلته، وهم من أشجع الفرسان العرب. إضافة لجيش الأفارقة المهاب، المسلحين بالبنادق .

اجتمع الطرفان خارج المدينة ، بالرغم من كثرة عدد التابعين للخلفاء المتمردين إلا أن القوة كانت في جانب الخليفة . قبل أن يبدأ الصدام استطاع الخليفة"ودحلو" أن يتوسط وينهي الصراع سلميا. استسلم المتمردون وانتهت المشكلة وانتهت معها أي قوة لهم إذ جردهم الخليفة من نحاسهم، أو أي ميزات خاصة ، ترك لكل واحد منهم حوالى ٥٠ حارسا خاصا، بلا علم، أو طبول حرب، فأصبحوا من المؤيدين المهمين لحكومة لم يستطيعوا مقاومتها بالقوة.

ظهر الخليفة أكثر عنفا ضد باقي المتمردين أولئك الذين هم أقل قوة، وأولئك العنيدين منهم . أعمام المهدي، عبد الكريم وعبد القادر. تم سجنهم مقيدين بالسلاسل، صودرت كل أملاكهم وزوجاتهم ، اضطهد كل من ينتمي لفئة الأشراف، أجبروا على العبادة لاكثر من١٨ شهرا عقابا لهم، كما ذكر أحد المؤرخين المسيحيين.كان أسوأ نصيب هو للأمير أحمد ود سليمان الذي كان مسئولا عن بيت المال. كان لا يحتفظ

بأي سجلات أيام حكم المهدي، واستطاع تكوين ثروة كبيرة. لم يكن يخفى عـداءه للخليفة، وعليه أمره الخليفة بأن يعطي تفاصيل حساباته، وطبعا لم يستطع، عندها أمـر الخليفة بمصادرة كل أملاكه، واعتبر سكان أم درمان الشرسين أن عقابه هـو تنفيـذ العدل. واستطاع الخليفة أن يبسط سلطته من خلال مثل تلـك التجـاوزات ولكـن استمرارية السلطة كانت تعتمد على القوة العسكرية التي طالما سعي اليها وإنـه لكـي يحكم السودان لابد من جيش قوي. أن تحريك آلة الحرب فى أيدي القـادة والـذي يستطيع التحكم فيهم تماما كالذي يتحكم فى مفاتيح الآلة. كانت ثقته طيلـة الفـترة الماضية فى الجيش شيئا هو مجبر عليه، ولكن شعر بأنه يجب أن يتحرر ولا يعتمد علـى أحد، استطاع بمهارة تنفيذ خططه ومشاريعه .

أرسل الى رجال قبيلته، قبيلة التعايشة، أحد فروع قبيلة البقارة، ودعاهم للحضور لأم درمان مبشرا لهم بالخيرات، والنفوذ والنساء. وضعت كل التسهيلات فى طريقـهم، مخازن الغلال على الطريق، البواخر على النيل الابيض وأخليت منازل كثيرة فى أجـزاء كاملة من أم درمان لسكنهم. حضر أكثر من ٧ آلاف رجل تمت كسوتهم على حساب بيت المال، واستولوا على كل مايحتاجونه من مخازن الدولة. لم يكتفوا بهذا وبـدأوا فى نهب الأهالى مما أثار غضبهم على هذه الفئة المميزة. لقد تحقق هدف الخليفة من خلق فئة مميزة ذات صلة وثيقة به. كانوا مثله ، مرفوضون من القبائل المحلية، مثله كانوا غربـاء، ومثله كانوا شجعانا أقوياء. كل المخاطر، كل أعدائه، هم أعدائـهم، مصالحـه هـي مصالحهم وحياتهم رهن حياته .

استطاع البقارة وبخاصة قبيلة التعايشة السيطرة على الجهادية السوداء الذين كانوا القوة الفاعلة أثناء الحكم المصري، أصبحت هي الأن قوات الخليفة الخاصـة، وزادت عددا من قوات القبائل الأخري فى عاصمة البلاد، وسيطرت كذلك على باقي القـوات فى المحافظات الأخري. تمركزت كل القوة فى أم درمان، كـل الاسـلحة والذخـيرة تمركزت فى العاصمة. كل السلاح فى أيدي الجهادية، بينما بقية الأهالى تركـت لهـم الحراب والسيوف، وحتي الأفارقة لا تصرف ذخيرة لبنادقهم إلا عند اللزوم .

وهكذا تركزت كل تلك القوة فى قبضة رجل واحد .

المبدأ الثالث فى سياسة الخليفة هو القضاء على أي فروق كبيرة بين قوة القبائل حتي لا تسيطر واحدة على الأخري، كذلك الأمراء إذا أظهر أحدهم أي تطلعات ، أُبعد على الفور وتمت تصفيته ، بنفس الأسلوب تمت السيطرة على مقاليد الأمور. ورغم تعقيدات فرض ميزان القوي ، تم فرض سيطرة قبيلة التعايشة كقوة حاكمة، واستطاع الخليفة أن يحافظ على الحكم ١٣ عاما. تلك كانت هي مميزات هذا الحاكم القادم من كردفان .

كانت أكبر انتصاراته هي الحرب مع الحبشة. من غير المعقول أو المنطقي أن تتجاوز قوتان همجيتان. عظيمتان مختلفتان فى الدين والعنصر دون ان تحدث مشاكل بينهما أو تحتاج أي مشكلة لسبب وجيه لتطفو علي السطح ، كان هذا هو الحال بين الدراويش والأحباش .

فى عام ١٨٨٥ ،كان أحد الدراويش، نصف تاجر ونصف قاطع طريق، قد سطا على كنيسة حبشية. راس "عدال" حاكم إقليم الأمهرا، طالب أن يسلم هذا السارق للمقدسات الى العدالة .رفض العرب هذا الطلب بشدة وجاء الرد سريعا. جمع الأحباش جيشا يفوق ٣٠ ألف مقاتل وهاجموا منطقة القلابات متوجهين نحو المدينة. أمام هذا الهول لم يستطع الأمير "وداباب" جمع أكثر من ٦ آلاف مقاتل، مدفوعا بالانتصارات فى السنوات الاربع الماضية، قبل الدراويش الدخول فى المعركة، بالرغم من التفاوت الكبير فى أعداد الجيشين. كان لا النظام ولا الجرأة يمكن أن تحتمل مثل هذا الموقف وهذه الفروق، لذلك انكسر جيش المسلمين نتيجة للهجمة الشرسة، وقوة الهجوم نتيجة للكثرة العددية لأعدائهم، واستشهدت القوات ومعها قائدها الباسل .

لم ينج أحد ، وأرتكب الأحباش كل الأعمال الوحشية المتوقعة عند الانتصار، قتلوا الجرحي ومثلوا بجثث الموتي، أخذوا النساء فى الأسر، وتم تدمير وحرق القلابات، وجاءت الأخبار السيئة لأم درمان. حيال كل هذه الضربة غير المتوقعة تصرف الخليفة بترو وحكمة، فبدأ المفاوضات مع الملك "جون " ملك الحبشة على دفع دية فك أسر

النساء والأطفال، وأرسل الأمير يونس على رأس قوة كبيرة للقلابات. الآن تم تأمين كل الامور الضرورية، بدأ الخليفة فى التحضير لحرب الانتقام .

بين كل قوة العرب أثناء الخمسة عشر عاما من الحروب المتواصلة فى كل انحـــاء السودان، لم يبرز قائد فى قوة وصلابة الرجل الذي اختاره الخليفة لكي يقـــود جيـــش الانتقام لدمار جيش القلابات. الرجل الذي حقق نجاحات عظيمة و لم يفقه أحد شـرفا، وإن كان هنالك من هو أشهر منه أنه "ابو عنجة" .

كان " أبو عنجة " رقيقا(عبداً) عند عائلة الخليفة عبد الله لفترة طويلة قبل دعـــوة المهدي فى جزيرة آبا وأيام الحكم المصري فىالسودان، بعد أن انتهي التمرد ، أمره قائده المغامر بالحضور من كردفان البعيدة مستعدا للحرب. جاء "أبو عنجة" مطيعا كعادتـــه دائما، وبكل الولاء. ليس كعبد ولكن كرفىق سلاح،وما أكثر المعارك التي خاضها مـع سيده عبد الله فى بداية الثورة .

كانت معركة الأبيض هي فرصته لاظهار براعته فى القتال والإقدام. لاحظ الخليفة الذي كان حكما جيدا على الرجال، أن القوات السودانية التي استسلمت، وكـــانت تستسلم من مدينة لأخري، يمكنها أن تجمع فى قوة ضاربة، وأنها تحتاج لقيادة قوية يمكن أن تصهرها وتجعل منها سلاحا قويا. عرف الخليفة ان "أبا عنجة" هو الرجـــل الـــذي يمكنه النجاح بكل الإخلاص والقوة. أخذ أبو عنجة مهمته بكـــل جديـــة وحمـــاس، وساعدته نشأته المتواضعة أن يندمج مع جنوده مما سبب لهم راحة كبـــيرة، وجـــذور قائدهم مثلهم وهو مثال للشجاعة والإقدام. كان "ابو عنجة" أكثر المحاربين مشاركة فى القضاء على جيش "هيكس" كانت فرقته الجهادية (سميت كذلك لأنها تشترك فى حرب جهاد مقدس) أكثر الفرق نجاحا وساعدت أسلحتهم المكونة من بنادق الريمنتجـــون فى قتل كثير من قوة "هيكس" وأوقفت تقدمهم، عندها جاء دور رجال الحراب والسيوف للقضاء على ما تبقي من القوة، وبعدها انتشرت سمعة جيش "أبـــو عنجـــة" وعـــرف بالشجاعة والقوة والقسوة معا. كان أفراد قوة أبو عنجة لا تزيد على ٥ آلاف مقـــاتل ارتفع مع إضافة مقاتلين فى القري فى الطريق الى ١٥ ألف رجل. أيام حصار الخرطـــوم

اشتهرت قوات حاملي البنادق السود بالنهب والسلب والتحرش. فصدرت لها الأوامر بالانسحاب لكردفان. هناك زادت شهرتها في العنف بعد اشتباكها مع قبائل النوبة البدائيين الذين لم يطلبوا شيئا غير استقلالهم .

في نهاية شهر يونيو زادت قوة "أبو عنجة" عند دخوله لأم درمان من ٢٢ ألف الى ٣٠ ألف مقاتل، منهم ١٠ آلاف مسلحون ببنادق الريمنتجون. استقبله الخليفة بكل الترحاب والشرف، وبعد لقاء خاص لبضع ساعات، سمح للقوات بدخول المدينة. عند الصباح دخلت القوات في موكب مهيب وعسكرت بالقرب من تلال كرري، تلك التلال التي شهدت هزيمة المهدية. لم يكن في مقدور المكان المشئوم التأثير على الخليفة والقوة التي يمتلكها. بمجرد أن أطلقت عدة طلقات مدفعية كتحية ظهر أكثر من ١٠٠ ألف مقاتل بمصاحبة طبول الحرب وعزف "الإمبايات" وراء العلم الاسود المشهور. ثار الناس في حماس اللحظة وتدفقوا حتي كادوا يعصرون قائدهم في الوسط، يلوحون بحرابهم وأعلامهم. امتلأت الساحة بالمقاتلين من كل شكل، البقارة، والتعايشة، والأفارقة بجلاليبهم الزاهية، والخيالة على خيولهم .

ظهرت على البعد قبة المهدي بلونها البني تعلو فوق المدينة، كأنها تمنحهم بعض الدفع الروحي، كان عبد الله في قمة مجده. إن الحركة التي بدأها رجل الدين من الجزيرة أبا قد بلغت شأنا عظيما. ظهرت سلسلة جبال درغام بمظهرها الخشن في كآبة. كأنها تحرس في صمتها أسرار المستقبل. بعد نهاية عطلة عيد الفطر، تحركت قوات أبو عنجة للقلابات بعد أن تم تدعيمها من القوات في أم درمان حتي وضح أن الحرب مع الحبشة قائمة لا محالة .

اعفى القائد الجديد الأمير يونس من مهامه رغما عنه مما دعا لاستيائه ، وأضاف قواته للقوات الزاحفة حتي بلغت القوة ١٥ ألف مقاتل بالبنادق و ٤٥ ألف محارب بالحراب. لقد خطط الخليفة جيدا لهذه الحرب. كانت قوة الحبشة معروفة للعالم، وكذلك لدي الدراويش. كان المهدي قد حذر من هذه الحرب، نسبة لرؤيا جاء فيها أن ملك الحبشة سوف يربط فرسه في شجرة في الخرطوم ويخوض في بحار من الدماء.

لكن الخليفة لم يكن يهاب الآلهة أو الرجال ، أميره "ودارباب" قد قتل، الدم وحده هـو الذي سيسوي الأمر .

كان الأحباش يراقبون التكتلات المعادية بقلق ،"رأس عدال" جمع جيشا أكبر مـن جيش الدراويش، لكن تسليح الأخير كان متفوقا من ناحية البنادق، زيادة على جـرأة المقاتلين السود من سلاح المشاة .

اعتمد الأحباش على سلاح الفرسان القوي، وتركوا العرب يدخلون الى المناطق الجبلية الى أن وصلوا الى منطقة "ممر منتك" و " سهل "دبراش" عندها أحس أبو عنجـة بأنه لو توغل حتي صارت الجبال خلفة فسوف يحاصر ويباد فأسرع بالتقهقر . هنا بـدأ الأحباش بالهجوم فعمل فيهم سلاح البنادق التي ردتهم، فاعادوا الكرة وردوا مرة أخري بشجاعة وجرأة وأسلحة متطورة. بعد ان كثرت خسائرهم تردد الأحباش ،هنـا بـدأ العرب الهجوم المضاد وطردوا "راس عدال" من ارض المعركة. غرق كثير من رجالـه فى النهر الذي اختار بدون حذر أن يحارب أمامه، سقط المعسكر، وانتهت المعركة بعـد مجزرة كاملة كما يحدث فى معارك الجيوش المتوحشة، واستطاع أبو عنجة أن يواصـل زحفة حتي استولي على "راس قندر" عاصمة الحبشة القديمة .

فى هذه الأثناء كان الخليفة قلقا على جيشه الذي طال انقطاع أخباره وهو يحارب بين جبال الحبشة لأكثر من ثلاثين يوما، الى أن جاءت البشائر بالنصر وعدد محترم مـن رؤوس أفراد العدو لتأكيد النصر .

لم يمكث الدراويش وقتا طويلا فى الحبشة، وعادوا فى ديسمبر الى قواعدهـم فى القلابات. عاد القائد الباسل الى أم درمان وحياه الخليفة بما يليق بالأبطـال، وأيضـا بالدموع فرحا لرجوعه سالما الأمر الذي ترك أثرا كبيرا فى نفس القائد .

ما زال الصراع الأعظم على الطريق. الحبشة كلها كانت فى غليـان للأحـداث المؤسفة والملك "جون" بنفسه بدأ فى الاستعداد لمعركة فاصلة معلنا،"انه سوف يمسـح الدراويش من على سطح الأرض". كان جيشه كبيرا يقال إنه يقارب ١٣٠ ألف مقاتل منهم ٢٠ ألف من سلاح الفرسان. وصلت شائعات عن حجم جيشـه.الى قلابـات

وأم درمان وسببت قلقا وحذر عميقين. كان الخليفة قلقا على حكمه بعدما سمع من تصريحات الملك "جون"، وشاءت الظروف أن يموت رجل المهمات الصعبة القائد الباسل "أبو عنجة" تحت ظروف غامضة. مات من أثر مادة سامة تناولها لمعالجة الإمساك.

اختار الخليفة "الزاكي طمل" أحد مساعدي أبو عنجة لقيادة الجيش الى القلابات واستطاع الزاكي أن يجمع حوالى ٨٥ ألف مقاتل، وانتهي من عمل دفاعاته عن المدينة بما فيها زريبة كبيرة حول المدينة، وانتظر الهجوم .

فى صبيحة يوم ٩ مارس عام ١٨٨٩ ظهر جيش الأحباش على مقربة من أعدائهم، وفى اليوم التالى بدأوا الهجوم. بالرغم من قوة نيران المدافع استمرت القوة الضاربة للأحباش فى التقدم مركزه على جزء واحد من دفاعات الدراويش، الغبار الكثيف من حوافر الخيل قد حجب الرؤيا تماما. إستطاع الأحباش إشعال النار فى الزريبة ونجحوا فى احتراق وحدة الجيش التي كانت تحت إمرة ودعلى التي تمت إبادتها بالكامل. ثم دخل الأحباش داخل الزريبة حيث كان الأطفال والنساء فأعملوا فيهم طعنا وقتلا بلا رحمة. وانتشر الجيش الغازي فى كل مكان بحثا عن الغنيمة، حتي إنهم وصلوا الى قبر "ابو عنجة" الذي كانوا مصرين على الانتقام منه لهزيمة "قندر". كان الدراويش فى حالة ارتباك وأوشكت ذخيرتهم على النفاذ عندها فجأة انتشرت إشاعة قوية بأن الملك يوحنا "جون" قد قتل، وبدأ الأحباش فى الانسحاب مكتفين بما غنموا وأخلوا الزريبة بالكامل.

كان العرب فى حالة من الإعياء شديدة و لم يبادروا بملاحقة الأحباش. وعندما لم يتكرر هجوم الأحباش فى اليوم التالى، عرف الدراويش أنهم المنتصرون وأن جيش العدو قد تراجع نحو نهر عطبرة. هنا قرر "الزاكي طمل" ملاحقتهم خاصة، إنهم حملوا معهم كثيرا من النساء بما فيهم زوجات أبو عنجة. بعد يومين من انتهاء المعركة لحق الجيش بمؤخرة جيش الأحباش واستطاع أن يباغتهم ويشتت جيشهم. كما قتل القائد الذي

حل مكان الملك "جون" وعثر الدراويش على جثمان الملك، فقطعوا رأسه وأرسلوه الى الخليفة فى أم درمان كدلالة على الانتصار .

تابع الجيش الحبشي تراجعه و لم يشأ "الزاكي طمل" ملاحقته داخل الجبال الوعرة. ومنعت المشاكل الداخلية الحاكم الحبشي الجديد "النجاشى" من متابعة القتال، وانتهي بذلك الصراع السوداني الحبشي الى معارك بين الحدود تماما كما بدأ .

كان وصول رأس الملك "جون" الى "أم درمان" قد أسكر الخليفة من شدة الفرح، كانت الحبشة فى تعتبر السودانيين أقوي من مصر، وهاهو مليكهم مقتول وممثل برأسه. لقد كان النصر كبيرا و غاليا مات فى المعركتين أكثر من ١٥ ألف مقاتل، وانتهي جيش أبو عنجة العظيم، وبالرغم من قوة الجيش المرابط فى ام درمان لكن الخليفة لن يستطيع بناء جيش يوازي القوات التي أسهمت فى كسر الهول الحبشي.

وبينما كانت تدور المعارك مع الحبشة، استمرت المناوشات مع مصر. وكان المهدي معتمدا على تأييد الجماهير المصرية ، وكان دائما ما يذكر أنه ذاهب الى دلتا مصر لتحرير المصريين من الاحتلال التركي، وكان يخطط لذلك عندما داهمته المنية .

بعد وفاته رأي الخليفة أن يتابع الرسالة. لقد ورث الخليفة كل المشاكل، ولكنه لم يرث نفس القوة. لو كان المهدي حيا لأمكنه احتلال العالم الإسلامي كله، لكنه ميت، ما هو إلاقديس، كما أن مشاعر الوطنية الملتهبة فى مصر قد تراجعت. بالرغم من ذلك صمم الخليفة على الاستمرار، لعله كان مدفوعا بنجاحات جيوشه فى الحبشة .

الأمير ود النجومي الذي كان حاكما لمنطقة دنقلا قد كلف بقيادة القوة ولكنه قتل هو واتباعه فى معركة توشكي، وتأسف الخليفة لسماع هذه الأخبار. لكن البعض فسر هذا القرار بأنه جاء ليخدم اغرض الخليفة ومشاريعه الخفية لميزان القوي. إذ تكون جيش ود النجومي من بعض قبائل الجعليين والبطاحين الذين كانوا يشكلون عوائق لدي الخليفة وحتي المدد الذي أرسل من أم درمان، تكون من كتائب علم الخليفة شريف الذي بدأ نفوذه يقوي!! لم يكن الخليفة بهذه السذاجة بأن يتوقع أن يهزم مصر، كان يقول لولا القوة الانجليزية والتي حاربتنا لكنا انتصرنا على مصر، وكان هدفه، لو

حصلت المعجزة وانتصر الجيش الصغير فيكون المجد له ولو انهزم، فيكون قد تخلص من أفراد جيش قبائل أهل البحر وبالتالى لن تقوم لهم قائمة. مهما كانت أهداف الخليفة فإن منافعه كانت واضحة، ولكن ان تستمر الإمبراطورية تأكل فى نفسها فسوف يقصر هذا فى عمرها بلا شك .

لقد تضاعفت القوي التي زادت فى إنهاك الدولة، ففى العام الذى تلا الحرب الحبشية ضربت البلاد مجاعة مخيفة، سلاطين، واهور وردر تبادلا وصف الأهوال والفظائع، وبينما اضطر الناس لأكل لحم الحمير النيئة والشوارع مليئة بالجثث، وفى وضح النهار شوهدت الجثث وهي تطفو على سطح النهر، كانت هذه بعض الأهوال. لقد تسببت المجاعة فى خفض تعداد السكان بأكثر ما أحدثته الحروب .

امتدت آثار المجاعة لجميع أنحاء السودان طوال شواطئ النيل حتي وصلت مصر السفلي، كانت آثار المجاعة، حالة يرثي لها، مناطق باكملها من أم درمان الى بربر أصبحت بلا سكان، مناطق شندي والقري المجاورة لها بلا أهالى، اضطر مربو الجمال لأكل النياق وأكل سكان المناطق النيلية البذور المعدة للزراعة .

سكان مناطق القلابات، القضارف، وكسلا انخفضوا الى العشر. يمكن أن نتخيل حجم الكارثة إذا عرفنا أن جيش الزاكي طمل الذي بلغ حوالى ٨٧ ألف رجل لم يبق منه سوي ١٠ آلاف رجل فى ربيع ١٨٩٠م.

جاء الحصاد فى وقت استطاع أن ينقذ أهل السودان من الانقراض، ولكن البقية كانت تنتظرها كوارث أخري، الشح والضغط أيام الحروب كان مقدورا عليهما، لكن لا حيلة لأحد مع جحافل الجراد التي حجبت الشمس، تلك الحشرة الصفراء اللون التي يمكن أن تكون وجبة أشبه بالجمبري عند شوائها وهي وجبه مفضلة لدي بعض الأهالى، انقلبت الى إعصار مدمر بالنسبة للمحاصيل، وزادت من معاناة المجاعة واطالت فى عمرها. ظل الجراد يأتى كل عام بعد ذلك: وزاد من المحنة ظهور ملايين الجرذان(الفئران) الحمراء التي كانت تتلف البذور قبل إنباتها، كانت أعدادها كبيرة حتي أن الامطار الغزيرة كانت تعري أعدادها الميتة على سطح التربة بكميات كبيرة .

رغم كل هذه النكبات استمر الخليفة فى حكمه بلا اهتزاز، وساعدت المجاعة فى تدعيم المركزية، وبينما انهار كثير من المدن والقري انتعشت أم درمان، وما زال حاكمها هو القائد المتحكم فى الجيش القوي. ولنترك لبرهة إمبراطورية الدراويش، لأن المدينة الكئيبة مدينة الدماء، والطين والقذارة التي ارتفعت على ضفاف مقرن النيلين، تستحق منا نظرة أخيرة وهي تنعم بالاستقلال البربري .

كان الوقت صبحا، وبدأت الشمس ترتفع عند الأفق و ترمي ظلالها على أطلال الخرطوم وعلى مياه النيل العكرة، والعاصمة القديمة شبه مهجورة، لاصوت لأحد يشق صمت الشوارع، لم تبق الا الذكريات فى الحدائق التي كانت متنزها للباشوات، أو القصر حيث سقط المندوب الإمبريالى. فى الجهة الأخري للنهر تمتد أميال من منازل الطين تصطف على ضفاف النيل حتي خور شمبات، ثم تمتد نحو الصحراء حتي مشارف التلال السوداء لتدلل على حجم عاصمة العرب الجديدة .

ومع ارتفاع الشمس تدب الحياة فى المدينة، على طول الطريق من كرري ترى أعدادا من الجمال محملة بمحاصيل القري، عشرات المراكب الشراعية تحملها رياح الشمال وهي محملة لآخرها بالبضائع ترسو فى المرسي، حيث تقف إحدي بواخر "غردون" وباخرة أخري يعمل عليها نفس الطاقم الذي كان يديرها أيام المصريين، يرسلها الخليفة إلى سنار في مهمة تتعلق بالدولة. وبعيدا ناحية الجنوب، يشق غبار قوافل دارفور عنان السماء الزرقاء مثيرة للضباب والغبار. استمر قرع طبول الحرب لوقت طويل، وكان صوت الموسيقي الصادرة، من قرون البقر يشق صمت الليل .

ثم جاء يوم الجمعة وساعة الصلاة، وهذا هو اليوم الذي لن يستطيع أحد أن يتغيب فيه، يجتمع الجميع فى الميدان، حيث إن الجامع لن يستطيع أن يسع كل هذه الجموع، لتادية صلاة الجمعة، داعين الله العلى القدير وللمهدي المبارك .

تنتهي الصلاة وينصرف الجميع الى مشاهدة طابور العرض. كل أمير خلف العلم المميز له، وكل فارس يختال بملابسه وجبته الجديدة حاملا سيفا وبعض الحراب. تنطلق سبع طلقات من مدفع محمول على ظهر جمل، يقوده أحد رجال النوبة الاقوياء ضخم

الجثة، ويأتي الخليفة وحوله حوالى ٢٠٠ فارس بأســـلحتهم، ويطــوف علــى كــل التشكيلات. كان الجميع حضوراً، والمنظر يدل على السيطرة الكاملة، الى ان لاحـــظ الجميع وجوم الخليفة وبدأ التساؤل، ماذاحدث ، هل يهدد الأحباش قلابات ؟ أو هناك تمرد فى غرب البلاد؟ هل تمردت القوات الإفريقية؟ أم هي بمجرد مشاكل وسط الحـريم ؟ ينتهى العرض، ويعود الجنود إلى ترسانة الأسلحة، تُجمع منهم البنادق ثم يتفرق الجميع. بعضهم يذهب للسوق لشراء بعض الضروريات، أو لسماع أخر الإشاعات أو لمشاهدة تنفيذ حكم الأعدام التي كثيراً ما كانت تتم علنا. البعض الأخر يتوجهون إلى ســـوق الرقيق حيث يدفعهم الفضول للتفرس فى أجسام الفتيات المعروضات للبيع ونقد أعضـاء أجسامهن.

ولكن الخليفه عاد إلى منزله وعقد بمجلسه، الغرفه صغيره فجلس هو خالفا رجليـه، أمامه بعض الأمراء والقضا ة، كان هناك يعقوب، الخليفة ودحلو والخليفه شـــريف، لم يتغيب ألا شيخ الدين ذلك الشاب الفاسق الذى يدوام على معاقرة الخمر.

كان الخليفة حزيناً وقلقاً، جاءه رسول بأن الترك قد تحركوا وزحفـــوا الى بعـد حدودهم حتي وصلوا واستقروا فى عكاشة.

أبدي ود بشارة تخوفه من أن يهاجموا المندوب الموجود فى "فركة" كانت هـــذه الحادثة بسيطة فى حد ذاتها، فمناوشات الحدود لم تنته، ولكن الأمر الخطير هو أن أعداء الله قد بدأوا فى إصلاح خط السكك الحديدية، وقد تم إصلاحه، حتي أنهم وصلوا بـه الى "صرص". وحتي الآن يرفعون هذا الطريق الحديدي نحو مركزهم فى عكاشة متجـها الى الجنوب، ما هي أسباب كل هذا التعب؟ هل سيأتون مرة أخري؟ هـــل ســيحضر أولئك الجنود البيض الشرسين الذين أدموا قلوب الهدندوة وأبادوا دغيم وكنانـــه؟ مـا الذي جاء بهم على النيل، هل هي غلطة أم مجرد شهوة للحرب أم حب الانتقام وحـب الدماء. صحيح انهم بعيدون الآن لكن الأرجح أنهم عائدون كما عادوا من قبل، لكــن الطريق الحديدي لن يتم فى يوم وليلة، الحقيقة المطلقة أن سحب الحرب قـــد بـدأت تتجمع فى الشمال .

الفصل الرابع

سنوات التحضير

فى صيف عام ١٨٨٦ عندما تراجعت كل القوات الى وادي حلفا وتمت إبادة كل الحاميات فى السودان ، حول البريطانيون أنظارهم عن وادي النيل فى خجل واسي من سلسلة طويلة من الكوارث وصلت إلى نهايتها المخزية. فقد أسهمت فصول الدراما فى تعميق الشعور بالمرارة و لم تخفف من عظمة المأساة. وكانت التكاليف باهظة. بالإضافة الى الخسارة والألم الذي سببه مقتل الجنرال "غردون" والفقد الكبير للضباط والرجال والتكاليف الخطيرة من تبديد للأموال العامة، وظلت الأمة تعاني من الفشل وخيبة الأمل إضافة لشعور عميق بأن الدولة قد أهينت أمام أنظار العالم .

الحالة فى مصر لم تكن بأحسن حال. فالإصلاحات التي تمت بمبادرات من رجال الإدارة البريطانية لم تلق قبولا ، وتدخلات " بارنج " سببت المرض للخديوي ووزرائه وشدة بخل "فنسنت" كانت مدعاة للتهكم وجاء " موتجريف " وهز بعنف مصلحة الري ، أما جيش " وود " فقد كان بلا هوية. كانت تبذر بذرة جديدة . لكن انجلترا لم تر أي تباشير للمحصول الجديد ، كل الذي رأته رجالاً عنيدين مغموسين فى التراب والوحل، ورأت نفسها متورطة بلا امل فى المشاكل. قررت بكل السأم والاشمئزاز أن تضرب بكل الغمز والهمس من قبل القوي العظمي عرض الحائط واتجهت نحو بلاد أخري وأمور أخري .

عندما اتجهت أنظار الأمة مرة أخري نحو مصر ، كانت الصورة قد تغيرت تماما وكأنها بلمسة سحرية من يد ملاك ، تحولت البركة الضحلة السوداء الى مرتفعات مبهجة ذات نسيم عليل هدأ الخديوي ووزرائه واستكانوا بالكامل تحت قبضة القنصل العام القوية الحازمة .

أصبح للدولة – فائض فى الإيرادات يصرف للإصلاحات الداخلية –مصلحة الري المضطربة أخذت تحيي فى الأرض ، وصد الجيش أي اعتداء على الحدود ووقف ضد أي مطامع .

تحولت الدهشة الى إعجاب، والإعجاب أدى الى الانشراح. انتهي الكابوس وبدأ حلم جديد ، رؤي مشرقة ، وإن لم تكن واضحة المعالم للقوة الامبريالية ، قطارات عابرة للقارات، حكام لأفريقيا، أحلام للغزو والتجارة . ازداد اهتمام الشعب البريطاني بقصة البعث الجديد ، كان كل إصلاح جديد يلاقي الاستحسان ، كل ميزانية جديدة تتم مراجعتها بالفخر والإعزاز، هلل الناس بقصة الفشل التي تحولت الى نجاح وزادت رغبة الناس فى معرفة المزيد عن مصر، عن هؤلاء الأشخاص الذين حولوا الحلم الى حقيقة .

جاء كتاب سير"الفريد ميلنر" "انجلترا فى مصر" محققا تلك الرغبة ، وقد عرض بقلمه الشيق كيف تم التغلب على المشكلات أكثر من حديثه عن الإنجازات وبذلك برزت قيمة الانجازات بصورة أقيم. ذكر "ميلنر" كيف قام أبناء بريطانيا العظمي المخلصون النجباء بينما هي مشغولة فى مناطق اخري باعادة التجربة الناجحة فى الهند ، ولو على معدل اقل فى مصر. إن الأعمال الصغيرة تنتشر بسرعة وقد استفاد الإداريون من التجارب وجاءت الحركة سريعة والعائد مدهشا . كانت تلك هي قصة النجاح المبهجة وكان القاص متمكنا من أدواته فحكي القصة بأسلوب شيق ليست هناك لحظة سأم وأصبح الكتاب ليس مجرد كتاب والكلمات كأنها صيحة البوروجي تنادي الجنود لكي يتخطوا الحاجز الاخير نحو النهر .

إن قصة البعث الجديد فى مصر لا تدخل ضمن نطاق هذا السرد، حتي وإن لم يكن قد تم عرضها من قبل " سير الفريد ميلنر " فى كتابة المذكور، ولكن إعادة تنظيم الجيش لإعادة غزو السودان ، تمثل آليه لابد من التعرض لها .

فى ٢٠ ديسمبر ١٨٨٢ تم تسريح الجيش المصري القديم ، إذ كان واضحا أنه لابد من خلق جيش جديد–كل الخيارات التي طرحت مثل الاستعانة بجنود أتراك، إلا أن

"لورد دوفرين " أصر على التمسك بالمبدأ الذي يقول لن يدافع عن بلد مثـــل أبنائـــه وتقور تكوين جيش مصري جديد . كان حتميا نسبة للحالة المالية الحادة للحكومـة أن يكون حجم الجيش صغيرا . استقر الرأي على ٦ آلاف جندي يمكنهم حفـظ الأمـــن الداخلي والدفاع عن الحدود الجنوبية والغربية لمصر ضد البدو والعرب، يظل الســودان نائما تحت ظل الكابوس الطويل .

كان هناك ٢٦ ضابطا بريطانيا، وتولي شاويشية أكفاء تدريب القوة الجديدة على القتال. تولي سير "ايفيلين وود " إدارة العملية وأصبح أول سردار للجيش المصري . تم العمل بسرعة فائقة وبعد ٣ شهور فقط تم استعراض القوة أمام الخديوي وقـــد نـــال طابور العرض إعجاب الحاضرين. قال البعض من ذوي التجارب إن هذا الجيش يختلـف كثيرا من الجيش القديم ، على الأقل سوف يقبضون مرتبات، وسيعامل الجنود بعـــدل، ولن تُسرق وجباتهم من قبل الضباط ، سوف يعطون أجازات لزيـــارة أهاليـــهم وإذا مرضواّ يدخلون الى المستشفيات بدلا من نيل الضرب باختصار قد اســـتبدل النظـــام الشرقي بالنظام الأوربي .

إن الجندي الفلاح يفقد الرغبة للقتل، حتي الديانة الاسلامية لم تستطيع أن تفجـــر حميته ، يمكن أن يكون قاسيا لكنه ليس شريرا ومع كل فانه شجاع يقابل المـــوت دون مبالاة. إنها فئة الرجال البسطاء المتواضعين يجسدها الرجال الأقوياء ولكـــن ســـوف لا تنتظر منها الإعجاب .

إن له فضائل عسكرية أخري . إنه مطيع ، أمين ، واع ذو خلق ســـريع التعلـــم وفوق كل هذا قوي البنيان، صفة ورثها عن أجداد أجداده . خلقت الظروف القاســـية إنسانا يستطيع أن يعمل مع أقل طعام وأقل حافز يعمل عملا شاقا وســـاعات طويلـــة تحت اشعة الشمس غير الرحيمة . خلال كل الحملات النيلية بالإضافة لصفوة الجيـــش والروح المعنوية للقوات فان مصدر القوة للحرب قد جاء من مصر نفسها .

تلك كانت هي المادة التي صنع منها الضباط الانجليز الجيش المصري الجديـــد في البداية، أثناء التمارين والتدريب كانوا مدعاة للتهكم بين زملائهم من الجيش الانجليزي

والجيش الهندي الى أن صدرت الأوامر المشددة بأن الاستهزاء بأي جندي مصري هو إهانة للجندي البريطاني ، هكذا تطورت العلاقات بين الضباط والجندي المصري وساعد ارتفاع المعنويات فى تحقيق النجاح الذي كان يبدو مستحيلا تحت أي ظروف مغايرة .

لم يمض وقت طويل قبل ان توضع المنظمة الحربية الجديدة تحت الاختبار-إن الجيش الذي أنشئ لحراسة الحدود الداخلية قد يطلب لحراسة الحدود الخارجية. إن الثورة فى السودان التي ظنها الجميع أنها أسهل المشكلات بالنسبة لمصر قد فاقت كل الأزمات وقد وجاء وقت تقييم القوة الجديدة. كتب سير هيكس فى يونيو ١٨٨٣، وهو يحضر لحملته المأسوية الى سير "ايفلين وود" يقول :-"أرسل لي أربع كتائب من جيشك الجديد وسوف أكون مكتفيا ومقتنعا" ولكن شاء الحظ ان ينقذ هذه القوة الوليدة من بداية مأسوية وبقي الجيش الجديد بمصر . بالرغم من اشتراكه فيما بعد فى حملة النيل ١٨٨٤-١٨٨٥ لحراسة خطوط المواصلات لكنه لم يشترك فى القتال الا عندما سحبت القوات البريطانية من دنقلا ، وبذلك تم تعميدها رسميا فى معركة جيسي. ومن تلك اللحظة أصبح مكانهم فى مقدمة الخطوط الامامية ومنذ علم ١٨٨٦ اثبتت القوات المصرية انها أهل للمسئولية فى مقاومة أي خطر للدراويش نحو الشمال.

تضاعفت أعداد الجيش مع زيادة مسؤلياته ، حتي عام ١٨٨٣ لم يكن هناك سوي ثماني فرق من قوات الفلاحين فى عام ١٨٨٤ تم تكوين فرقة السوادانين، إن الجندي الأسود الذي كان نقيضا للفلاح، المصري قوي ، صبور صحته مكتملة ومسالم . الزنجي كان أقل شأنا فى كل هذه الصفات ، رئتاه حساستان، ارجله ضعيفة ، وتكوينه الجسماني فى غير تناسق بعكس الحجم الكبير والتكوين الحديدي لفلاح الدلتا. الجندي الأسود سريع الانفعال وغير مطيع يحتاج دائما للنظام الحازم ، كان يكره التدريب ويحب زوجاته ، شخصيته مرحة "سامبو" التي تعادل " تومي " كسول شرس طفل غير محترم ولكنه قد امتلك قلب أسد، يحمل وفاء الكلب لسيده ،يحب ضابطه ولا يخشى شيئا فى الوجود .

باضافة هذا العنصر أصبح الجيش المصري آلة حرب مهولة، شاءت الظـــروف او كانت خطة موضوعة ، كان الجنود السود دائما فى مقدمة القوات المقاتلة .

فى معارك لورد "كتشنر" كان عدد الضحايا من هذه القوة يفوق العدد الكلـــي لعدد كل الضحايا من الجيش كله . لقد كانت خطوة طيبة تقوية القوات المصرية بهـذه الإضافات الجيدة إذ تنتظرهم حروب مرهقة . لقد وضع سير "ريقنالد ونجت"كفـــاح مصر ضد المهدي" ووصف المعارك للدفاع عن حدود وادي حلفا وسواكن .

السنوات العشرة اللاحقة لمعركة "جيسي" والتحركـــات الأولي لإعـــادة غـــزو السودان كانت سنوات متعبة للجيش المصري. كانت الخدمة شاقة رقم تفرق المعارك ، كان لابد من التحلي بالحذر والحرص الشديدين. فقد تم عزل الرأي العام عما يحـدث. وبدأ تطبيق اقتصاد "سد البطون" وترشيد الإنفاق فى كل مناحي الحياة، فحرم الضـــابط من أجازاته والجندي من التعيين والوجبات حتي يتم توفير أي مبالغ للخزينة المصرية .

كانت ملابس الجنود دائبة وأحذيتهم ممزقة وكانت أرجلهم تدمي عند التمـــارين فى مناطق صخرية ولكن لم يمنع كل ذلك من الاستمرار فى الاستعداد وتحسنت قـدرات الجنود حتي الفلاحين من جنود المشاة وانتظر الضباط ساعة التحرك مـــن وادي حلفـــا وسواكن لملاقاة جيش الدراويش المتآكل .

تقف القوة التي انشأها "ايفيلين وود" وقد جربها "قرينفلد" على أهبة الاســـتعداد وهنا ظهر الرجل الذي سوف يقودها .

كان هواتيو هيربرت كتشنر الابن الاكبر لضابط برتبة كولونيل . ولد عام ١٨٥٠ بعد أن تلقي تعليما خاصا التحق بالاكاديمية الملكية للحربية فى وولوش كطالب حـــربي فى سلاح المهندسين. تخرج عام ١٨٧١ وظل يعمل لمدة عشر سنوات كضابط عـــادي يؤدي أعمالا عادية ، لم يلفت النظر اليه كشخص له ملكات خاصة أو قدرات تمـــيزه عن غيره .

شاء حظه ان يلتحق بسلاح المساحة في ١٨٧٤ وأرسل الى قـــبرص وفلســـطين وهنالك تعلم اللغة العربية. لم يستفد من هذه الميزة لأكثر من ٦ سنوات إلا أن ذهـــب

للاسكندرية بعد ان تعرضت لضرب الأسطول البريطاني وانزال الجنود البريطانيون ، كان وجود ضابط انجليزي يجيد التحدث باللغة العربية فى مصر فى تلك اللحظات أمر مرغوب فيه بشدة وهكذا هيأت الظروف الفرصة لكتشنر الى طريق الشهرة . جاء "كتشنر" الى مصر وهي تعاني من شدة البؤس والاحباط وبقي ليشاهدها تزدهر بعد إعادة البعث لاحقا، وقد كتب التاريخ أن يكون له الدور الثاني فى هذا التحول. كان ضمن الـ ٢٦ ضابطاً الذين تم تعينهم واشترك عام ١٨٨٢ فى الحملة برتبة عقيد. وقد قادته إجادته للعربية الى قسم الاستخبارات العسكرية. وبالرغم من المجهود الكبير الذي ظل يبذله إلا أن خدماته لم ترق الى حيازة إعجاب " غردون " عندما كان يتعاون معه، لكنه نال رضاء رؤسائه وعين حاكما لسواكن فى عام ١٨٨٦ واستطاع أن ينظم دفاعات المدينة . وطورها حتي اثنى عليه القائد دورمر فى تقريره لمجلس الحرب بانجلترا ولم يكن كل هذا كافيا فانه شخص طموح يحب المخاطرة والمبادرات وسرعان ما بدا الالتحام مع القبائل فى المناطق المجاورة لسواكن. أوقف كل أنواع التجارة فأثار هذا سكان المناطق وكانت نتيجته بدء تحرك قوات عثمان دقنه. كانت الأوامر لكتشنر واضحة بألا يشرك جندي بريطاني أو مصري فى أي معارك هجومية لذلك استغل بعض الجماعات الصديقة وكون منها قوة حاولت مهاجمة عثمان دقنة فى منطقة هاندوب. عندما خسرت القوة المعركة انضم كتشنر ليحمي تراجعهم عندها أصيب بجرح فى فكه عانى منه كثيرا . نقل فى صيف ١٨٨٨ للقاهرة رئيسا للأركان للجيش المصري حيث ظل يعمل لمدة اربع سنوات استطاع خلالها إجراء إصلاحات اقتصادية وبرهن على مقدرة فائقة فى الادارة. كانت هذه سببا فى اختياره سردارا للجيش المصري بالرغم من احقية الكولونيل "وودهاوس" الذي هو اكثر خبرة منه فى قيادة قوة كبيرة ، اذ كان قائدا للقوات المرابطة فى حلفا واشترك بالفعل فى معارك مع العدو . يعرفه الجميع " القائد الذي هزم ود النجومي " فى معركة ارقين ايضا استحق التقرير وكانت إدارته لشئون مديرية الحدود الأمامية "حلفا" مثارا للإعجاب،ولكن فى النهاية رجحت الكفة مساندة سير "ايفيلين بارنج" وفاز "كتشنر" بالاختيار.

كانت اكبر معاناة "للورد وولزلي" هي جهله التام بشئون السودان و أهل السودان . وقد خبر الجندي البريطاني اساليب قتال الدراويش فقط عند ملاقاقم وكـــانت تجربـــة مريرة .

وعليه فان سنوات التحضير قد تم الاستفادة منها لأبعد الحدود . كان الكولونيـــل (أصبح الآن سير "ريجينالد ونجت" هو مدير قسم الاستخبارات العســـكرية بـــالجيش المصري الذي استطاع ادارته بمقدرة فائقة . لمدة عشر سنوات ظلت الاستخبارات تجمع المعلومات عن السودان تاريخه ، الطقس ، جغرافيته وأهاليه ، اعتبرت وادي حلفا الخـط الفاصل بين المدنية والهمجية حتي حائط أم درمان العظيم ، داخل ترسانة الأسـلحة ، فى الخزانة فى الجامع حتي منزل الخليفة نفسه كان مرصودا بتسجيل كل حركـــنـة وكـل حديث يدور فى أي شأن كان . انتشر جواسيس الحكومة داخل السودان مرة كتجـــار ومرة كمحاربين أو نساء وتغلغلوا وسط الجماهير .

كان الجواسيس يسلكون كل الطرق المؤدية لأم درمان ، عندما يتعسر السير على النيل، كانوا يأتون عن طريق دارفور ثم يعبرون الصحراء الى أم درمان أو مرات عـــن طريق سواكن أو من مناطق الاحتلال الايطالى فى مصوع. كانت المعلومة يهمس بها فى حلفا وتدون فى القاهرة حتي تضخمت السجلات وتم رصد كل معلومة مفيدة عن كل الأمراء ، وكل الحاميات ، حتي أخبار المشاجرات التي لا تنتـــهي تم تســجيلها بدقـــة متناهية.

ساعدت المقادير أن يتم تأكيد المعلومات التي جلبها الجواسيس ، عن طريق اهــم شاهدين . مع نهاية عام ١٨٩١ استطاع القسيس " اوهر وولدر " أن يـــهرب مـــن أم درمان ووصل للحدود المصرية . بالاضافة للمعلومات القيمة الـــتي أمـــد بهـــا قســـم الاستخبارات طبع كتابة الشيق "عشر سنوات فى الاسر" الذي ترك انطباعا جيـــدا فى انجلترا. وفى عام ١٨٩٥ ، جاء لاجئا آخر الى أسوان.

فى صباح ١٦ مارس دخل عربي متعب من عناء السفر يلبس جبة مرقعة ويمتطـــي جملا أعرج ، دخل على القمندان ، استقبل استقبالا حاراً وأعطي أحسن حمام موجود .

خرج بعد ساعتين رجل نمساوي مهذب واشتعل خط التلغراف بالأخبـــار الســارة، "سلاطين" الذي كان حاكما لدار فور قد هرب من أغلال الخليفة .

جاء الآن الرجل الذي يعرف كل شيء عن امبراطورية الدراويش ، كان خــادم الخليفة الموثوق به بل كان صديقه وكان هو الوحيد الذي يسمح له بتناول الطعام مــع الخليفة . لقد حضر كل مجالسه ، عرف كل الأمراء وهو كرجــل عســكري واداري يستطيع أن يميز بين الأمور. أعطي لقب الباشا وألحق بالاستخبارات العسكرية .

بينما اكدت المعلومات الوثيقة التي اعطاها للحكومة عن تدهور أحــوال وقــوة الدراويش ، أثار كتابه "السيف والنار فى السودان" سخط الشعب البريطاني على قسـوة الخليفة وانحاز الرأي العام نحو سياسة إعادة الغزو تماما .

جاءت حكومة المحافظين عام ١٨٩٥ بأغلبية كبيرة وادارة اتحادية وتأكد للجميـع أنها باقية لخمس أو ست سنوات على الأقل الأمر الذي ضمن للــوزراء الاسـتمرارية وتنفيذ كل مشاريعهم ، وجاءت الفرصة لاصلاح ما أفسده "منافسوهم". كان عقــد مثل تلك المقارنات المطلوبة والمتوقعة ، فكرة استعادة غزو الســودان عــادت بقــوة وتبلورت كسياسة، كما حكمت بذلك الأحداث غير المرئية .

فى ١ مارس عام ١٨٩٦ تعرضت إيطاليا الى هزيمة ساحقة فى معركة " عــدوة " بالحبشة، وجاءت هذه الحادثة بأمرين أثرا على باقي الدول. الأول الضربة القوية الــتي وجهت لنفوذ أوربا فى شمال أفريقيا ، وأصبح من المحتمل أن يشجع نجـــاح الأحبــاش الدراويش لمهاجمة الايطاليين فى كسلا أو حتى مهاجمة سواكن أو وادي حلفا .

الأمر الثاني تضاءل دور إيطاليا كلاعب أساسي فى أوربا وحقيقة إن السلاح الذي حارب به الأحباش كان من مصادر فرنسية وروسية قد عقد الأمور وسوف يؤثر سـلباً على التحالف الثلاثي. كان لابد من أن تقوم بريطانيا بعمل يحمــل رســالة لطمئنــة الإيطاليين معلنا التعاطف حتي يعود الميزان للاعتدال .

سرعان ما تحققت توقعات السلطات المصرية، بمجرد أن سمع الداراويش بانتصــار الأحباش فى معركة "عدوة" هددوا كسلا وظهرت بوادر نشــاط غــير عــادي فى أم

درمان. كان أنسب تحرك لمساندة إيطاليا أن تقوم بعمل حربي فى وادي حلفـــا ولجـــأ البريطانيون الى مصر. كان أمر استرداد المديريات والأسخاص المفقودين فى الســـودان يشغل تفكير المصريين إلا أنهم كانوا يعتقدون أن الأمر يحتاج لتحضير ولبضع سنوات . ثم كانت هنالك آولويات مشاريع الخزانات التي ظل الخديوي يطالب بها لاكـــثر مـــن سنتين، وبينما كان "كتشنر" يكافح من أجل معركة إعادة الغزو كـــان ســـير وليـــام كارستن يطالب بالخزان وقد نجح أخيرا فى إقناع لورد كرومر حاكم مصر .

لقد تعجب المصريون من قرار بريطانيا الدخول فى معركة محدودة فى وادي حلفـــا لإرضاء الإيطاليين على حسابهم لم يقدم الدراويش على أي مبادرات هجومية تستدعي الرد فظلت الجبهات هادئة وكان كرومر على يقين من أن بناء الخزان سوف يجد كـــل اعتبار بينما لا يتوقع أحد من حكومة الأحرار أن تساند إعادة غزو السودان . وبنـــاء عليه تم تعديل الخطة أو الاقتراح البريطاني ليشمل احتلال دنقلا باكملها بدلا مـــن وادي حلفا، كخطوة أولى نحو احتلال السودان .

لعله من الضروري قبل الدخول فى تفاصيل المعارك أن نصف كيف تم توفير المـــال اللازم لتمويل الحرب .

بدون أي رغبة فى الدخول فى أضابير السياسة المالية المصرية وتعاريجها المدهشـــة أري لزاما على أن أعرض كم المشاكل التي كانت تواجهها الإدارة البريطانية والصـــراع الذي تتعرض له الحكومة المصرية فى تأمين احتياجاتها الضرورية من الأموال وهذا هـــو أمر من صميم امور السيادة، لعل تناول هذه الأهوال ينال بعض عطف القـــارئ ، او حنقه أو حتي ابتسامه ساخره.

كان نصف دخل مصر يصرف على التنمية فى البلاد والنصف الآخـــر يذهـــب لسداد فوائد الديون والمنصرفات الخارجية. وحتي يوضع حد للصرف البذخي الـــذي كان سائدا فى الماضي تقرر فى مؤتمر لندن عام ١٨٨٥ ألا تزيد ميزانية مصر عن رقـــم معين فى السنة ومقابل أي جنيه زيادة يوضع جنيه آخر فى حساب مراقب الديون. معني هذا.أنه بعد تجاوز الميزانية فان الحكومة يلزمها تدبير جنيهين عن كل جنيه مطلـــوب. لم

يحتمل الناس الضرائب التي فرضت للايفاء بهذا الغرض وصرف النظر عن ذلك المشروع واستبدل بآخر على أن يوضع الجنيه الثاني فى صندوق احتياطي يصرف منه فقــط فى الحالات غير العادية .

بدأت حملة دنقلا بدون الرجوع للحالة العامة فى مصر. وكان الوقــت مناسـباً ولكنه ليس أفضل الأوقات وكان من غير المعقول أن تستطيع مصر توفير المال الـلازم فى الميزانية . تقدمت مصر بطلب سلفىة من صندوق النقد الأوربي بمبلغ ٥٠٠ الف جنيـه إسترليني . اجتمع المحافظون الستة للصندوق الذين يمثلون انجلترا ، وفرنسا ، وروسـيا ، والمانيا، والنمسا ، وإيطاليا. فوافق أربعة وعارض إثنان وتمت الموافقة على القرض وسلم المبلغ للحكومة المصرية وخصص للمجهود الحربي .

مصر التي هي قوة ذات سياده ، طالبت بكل تواضع أن يسمح لها باستعمال جزء من فائض اموالها لتحقيق أهدافها الخاصة ولكن سوف تتلاحق المصـاعب. العضـوان الفرنسي والروسي اللذان خسرا فى عملية التصويت على منح القرض طعنا فى قـرارات بقية المحافظين الاربعة وطالبا أن يلغي القرض لأنه قد تم عن طريق الخطـأ كمـا يجـب إرجاعه. حرضت فرنسا بعض جماعات من حملة السندات بأن هذا الأمر يضر مصالحهم عرضت القضية على المحكمة المختلطة الموجودة فى مصر ولكنها مستقله تماماً عن سـيادة الدولة.

دافعت مصر وكذلك المحافظون الأربعة بأن المحكمة المختلطة ليس لها صلاحية نظر القضية وليس هناك حق للذين يهاجمون القرار لأن الحكومة المصرية اتبعت كل الطـرق القانونية للحصول على القرض وأن القرار أصبح سارياً بمجرد أن وافق عليه صنـدوق المحافظين وهو الممثل الشرعي لحملة المسندات .

كانت الحجة قوية ولكن حتى ولوكانت اقوي عشرة أضعاف فان النتيجة كـانت ستكون واحده، فأعضاء المحكمة العالميه قد استندوا فى قرارهم على اعتبارات سياسـية وتسلموا توجيهاتهم من حكوماتهم أعلنوا بكل بساطة أن نفقات الحرب ليست "نفقات

فـــوق العـــادة" أما أمـــر تحطيم جيش الخليفـــة أعتبر كأمر عـــادي يحدث كل يوم، أما حالة

الحرب فأعتبرت أمراً عاديا،بناء على هذه الأسس الواعية والحكيمة أمرت مصر برد مبلـــغ الـــ ٥٠٠ ألف جنية قيمة القرض بالإضافة للفوائد والتكاليف الآخرى،بعد تردد ملحـــوظ ، وما إذا كانت الساعة والوقت قد أزف لتعميق الضغوط المالية على مصر، اتخذ القرار للاحتناء لأمر المحكمة ، وكان لابد أن يعاد المبلغ الذي تم صرفه بالفعل.

كان الجيش قد احتل دنقلا والمعارك مستمرة ولا يمكن ايقافها و لم يكن فى وسع مصـر رد المبلغ الذي حرمت منه بعد ان تحصلت عليه متبعة كل الطرق القانونية .

هكذا كان أهم المشاكل المؤلمة ذات الصعوبة البالغة أن تبادر دولة فى كامل وعيها وملمـــه بكل حقوقها القانونية،تنجح فى خلق أزمة فى بلد طالما بالغت فى التظاهر بالاهتمام بمصالحـــة وخير أهله.

هكذا كانت الدبلوماسية الفرنسية. فرنسا التي تعتبر نفسها صديقة لمصر ولهـــا نفـــوذ قوي للغاية فى القطر المصري، مارست دهاء الدبلوماسية الخفية وراء الكوالى‌س، رغم مكرها ستجد يوما المكر الأكبر.

الآن وكما حدث من قبل نفس دهاء وذكاء الوزراء الفرنسين سوف يتسبب فى لطمة قوية ضد المصالح الفرنسية فى مصر. فى تلك المرحلة مارست فرنسا نفوذا كبيرا على الساحة السياسية فى مصر. إن الجانب المصري وأن كان ضعيفاً الآن ولكن لمصر شأن عظيم، التفتت فرنسا لتقف معه مسانده. كانت أخبار نجاح فرنسا قد اثلجت قلوبهم ورفعت من روحـــهم المعنوية . إن الرجل فى الشرق همة النتائج وكان الانحياز كاملاً ضد بريطانياً .

كانت الاستنتاجات فى عقول الأهالى واضحة للعيان ، بريطانيا تم تقيمـــها كقـــوي أوروبية ، وأثبتت غيابا كاملاً. فى بلاد الشرق تظل مشاعر الناس تتارجح بين قوي جامحـــة أن تكون مع الجانب الفائز. ومع كل هذه الإثارة بدأ الرآي العام ينحاز نحو الجانب الأقـــوي . وعليه عندما رفضت المحكمة المختلطة فى الإسكندرية استئناف مصر، كانت هزيمة بريطانيا كبيرة بالمقارنة مع انتصار فرنسا.

فى الثاني من ديسمبر أسرع القنصل العام البريطاني وأبرق بنتيجة حكم الهيئة الى "لورد سالزبوري" وطالبا التصديق ليعلن أن حكومة صاحبة الجلالة قد قررت أن تدفع القرض لمصر حسب الشروط التي سوف تعلن فيما بعد. عندما أعلن فى ٣ ديسمبر أن بريطانيا سوف تؤمن القرض اندهش الجميع وترك هذا الامر إحساسا غير مريح لدي الساسة الفرنسيين. كان بامكان فرنسا بالرغم من تلك الظروف أن تلعب دورا مؤثرا فى مصر وان تعرقل مساعي بريطانيا لنيل هذا النصر . ظن الفرنسيون ان الامر سيحتاج لموافقة البرلمان الانجليزي، ولن تستطع مصر الحصول على المال اللازم. تماماً كما يحدث فى البلدان الآخري ، فان الضرائب لا تجمع بالتساوي مع شهور السنة فى بعض الفصول تكون الخزانة ملأى بالنقود وفى الفصول الآخري تكون قليلة. شاءت الظروف أن تكون الخزينة عامرة فى تلك الفترة.

خاب ظنهم تماما إذ كانت الخزانة ملأى بالنقود من عائد الضرائب على القطن، وقرر لورد كرومر دفع القرض فى الحال .

فى الخامس من ديسمبر اجتمع مجلس الوزراء المصري برئاسة الخديوي وقرر مبادرة إرسال خطاب شكر لحكومة صاحبة الجلالة معرباً عن الامتنان للمساعدة المالية.

وكتب " بطرس باشا" "أرجو أن تنقلوا لسمو اللورد ماركيز سالزبوري خالص تعبيرنا بالامتنان من جانب الخديوي والحكومة المصرية للعطف الكريم من حكومة صاحبة الجلالة تجاه مصر فى هذه المناسبة .

فى يوم ٦ ديسمبر وضعت ٥٠٠ ألف جنيه بالاضافة الى ١٥,٦٠٠ ألف جنيه عبارة عن الفوائد والتكاليف، من الذهب وسلمت لمكتب الصندوق الأوروبي بالقاهرة. كان رد الفعل عظيما كل الناس كانوا يعرفون المشاكل وعرفوا كيف تم التغلب عليها. كان الدرس واضحا للعيان فى عقول الاهالى وكان تراجع النفوذ الفرنسي اكبر من أي نجاحات لفرنسا التي لم يشهد نفوذها فى مصر مثل تلك الضربة وسوف تشهد هذه القصة فى الزمن القصير الذي ترصده، كيف ستصاب فرنسا بجروح اكثر فظاعة .

الفصل الخامس

بداية الحرب

قبل منتصف ليلة ١٢ مارس عام ١٨٩٦ ، تلقى السردار تعليمات من اللورد كرومر تأمره بتحرك الحملة لمديرية دنقلا واحتلال عكاشة ، فى صبيحة اليوم التالى نشر الخبر فى جريدة التايمز بتمويه كأنه آت من مراسل الصحيفة بالقاهرة، واجتمع مجلس الوزراء المصري ليعطي الموافقة الرسمية. واستدعي الاحتياطي يوم ١٤ وفتش الخديوي طابور العرض يوم ١٥ وعند انتهاء العرض أخبر سير . هـ . كتشنر الخديوي ان الكتائب الأولي سوف تتوجه الى الجبهة تلك الليلة .

كانت القوة الامامية فى حالة استعداد دائم بفضل تحركات العدو القلق ، وجاءت أخبار التحرك الذي طال انتظاره ، رحب بها الضباط البريطانيون الذين ملو الانتظار عند "وادي حلفا" و"صرص". فى يوم ١٥ مارس أي بعد ٣ ايام من تسلم السردار للتعليمات، وقبل تحرك أول الإمدادات من القاهرة ، جهز العقيد هنتر فصيلة مكونة من عدة أسلحة لدخول واحتلال " عكاشة " فى يوم ١٨ تحركت الفصيلة الصغيرة وبدأ بذلك الغزو الذي توقف لعشره سنوات تاركاً الأمر للدراويش .

كان المسار يقع على طريق مجري وعر فى الارض المتنازع عليها التي تم هجرها لسنوات بسبب الحرب لذلك عانت القوة من السير فى صف واحد فى ممر ضيق، وتأخرت أكثر من ساعة كاملة لتعدية صف واحد بين الصخور المتآكلة بسبب الزمن والعواصف حتي استحقت الاسم الذي يطلق عليها "بطن الحجر". كان النيل على يمين القوة وبالرغم من اضطرار الجنود لترك النهر لتفادي مناطق وعرة وغير صالحة للسير، الا انهم دائما ما يعسكرون بالليل قرب النهر. قامت وحدات من الهجانة وسلاح الفرسان بعدة طلعات نحو الجنوب والشرق تحسبا لقدوم جيش الدراويش لصد الهجوم. كانت القوة تزحف قرب النهر وعلى أهبة الاستعداد للنهوض فى لحظات قليلة ومستعدة لأى نزال . واصلت سيرها ووصلت "وادي عطيرة" يوم ١٨ ويوم ١٩ إلى

"تانجور" ثم دخلت الفصيلة الى "عكاشة" يوم ٢٠ مارس ظهرت بعض أجـزاء الطابيـة البريطانية القديمة وبعض المخازن من بقايا "حملة إنقاذ غردون" ١٨٨٥،خط السـكك الحديديةمن صرص تم نزع كل الفلنكات إلاأن الخط الحديدي ترك متناثرا بقرب الخط.

كل شيء مهجور ، لم يدل أي شيء على وجود الدراويش سـابقا إلا منظـر كئيب، عند نهاية المحطة القديمة هو بقايا مقصلة، صنعت من قضيب السـكة الحديـد، بالقرب من بقايا جبل دائب وعلى البعد جمجمة ناصعـة البيـاض بفضـل الريـح والشمس. لم يكن هناك أكثر من ٦ أعراب مسالمين هم سكان الجزيرة خلف الشـلال هم كل ماتبقي من السكان فى المنطقة .

بدأت القوات فى تحضير دفاعاتها بسرعة فائقة - يوم ٢٢ رجع جزء من الهجانـة والفرسان إلى"صرص" ليصحبوا فصائل اكبر للجبهة بقيادة الرائد "ماكدونالد" وتكونت من الفرقة السادسة والسابعة السودانية. تركت فرق من الكتيبة الثالثة المصرية لحراسـة آبار " امبكول " .

تحرك كرفان كبير يتكون من مخازن محملة على ظهر ٦٠٠ جمل يوم ٢٤ مـارس من صرص ووصل دون أي حادثة الى عكاشة بعد أربعة أيام وتسلم الرائد ماكدونـالد قيادة كل القوة المتقدمة .

تحولت عكاشة الى معسكر منيع يضم ثلاث كتائب ، سلاح مدفعيـة وقـوات راكبة يحصلون على طلباتهم بالجمال من "صرص". ظلت الدوريات تجوب المنطقـة الى الجنوب والشرق لمراقبة تحركات العدو وقويت خطوط الاتصالات بتكوين نقاط عنـد "سيمنا" "وادي عطيرة" "وتانجور" وكانت القبائل الصديقة مـن البـدو، الكبـابيش والفقراء تحتل الآبار المتناثرة فى المنطقة . ظل الدراويش كل هذا الوقـت فى تكاسـل عجيب يراقبون ما يجري من مواقعهم فى "فركة" دون القيام بأي مبادرات أو نشـاط يمكن أن يعرقل سير العمليات .

استمر تدفق القوات المصرية الى الخطوط الأمامية وانصاع الجنود الاحتياط للأوامر طواعية، وتم تصعيد كل الكتائب الى حالة الاستعداد القصوي للحـــــرب . تكونـــت كتيبتان من قوات الاحتياطي، الكتيبة١٥، ١٦ وتركت ١٥ فى "اسوان" و "كوروسكو" وارسلت ١٦ الى سواكن لتخلف الأولى. رحلت قوات شمال الاســتفورد شـــير مـــن القاهرة لتعسكر فى حامية وادي حلفا لتحل محل كتائب الست التي تحركت الى صـوص وعكاشة وكونت فرقة لمدافع المكسيم، أربعة مدافع من قـــوة : ســيتفورد شـــير" و "كونوت رنجرز " وأرسلت بسرعة جنوبا.

جاءت الكتائب الثانية، والرابعة، والخامسة ، والسادسة المصرية عن طريق السكة الحديد وطريق النهر وكلها والانسياب الكامل فى سيرها للجبهة يدلل علـــى حســـن التخطيط لمكتب الحرب وقدرته التنظيمية .

خطوط المواصلات من القاعدة الرئيسية فى القاهرة الى النقطة المتقدمة فى عكاشــة يبلغ طولها ٨٢٥ ميلاً، ولكن تبقي فقط المنطقة جنوب أسوان ضمن مسرح الحرب . تم إنشاء قاعدة نهرية عند بعلانة حيث تتصل بالقاهرة عن طريق الســكك الحديــد ذات القضبان العريضة ، يتم نقل المؤن والمهمات والإمدادت من بعلانة الى أسوان عن طريـق مجموعة البواخر الخاصة بشركة كوك - يتم جر بوارج كبيرة بمجموعة صغـــيرة مـــن الجرارات البحرية مع استخدام المراكب الأهلية أيضا لابحار الصنادل حـــتي أســوان . للالتفاف حول أول شلال تم بناء خط سكك حديد لربط المنطقة من أسوان للشـــلال ومن هناك تواصل البوارج والبواخر الرحلة الى وادي حلفا، ومن هناك يستعمل خـــط السكة حديد الحربي الى " صرص " ثم تستعمل الجمال لتوصيل المهمات الى جنـــوب "صرص". تم شراء ٤٥٠٠ جمل من القاهرة وشحنت بالبواخر الى أسوان، ومن هنـــاك عن طريق البر الى "كوروسكو" ثم الجبهة. وافقت الحكومة البريطانية على مـــد الخـــط الحديدي من " صرص " الى عكاشة، وتم تكوين كتيبة خاصة لهذا المشروع وبدا شحن كل المعدات الى "صرص" سوف يجد القاري معلومات لتغطي الجزء الخاص بهذا الخـــط الحديدي الاستراتيجي فى قسم منفصل ماكنت اتوقع التعرض له.

اكتملت كل خطوط المواصلات فى واحد أبريل أي أقل من ٣ أسابيع من بداية التحرك وكل شيء عمل بكفاءة عالية ، رغم تكدس القوات الوافدة .

بمجرد وصول الكتيبة ١٦ (الاحتياطي المصري) الى سواكن تم إرسال الفرقة السودانية الرابعة الى قصير ومن هناك عن طريق البر الى قنا المسافة ١٢٠ ميلاً ، وبالرغم من العواصف التي لم تشهدها المنطقة سابقا، استطاعت الكتيبة قطع المسافة فى أربعة أيام مما يدلل على مقدرة الجندي الأسود على السير كان مقررا للفرقة الخامسة السودانية أن تلحق فورا بالكتيبة الرابعة، إلا أن أحداثا جرت فى منطقة سواكن أدت الى تأجيل سفرها، وسوف يعرف القاريء الأسباب فى حينها .

إن تاريخ ميناء سواكن واهميته ربما يقدم لحظات مفيدة للسياسي الساحر. كل المنازل تقف على جزيرة يربطها ممر طويل باكبر العمارات البيضاء العالية وظهورها المفاجئ ربما يوحي للمشاهد أنه أمام مجمع صناعي. ولكن هذه بعض المرشحات لمياه البحر حيث لا توجد أي مياه عذبة فى المنطقة. كما أن المنظر من قرب يثبت الخراب الذي تعيش فيه المدينة. فجزء كبير من المدينة مهجور، وشوارعها الضيقة تتعرج حول منازل متهدمة ومهجورة تلهوا الرياح بنوافذها والواجهات مغطاة بالألواح الخشبية. حتى فى التربة تفوح منها رائحة الركود والصدأ، ويضج المكان بذكريات الضياع والفشل ، هذا هو ما يحسه أي زائر يري تلك المناظر. فالمسافر الذي يصل الى جزيرة تكون الكرنتينه اول ما يشاهده ثم بقايا خط حديد سواكن بربر، وثلاث قاطرات يعلؤها الصدأ، وعربات بضاعة مهشمة وأدوات كثيرة تخص الخط ملقاة فى العراء بدون حراسة أو أهتمام قرب الورش القديمة .

المكان الوحيد المتطور هو المدافن المسيحية حيث صفوف الشواهد والصلبان البيضاء للمقابر التي تحمل جثث الجنود البريطانيين والبحارة الذين قتلوا أما أثناء المعارك الحربية أو نتيجة للمرض ، مع وجود مساحة خالية لاستقبال أي جثث جديدة مما يزيد إحباط الزائر. أما مقابر التجار الاغريق والاسماء المكتوبة بالاغريقي فتذكر الزائر بدروس اللاتيني الكلاسيكية. وكما الحوائط العالية المتهدمة الخالية تؤكد للزائر أن سكان هذه

البلاد يقدرون الحياة فى المناطق الريفية، وأن حياتهم قد صبغت طباعهم بالوحشية والقسوة المتناهيتين .

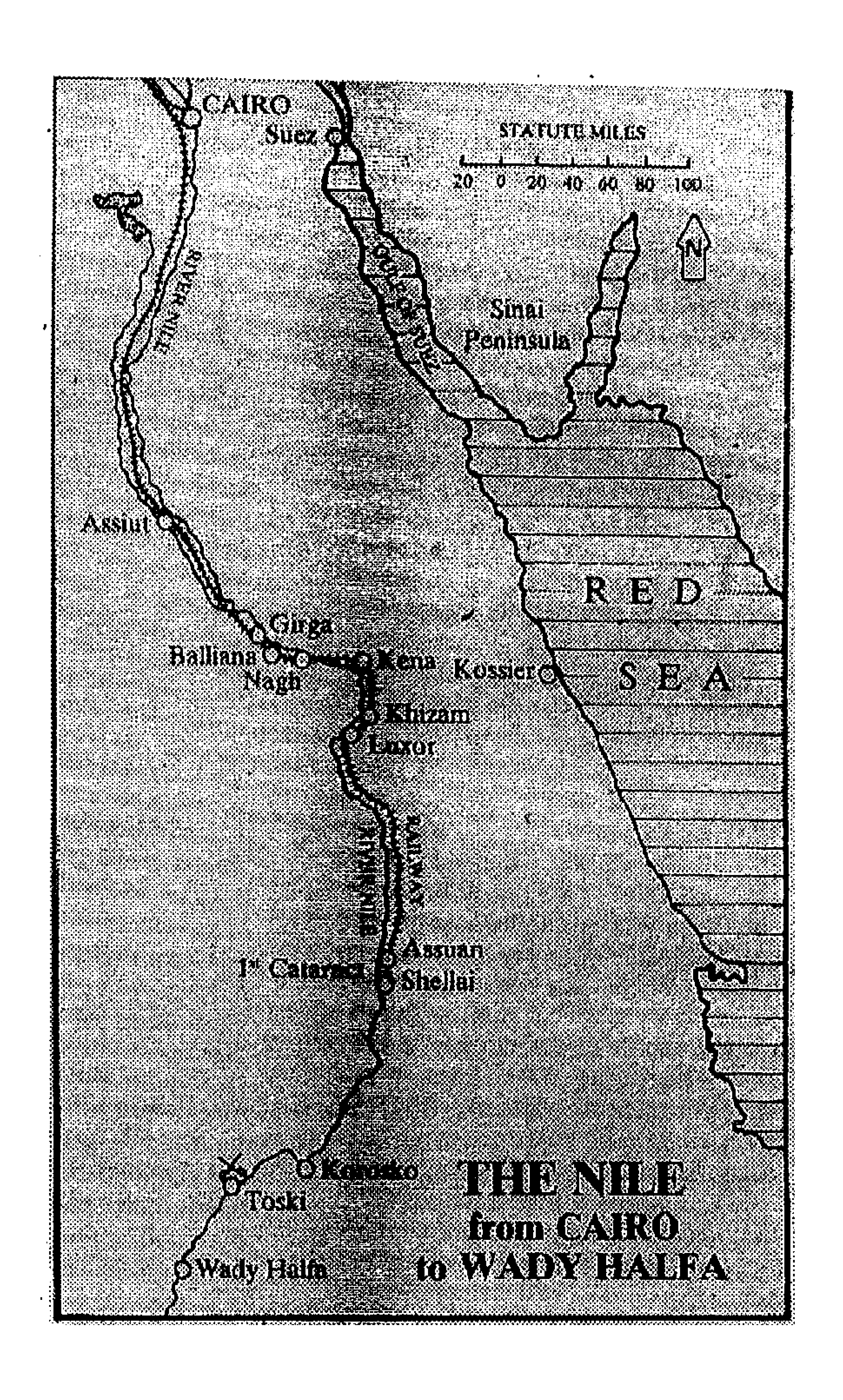
لقد توقفت التجارة لأكثر من أحد عشر عاما، أي نشاط تجاري كان نشاطا غير مشروع بين العرب ومهربي الشرق ، وكان لابد من الانتظار لأيام أحسن قادمة .

وعرف المصريون عدم نفع المنطقة فتركت المنطقة بلا نشاط فلا يماثل المكان إلا بؤس وفقر سكانه .

فى نهاية الممر القادم من الجزيرة توجد بوابة مكتوب عليها " باب السودان " يليه حي بشكل الهلال يسمي الكاف به منازل الطين يحيط بها جميعا حائط بارتفاع ١٥قدما سمكه حوالى ٦ اقدام ، تركت فتحات للبنادق وايضا مواضع متفرقة لمدافع كرووب .

هنالك ثلاث حاميات قوية تكمل الدفاع عن سواكن. عشرة أميال ناحية الشمال هاندوب التي شهدت حادثة " كتشنر " ، بينما تقع تمبوك وسط التلال داخل البلاد وحامية طوكر التي أنشئت لكي تحرم العرب من الاستفادة من دلتا طوكر الخصبة. طوكر حامية قوية وتحتاج لكتيبة كاملة لحراستها .

لا يكون أي وصف لسواكن كاملا بدون ذكر الرجل الذي أسهم فى شهرتها ذلكم هو " عثمان دقنة " . كان " عثمان دقنة " تاجر رقيق مشهور وعندما حاولت الحكومة المصرية وقف نشاطه اضطر للجوء للمعارضة فانضم لثورة المهدي واستطاع نسبة لنفوذه القوي تجنيد كل قبائل الهدندوة على شاطيء البحر الأحمر للوقوف مع المهدي. لقد عانت الحكومة الأمبريالية سنة وراء سنة وضحت بكثير من الرجال والمال فى معارك أشبه بصراع الذئاب حول عظام الناشفة ضد عثمان دقنه. فى بيكر تيب، التيب تامي ، توفريك ، حاسسين ، هاندوب ، جيمند وافافيت وهي كانت المعارك التي خاضها "عثمان دقنة " ولم يصب فيها بجرح واحد. لقد هزم مرات ولكن لم يتم القضاء على قوته، هذا القائد الماكر يمكنه أن يقول إنه حارب أكثر من أى أمير فى جيش الدراويش .


CAIRO
Suez
STATUTE MILES
20 0 20 40 60 80 100
N
Sinai Peninsula
Assiut
RED SEA
Girga
Balliana
Nagh
Kena
Kossier
Khizam
Luxor
Assuan
1st Cataract
Shellal
Toski
Wady Halfa
THE NILE
from CAIRO
to WADY HALFA

لم يتوقع أحد أن يكون التقدم نحو دنقلا ذا اثر على الموقف حول كسلا ، ولكن أثبتت الأحداث نجاح الخطة البريطانية إذ بمجرد ما سمع " عثمان دقنة " باحتلال عكاشة، أخذ قوته المكونة من ٣٠٠ من الفرسان ٧٠ هجانة و ٢٥٠٠ مشاة ورجع الى قاعدتـــه القوية فى دلتا طوكر . بمجرد سماع الاشاعة بتحركه نحو طوكر، تم إلغاء سفر الفرقـــة السودانية الخامسة التي كان مقررا لها أن تبحر إلى قصير ومنها إلى قنا عبر الصحـــراء ، وبقيت لحراسة حامية طوكر .

نسبة لحساسية موقع سواكن سارعت الحكومة البريطانية بوضع خطـــط لتقويـــة الدفاعات عن سواكن بقوات قوية .

كانت الاحوال دائما مضطربة فى شرق السودان ، لم يكن لحاكم البحر الأحمـــر أي وجود أو أحترام بأبعد عن مدي مدافع سواكن ، كانت قبائل المنطقة تدين بـــالولاء لمصر لمجرد أن تعيش فى هدوء وعلى نحو ٢٠ ميلاً حول سواكن كان بعضها يتعامل مـــع عثمان دقنة ولو بالرغم منه أحسن مثال لذلك عمر تيتا شيخ منطقة أركويت. فى أوائـــل أبريل أعلن عمر تيتا أن قوات عثمان دقنة شوهدت بالقرب من منطقة أركويت وأعلـــن أنه وهو حليف الحكومة قد اشتبك معه يوم ٣ وهزمه بخسارة بلغـــت أربعـــة جمـــال وأضاف إذا رأت الحكومة إرسال قوة لمحاربة عثمان دقنـــة فانـــه الحليـــف المخلـــص وسيواصل مناوشتة إلى حين حضور قوات الحكومة .

بعد اتصالات مع السردار قرر العقيد لويد حاكم سواكن الذي كان يعاني مـــــن شدة المرض أنه لا يملك قوات كافية للهجوم على عثمان دقنة عند منطقة أركويت .

من سواكن حتي حدود الهند، إن قيام معركة أمر سهل وبمقدار قوة وثراء الجهـــة المعتدي عليها يكون الرد . إذا كانوا فقراء يرسل أفراد من القبائل الصديقة أما اذا كانوا أغنياء فتجد فجأة اثنين أو ثلاثة لواءات قد جهزت تشترك فى حملة حتي تضاف أمجـــاد جديدة لسجلات الجيش البريطاني .

فى تلك الظروف كانت الحكومة المصرية فقيرة و لم ترغب الحكومـــة البريطانيـــة الاستفادة من تلك الفرص بل كانت مصممة على إرسال قوة صغيرة لعملية محدودة .

قرر الحاكم إجراء مناورة تحت تلال فور وينتري مشتركة بين القوات من سواكن وطوكر. كانت حامية سواكن تتكون من الفرقة الأولي ونصف الفرقة الخامسة المصرية وفرقة الاحتياطي ١٦ المصرية التي حلت مكان الفرقة الرابعة السودانية و لم يكتمل .تشكيلها بعد وسرية من الفرسان وفرق هجانة وبعض وحدات من المدفعية. وكانت حامية طوكر تتكون من الفرقة الخامسة السودانية وبعض المدفعية، هكذا تكونت من هذه القوات فى ثاني أسبوع من أبريل "قوة دفاع سواكن" مع احتفال لائق .

كانت الخطة بسيطة فقد قرر العقيد لويد أن يلتقي مع قوة طوكر عند مفترق الطرق تحت تلال بداية الطريق لاركويت ، على أمل أن يترل عثمان دقنة وقوته لتبدأ المعركة فى العراء وبعدها عند الانتصار تعود القوات إلى سواكن وطوكر .

وحتي تكون قوات سواكن متحركة ، ركبت القوات فى أكثر من ألف جمل و٦٠ بغل و١٢٠ حماراً و٢٠٠ من العرب لقيادة هذه الحيوانات، صرفت تعيينات لستة أيام واحتياطي ماء يوم واحد، وتم صرف عدد ٢٠٠ طلقة لكل رجل وحوالى ١٠٠ قذيفة لكل مدفع. وفى عصر يوم ١٤ أبريل تم استعراض طابور القوة خارج أسوار سواكن ثم عسكرت فى العراء جاهزة للتحرك عند الصباح .

فى الصباح تحركت القوة المكونة من ١٢٠٠ مقاتل، وبعد مشوار ٤ ساعات فى اتجاه جور وينتري ، بلغ الفرسان عن وجود بعض الدراويش من دوريات المراقبة . عندها أخذت القوة تشكيل مستطيل ، الفرقة السودانية المختلطة و ٢ مدفع فى الأمام والفرق المصرية الثلاثة الجانبين والهجانة فى المؤخرة , لم تكن الجمال مدربة فخلقت بعض المشاكل عند المرور فى المناطق الحجرية ورغم التأخير تم الوصول إلى آبار تيروي فى حوالى الرابعة بعد الظهر وهي تبعد ٨ أميال من خور وينتري ، هنا كانت القوة قد قطعت ١٩ ميلا وقرر الحاكم العقيد لويد أن يتوقف . بينما كانت فرقة المشاة تجهز الزريبة، أرسلت قوة من الفرسان تحت قيادة التقيب " فونيك " (ضابط مشاة عين ضمن المجموعة) لكي يتم الاتصال بالقوة القادمة من طوكر التي كان من المفروض أن تكون وصلت الى نقطة الالتقاء .

. على اعقاد أن عمر تيتا سيرسل تحذيرا عند قرب وصول قوات عثمان دقنـــة لم تتخذ القوة أي احتياطيات وفى حوالى الخامسة وجدت نفسها فجأة أمام حــوالى ٢٠٠ من فرسان الدراويش وعدد كبير من المشاة .

بدأت السرية فى تراجع سريع للرجوع الى آبار تيروي ، كان الانســحاب غــير منظم كما أسرع بعض الفرسان حول الاحجار والخيران المنتشرة، فسقط ١٦ جنديـــا من خيولهم وقتل راكبوها فى الحال بالحراب ، أخذ النقيب " فىونيك " ٣٦ من المقتلـين واحتل قمة تل وأخذ استعداده كضابط مشاة مدرب للدفاع عن نفسه، بينما واصلــت بقية القوة اندفاعها للرجوع للقاعدة . وصل ٣٢ من الجنود بقيادة ضابط مصري يقــل إن حصانه قد حرن وفر الى زريبة تيروي وأبلغوا بأنهم هوجموا وأن بقية القوة إما أبيدت أو رجعت لسواكن وما زال العدو يطارهم . كانت الأخبار محزنة وزاد فى المحنة وصول مجموعة من الدراويش حاملي الحراب الى خارج الزريبة فى تيروي . تبرع اثنان لمحاولــة الذهاب لتفقد باقي قوة الفرسان أو جيش طوكر لكنهما سقطا قتلا بعد أن طـــاردهم الدراويش. وانتظرت بقية القوة متوقعة هجوما وشيكا .

زاد القلق فى منتصف الليل عندما شوهدت جموع الدراويش تتحــرك فى الخــور المقابل للجهة الجنوبية فى نفس الوقت الذي سمعت فيه صيحات العدو القوية من الجانب الآخر وانهمرت طلقات الرصاص وكذلك قذائف المدفعية نحو العدو بدون تصويـــب تضرب فى جنح الظلام ، انسحب الدراويش بعد فترة تاركين وراءهم قتيلا واحدا، وتم تبادل للطلقات متفرقة لكنه لم يجدد الهجوم حتي الصباح..

فى هذه الأثناء استمر النقيب " فىونيك " فى الدفاع عن موقعه، وصدت الهجمات بنسبة لقلة البنادق عند العدو وأيضا بجدارة القوة فى تصويب نيرانها حتي اســتطاعوا ان يجبروهم على التراجع. فى الصباح اكتشفت السرية انسحاب العدو فركبـــوا خيولهـــم وانضموا لباقي القوة وواصلوا السير حتي وصلوا الى وينتري ؛ حيث وجدوا أن قـــوات طوكر قد وصلت بالفعل. لقد استطاع الرائد "ســـيدني" الـــذي كـــان علـــى رأس ٢٥٠جنديا فى الفرقة الخامسة السودانية، (القوة الوحيدة التي يعتمد عليها) أن يطـــرد

المجموعة من الدراويش التي كانت تحتل الخور في وينتري. وهنا وقبل أن تستريح القوات هاجمتهم بمجموعة من العرب تتكون من حوالى ٨٠ من الفرسان و ٥٠٠ مشاة ، تصدي لهم رجال الفرقة السودانية ببسالة، وانتهت المعركة بقتل ٣٠ من أفراد العدو مقابل ٣ جرحي من قوات الاحتياطي .

نجحت خطة العقيد لويد وتم لقاء القوتين من سواكن وطوكر في مفترق الطرق مع طريق اركويت لكن ألغيت فكرة انتظار عثمان دقنة لقتاله ورجعت القوتان الى سواكن تاركتين ١٨ قتيلاً مصريا و ٣ جرحي. كان قد أعقب وصولهم فترة قلقه على مصيرهم لدي النقيب " فورد هتشنسون " الذي ترك لحراسة سواكن ، خالية تماما من أي جنود. وفي حوالى الساعة الثانية ظهرا، وصلت الى أبواب المدينة بقايا الفرقة ١٦ من الفرسان المصرية مع ٦ جياد بدون فرسان. أنتشرت إشاعة بأن الفرقة قد أبيدت و لم يخف العرب من سكان سواكن سرورهم وبدا كأن البقية تستعد للتحرش بالموقع. ولكن أنقذت الموقف السفينة الحربية "سكاوث" التي كانت راسية في الميناء حين وجهت مدافعها نحو الأحياء العربية وانزلت عدداً من جنود البحرية بطابور في الشوارع للسيطرة على الموقف الى أن وصلت القوة المنتصرة واستقبلت استقبالا لائقا وأقيمت الاحتفالات .

أعلن أن نجاح العمليات قد كسر شوكة عثمان دقنة وأمنت دلتا طوكر ومنعا لحدوث أي حادث يعكر صفو الانتصار أعيدت القوة الخامسة لطوكر عن طريق البحر أولا الى ترنكتات ومنها لطوكر. وبقيت قوات سواكن داخل المعسكر في مهام دفاعية بحتة. ثم سمع إن " عثمان دقنة " قد أغار على بعض القري. وعند وصول الفرقة الهندية كان من المفروض أن يكون عثمان دقنة على بعد ١٢ ميلاً من المدينة، لكنه تراجع الى ادراما على نهر عطبرة وبقي هناك أثناء الحملة على دنقلا .

لم تتكرر أي عمليات هجومية بعد ذلك في شرق السودان، ولكن رغم عدم مقدرة الدراويش على مهاجمة المصريين نظراً لاستحكامات دفاعاتهم حول المدينة الا

أنهم بقوا فى المنطقة إلى أن تغير الحال بعد سقوط بربر على أيدي القوة الجبارة خلفهم على النيل .

بعد معارك وينتري وضح أن دفاعات سواكن لا يمكن أن تترك للفرقة ١٦ المصرية وحدها بالرغم من مطالبة سير (هـ. كتشنر) بارسال أي جندي من الجيش المصري ليشارك فى المعارك التي تجري حول النيل وعليه تقرر احضار لواء من الهند ليحل محل الفرقة الخامسة السودانية والكتائب المصرية حتي تتوجه للاشتراك فى غزو دنقلا .

اختير اللواء الهندي من الفرقة ٢٦ مشاة البنغال ، ٣٥ السيخ الأولي بومبي لانسرز، الخامسة بومبي بطارية الجبال ٢ مدافع مكسيم وجزء من الفرقة الملكية (مدراس) سابرز ومايندز وبلغ العدد الكلي حوالى ٤٠٠٠ رجل تحت قيادة العقيد ايفرتون من فرقة المرشدين .

وصلت الفرقة الهندية التي كانت تعتبر أقوي فرقة فى السودان يوم ٣٠ مايو متحفزة للقتال ولكنها صدمت عندما علموا أنهم باقون فى سواكن للحراسة ، لم تتحقق كل الأقوال من أنهم فى انتظار ٥٠٠٠ جمل قادمة من الصومال لتقلهم لكسلا وبربر ، وعرض العقيد "ايفرتون" التوجه نحو نقاط اركويت. ولكن رفض عرضه وأبلغ بالبقاء فى سواكن وطوكر .

جاءت موجه الحر الفظيع حتي وصلت الحرارة الى ١١٥ درجة ومعها العواصف الرملية ، ساءت أحوال الجنود وبانعدام الاغذية واللحوم أصيبت نصف القوة بداء "الاسقربوط" "سكيبرفى" الذي من أعراضه الأنيميا الحادة، الضعف العام، تساقط الأسنان ونزيف حاد من جروح مفتوحة وأعراض مؤلمة ومقززة. وهكذا فإن أعداداً كبيرة من الهنود والانجليز تم اعتبارهم غير لائقين للخدمة وأعيدوا للهند وانجلترا وأخيرا أعيد بقية اللواء الى الهند مما أسعد القلة الباقية. لعله من الأفضل أن نترك الحديث المشئوم الكثيب عن أحداث شرق السودان لنتحول الى الحديث الى الحملة الناجحة على النيل .

فى منتصف أبريل تمت عمليات تجميع القوات فى مناطق الحدود ، تركت كل سبل المواصلات لترحيل المعدات والمهمات الى الجنوب لأكثر من ١١ ألف جندي

وصلوا الى ما بعد وادي حلفا لكن سوف لا تبدأ أي معارك قبل وصــول الامــدادت واكتمال القوة الكاملة .

وزعت القوات الى ثلاثة معسكرات قوية ، فى وادي حلفا ، صــرص وعكاشــة ووحدات صغيرة تسيطر على النقاط الصغيرة بين المعسكرات الثلاثة .

بلغت القوة وادي حلفا ٣٠٠٠ رجل بما فيهم "ستانفورد شير شمال" بلغت حدود المدينة. والمعسكر حوالى ٤٠٠ ياردة فى العرض محصورة بين شاطيء النهر والصحراء فى مسافة ثلاثة أميال، وكانت مكاتب الضباط من الطين ، منازل قليلة ترتفع ما بــين دور ودورين على الأكثر. وفى شمال المدينة توجد منازل متينة البناء على شاطئ النهر حــول أشجار النخيل، كما أن الحوائط البيضاء ومنارة الجامع تغري المســافر القــادم مــن كوروسكو والشلال بأنه سيجد الترفيه وحسن الاستقبال فى منطقة عصرية .

المدينة كلها محمية بخندق طويل وحائط عال من الطين باتجاه الصحراء مثبت بــه مدفع كروب حتي التقاء الحائط مع حافة النهر مع خمس حاميات صغيرة للحماية مــن داخل البلاد لهذا أصبح أي هجوم للعدو الآن عديم الفائدة. لقد أصبحت حلفــا الآن المحطة الرئيسية، تصلها أطنان من المواد، وبها المخازن والورش مما أضاف ضجة المدنيــة الى هذه البقعة الافريقية .

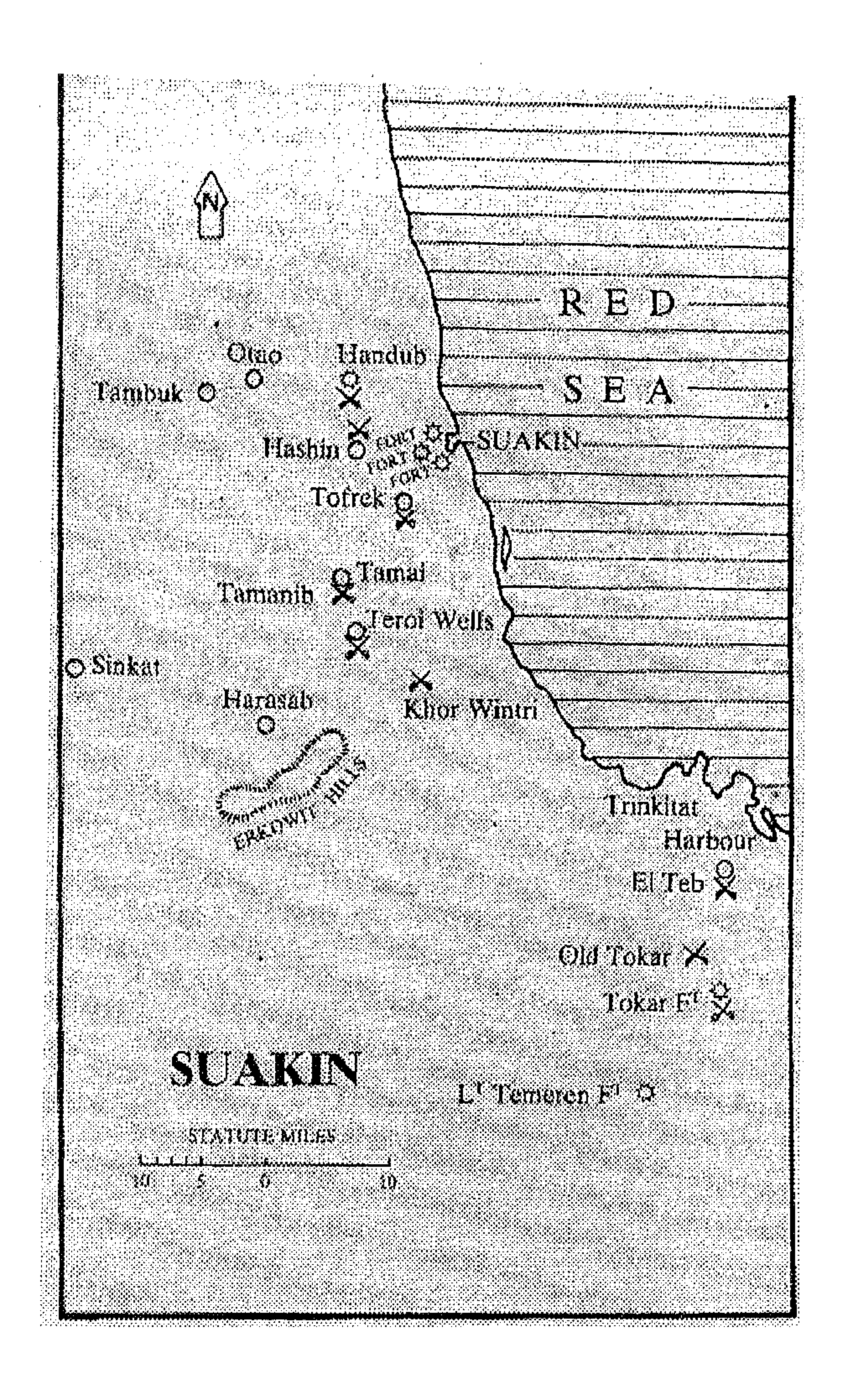
لقد تم بناء حامية صرص على ربوة صخرية سوداء على حافة النيــل ٣٠ ميــلا جنوب حلفا، وخلال سنين التحضير الطويلة اكتسبت صرص أهمية كمركز للقــوات القادمة وكآخر محطة لسكة الحديد حتي صارت معسكرا يضم ٦ الآف مقاتل. تم عمل حائط حجري قوي من أول بداية الصخرة حتي تلتقي مع النهر فى الجانب الآخر مــع تقوية من السلك الشائك. امتدت صفوف الخيام والحيوانات داخــل هــذا المعســكر وأصبح العقيد "هنتر" هو قائد الحامية التي عرفت باسم "حامية صرص والجنوب" .

اختار الجيش المتقدم طريقين واحد لبناء السكة الحديد على نفس طريــق الخــط القديم عبر الصحراء الذي بني عام ١٨٨٥ وقافلة أخري عن طريق شــاطيء النــهر، وكانت الفرقة المصرية السابعة تحرس الخط الحديدي بينما كلفت نقاط صغيرة لمرافقــة

الحملة بطريق النهر لتأمين الطريق حتي عكاشة. وكبرت القاعدة المتقدمة خلال شهور أبريل ومايو وحتي أصبحت فى موقف قوي. فى مرة واحدة حاول العدو الاقتراب تصدت له المدفعية طويلة المدي وانسحبت القوة المعادية بعد اول قذيفة ، لم يكن احد يتصور فعالية المدفعية لهذه المسافة حتي اكتشفت فى ثاني يوم جثة منتفخة تحت جبة بيضاء عندها هلل رجال المدفعية لقوة مدافعهم . كانت هذه القذيفة إنذار كاف ، لم يحاول بعدها الدراويش التقدم مرة أخرى. لقد ترك السردار القاهرة يوم ٢٢ مارس بصحبة العقيد رندل نائب القائد وبقي فترة قصيرة فى أسوان ثم واصل المسير حتي وصل حلفا يوم ٢٥، وبقي هناك كل شهر أبريل يشرف ويطالب بسرعة نقل المواد وامتداد الخط الحديدي. ووصل عكاشة فى أول مايو بصحبة سرية بقيادة الرائد بيرن ميردوخ، وكانت سرية أخري قد وصلت عكاشة فى اليوم الماضي فاصبح هناك سريتان للفرسان أضيفتا للقوة المتقدمة .

فى نفس اللحظة التي وصل فيها السردار جاء بعض الأعراب وذكروا كيف انهم فوجئوا بوجود بعض الهجانة من الداراويش وكيف انهم خسروا اثنين وهم يحاولون الهروب منهم . فامر السردار السريات المصرية الثلاث مع الفرقة السادسة السودانية بملاحقة أي دوريات معادية وعمل استكشاف نحو فركة .

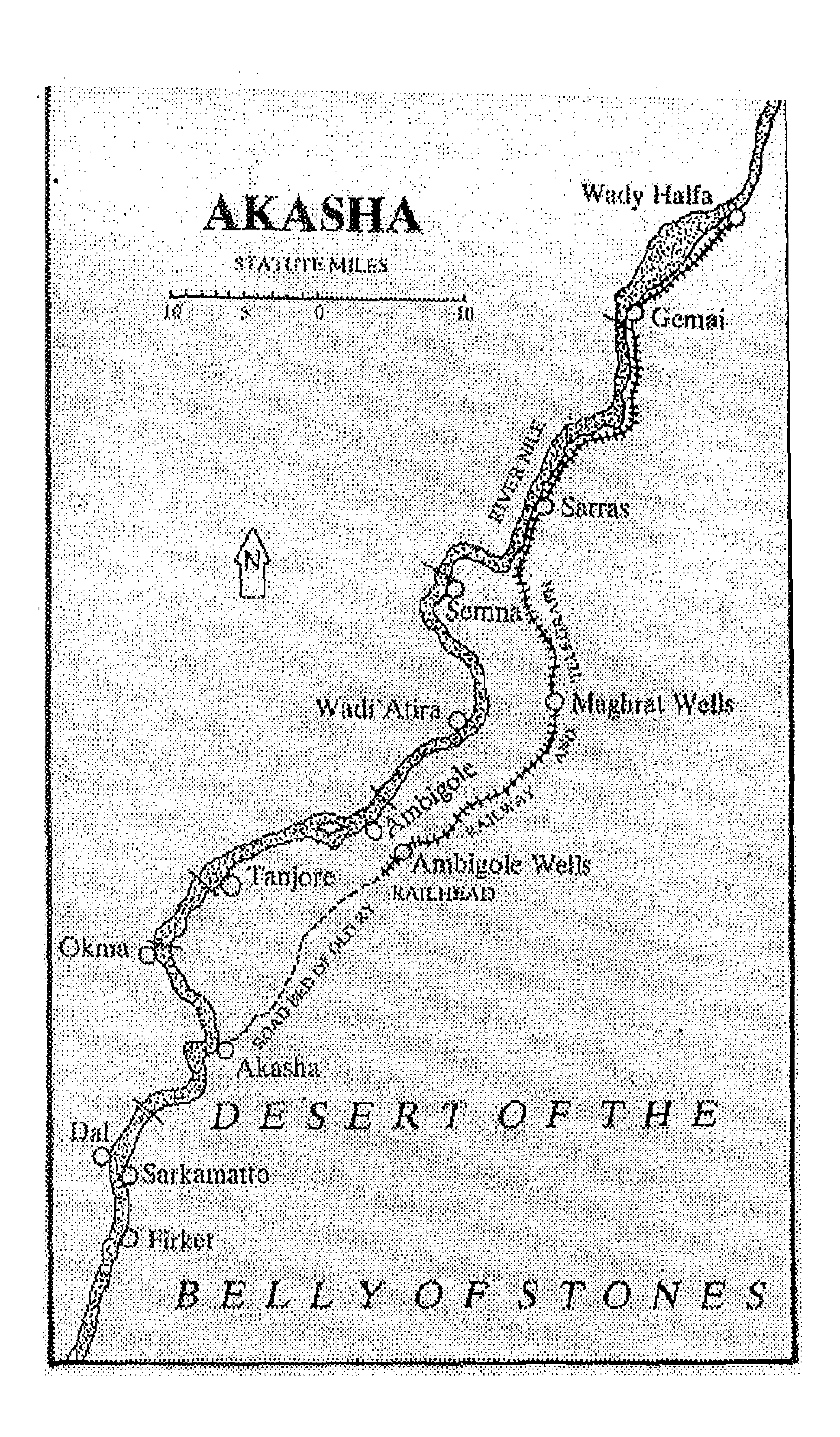
تحرك الرائد بيرن ميردوخ حوالى العاشرة صباحا مع أربعة ضباط بريطانيين و ٢٤٠ من جنود اللانسز. وبعد مسافة سبعة أو ثمانية أميال من عكاشة مرت القوة بمنطقة تلال رملية تحيطها من كل جانب مرتفعات حجرية تمر بوادي ضيق وقبل أن تتخلص القوة من هذه المنطقة، شاهدت فى المقدمة بعض أفراد قوة من الدراويش، هنا ذهب الرائد ليلقي عليهم نظرة و لم تكن فئة من بعض راكبي الجمال لكنها قوة كبيرة تتكون من ١٥٠٠ مشاة و ٢٥٠ خيالة . كانت فرقة الفرسان قد ابتعدت عن باقي المشاة وكان منظر العدو خطيرا. لم يكن فرسان العدو يبعدون اكثر من ٣٠٠ ياردة وبدأوا فى الاستعداد للهجوم تساندهم بعض الهجانة من الطرف الأيمن وخلفهم مجموعة كبيرة من حاملي الحراب .


RED
SEA
Otao
Handub
Tambuk
Hashin
FORT
FORT
FORT
SUAKIN
Tofrek
Tamai
Tamanih
Teroi Wells
Sinkat
Harasab
Khor Wintri
ERKOWIT HILLS
Trinkitat
Harbour
El Teb
Old Tokar
Tokar F^t
SUAKIN
L^t Temeren F^t
STATUTE MILES
10
5
0
10

لذلك قرر الرائد الانسحاب من هذه المنطقة ، استمرت السريات فى التراجع يلاحقها الدراويش حتى التحمت مع مؤخرتها واضطر الضباط البريطانيون لقتـــال بالســيوف والمسدسات. وسط هذه الضوضاء والارتباك تصاعد الغبار من حوافر الخيل وما كــان يجدي أي تقدم فى مثل تلك الحالة. لم تبد قوة الفرسان المصرية أي نية للرجوع لملاقــاة العدو لكن الضباط البريطانيين الذين كانوا فى مقدمة القوة أصبحوا الآن فى مؤخرتهـــا وقرب العدو استطاعوا أن يوقفوا تقدم العدو ومعهم مجموعة من الجنود، فتراجع خيالـة الدراويش تاركين حوالى ١٢ قتيلا فى ارض المعركة وانضموا لأفراد المشــاة . أخلــت سريتان الوادي الضيق لمسافة ٧٠٠ ياردة بينما رجع بيرن ميردوخ مع الســرية الثاليــة واستطاع تشتيت العدو وطردهم من الوادي ، رجعت السريتان ونزل الفرسان وأخذوا وضعا مناسبا لاطلاق النار من التلال القريبة من مدخل الوادي مستعملين بنادق الــمرين السريعة الطلقات، كان انهيار روح فرسان الدراويش عاملا فى عدم مغـــاودة الهجــوم المضاد، ولكن إطلاقهم للرصاص بدون فعالية لم يسبب أي خسارة .

إن شدة الحرارة والعطش أثرت على الجنود والخيول خاصة السرية التي كـــانت ترافق السردار فقدكانت مجهدة من عناء السفر لكن فرقة الفرسان تثبتت فى مواقعـــها واستطاعت ردع القوة المهاجمة التي انسحبت بعد حوالى ساعتين من القتال. وصلــت الفرقة السودانية متحفزة لقتال العرب لكن كان العدو قد تم انسحابة بالكامل ورجعـت القوة للمعسكر ومعها الحراب وستة خيول كانت غنيمة المعركة، ولكي نتخيل شـــدة الحرارة فان أحد الجنود الأفارقة قد مات بسبب ضربة شمس .

هكذا كانت أحداث أول مايو رغم القتال الشرس لم تكن الخسارة تذكر. لقـــد جرح النقيب البريطاني "فى تول" وقتل جندي محلي وجرح ثمانية جنود جراحاً خطـــيرة. لقد استمرت الاستعدادت لاحتلال فى ركة واكتملت تماما مع نهاية الشهر. إن وصـــول المعدات والمهمات المستمر الى عكاشة قد جعلها قاعدة قوية يمكن للقوة أن تستند عليها لمدة شهر بدون الرجوع الى الشمال ، واصل تقدم الخط الحديدي بما يوازي نصف ميل فى اليوم حتي وصل آبار أم بكول حيث أقيمت حامية بها أربعة مدافع وقوى فى


AKASHA
STATUTE MILES
Wady Halfa
Gemai
RIVER NILE
Sarras
N
Semna
Maghrat Wells
Wadi Atira
Ambigole
Ambigole Wells
RAILHEAD
Tanjore
Okma
Akasha
DESERT OF THE
Dal
Sarkamatto
Firket
BELLY OF STONES

الاستحكامات ، انخفضت المسافة التي يجب أن يقطعها مسافر من صرص الى عكاشة الى النصف وتضاعفت كمية المؤن المرسلة ففقدت صرص مجدها المؤقت وتحولت عكاشة الى القاعدة الجديدة. لم يبق أي جنود حتي وادي حلفا بها كتيبة الجنود البريطانيين فقط، ووصلت الكتيبتان المصريتان من سواكن كذلك الفرقة السودانية الخامسة فى الطريق . تم رصد كل المنطقة بعد عكاشة ورسمت الخرائط أصبح كل شيء جاهزا .

بدأ التجمع فى أوائل يونيو عندما تحرك السردار من حلفا الى الجبهة . وقف العمل فى خط سكك الحديد وترك الجنود "الكواريك" وحملوا بنادق الريمنجتون وأصبحوا حراسا لنقاط المواصلات . سمح للمراسلين الحربيين بالتحرك الى عكاشة يوم ٢ يونيو، وفى ٣ يونيو تحركت الفرقة السودانية مرورا ببابار امبكول فى طريقها جنوبا تبعتها المدفعية المحمولة على الجياد والسرايا والكتائب المصرية التي كانت تعسكر على طول خط النهر فى النقاط المهمة بين امبكول وعكاشة أيضا تحركت الى الجبهة مقابل أوكما وتحركت الفرقة المصرية الرابعة والسابعة من عند رأس الخط الحديدي وبذلك وصلت آخر الكتائب الى الجبهة .

بلغت القوة تسعة آلاف مقاتل مع كل احتياجاتهم وتم تجميعهم بالقرب من قوات العدو .

ظل الدراويش فى فركة يشاهدون، ببلادة وتراخ وبلا اهتمام كل ما يجري من استعدادات لإبادتهم . وكان من المفروض أن يكونوا ملمين بمعلومات أكيدة عما يجري. إذا كانت دوريات الخيالة المصرية قد منعت أي مناورات لهم فان عيونهم كانت فى المعسكر عن طريق سائقي الجمال وحاملي المياه وغيرهم من العرب المتصلين بالقوة القادمة . صحيح لم يكن فى مقدورهم معرفة التاريخ المحدد للهجوم لكن ما كان امامهم غير التراجع لأن الهجوم لابد أن يكون وشيكا بعد اكتمال القوة فى عكاشة .

كان الأمير حمودة لا يملك اكثر من ٣ الآف رجل على الأكثر ولا يمكن حتي مع سبعة وخمسين أميرا أن يرجح هذا قوة الدراويش على كفه الجيش الكبير ، فبنادقهم

سيئة والمؤن شحيحة وكان أمامهم وقت للانسحاب لمنطقة كوشية أو صوارده حتى يبعدوا عن سيف العدو البتار. لكنهم لم يرضخوا لهذا الخيار. عناد وغباء للآخر ومضيعة للوقت حتى هبت عليهم فجأة فاجعة كبري وابادتهم عن الوجود كقوة عسكرية .

الفصل السادس

فركة ٧ يونيو ١٨٩٦

كانت قوة الدراويش فى فركة تحت إمرة الأمير "حمودة" منذ نهاية عـــام ١٨٩٥ وكان لتراخي وكسل هذا العربي الفاجر السبب المباشر فى تمكين القوة المصرية من تقوية مواقعها فى عكاشة بدون أي قتال ، أسبوع تلو الآخر ظلت هذه القوة تكابد فى مناطق وعرة بين صرص وعكاشة دون أي مناوشات أو دون أن تتعرض الأورطة فى عكاشـــة للهجوم او تظهر هذه القوة أي محاولة لعرقلة سير خطوط اتصالاتها .

لم تغب هذه النتائج الفاذحة التراخي وعدم فعالية الأمير " حمودة" عن "ود بشارة" حاكم مديرية دنقلا وبالرغم من سلطته على كل القوات فى المنطقة إلا أنه كان يفتقـــد بسط سيطرتة بشكل فعال. وعندما تكررت شكواه من حمودة بـــدأ الاخـــير بعـــض التحرك، فأرسل فرق استطلاع أغارت على مواقع القوة المصرية فى عكاشة لأكثر مـــن مرة ولكن هذا لم يرض "ود بشارة" فاقصاه من منصبه وعين بدلا منــــه "عثمـــان ود أزرق" .

عثمان كان درويشا من نوع مختلف ونوعا آخر من الرجال.. كان من أخلـــص المتعصبين والمؤمنين بالمهدي مع إخلاص قويّ للخليفة ظل يعمل فى الحدود الشـــمالية لسنوات طويلة وكان معروفا لدي السلطات المصرية من الغارات الجريئـــة الوحشـــية وكان قاسيا على الأهالى المساكين الذين يسكنون فى قري الحدود وبالتالى ما كان لينال أي رحمة لو وقع فى أيدي العدو .

مهارته وخبرته قد حمته ولكن بين كل الأمراء الذين اجتمعوا فى فركة فان مـــوت "ود أزرق" سوف يسعد السلطات العسكرية اكثر من أي قائد آخر خاصة وأنـــه الآن تسلم القيادة من حموده .

لايمكن الجزم بأن " عثمان ود ازرق " قد تسلم القيادة من حموده فى يوم ٦ يونيـــو ولكن من المحتمل أن حمودة لم يعترف له بذلك الحق واستمر الخلاف بينهما . وعلــــى

كل حال اراد " ود أزرق " أن يأخذ زمام المبادرة ولكي يثبت سلطته ببساطة ، اخـــذ كتيبة هجانة قوية عند الظهر وترك فركة لاستطلاع مواقع العدو فى عكاشة .

تحرك بحذر ووصل لمشارف معسكر عكاشة بدون أن يلحظه احد، وكانت القـوة التي سوف تهاجم فركة فى الفجر تجري طوابير العرض ، لكن شدة الغبار منعت الرؤيـة و لم تكتشف الكتيبة أي شيء غير عادي. لقد رسم الدراويش مخمس الاضلاع علـــى الأرض لجلب الحظ وعاد إلى فركة ليستمر فى حواره مع حمودة بعد أن أعلن أن الأتراك هادئين.

كانت القوة التي أعدها السردار للاستيلاء على فركة تسعه آلاف مقاتل مكونـــة من الآتى: -

القائد - السردار

* سلاح المشاة تحت قيادة العقيد " هنستر

اللواء الاول	اللواء الثاني	اللواء الثالث
الرائد / لويس	الرائد / ماكدونالد	الرائد / ماكسويل
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة الثانية المصرية
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة السادسة السودانية	الفرقة السابعة المصرية
الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة السابعة السودانية	الفرقة الثامنة السودانية
	الفرقة الثامنة السودانية	

* سلاح الفرسان تحت قيادة الرائد " بيرن ميردوخ " :

٧ سرايا سلاح الفرسان المصري

٨ فرق قوات الهجانة

* سلاح المدفعية :

١ بطارية تجرها الخيول

٢ بطارية ميدان

١ بطارية مدافع مكسيم

كان هناك طريقان من عكاشة لفركة ، أحدهما يحازي النيل والآخر عن طريق الصحراء على خط السكك الحديد المتوقع وقرر السردار أن يستعمل كلنا الطريقين وقد قسمت القوة الى قسمين ، القسم الاول بقيادة السردار تسلك طريق النيل وتتألف من سلاح المشاة ، مدفعية الميدان ومدافع المكسيم .

وقوة الصحراء تحت قيادة الرائد " بيرن ميردوخ " تكونت من القوة الراكبة ، المدفعية التي تجرها الخيول وفصيلة من مشاة الفرقة السودانية السابعة بقيادة "ماكدونالد" ، وأعطيت جمال وكان العدد الكلي حوالى الفى رجل . أعطيت تعليمات محددة للقوة الصغيرة وكان على "ميردوخ " احتلال التلال جنوب شرق فركة عند الساعة الرابعة والنصف صباحا على أن ينشر قوته بحيث تحتل موقعا نحو الغرب ، الخيالة على الشمال ، الهجانة فى الوسط والفرقة السودانية السابعة على الجنوب ، الخيار الوحيد الذي يترك لتقديره هو قوة المدافع التي تجرها الخيول، وقد حذر من ان تكون قوته على مدي نيران المشاة . بمجرد أن يتم طرد العدو ، تنضم الفرقة السودانية السابعة لقوة السردار على أن تواصل باقي قوة ميردوخ، الهدف أولا كويكا ثم صواردة .

تحركت لواءات المشاة من عكاشة حوالى الساعة الثالثة والنصف عصر ٦ يونيو على طريق النهر. كان لواء لويس فى المقدمة مع الفرقة السودانية الخامسة ومدفعية مكسيم ، باقي المدفعية ثم لواء ماكدونالد وبعده لواء ماكسويل تتبعه مستشفى الميدان ونصف كتيبة كاحتياطي. سار السردار خلف المدفعية وترك آخر خط القوة المعسكر فى الرابعة والنصف ، وبعد ساعتين تحركت قوة الصحراء الراكبة . حققت قوة طريق النهر بعض التقدم قبل حلول الظلام بعدها كان التقدم بطيئا ومرهقا ، سار الطريق فى منعطفات ضيقة وأرض ملأي بالحجارة لم تسمح بمرور أكثر من أربعة رجال فى الوقت الواحد، وتعثرت البغال لعبور الطريق الضيق ، لم يظهر القمر وكان الظلام كاملا واستمر تدفق الرجال فى صفوف طويلة لا يسمع صوت سوي صوت أقدام المشاة والعتاد الذي يحملونه. حوالى الساعة العاشرة والنصف وصل لواء لويس لأول منطقة

رملية مسطحة حوالى ميل واحد شمال قرية ساكاماتو ، هذه النقطة هـــي الـــتي قـــرر السردار أن يتوقف عندها للراحة وهي بالكاد تبعد حوالى ثلاثة أميال من العدو .

كان شاطيء النيل مناسبا للتمويل من المياه زودت القرب والزمزميـــات بالميـــاه شرب الجنود والبهائم وقدم بعض الطعام وتوالى وصول القوات واحدة خلف الأخـــري الى أن اكتمل وصولها عند منتصف الليل، وبذلك تم تمركز كل قوة لويس وماكدونـالد برئاسة السردار .

فى ذات الوقت كانت القوة الراكبة فى طريقها المرسوم، وكما حـــدث لقـــوات طريق النهر عانت القوة من وعورة الطريق ولأن الفرقة الســودانية الســابعة لم تعتـــد ركوب الجمال حل الارهاق بافرادها وبعد الساعة الواحدة حل التعب والنعاس بكـــل افراد الفرقة وعاني الضباط الكثير وهم يحاولون الابقاء عليهم يقظين وهم على ظـــهور الجمال. وصلت على أي حال الفرقة نقطة فركة فى الساعة الثالثة الا ربعـــا . عندهـــا ترجل افراد الفرقة السودانية من الجمال وعملوا تشكيل قوة مقاتلة من جديد .

ترك الرائد ميردوخ الجمال الزائدة تحت حراسة خاصة وتقدم لاحتلال التـــلال فى المواقع المحددة له قبالة قرية فركة .

تحرك السردار مع المشاة حوالى الساعة الثانية والنصف بدأ يظهر القمر على قمـــم التلال شمال طابور القوة وكان ما زال هلالا يرسل ضوءا ضعيفا . تم التقلـــب علـــى اصعب جزء فى المسيرة بمجرد أن بدأ التحرك بعد الراحة وبدأ زحف ٦ آلاف جندي فى طابور واحد مع قرب طلوع الفجر واقتراب معسكر الدراويش بدأ القلق يظهر علـــى السردار وأعوانه وأرسل مناديب لباقي القوة لتسرع فى الخطي حـــتي عـــبرت القـــوة كالقطيع متزاحمة ومتدفقة من باب واحد وفى الرابعة تخطي اللواء المتقدم آخر العوائـــق وانتهت بذلك مرحلة عصيبة فى تخطي الممر الضيق .

وفجأة ومن ناحية الجنوب بدأت أصوات الطبول تعلن أن الدراويش مســـتعدون وربما هاجموا القوة قبل أن تستعد، صمت صوت الطبول فجأة، فلقد كـــانت اشـــارة

لموعد صلاة الفجر لم تكن انذارا وظل الدراويش على جهلهم بالقوة القادمة لهلاكهم السريع، مضوا فى طريقهم لأداء شعائر الصلاة .

ظهر جبل فركة الكبير مع بصيص الضوء الضئيل فى الأفق، على شمال القوة ظهر بينه وبين النهر شريط ضيق من الشجيرات والأعشاب وبعض أشجار النخيل وهنا طلب من اللواء الذي فى المقدمة أن يترجل ويستعد .

كان الموقع يسع بالكاد الفرقة السودانية الخامسة لتكوين طابور اصطفاف واكتفت الفرقة الثالثة والرابعة المصرية بتوسيع رقعة التشكيل بالنسبة للسرايا الثالثة على يمين مؤخرة الفرقة الخامسة ، الرابعة فى مؤخرة الوسط وبدأت القوة تظهر الآن فى الفضاء الواسع كلما اتسع الطريق الخارج من الوادي الضيق على شاطيء النيل . توزعت بطاريات المدفعية الاولي شمال الخامسة السودانية والثانية على يمينيها . ظهر ضوء النهار وبدا أن قرية فركة تبعد نحو ميل واحد ترقد خلف كثبان التراب و لم يظهر أي دليل على أن الجيش الغازي تم اكتشاف تحركه، واكد الصمت بعد احتمال أي هجوم مضاد .

توقف اللواء الذي فى المقدمة والمدفعية حتي تتاح الفرصة لماكدونالد تجهيز كتائبه الى سرايا . عند الساعة الخامسة بدأ التقدم هنا جاءت طلقة من عند كتف الجبل معلنة أن النقطة المتقدمة لجيش الدراويش قد شاهدت الخطر القادم . جاءت طلقات اخري متتابعة رد عليها من الفرقة السودانية بمجموعة (ضرب جماعي) سرعان ما تبعتها طلقات المدفعية من مدفع الميدان ومدافع الخيالة ، مفاجأة العدو كانت كاملة .

أصوات دانات المدفعية زادت فى حماس القوة الغازية وشجعهم اكثر عنصر المفاجأة للهجوم عند طلوع الفجر .

وصلت الفرقة السودانية الخامسة الى أعلى نقطة كانت تخفى قرية فركة وظهرت القرية كاملة أمامهم تمتد على طول الشاطيء ، عبارة عن مجموعة متناثرة من بيوت الطين بطول ميل واحد وعرض حوالى ٣٠٠ ياردة تتخللها جدران من الطين ومنازل صغيرة فى نهاية شمال القرية وظهرت أشجار النخيل وأيضا بعض المراكب الراسية على

النيل التي يستعملها العرب وعلى شمال القوة هناك ما يشبه تل من الحجارة على رأسه أعلام يبدو كمعسكر للقرية .

على طول الفضاء الواقع بين التل ظهر مثلث الدراويش على ظهور الخيل وراجلين يسرعون فى تنظيم دفاعاتهم ظهر بعضهم على اعلى تل الحجارة لينظر بنفسه لمشاهدة القوة القادمة للأعداء وانهالت بعض الطلقات على بيوت الطين وحجارة التل الأسود . تطور الهجوم بسرعة تدفقت اللواءات فى الممر الضيق بين الجبل والنهر وانهمرت النيران من الشمال واليمين من القوات المهاجمة، فتحت الفرقة السودانية الخامسة نيرانها على بيوت القرية من المنطقة العالية التي احتلتها ، المصرية الثالثة والرابعة نزلت على شمال ويمين القوة الأساسية المهاجمة. وبدأت مدافع البطاريات ومدافع المكسيم تفتح نيرانها على قوة المشاة المتقدمة نحوهم . هجم لواء " لويس " على القرية من الجنوب وجاء ماكدونالد يتقدم لواءه من جهة الشمال حول نهاية التل الحجري جانحا نحو الشمال كانت هناك شجيرات وبعض الحجارة وخور صغير مما أخر تقدم قوته قليلا .

ظهر جليا الموقف الحرج الذي وضع فيه العدو فبدأ فى إطلاق النيران بصفة مستمرة ولكن الفرقة السودانية المتحمسة واصلت هجومها نحو التل وعندما اصبحت على بعد ٢٠٠ ياردة ظهر حوالى ٥٠ خيالة من الدراويش تهاجم الجناح الشمالى للفرقة ولكنها لم تسطيع مقاومة النيران الشديدة المركزة .

عندما رأي باقي الرجال ابادة الخيالة وهي تضم الأمير حموده والأمير النور عنقرة أمير الجهادية أخلوا التل وتراجعوا لموقع آخر ، تابعت الفرقة السودانية بالسلاح الابيض والذخيرة مطاردة العدو وفوق وتحت التلال حتي تمت تصفية المنطقة من المقاتلين لم يبق إلا الجثث وسارع الفاريون نحو شاطيء النهر .

نظم اللواء نفسه متجها للغرب والجنود لاهثيون ينظرون إليهم بينما كان لواء ماكدونالد يهاجم التلال ، دخل لويس الى القرية ومعسكر الدراويش ، أبدي العرب من خلال الفتحات الموجودة فى المنازل مقاومة صلبة وانشغلت الفرقة الرابعة فى معركة حقيقية ، أصيب جواد كابتن الفرقة " سباركس " فى أربع مناطق ، واستغل المصريون

تفوقهم العددي والتسليح القوي فى البلاء بلاء حسنا فى المعركة كانت نقطة تحـــول فى هذه الحرب .

عندما جنح اللواء " لويس " الى اليمين واتجه نحو لواء " ماكدونالد " الى الشمال انفرجت مساحة واسعة عند الوسط فجاء لواء ماكسويل واحتلها وكونت اللـــواءات الثلاثة خطا واحدا ثم كونت شبه نصف دائرة متجهة نحو الغرب الى اتجاه النيل والعـدو بعد ان فشل فى صد الهجوم الكاسح لم يكن أمامه سوي التقهقر نحو النهر . كـــان فى مقدور القوة على طريق الصحراء التحرك وقطع خط الرجعة على تراجع العدو ولكـــن الانحدار الشديد فى المنطقة الممتدة على شاطيء النهر من الناحية الجنوبية كانت تقـــع خلف مرتفعات حجبت الزاوية تماما ووجد الفاريون فيها ملجأ .

بدلا من أن يقطع سلاح الفرسان والهجانة جناح اكتفوا بمطاردة العـــدو الـــذي كسر خطوطهم ، وقد استطاع بعض الفاريين الهروب ناحية الجنوب واستطاع اخــرون السباحة الى الضفة الغربية . عثمان أزرق العنيد وسلطته الآن بلا منافس إذ يرقد منافسه جثة هامدة (حميدة) ، استطاع أن يركض مع خيوله من أرض المعركـــة ووصـــل الى صواردة .

ظل باقي الدراويش يحاربون داخل البيوت حتي النهاية مفضلين الموت والشـــهادة بدلا من التسليم للغازين .

طوقت اللواءات الثلاثة القرية بالكامل واستطاعت تطـــهيرها خطـــوة خطـــوة وتقدمت الى حافة النهر و لم يتوقف لواء ماكدونالد وواصل ودخل المياه الضحلة حـــتي احتل الجزيرة .

رفض العرب الرحمة واستمروا فى مقاومة ولو انها كانت بلا فعالية ، وجدت اكثر من ثمانين جثة هامدة داخل بعض البنايات وعند الساعة السابعة وعشرين دقيقة أوقـــف ضرب النار واصبح كل معسكر الدراويش تحت قبضة القوات المصرية ، وانتهت بذلك معركة فركة .

شغل السردار نفسه الآن بمطاردة القوة المتقهقرة وأخذ كل القوة الراكبة وتوجه الى موجراكا حوالى ٥ أميال جنوب فركة واصلت فرقة الفرسان والهجانة مسيرهما حتي وصلت صواردة واستطاع عثمان أزرق ان يجلي النساء والاطفال الى الشاطيء الغربي للنيل مصحوبة ببعض القوات والمؤن قبل أن تصل القوة الى صواردة. عند وصول سلاح الفرسان ، لجأ الى التراجع شرق النيل بدون قتال وكان معه بعض القوة الراكبة.

تأخر الأمير الذي انيط به مرافقه الأهالى الى الشاطيء الغربي وتعرض لوابل من الدانات من مدفعية الخيالة طويلة المدي ، عندها قرر الاهالى الذين أرهقتهم المعارك الكثيرة التي اجتاحت المديرية الشمالية وكل هذه المدة الطويلة ، قبول قدوم الحكام الجدد بترحاب وتوقف النشاط عند صواردة .

ولكن بعد أسبوعين توجه النقيب " ماهون " بسريتين و١٦ من قوات الهجانة لمسافة عشرين ميلا جنوبا واستولي على شونة من الحبوب .

كانت خسارة الدراويش كبيرة إذ بلغت ٨٠٠ قتيل على أرض المعركة ٥٠٠ جريح و ٦٠٠ أسير. بينما كانت الخسارة من الجيش المصري واحد ضابط بريطاني و"النقيب الى‌جي" جرح وقتل ٢٠ مقاتلاً من السودانيين وجرح ٨٣ .

تم تصنيف معركة فركة على أنها المعركة الكاملة وتم كتابة التقارير الرسمية ويبقي للقارئ أن يتخيل قوة التلاحم وفظاعة القتال. لقد كانت العملية كلها مخططاً لها تخطيطاً جيدا ونجاح والتنفيذ كان مثاليا. وصول القوة بالليل بعد المشوار الطويل ووصول اللوائين فى توقيت واحد برهن على النظام والتدريب برهنت وأسهم فى نجاح المعركة ، النقد الوحيد الذي يمكن أن يوجه هو فشل قوة طريق الصحراء فى وقف القوات المتراجعة نحو النهر ولكن يجب أن نتذكر طول سكة السفر وأنه لم يكن أحد يدري مدي القوة الراكبة . كانت أخبار المعركة الناجحة ذات صدي طيبا فى انجلترا وظل الجميع يترقب أخبار الحملة بفضول واهتمام شديدين .

الفصل السابع

استعادة مديرية دنقلا

ان الفرص فى الحرب كثيرة بحيث لا يمكن تقديرها، إن القاريء للقصة أو المحارب المشترك فيها ليشعر بأنه كانت هنالك عدة احتمالات وحوادث كانت إحداها كفيلة بتغيير سير الأحداث اذا تمت بالفعل وأصبحت حقيقية . لاشك أن سطوة الإمكانيات تلعب دورا مهما فى اللحظات الخاطفة عند الصراع تموج خطوط الحقيقة المؤكدة لترمي بظلالها المبهمة على كل جانب، ماذا إذا من الاحتمالات . نحن نعيش فى عالم مليء بكلمة لو ، ماذا حدث أو ماذا كان سيحدث لو ، ولن نستطيع التحكم فى هذه القوة غير الحبلي باليقين وستذهب كل محاولاتنا أدراج الرياح وعليه لعله من الحكمة وراحة البال أن نتخيل أن كل الفرص الجيدة والفرص السيئة سوف تتساويان فى النهاية وعلينا إبعادها تماما من حساباتنا .

لقد كان حظ السردار فى السودان مضربا للأمثال كما سوف تتضح الصورة ونحن نواصل السرد والأمثلة كثيرة : -

كان من حسن الحظ أن الدراويش لم يهاجموا خطوط المواصلات ، أو الانقضاض على عكاشة قبل الاستحكامات ، كان من حسن الحظ انهم حاربوا فى فركة، وانسحبوا من بربر وأن محمود لم يتقدم فى يناير وتقدم فى مارس و لم يتراجع قبل عطبرة، وأن الخليفة لم يحتل السبلوقة و لم يهاجم بالليل وانتظر حتي الفجر .

ولكن بعد فركة كانت كل الأشياء على العكس تماما، أصاب سوء الحظ القوة مرة بعد أخري كل الصعاب التي يتم التغلب عليها تأتي غيرها فى الحال . شهد خريف ١٨٩٦ كثيرا من التأخير وخيبة الأمل. حالة النيل ، العواصف الفيضانات وباء الكوليرا ومشاكل آخري كلها كدرت القائد ولكنها لم ترهقه ، كانت هناك وقفة طويلة للعمليات بعد انتصار معركة فركة .

حقق الجيش وثبة للأمام ، يجب أن يستعد ليحقق قفـــزة أخـــري ، اســـتمرت الاستعدادات بخطي سريعة وقد انشئ معسكر قوي فى فركة ووصل لواء ماكدونالد الى صوارده بعد يومين من المعركة وأصبح هذا الموقع الجديد هو النقطة المتقدمة للقوة تمامـا كما كانت عكاشة فى المرحلة الأولي للحملة . بدأت المعدات ترد الى فركة وصـــوارده بشكل منتظم ونسبة للتخطيط المسبق للعمليات كان بالامكان تجـــهيز- وفى ظـــرف أسبوع واحد كل المؤن التي تكفى حامية صواردة المكونة من ألفى مقاتل لمدة شـــهرين وتكفى القوة المعسكرة فى فركة وقوامها ٧ آلاف جندي لمدة شهر . تكتف النشـــاط بعد هذا فى الإسراع فى بناء الخط الحديدي لتأمين الاحتياجات اليومية لتســـعة الآلاف مقاتل على أن تنمو القوة تدريجيا .

وصل الجيش الآن الى نقطة هي أبعد ما تكون عن صلاحية الجمـــال وأي نظـــام تموين يعتمد على ظهور الحيوان اللهم إلا إلى مسافات قصيرة وأصبح من الواضح منـــذ الآن أن السبيل الوحيد للتقدم هو إما عن طريق خط السكك الحديد أو طريق النيل الا إن الأفضل عن طريق كليهما .

من عند شلال دال بالقرب من كوشة ينفتح طريق النيل الى مروي عند ارتفـــاع منسوب النيل فكان لزاما اذا تم توصيل خط السكك الحديد الى كوشة قبل ان يبـدأ أي تحرك جديد فعال . كانت هناك ملاحظة أخري وهي وجوب اشتراك البـــوارج مـــع الجيش الزاحف لطرد قوات الدراويش من كرمة ودنقلا . كانت هناك أربع بوارج هـي "التامي" "التيب" "المتمة" "وابو كليا" وثلاث بواخر "الكيبار" و " دال " و " عكاشـة " وكان من المفروض تسليحها . كانت هذه البواخر تبحر من اســـوان لـــوادي حلفـــا وساعدت فى حماية الحدود من الدراويش . تجمعت كل هذه البواخر عند الشلال الثاني فى انتظار ارتفاع منسوب النيل حتي تعبر . لزيادة هذه القوة البحرية لقد تم طلب ثلاث بواخر حربية جديدة من انجلترا لتنضم للأسطول النهري كانت ستحضر مفككة حـــتي الشلال الثاني يتم تركيبها هناك .

كان لزاما أولا وصول خط السكك الحديد الى كوشة- ثانيا أن يرتفع النيـــل - ثالثا على البواخر الحاملة للمدافع القديمة أن تتخطي الشلال -رابعا علـــى أن تبحـــر البواخر الجديدة فى المجري الرئيسي الواسع فى النيل خامسا تجميع المؤن والعتاد- وهكذا شغل السردار نفسه بكل تلك المهام الجسيمة .

استمرت إعادة بناء خط السكك الحديد الى عكاشة وامتداده حتي كوشة وقـــد وصل الخط الى عكاشة فى ٢٦ يونيو . انتهي هنا الخط القـــديم وكـــان لزامـــا علـــى المهندسين عمل دراسات جديدة ومسح شامل للمنطقة لتحديد خط سير الخط الجديد. تم الاستعانة بفرق من كتائب المصريين والسودانين وظل العمل متواصلا حتي وصـــل الخط الى فركة يوم ٢٤ يوليو والى كوشة يوم ٤ اغسطس .

تبعد كوشة ٦ آميال جنوب فركة وتتكون كباقي السودان الحربي مـــن بضعـــه منازل من الطين هي بقايا قرية متهدمة استقر الرأي على تحويل المعسكر من فركـــة الى كوشة لأسباب واضحة وجيدة إذ تقع بعد شلال دال وينفتح مجري النيل بدون عوائـــق الى ما بعد دنقلا .

ساءت الأحوال الصحية فى فركة بعد المعارك وانتشـــار الجثـــث الـــتي تحللـــت وأصبحت مصدرا للعدوي وظهرت أمراض الدوسنتاريا كانها انتقام من الأرواح الـــتي مازالت على قيد الحياة وتلوثت مياة النيل بالإضافة لما تحمله أول أيام الفيضـــان مـــن رواسب الآحراش من الاستوائية فى جنوب البلاد، لقد كانت المياه غير نقية وخطرة و لم يعد ممكنا بقاء المعسكر فى مثل تلك الأحوال .

كانت أولى الشحنات على القطار القادم الى كوشة هي البواخر الحاملة للمدافـــع ومعداتها وأطنان من الحديد والماكينات والأسلحة والورش التى تم تجميعها على رصيـــف كوشة ومئات الأجزاء بدأ تركيبها حتي تحولت كل تلك الأكوام الى آلة الحرب الهائلة.

كانت البواخر الجديدة ذات صفات كثيرة ، كان طولها ١٤٠ قدما بالمقارنة مـــع البواخر القديمة ٩٠ قدما وعرضها ٢٤ قدما تبحر ١٢ ميلا فى الساعة ولها اضلع سميكـــة تحميها من القذائف بالإضافة الى تسليحها القوي. لقد تم تركيب عدة مدافع قويـــة فى

كل باخرة بالاضافة لمدافع الماكسيم وأماكن لحفظ الذخيرة وتلغراف وكشافات واوناش ومعدات حديثة ومع كل هذا لا تحتاج لغاطس أكثر من ٢٣٩ بوصة من المياه .

نص العقد على تسليم الباخرة " الظافر " فى ٥ سبتمبر لكنها وصلت مصر يوم ٢٣ يوليو . تم بناء الباخرة ومعداتها فى لندن ثم رقمت أجزاؤها وفككت وشحنت لمسافة ٤ آلاف ميل تم إعادة شحنها سبع مرات خلال تلك الرحلة ومع هذا لم يفقد أي جزء منها شحنت من لندن للاسكندرية ثم تم ترحيلها الى كوشة حيث تم تركيبها كاملة .

كان قرار نقل معسكر الجيش من فركة الموبوءة قرارا صائبا . إذ سرعان ما ظهر وباء الكوليرا فى مصر ووصل الوباء مع خطوط امداد السردار من حلفا بسرعة شديدة. وكانت أول ضحية فى صفوف الاستفورد شير واستمر الوباء حتي نصف أغسطس فى معسكر جميعي واستمر حتي وصل المعسكر فى كوشة وتوفى أكثر من ثمانمائة جندي وضابط ، كان هذا عدو لا يمكن مجابهته ، سلاحه أخطر من أي سلاح فى المعركة لم يتدربوا قط على مواجهته. أصاب الإحباط كل أفراد القوة بالرغم من محاولات الضباط الانجليز للتماسك ورفع الروح المعنوية الا أنهم أكثر من عاني بحكم معرفتهم بخطورة الداء فرص فى مثل هذه الحالة هنا أن تصبح نعمة الخيال نقمة . كانت أياما عصيبة وكان الإحساس بفقد الأصدقاء والزملاء فى لحظة إحساسا مدمرا كانت حصيلة الإصابات والخسائر من جراء الكوليرا على حملة دنقلا كما يلي :

	عدد الإصابات	وفيات
أفراد الجيش البريطاني	٢٤	١٩
أفراد الجيش الأهلي	٤٠٦	٢٦٠
المرافقون	٧٨٨	٦٤

خطف الموت نتيجة للوباء الرهيب خيرة الرجال من خطوط المواصلات والجيش البريطاني والجيش الميداني ، الشجاع فى نيك "بول هويل" ضابط سكك الحديد الذي ملك حب المصريين ، الدكتور الشجاع "تراسك" المهندس " نيكلسون " من لندن

و"فارمر" كبير ملا حظي الميكانات فى حلفا، "وروردي اوبين" طبيب القلب كلهم ضمتهم المقابر فى حلفا أو تحت سفح جبل فركة. مع منتصف أغسطس انتهي خطر الكوليرا ولكن كان لزاما التشديد فى النواحي الصحية واتباع نظم الكرنتينه مما قلل من مستوي التقدم فى جميع العمليات .

كانت هناك مشاكل من نوع آخر أراد السردار استخدام المراكب الصغيرة الخاصة بالأهالى للمساعدة فى نقل التموين وبعض العتاد وبدأ بالفعل فى هذا العمل مستفيدا من الرياح الشمالية الى أن تغيرت الرياح فجأة من الجنوب الى الشمال واوقفت ذلك النشاط .

كان من الأهمية بمكان الإسراع فى نقل البوارج الى ما بعد الشلال الثاني الذي ينخفض ٦٠ قدما وطوله حوالى ٩ أميال . يمر النيل على عدة مساطب حجرية داخل الماء باندفاع شديد ولكن سطح منبسط وعندما ينحسر النيل تبدأ الحجارة فى الظهور ويهبط النيل بعنف تاركا وراءه الزبد الأبيض يغطي الحجارة السوداء .

يمر النيل عند الشلال الثاني بمنطقة ضيقة بين كتل الصخور تشكل عقبة كبيرة لاي ملاحة ، اكثرها صعوبة هي ما يعرف بالباب الكبير التي يبلغ عرطها ٣٠ قدما ، وينخفض النيل هنا لعشرة أقدام فى سبعين ياردة وينحدر ٥ أقدام فى المرة الواحدة ، تتكون بحيرة من اندفاع المياه عند زراعي النيل مما يجعل الملاحة فى غاية الصعوبة .

كان من المتوقع أن يرتفع منسوب المياه فى أوائل يوليو عند الشلال الثاني بالدرجة التي تمكن عبور البواخر ولكن لم يكن ذلك ممكنا قبل نصف اغسطس .

فى ١٤ اغسطس جرت أول محاولة لعبور الباخرة " المتمة " زحفت كتيبة النورس ستيفوردشير ، والفرق المصرية السادسة والسابعة من كوشة الى البوابة ، لكي تجر جسم الباخرة عكس التيار.تحت إشراف العقيد " هنتر " والقائد البحري "كولفيل" وضباطه.

جهزت الباخرة بحذر لهذه العملية ورفعت المدافع والذخيرة ثم حوطت الباخرة بسور خشبي من مقدمتها حتي المؤخرة لتحمي من أي اصطدام بالصخور تم لف سلك حول جسم الباخرة وثبت فى اكثر من موقع وعطلت الماكينات حتي يكون الاعتماد

كلية على القوة البدنية تم استخدام ألفين من افراد القوة لجذب الباخرة حتي عبرت الشلال بدون خسائر واستمر نقل باقي البواخر حتي انتهت العملية بسلام وبعد اسبوع كان كل الأسطول النهري فى الطرف الجنوبي للنيل والنهر المفتوح .

بدا الآن أن الحظ قد عاد للحملة، انتهي وباء الكوليرا والباخرة الجديدة "الظافر" الان شبه جاهزة فى كوشة وقد سر منظرها افراد الجيش ، وصلت قطع الأسطول النهري السبع الى شاطيء المعسكر فى ٢٣ اغسطس وجاءت رياح شمالية منعشة فى نفس الوقت وأصبحت كل البواخر التي كانت خلف الشلال منذ ٦ اسابيع محملة بالمؤن والعتاد ومستعدة للتقدم وجاءت البرقيات تأمر بالاستعداد للتحرك وعندها تنفس الجنود الصعداء باعتبار أن الانتظار الممل قد انتهي .

تبعد المسافة بين كوشة وكرمة حيث يتمركز الدراويش حوالى ١٢٧ ميلا عن طريق النيل ويمكن اختصار هذه المسافة بأكثر من ٤١ ميلا عن الطريق البري تفادي منحني النيل من كوشة " لصاعدين فانتي " واختصار ١١ ميلا بتفادي الزاوية من فريج الى أبي فاطمة . ومن كرمة لدنقلا وهي الهدف من الحملة هناك مسافة ٣٥ ميلا مما يجعل المجموع ١٢٠ ميلا بالطريق البري و ١٦١ ميلا عن طريق النهر . الطريق الصحراوي الطويل من كوشة الى " صاعدين فانتي " كان هو الصعوبة الوحيدة إذ بالرغم من أن النهر به شلالات صغيرة من كوشة الى كرمه أهمها شلال العمارة لكنها لن تمنع البواخر من الملاحة ، من العمارة الى شلال "كيبر" حوالى ٦٠ ميلا من المياه المفتوحة و لا يشكل شلال " كيبر " أي عائق للملاحة الا عند " حنيك " على بعد ٣٠ميلا توجد جزيرة حوالى ٣ اميال مع حجارة وشلال يسمي الشلال الثالث وهومانع رهيب ، بعده يظل النيل مفتوحا تماما لمسافة ٢٠٠ ميلاً حتي مروي .

شواطيء النهر تمتد منبسطة ومنخفضة حتي اقترابه من " صاعدين فانتي " حيث تتلاقي التلال مع حافتي النيل وينتشر على الشاطيء الشرقي بعض أشجار النخيل ويمتد شريط من المزروعات فيما يعرف "بمديرة دنقلا الخصيبة " أما فى الجانب الآخر فتكاد الصحراء أن تلامس سطح النهر. لقد تقرر أن يسير الجيش على يمين النهر .

أول مرحلة للتقدم كانت احتلال ابسرات، حيث تقدم لواء " ماكدونالد " يــوم ٢٣ اغسطس من صوارده عبر الصحراء الى " صاعدين فانتي " ثم بمحازاة النيل ثم تلاهـا احتلال " أبسرات " . عندها أمر الواء " لوبس " بالتقدم لتقوية ماكدونالد . المســافة بين كوشة وصاعدين فانتي ٣٧ ميلا، وما كان بامكان لواء لويس قطع هذه المسافة فى الصحراء بدون تأمين احتياجات القوة من مياه الشرب وقد أمر السردار باقامة نقــاط مياه حيث وضعت فناطيز وقرب يتم تموينها بالمياه بواسطة الجمال يوميا . ولكن جاءت الرياح بما لاتشتهي السفن .

فى يوم ٢٥ هبت رياح جنوبية عاتية أعقبتها عاصفة رملية ورعدية ممطرة ضربــت كل خطوط المواصلات للجيش من صوارده الى حلفا ، وجاءت موجة أخري فى اليــوم التالى وأخرت تحرك لواء " لويس " لكنه تحرك فى يوم ٢٧ غير أن كانت النتائج كــانت مأساوية. وهاجمتهم عاصفة ثالثة قبل أن يصلوا الى أول نقاط المياه ، تخلف ٣٠٠ فــرد وعادوا أدراجهم الى كوشة ، وقبل أن يصل الطابور الى " صاعدين فانتي " سقط أكـثر من ١٧٠٠ جندي على الارض من شدة الارهاق والعطش و لم يصل إلا ٦٠ فردا مــن كتيبة قوية قوامها ٧٠٠ مقاتل . مات ٩ وأصيب ٨٠ بجفاف شديد ، سميت تحركــات اللواء من "كوشة " الى " ابسرات " " بطابور الموت " .

لم يكن " طابور الموت " هو سوء الطالع الوحيد أو الحادثة الوحيدة من جــــراء العواصف . تسببت الأمطار فى فيضانات عارمة لم تشهدها المنطقة منذ خمسين عامــا ، أطاحت باثني عشر ميلا من خط سكك الحديد -تعرجت القضبان الحديدية والتــوت ، وهدم كل الأساس وانقطع خط التلغراف وضاع مجهود أسابيع فى لحظات ، وأوقــف التقدم قبل أن يبدأ . فى الوقت الذي يتطلب فيه الموقف الحربي سرعة التحرك وأخــذ المبادرة يصبح التأجيل القاتل أمرا لا مفر منه .

مع تزامن هذه الازمات أصبح مصير نجاح الحملة كله مرهونا بالشــكوك ، و لم يكن سير " هيربرت كتشنر " قد حقق أي نجاحات تكسبه تعاطف ضباطه ونيل ثقتــهم بعد ، و لم يكن الرأي العام قد كون رأيا قاطعا فى موضوع الحرب برمتــه . إن ســوء

الحظ الذي لازم فى البداية قد أخاف الكثيرين وكان النقاد بالمرصاد وبدأ النقيق "حكومة طنانة" "جنرال غير كفؤ" كارثة اخري فى السودان . كانت تلك هي الهمسات . لم تصل اخبار " طابور الموت " الى انجلترا بعد ولكن مناديب الصحف الذين أجبروا على البقاء فى رئاسة القوات سوف يسارعون الى نشر الأخبار . ومع كل هذا كان هناك الجيش الذي يجب إطعامه والدراويش الذين يجب محاربتهم .

فى هذه اللحظات الحرجة التي كادت تقضي على مشروع السردار ، برزت مواهبه التنظيمية أكثر من أي وقت آخر فى كل هذا السرد . سافر سريعا الى مفرات واستطاع الحصول على تليفون وكان يعمل ، وعرف كل أخبار أفراد الحملة من جنود وجمال وبغال وأمر أكثر من ٥ آلاف رجل بالعمل المركز لإصلاح خط سكك الحديد حتي ينتهي العمل . بعد أسبوع واحد بدأ سير القطار من جديد وهكذا فان التقدم قد تأخر ولكنه لن يمنع .

فى الخامس من سبتمبر تحرك لواء " لوبيس الأول " ولواء " ماكدونالد الثاني " الى دلقو وتحرك فى نفس التوقيت كل أفراد الجيش من كوشة الى أبسرات عن طريق "صاعدين فانتي " وتم بذلك حشد آخر جندي للعمليات الخاصة بالحملة .

كان تنظيم الحملة كما يلي :

القائد العام : السردار

سلاح المشاة (العقيد هنستر قائد سلاح المشاة)

اللواء الاول	**اللواء الثاني**
رائد لويس	**رائد ماكدونالد**
الفرقة المصرية الثالثة	الفرقة السودانية السادسة
الفرقة المصرية الرابعة	الفرقة السودانية السابعة
الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة الخامسة السودانية
الفرقة السودانية الثامنة	

اللواء الثالث	اللواء الرابع
رائد ماكسويل	رائد ديفيد
الفرقة الثانية المصرية	الفرقة الاولي المصرية
الفرقة السابعة المصرية	الفرقة الخامسة المصرية
الفرقة الثامنة المصرية	الفرقة الخامسة عشر المصرية

سلاح الفرسان والقوة الراكبة (رائد بيرن ميردوخ)

٨ سرايا سلاح الفرسان　　　　**٦ فرق هجانة**

١ بطارية مدفعية الخيول

سلاح المدفعية (الرائد بارسون)

٢ بطارية مدفعية ميدان

١ بطارية مدفعية مكسيم (بريطانية)

قوات مركزية (الرائد كيري)

١ كتيبة شمال ستيفورد شير

الأسطول النهري (قائد الأسطول كولفيل)

بوارج : الظافر - طماي - أبو كليا - متمة - التيب

زوارق مدفعية : خيبر - دال - عكاشة

المجموع ١٥ ألف مقاتل - ٨ بوارج حربية - ٣٦ مدفعا

وهكذا فان ١٣ كتيبة من مجموع ١٦ كتيبة مصرية قد تم إرسالها للجبهة ، الكتيبة السادسة والرابعة عشرة تركت لحراسة خطوط المواصلات لتحرس الحاميات المحصنة وبقيت الكتيبة ١٦ للاحتياطي بسواكن . كان كل الجيش الأهلي (السوداني) مشتركا فى الحرب وترك أمر حفظ الأمن الداخلي بالنسبة لدولة الخديوي لقوات الشرطة وقوات الاحتلال البريطاني . وصلت اللواءات الأربعة لنقطة اللقاء فى دلقو يوم٩ .

سافرت الفرقة البريطانية بالقطار من صرص وجميعي إلى كوشة وتقـــرر إرســـالها بالبواخر من هناك . جهز السردار نفسه ليرافق الأسطول النهري فى يوم ١٢ سبتمبر .

لقد توالت خيبات الأمل . البارجة " الظافر " التي تم تجهيزها فى الوقـــت المحـــدد وتوقع الجميع أن تكون عنصرا فاعلا فى الحملة تم أخيرا إنزالها للماء فى أروع صـــــورة للقوة والجبروت وحضر الضباط لمراقبة التجربة الأولي يــوم ١١ ســبتمبر واصطفـــت الجماهير على شاطيء النيل لمشاهدة الحدث ، وكان السردار والقائد كولفيل على ظهر البارجة . ولم تكد بدارات المحرك تدور إلا وسمع صوت انفجار اشبه بصوت انفجـــار قنبلة ، نزل القائد كولفيل للاستفسار عن الأمر فاكتشف أن أسطوانة الضغـــط قـــد انفجرت ولا بد من إحضار قطع غيار من حلفا .

بالرغم من ذلك الحادث لم يتأخر الهجوم ، فى يوم ١٣ احتل اللواء الأول والثـــاني والثالث كاديرما وقد سبقتهم بوارج الأسطول النهري وتباعا وصلت أعداد الأســطول حتي وصلت فريج يوم ١٤ ووفرت أشجار النخيل فى المنطقة موقعا مناســـبا للتوقـــف ليومين. حتي وصل اللواء الرابع يوم ١٦ ،وبذلك اكتمل عدد القوات بالكامل .

كان الأمير ود بشارة بعد إبادة قواته فى المركز المتقدم فى فركة قد لجأ الى دنقــــلا وبقي فيها كل الصيف حيث وصلته بعض الإمدادات تحت إمارة أحد الأمراء مـــــن ام درمان . لقد وعد الخليفة بأن إمدادات إضافية ستكون فى الطريق ولكنها بقيت وعــود بلا تنفيذ .

وعليه فقد شملت كل القوة تحت إمرة ودبشارة على ٩٠٠ فرد مـــــن الجهاديـــة و٨٠٠ من البقارة و ٢٨٠٠ حرابة و٤٥٠ هجانة و ٦٥٠ من الخيالة بمجمـــوع ٥٦٠٠ رجل ، و٦ مدافع صغيرة ومدفع مترليوز واحد كانت هناك أعداد كبيرة من الأهـــالي يمكن أن تضاف لزيادة هذا العدد ولكن لأن هذه الأعداد كانت تنوي الانضمام لجيـــش الحكومة لذلك لم يكن لها أثر إيجابي بالنسبة للصراع فيما يختص بقوة ودبشارة .

قطعت دورية الدراويش خط التلغراف يوم٦ سبتمبر، وكانت هذه هي أول إشارة بأن قوات العدو تقترب، سمع السردار فى يوم ١٠أن هناك تحصينات قويـــة فى كرمـــه

ووقعت مناوشات يوم ١٥ بين فرقة الفرسان المصرية وبعض أفراد الاستكشاف للدراويش. تحرك الجيش يوم ١٨ إلى منطقة صارديك ، أصبح احتمال الاشتباك كبيرا خاصة أن كرمة تبعد نحو أربعة أميال ولكن مضت الليلة بسلام . عند الصباح بدأت الحموع فى التحرك ، لقد كان منظرا مهيبا آلاف الجنود والأسلحة والبوارج على النيل قد ملآت نفوس الجميع بالطمانينة وقد تهيأ الجنود للمعركة مع العدو . ما إن ظهرت معالم كرمه حتي سرت معلومة بأن كرمة خالية وأن الدراويش قد أخلوا مواقعهم فيها و لم يتبق إلا الطابية الطينية دليلا على إقامة ودبشارة فى الموقع، و لم يبق السؤال، ايـن ذهب ؟ بلا إجابة لمدة طويلة .

حوالى نصف الميل جنوبا وفى الشاطيء المقابل للنهر ظهرت استحكامات وخنادق على طول الشاطيء- حوائط بها فتحات للأسلحة بين صفوف أشجار النخيل تمركزت قوته فى المستنقع الذي يمتد من النهر جنوباً وشمال الحفير . ظهرت بعض المراكب الصغيرة وباخرة مع بعض القوارب ترسي من بعيد ، وضحت أن القائد قد شعر بنقاط ضعفه فقام باجلاء قواته لإبعادها عن طريق الزحف القادم لإبادتهم .

فى هذه الأثناء فان البواخر الثلاث الباقية من البوارج الحربية فى الأسطول النهري، (البارجة " التيب " تعرضت لحادثة اصطدام بالحجارة فى شلال "حينيك")، كانت تبحر نحو العدو بينما انحرف الجيش ناحية اليمين، وتكون بذلك منظر رائع مثير للاهتمام.

فى الساعة السادسة والنصف بدأت مدفعية الخيالة تمطر أطراف المياه بعرض النهر وتطلق النيران بشكل بيضاوي وبدأ الدخان يتصاعد من مواقع الدراويش وسارعوا هم بفتح نيران بنادقهم . لقد كانت المسافة بعيدة بحيث لم تكن لبنادقهم السيئة أو ذخيرتهم المتخلفة أي أثر ، حتي الطلقات التي كانت تسقط على مقربة من الأرض التي اصطف عليها المشاة لم تسفر عن أية خسائر وسط صفوف الجيش الذي وقف يراقب نشاط العدو وتحركاته.

كان موقع الدراويش بطول ميل ونصف وبمجرد أن وصلت زوارق المدفعية الى الطرف الشمالى بدأت فى إطلاق نيران مدافعها بتركيز أدي الى تحطيم الاستحكامات

والمتاريس مع كل دانة شوهدت أجزاؤها تتطاير فى الهواء ، بدأت رشاشات الماكسيم فى التعامل مع السور بحثا عن أفراد العدو ، وبدأت فى نفس الوقت فصائل الستيفورد شير البريطانية المحمولة على الباخرتين غير المسلحتين " دال " و"عكاشة" فى إطلاق مجموعات طويلة المدى فى ضرب جماعي .

انتزع الدراويش، كما يحدث دائما ، إعجاب أعدائهم لشجاعتهم القتالية، وقد شجعهم وصول نجدة من أم درمان فى ذلك الصباح المكونة من ١٠٠٠ من الجهادية السوداء و ٥٠٠ حرابة بقيادة عبد الباقي. استطاعت مدفعية الدراويش الثبات فى أماكنها، وكذلك حاملوا البنادق بالرغم من كثافة النيران وكبر حجم الخسائر وكانت نيرانهم سامية .

استمر إبحار الزوارق بطيئا ضد التيار القوي وبمجرد أن وصلت الى أضيق نقطة عند الحفير حوالى ٦٠٠ ياردة فوجئت بكمين محكم ونيران مدفعية شديدة من مدافع وضعت باحكام فى مواقع حساسة وأيضا طلقات بنادق من جنود فى خنادق داخل الماء أو من على أسطح أشجار النخيل ، لم تستطع مصدات الزوارق حمايتها من هذا الهجوم العلوي وتحولت المياه حول الزوارق الى كتل من الزبد جراء انفجارات الذخيرة . اخترقت بعض الرصاصات أجزاء الزوارق غير المحصنة وسقطت دانة على " ابوكلي" اخترقت خط الماء ولكنها لم تنفجر لحسن الحظ ، فقد نسي الدراويش ضبط الفيوز . اصابت " المتمة " ثلاث قذائف إما على ظهر "تامي" التي كانت تقود الهجوم فقد جرح القائد كولفيل بجرح فى رسغه وقتل المدفعجي الشاويش رتشاردون فوق مدفعة المكسيم، وكانت هناك إصابات على كل باخرة وقد بدأ القائد يشك فى جدوي الاستمرار فى القذف من شدة نيران العدو وأعاد خط سير التامي، وعاد مسرعا مع التيار ليبلغ الأمر للسردار .

استمرت الزوارق الأخري فى المعركة وبعد حين عادت " التامي " واشتركت فى قصف مواقع الدراويش .

كان المنظر الذي يشاهده أفراد الجيش مثيرا للغاية على مدي النظر خلف مياه فىضان النيل والسماء الزرقاء الصافية والشمس الحارقة ظهرت كل مواقع العدو ظاهرة للعيان . كانت سلسلة الخنادق يظهرها الدخان الأبيض الصادر من البنادق وفوقها الأعلام الزاهية ترفرف فى تحد ظاهر، ثم يأتي لمعان القذائف فى وضوح .

ظهرت خلف الاستحكامات وبين بيوت الطين مجاميع من العرب لابسين الجبة المشهورة بينما ظهر سلاح الفرسان على البعد فى السهل الممتد خلف البيوت ينم عن وجودهم لمعان أسنة الرماح العريضة وتحركاتهم ومناوراتهم . على شاطيء النيل امتلأت أعالى أشجار النخيل بمقاتلين يحملون بنادقهم فى منتهي الجرأة يظهر مواقعهم الدخان الصاعد من أفواه البنادق أو عندما يصاب احدهم ويسقط جسمه من على النخيل تماما كالغراب النوحي .

عاودت الزوارق الكرة وبمجرد أن قاربت للمضيق فى الحفير ، حبس أفراد الجيش أنفاسهم وللمرة الثانية شاهدوا تقهقر باخرة القيادة المتمة وهي تعود لمنطقة السلامة وسط تهليل وتكبير العرب . كان واضحا أن هذه الزوارق لن تستطيع إسكات نيران الدراويش ويتحسر الجميع على الفراغ الذي تركه عدم اشتراك " الظافر " فى هذه المعركة .

استمرت المعركة ساعتين ونصفا واستمرت مقاومة العدو بنفس القوة التي بدأت بها. عندها قرر السردار تغيير الخطة لعدم مقدرة هذه الزوارق على اخماد النيران القوية . أمر"دي روقمنت" الذي تسلم القيادة من "كولفيل " أن يسرع ويتخطي الاستحكامات بدون أن يحاول إسكات النيران حتي يصل الى دنقلا ولكي يعطيه التغطية الكافية أمر سلاح المدفعية بقيادة الرائد بارسون بالتمركز فى جزيرة ارتقاشة الضحلة التي ترتبط بالشاطيء بجسر صغير وفى نفس الوقت تحركت ثلاث كتائب من المشاة وحتي تكون قبالة العدو . فى الساعة التاسعة بدأت الـ١٨ مدفعا إطلاق نيرانها على المتاريس بطول ١٥٠٠ ياردة، وفى نفس الوقت صب جنود المشاة نيرانهم على أسطح النخيل .

استطاعت المدفعية أن تصيب وتخرس ثلاثة من مدافع الدراويش الخمسة وتغـــرق باخرة الدراويش " الطاهرة " ونجح سلاح المشاة فى تطهير أعالى النخيل من المقاتلين .

استغلت الزوارق هذه الفرصة وبدأت الملاحة على خط واحد متجاهلين رصـــاص العرب الذي استمر فى تحد عنيد الى أن أعدت الاستحكامات وواصلت سيرها لدنقلا . بعد هذا استمر إطلاق النار على فترات، وقد انتهت هذه المعركة على الأرجح علــــى هذا الموقف .

ظلت القوتان المتصارعتان كل تواجه الأخرى طيلة اليوم من جانبي النهر، وبدا ان الدراويش فيما يبدو لم يعلنا استسلامهم للهزيمة وظلوا ملوحين ببنادقـــهم واعلامـــهم وتواصلت صيحات التحدي حتي بلغت مواقع القوات الغازية، ولكن فى الحقيقة كـانت خسائرهم كبيرة. أصيب قائدهم الماهر الشجاع أصابه بليغة بشظية دانة وأصيب عثمان أزرق العنيد برصاصة وقتل أكثر من مائتي انصاري بينهم سبعة أمراء بالإضافة لطـــابور طويل لنقل الجرحي شوهد متجها جنوبا إلا أنه لم يتم التأكد من تراجع ودبشـــارة أو عدمه . يبدو أنه كان على يقين بأن السردار سوف يعبر لغرب النيل ويزحف بجيشة نحو دنقلا تحت غطاء زوارقه المسلحة وكأي قائد إسلامي كان قلقا على خـــط الرجعـــة وخطوط الامداد بالنسبة لقواته، ولا يمكن ان يلومه أحد مع قوة الجيش الذي يواجهه .

كان هناك سبب أكثر إلحاحا من هذا السبب الاستراتيجي وهو ان كل مخـــازن الغلال كانت محملة على المزاكب الشراعية التي ترسو على الشاطيء الغـــربي وكـــانت كلها على مرمى من نيران المدفعية ورشاشات المكسيم فى جزيرة ارتقاشة وقد بـــاءت محاولات عديدة للدراويش للوصول لهذه المراكب بالفشل نتيجة لقذف المدفعية . وكان القمر ساطعا وأعطي رجال المدفعية فرصة كافية لرد أي اقتراب من مخـــازن الحبـــوب وعندما أصبح الصبح اكتشف الجيش أن الحفير قد تم إخلاؤهاء وأن العدو قد تراجع الى دنقلا .

قلق ودبشارة على خطوط إمداده، لم يكن له ما يبرره إذ كان من المســـتحيل أن يتقدم السردار بجيشه تاركا خطوط ومواصلاته تحت رحمة قوة كبيرة من الدراويـــش أو

أن يقسم الجيش وترك جزء كبير الاحتلال الحفير، ولكن بمجرد أن أخلي الدراويـــش استحكاماتهم أصبح الأمر أكثر سهولة .

جاء القرويون بكل المراكب التي تركها العرب الى يمين الضفة وأعلنوا أن ودبشارة قد أخلي دفاعاته ورجع الى دنقلا .

طمأن هذا الخبر السردار الذي باشر فى عمليه نقل قواته للشاطيء الغربي للنيـــل بكل نظام وظهرت هنا كفاءته التنظيمية وتم ترحيل كل أفراد الجيـــش مـــن ســـلاح وفرسان وهجانة ومشاة وأسلحة للبر الغربي فى ظرف ٣٦ ساعة وبدون أي مصـــاعب تذكر .

لم تكن الخسائر كبيرة فى معارك يوم ١٩ فهى بالنسبة لقوة تبلغ ١٥ ألف مقـــاتل تكاد لاتذكر، جرح القائد "كولفيل" قتل جاويش بريطاني وضابط مصـــري وجـــرح ١١جنديا أهليا ، المجموع ١٤ أي أقل من وأحد فى الألف من مجموع القوة المقاتلة .

على كل حال لقد وصفت تلك المعركة ذات المشاهد الرائعة والتي حسمت بغـــير دماء اسم "معركة الحفير " كتبت عنها رسائل ميدان خاصة واعتبرت فى الســـجلات الرسمية " كعمل عام " وصلت برقيات التهاني من صاحبة الجلالة ومن الخديوي دلالـــة على الرضا .

كان نصر معركة الحفير أرخص نصر تشهده الحروب فى تاريخ المعارك القريبة .

استغل يوم ٢٠ وجزء من ٢١ فى نقل الجيش للشاطيء الغربي للنيـــل، وكـــانت القوات ما زالت تتحرك عند رجوع البواخر المسلحة من دنقلا . المسافة بـــين دنقـــلا والحفير حوالى ٣٦ ميلا نهريا وكان الأسطول النهري قد وصل قبالة المدينة فى عصر يوم ١٩ وتم إخلاء الحامية بعد إطلاق عدة قذائف وتم أسر عدد من المراكب الشراعية .

إن النتائج التي حققتها الزوارق المسلحة كانت بسبب المناورة الناجحة للســـردار عند الحفير، وجعل إخلاء الاستحكامات البواخر تسير بسلام على طول النـــهر دون أي تهديد .

واصل ودبشارة تراجعه طيلة يوم ٢٠ ووصل دنقلا فى المساء يعاني من جرحـــه، وأعاد احتلال المدينة وبدأ فى استعداداته للدفاع عن المناطق الحصينة .

لم تغب هذه الانشطة عن أعين أعدائه فارسلت الباخرة " أبوكلي " تحت قيـــادة الملازم " بيتي " لكي تناوشه وتشغله وبدأت معركة يوم ٢١ طيلة اليوم بـــين البـــاخرة واستحكامات المدينة وعند شروق فجر يوم ٢٢ أرسلت باخرة أخري لتساند " بيـــتي " واستمر القذف للمدينة ودفاعاتها .

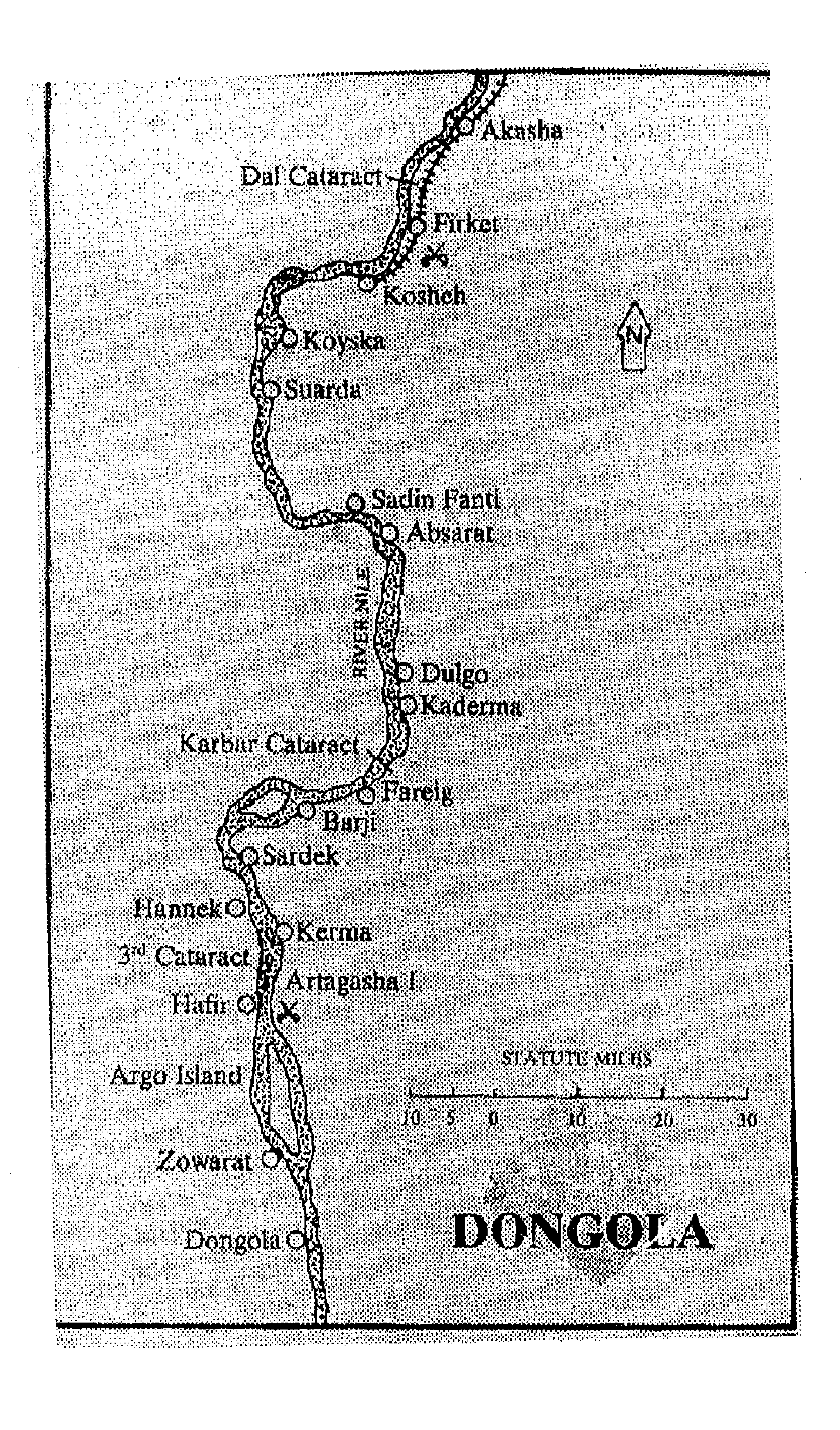
اكتمل عبور قوات الجيش للنهر فى عصر يوم ٢١ ولكن إصرار السردار أصر على التقدم، وأمر القوة بمواصلة المسيرة حتي قطع ١٢ ميلا جنوبا فعسكر الجند قبالة جزيـــرة "ارقو". فى صبيحة اليوم التالى أمر بالتحرك قبل أن تشتد حرارة الشمس حتي وصـــل الى "زورات". تبعد هذه المنطقة بحوالى ستة اميال من دنقلا وعندما كان من المقرر أن تبـــدأ المعركة فى اليوم التالى كان لابد من الراحة والاستجمام التام للساعات الثماني عشـــرة القادمة، الأمر الذي قدره الجنود فقضي الجميع طيلة تلك الساعات تحت اشجار النخيل على شاطيء النيل .

كان الضباط يراقبون من مناظيرهم المعظمة زوارق المدفعية وهي تطلق قذائـــف مدفعيتها على دنقلا ، واستمر الضرب طيلة اليوم .

بين حين وآخر تقدمت طلائع من مشاة وخيالة الدراويش نحو النقاط المتقدمـــة للجيش وتم تبادل إطلاق النار .

ظلت هذه المناوشات والشعور العام بأن المعركة الفاصلة قادمة يسيطر على الجميع وبالكاد استسلم البعض للنوم العميق بينما سري قلق الترقب فى الكثـــيرين. أيقظـــت القوات فى الساعة الثالثة صباحا وبدأ التقدم نحو دنقلا .

كان الوقت مازال ليلا ، القمر الكامل يسطع فى السماء الصافية فى هـــذا الجـــو الاستوائي البديع بالكاد يعري تلال الرمال الممتدة أو الجموع الهائلة للجيش الغـــازي . ظلت القوة طيلة الليلة فى تشكيلاتها كتائب رباعية ومع بداية شروق الشمس تـــدرج الجيش حتي امتد الى جبهة طولها أكثر من ميلين . كان لواء " لويس " على الشمال


Akasha
Dal Cataract
Firket
Kosheh
Koyska
Suarda
N
Sadin Fanti
Absarat
RIVER NILE
Dulgo
Kaderma
Karbar Cataract
Fareig
Barji
Sardek
Hannek
Kerma
3rd Cataract
Artagasha I.
Hafir
STATUTE MILES
Argo Island
10 5 0 10 20 30
Zowarat
Dongola
DONGOLA

بالقرب من النهر ثلاث كتائب كاملة وكتيبة رابعة كاحتيـــاطي. تبعـــها لـــواء "ماكسويل" ثلاث كتائب كونت امتدادا للواء "لويس" كانت المدفعيـــة فى الوســط تدعمها سرية "الستيفوردشير" مدفعية المكسيم بزيها الأحمر المميز كانت تمثل فاصلا بين الألوان الصفراء والبني ؛ بينما وضع لواء " ماكدونالد" على اليمين يتبعه لواء "ديفيـد" فى مؤخرة وسط القوة كاحتياطي أما سلاح الفرسان والهجانة وبطارية الخيالة فجنحـت لتحرس يمين القوة بينما تبحر زوارق المدفعية بطول النيل على الشمال .

كانت قوة الجيش هي الشيء الوحيد المتحرك وسط الرمال ولمدة ساعتين حـــتي الساعة السابعة ظهرت قوة سلاح الفرسان على يمين الجبهة، وبعد تقدم نصـــف ميـــل ظهر جيش الدراويش ، إعدادهم أقل من القوات المصرية لكـــن ملابســـهم البيضـــاء وأعلامهم الملونة وهي ترفرف فوق الرؤوس قد جعلت للمنظر هيبة خاصة، وبما عـــرف من شدة عزمهم وجسارة قائدهم ودبشارة ، توقع الجميع أن يهجموا فى الحال .

كان التفاوت فى إعداد القوات كبيرا تقدمت القوات المصرية وتراجعت قـــوات الدراويش يكفل ستر تراجعها بعض خيالة البقارة التي استطاعت تأخير تقـــدم القـــوة بتهديدها لقطاع الصحراء . لم يدخل ودبشارة الى دنقلا التي لاتـــزال تحـــت حصـــار الأسطول النهري المسلح وتقهقر الى الدبة جنوبا عندما دخلت قوات المشاة الى دنقـــلا وجدت المدينة بالفعل تحت سيطرة قوات الاسطول النهري الذيـــن كـــانوا يتبـــادلون الاحاديث الودية مع رصفائهم من الفرق السودانية . سقطت حامية الجهادية الســـوداء المكونة من ٤٠٠ مقاتل وانضموا للجيش القادم .

بينما احتلت قوات المشاة المدينة ، واصلت قوات الهجانـــة وســـلاح الفرســـان ملاحقة العدو .

استطاع فرسان الخيالة البقارة الصمود وتنفيذ هجمات عديدة لتغطية انســـحاب المشاة وفى إحدي تلك الهجمات تم التلاحم مع سرية الكابتن آدامز من سلاح الفرســان المصري، وقتل ٦ أفراد للعدو وجرح ثمانية أفراد من القوة . خسر الهجانـــة وســـلاح الفرسان حوالى ٢٠ ضحية فى الملاحقة بالرغم من أن انسحاب الدراويش تم بنظام تـــام

إلا أن الروح المعنوية تأثرت جدا وتركت أثرها فى انضباط القوة فتفرقت فى شكل مجموعات صغيرة سهل أسرها وتم العثور على كميات مختلفية من الأسلحة والعتاد وأيضا أعداد كبيرة من الأطفال الذين هجرهم أباؤهم عند الانسحاب، حتي استعانت القوة باحدي عربات المدافع لحملهم الى بر الأمان .

واصل القادة ودبشارة وعثمان أزرق وفرسان البقارة تقهقرهم عبر الصحراء الى المتمة، وبالرغم من معاناة قاسية من شدة العطش تم الانسحاب بانضباط كامل وتركت قوة عند ابار "ابو كلي" حتي تتعامل مع أي قوة مطاردة .

أما فرق مشاة الدراويش فقد اختاروا ان يسلكوا طريق النهر متراجعين الى أبوحمد، تعرضوا بذلك لنيران زوارق المدفعية حتي ظهر الشلال الرابع وانتهي عنده أي نشاط للمتابعة والملاحقة .

كانت خسائر الجيش المصري لاستعادة مديرية دنقلا وملاحقة العدو - لاصابات بين البريطانين – قتل جندي واحد من الأفراد المحليين وجرح ٢٥ المجموع ٢٦ .

وهكذا أنهي احتلال دنقلا حملة ١٨٩٦ ، تم أسر ٩٠٠ اسير أغلبهم من الجهادية السوداء ، تم الحصول على كل المدافع الستة مدافع وكميات كبيرة من مخازن الغلال وكميات كبيرة من الحراب والسيوف والأعلام كلها وقعت تحت يد الجيش المنتصر . وأصبحت كل مديرية دنقلا التي تعتبر من أخصب المديريات فى السودان محررة وعادت للسيادة المصرية .

إن انفتاح مجري النهر مباشرة بعد الشلال الثالث وحتي مروي أتاح أكثر من ٢٠٠ ميل من المياه الصالحة للملاحة بالنسبة للبواخر، وبذلك تم تمركز كل القوات فى المنطقة الواقعة بين الدبة وكورتي ومروي ، كانت تصلها الإمدادات عن طريق خط سكك الحديد ومن ثم بالبواخر فى الممر النيلي المفتوح .

كان وجود قوة كبيرة فى مروي التي تبعد عن أقصي نقطة شمالية لقوة الدراويش عند أبوحمد مهما للغاية لاستمرارية الحملة عندما يحين الوقت . كان تأخير أي تقدم

بعد هذا أمر لامفر منه وبالفعل انقضي عام كاملا بدون أي اشـــتبكات بـــين قـــوات الخديوي وقوات الخليفة.

كان لنجاح الحملة صدي طيبا وردود فعل حيدة فى اوساط الجماهير بانجلترا. فقد تم اتخاذ الخطوة الاولي. إذ تم اعادة دخول السودان بعد عشر اعوام من حرب دفاعية، و تمت مهاجمة الدراويش ، وعندما يهاجمون بجيش كافى فانهم ليسوا بالفظاعة المتصـــورة وتم اخراس الاصوات المعارضة .

كان هناك شعور ورغبة عامة فى كافة القطر بأن العمليات يجـــب ان تســـتمر بالرغم من عدم تغيير الحكومة لسياستها تجاه السودان او رغبتها فى القضاء المبرم علـــى جيش الخليفة ، قد تقرر ، طالما ان الطريق سالكا وامنا بلا مكدرات حتي الان فليـــس هناك ما يدعو للتوقف والرجوع .

لقد نشرت سجلات الشرف فى الغازيتة الرسمية للدولة وانهالت الاوسمة وانــواط الشرف والشجاعة وبلا استثناء ذكر كل الضباط الذين خدموا فى الجيش المصري. رقي سير "هيربرت كتشنر"، العقيد هنتر والعقيد رندل الى رتبة القائد العام تقديرا لخدمتـــهم المتميزة فى ميدان المعركة وتم صنع ميدالية مخصوصة بشكل النيـــل الازرق الشـــريط الخاص بها وتم تخليد معركتي فركة والحفير .

كانت الخسائر من جراء الحملة بما فى ذلك معارك سواكن هي عبارة عـــن ٤٣ قتيلا و١٣٩ جريحا و١٣٠ ضابطا توفوا من وباء الكوليرا وتوفى ١٢٦ مـــن اســباب اخري واصبح عدد كبير من الضباط البريطانيين من المعاقين .

الفصل الثامن

سكك حديد الصحراء

أصبح عرفاً سائداً أن مؤسسات القطاع العام الرائجة هي التي تنال كل الثناء من الدولة فتنهال عليها الهبات والحوافز خاصة تلك التي تتقن عرض نتائجها بشكل دعائي مؤثر بينما تكون هناك مؤسسات لا تقل أهمية ودورها فعال للنجاح الكلي في طي النسيان . اذا كان هذا القول صحيحا بالنسبة للنفس البشرية فانه أيضا ينطبق على طبيعة الاشياء .

عندما تسرد قصة الحرب يكون عقل القارئ كله مركزاً على المعارك مشاهدها الحية ولحظاتها المؤثرة وبمجرد النتائج البسيطة الواضحة التي تشعل الخيال وتجبر على الإهتمام. بينما تظل العين ثابتة على اللواءات المقاتلة وهي تتحرك خلف الدخان وعلى أسراب أعداد العدو ، وعلى القائد وكله إصرار وثبات مزهواً وسط رؤساء أركان جيشه ويبقى الخط الطويل المتتابع من خطوط الامتدادات بلا ملاحظة . ذلك أن النصر العظيم الذي يأتي على أسنة الرماح والسنج وهي ملطخة بالدماء الحمراء القانية يتملك كل مشاعر المراقب فلا يأبه بالنظر الى الخلف حيث آلاف الأميال من خطوط السكك الحديد ، والطرق البرية والملاحية على طول النهر ، ومئات الأفراد والمؤن والعتاد وهي تزحف نحو الجبهة بدون انقطاع الواحدة بعد الأخرى .

إن النصر هو زهرة جميلة والمواصلات هي الساق الذي لايمكن أن تنمو بدونه ومع هذا فان الطالب الحربي في غمرة حماسه لتحليل العوامل المثيرة للصراع الحقيقي كثيرا ما ينسى التعقديات الحساسة لعنصر الإمداد .

لايمكن لأحد أن ينكر أن ذروة المعارك الحربية لايمكن أن يتحكم فيها التنظيم والاستراتيجية وحدهما ، قد تكون الخطة محكمة الاضلاع ، والقوات غذاؤها جيد ، أسلحتها وافرة وفي المقابل قوة العدو مشتتة ، جائعة وأقل عددا ثم تأتي كل تناقضات أرض المعركة وتقلب وتعكس كل شئ . إن العنصر البشري وهو يتحدي الخبرة وكل

الاحتمالات ربما يأتي بنتائج فوق التصور وضد كل طبيعة الأشياء، قد يكــون جائعــا يفوقه عدوه مناورة وتسليحا ، لكنه يكتسب السلامة والطعام والشرف لشجاعته .

ان كل هذه الاعتبارات قد تكون أكثر ملاءمة لحروب يكــون فيــها الطرفــان المتقابلان كفتهما راجحة بالنسبة للعتاد والإعداد والنظام لكن فى حرب وحشية علــى ارض منبسطة فان قوة الآلة الحربية الحديثة من العنف والضراوة بحيــث لايمكــن ان تصمد أمامها قوة الجسد والدماء فقط، وتكاد تنعدم فرصة التلاحم والمعركة الحقيقيــة ، مقاتلة الدراويش كانت عبارة عن مسألة سبل مواصلات . لقد هزم الخليفة بخط السكة الحديد .

حتي هذه اللحظة والعمليات العسكرية تتقدم كنا نتحدث على خــط ســكك الحديد فى إشارات عجلي ، كيف يتم بناؤه اتجاهه خلف المعــارك خطــوط إمــداد واتصالات ، فانني أدعو القاريء أن يلقي نظرة وثيقة.. هذا الجزء سوف نتحدث فيــه عن البواخر ، خط سكك الحديد ، الحيوانات المرافقة للحملة ، ولكن بتركيز أكثر على خط سكك الحديد .

كان النيل هو خط الاتصال الوحيد بين القاعدة بمصر وكل خطوط حملة استعادة مديرية دنقلا لعام ١٨٩٦ . لقد تم إرسال كل العتاد والمؤن للجبهة عن طريق النيــل ، وحيثما لم تكن هناك موانع فقد ظل النهر هو الوسيلة الوحيدة. لقد كانت كل الوسائل الأخري من نقل بري على ظهور الحيوانات أو عن طريق خط سكك الحديد ، هــي وسائل مساعدة، ذلك أن البواخر تحمل أكثر وتكلف أقل من أي نــوع آخــر مــن المواصلات. إن الملاحة لا تتعرض الى أي مقاطعات ، ماكينات البواخــر تحتــاج الى تصليح وصيانة بسيطة ومجري النيل قد شقه الخالق .

ومع هذا فان مجري النيل لا يصلح كله للملاحة كل الاوقات اذ تعترضه شلالات كثيرة فى مواقع عدة تكون الملاحة لمسافات بعيدة ممكنة فقط أثناء فيضان النيل وعليــه كانت هناك ضرورة لأشكال أخري من المواصلات للالتفاف حول تلك الشــلالات لضمان الاستمرارية. كانت الحاجة ملحة لاستعمال خطوط سكك الحديد والقوافل.

لتنفيذ حملة استعادة دنقلا كان لزاما بناء خط سكك الحديد ليربط الأجزاء الصالحة للملاحة التي تمتد من أسوان لوادي حلفا ومن كرمه الى مروي . أمكن تقصير هذه المسافة لأن النيل فى ذروته تكون الملاحة ممكنة بين الشلال الثالث وكرمه . وعليه فكان من المقدر أن يتم بناء الخط لمسافة ١٠٨ أميال بين وادي حلفا وكوشة . خلال السنوات التي كانت فيها وادي حلفا هي أقصي نقطة جنوبا للقوات المصرية ، كانت هناك حامية قوية فى صرص . فى حملة النيل عام ١٨٨٥ تم ايصال الخط الحديدي من وادي حلفا عن طريق صرص وحتي عكاشة لمسافة سته وثمانين ميلا . بعد أن تم جلاء القوات المصرية عن السودان حطم الدراويش الخط شمالا حتي صرص، لكن بينما كانت الردمية القديمة لا تزال موجودة ، تم خلع الكتل الخشبية (الفلنكات) وتم إحراقها وكذلك حطمت أجزاء الخط الحديدي وتركت ملتوية فى كثير من المواضع. يمكن تلخيص الموقف عام ١٨٩٦ كما يلي : —

كان الجزء الممتد ثلاثين ميلا من وادي حلفا الى صرص فى حالة جيدة ويمكن استعماله فى الحال . الجزء من صرص الى عكاشة بطول ثلاثة وخمسين ميلا كان يحتاج الى اصلاح وترميم جزئي، الجزء من عكاشة الى كوشة بطول اثنين وثلاثين ميلا يحتاج لبناء من جديد ما عدا عشرة أميال بها ردمية تم بناؤها اثناء حملة ١٨٨٥ . وأخيرا فان الجزء من عكاشة الى كرمة يجب أن يتم بناؤه قبل انحسار مياه الفيضان .

كانت المهمة الاولي التي أوكلت للمهندسين هي إعادة بناء الخط الحديدي من صرص حتي عكاشة ، ولعدم وجود العمالة المدربة تم تكوين ما عرف بكتيبة سكك الحديد وتتكون من ٨٠٠ فرد أقوياء تم اختيارهم من كل القبائل المرافقة للحملة . كل مؤهلاتهم قوة الاحتمال والرغبة فى العمل. كان منظرهم مزريا ، أسري من قوات الدراويش تم إطلاق سراحهم ولكنهم ما زالوا يلبسون الجبة كلفوا بمساعدة العمال المصريين فى تفريغ الكتل الخشبية والخط الحديدي بينما انهمك افراد من قبائل الدينكا، الجعليين الشلوك والبرابرة فى بناء الردمية اللازمة لغرس الفلنكات للخط الجديد . تم تعين مائة من الجنود المتقاعدين من بين المواطنين السودانيين كملاحظين للإشراف على

العمال لسهولة التفاهم بينهم وأيضا لأنهم أهل ثقة . سرعان ما اكتسبوا الخبرة وأصبحوا فخورين بعملهم . بعض الملاحظين من عمال السكك الحديد فى صعيد مصر تم إحضارهم للمشاركة، وفيما بعد تم استبدالهم من أفراد كتيبة سكك الحديد الذين اكتسبوا الخبرة مع مرور الزمن وامتداد الخط الحديدي . كان خط السير والاتجاه وتنفيذ كل العمل على مسؤولية الضباط الانجليز من سلاح المهندسين كان أشهرهم "ادوارد جير وارد " " جرد " .

بدأ العمل جنوب صرص فى أواخر مارس. فى البداية كانت أعمال العمال غير المهرة مدعاة للاستهزاء أكثر من الحصول على أي نتائج ولكن قليلا ما تبلورت خبرة قائدهم الشاب ووضح حماس وتفاني وذكاء مساعديه الشبان فى ازدياد معدلات العمل نسبة لاستنبطاط أساليب من وحي الخبرة العملية التي زادت من كفاءة العمل .

عندما ازداد الخط طولا ، تم اختيار بعض أعضاء الضباط الاحتياطي من بين قوات الأهالى ومن بين القوة المصرية وتم تعينهم كنظار للمحطات . اختير البعض من ضباط الاحتياطي لوظائف العطشجية والحراس ورجال الإشارة واستعمل التليفون لمراقبة سير الحركة . اختير لقسم الحركة الأفراد الذين يمكنهم القراءة والكتابة ، حتي هؤلاء كانوا يفضلون البصمة على الامضاء، ثم أصبح هؤلاء هم الكتبة بعد أن تم فرزهم عن طريق التجربة.

لتعليم هؤلاء ومدهم بالخبرة اللازمة لإدارة سكك الحديد تم إنشاء مدرستين للسكك حديد حلفا .تلك المؤسسات التي لم تخرج عن كونها ظلال شجرتي نخيل استطاعت استيعاب عشرين طالبا لتلقي علوم إدارة سكك الحديد، وكان حماسهم وسر تفوقهم وسرعة استيعابهم تحت ظلال النخيل ليفوق رصفائهم فى أعظم المدارس فى البلاد المتمدنة .

كانت معدات التشغيل لخط حلفا – صرص كافيه وبحالة جيدة إلا أن القاطرات الثمانية كانت دائمة العطلة وتحتاج لصيانة باستمرار وبشكل مكرر ومؤلم . كان تكرار الأعطال سببا فى عدم استمرارية الطريق حتي اكتسب خط حديد " السودان الحربي"

سمعه سيئة فى الأيام الأولي لحملة استعادة دنقلا وسارع هؤلاء الذين لم يكونوا مقتنعين بالمشروع بصب جام غضبهم وتهكمهم على المهندسين .بالرغم من ذلك استمر العمل بلا توقف .

ضاعفت من حدة المشاكل الأولية التي صاحبت هذا العمل ، كارثة لم تكن فى الحسبان تلك العاصفة الترابية الممطرة التي جاء ذكرها فى الجزء الخاص بمديرية دنقلا .

لقد أوضح أحد الكتاب وهو يتعرض للمرحلة الاولي من هذه الحرب خطورة ما قد يترتب على تلك الحادثة (هيلارد أتروج نحو الخرطوم) .

فى البلاد التي تسقط فيها الأمطار بشكل عادي لا يمكن لمهندس أن يبني خط سكك الحديد فى بطن الوادي ولكنه يختار اكتاف المنخفض ليبني الخط، وعندما يمر بأي مجري أو منخفض فانه يترك جزءا من الاستحكامات لكي تمر منه مياه الأمطار أو السيول الموسمية . اما هنا فى هذه المنطقة الصحراوية الخالية من الامطار وفى هذا الجزء بالذات فقد بني الخط ميلا بعد الأخر فى بطن وادي طويل يعرف باسم خور أهروسة على طول الخط من صرص جنوبا، وبالطبع لم يصنع أي حساب لمجار للأمطار أو يعتقد أحد بأهميتها وهكذا عندما جاء الفيضان فأنه لم يقطع الخط لمسافات متباينة متباعدة عدة امتار، ولكن أغرقت المياه الخط كله وجرفت كل الاستحكامات من تحت القضيب الحديدي حتي ظهر فى بعض المواقع معلقا فى الهواء تاركا فجوة كبيرة تمتد لمسافات طويلة .

لقد تم تدمير أربعة عشر ميلا من الخط الحديدي كما دمر معسكر عمال الإنشاء تماما واختفت بعض بنادق حراس المعسكر حتي تم استعادة بعضها مدفونة بعمق ثلاثة أقدام تحت الرمال . وفى المناطق التي صمدت فيها الردمية، تكونت بحيرة كبيرة بمساحة عشرات الأميال المربعة. لكن تم إصلاح كل التلفيات فى ظرف أسبوع وأحد بمجهود غير عادي وخارق للعادة .

بمجرد أن اكتمل بناء الخط حتي كوشة بدأ التقدم نحو دنقلا وما إن تم تطهير منطقة الحفير من الدراويش حتى واصلت الحملة تقدمها حتي وصلت مروى وكان

اعتمادها فى كل هذه الفترة على الملاحة النيلية بدأت مياه النيل فى الانحسار وبسرعة وأصبح الجيش فى خطر لأن يبقي فاقدا للحركة نسبة لعجز الحركة بين الشلال الثالث وكرمه، وعليه كان امتداد الخط من كوشة الى كرمه فى غاية الأهمية .

تمت أعمال المساحة على عجل وتم اختيار المسار فى المنطقة المحررة حديثا كانت المسافة الكلية خمسة وتسعين ميلاً منها خمسة وستون ميلا أراض صحراوية وقد كسب رجال الإنشاء خبرة كافية فى التعامل مع مثل تلك التربة التى كان لها أبلغ الأثر فى اكتمال الخط العظيم من وادي حلفا الى عطبرة .

كتائب من القوات تم نشرها على طريق الخط وأمرت بالعمل لبناء الاستحكامات المطلوبة من ردميات وارصفة فى التاسع من أكتوبر بدأ العمل بهمة ونشاط ومع تقدم الخط وقبل اكتماله أصبح الجزء من النهر الواصل بين الشلال الثالث وكرمه غير صالح للملاحة وأصبح الجيش الآن يعتمد على الجزء الذي تم إنشاؤه من الخط الحديدي تم على نظم ترحيل أخري من عند نقطة النهاية تعتمد على قوافل الجمال ، يقل حملها كلما تقدم الخط .

كانت أكبر مشكلة هي إطعام هذا الجيش بدون التأثير على عمل بناء الخط الحديدي، ولقد كانت مشكلة من الصعوبة بمكان وشديدة الحساسية .

حمولة القطارات كانت ضعيفة فثلاث قاطرات فقط صالحة للاستعمال بينما تجري أعمال صيانة ثقيلة لباقي القاطرات على أن تمد فى عمرها قليلا وتكون ذات نفع مستقبلا. توقف العمل ثلاث مرات حتى يعاد تنظيم الجيش وتم التغلب على المصاعب واحدة تلو الأخري . وصل الخط الى كرمه مع بداية مايو وتم إخلاء سبيل "كتيبة سكك الحديد " ضباطها ومديرها، ووجهت كل المجهودات للعملية الرئيسية .

فى الأسبوع الأول من ديسمبر عاد السردار من انجلترا ومعه التعليمات والتصديق بالتقدم نحو الخرطوم ، وطفا على السطح موضوع خط السير الذي يجب أن يسلكه الجيش الغازي . كان من السهل جدا اعتبار الاستمرار فى العمل على طول النيل مع ربط الأجزاء غير الصالحة للملاحة بأجزاء من خط السكك الحديد ، ولكن المسافة من

مروي الى أبو حمد تتخلها شلالات كثيرة وطبيعة الأرض فى كلا جانبي النيل لا تصلح لبناء خط سكك حديد. وإذا كانت تحركات الحملة الفرنسية نحو أعالى النيل تستوجب الاستعجال ، فان الحالة الاقتصادية لمصر تستوجب التدبير .

إن محور طريق النيل سيكون مكلفا جدا، ويجب البحث عن طريق مختصر. لذا عرضت للاعتبار ثلاثة مشاريع جريئة وطموحة (١) الطريق الذي سلكته فصيلة الصحراء عام ١٨٨٤ عبر الصحراء من كورتي للمتمة (٢) الطريق المشهور أن لم يكن خطرا من سواكن الى بربر (٣) عبر صحراء النوبة من كورسكو أو وادي حلفا الى أبوحمد .

لم يواجه سير " هيربرت كتشنر " سؤلا أكثر أهمية من هذا السؤال سوي فى النواحي الادارية المكتبية أو شئون المعارك إذ أنه وثيق الصلة باستراتيجية الحرب كلها . الطلب لأورطة بريطانية ، الهجوم على زريبة حمودة، التوجه شمالا نحو أم درمان أثناء تلك المعركة أو التعامل مع حملة المارشاند ، كانت كلها امور مقدور عليها بالمقارنة مع اختيار خط سير التقدم .

كانت قوة الخليفة الجبارة المعروفة تستوجب حشد جيش كبير وقوي حتي تتم هزيمته والاستيلاء على عاصمته . كان الاعتماد على استعمال خط سكك حديد لربط الأجزاء التي تصل الى مجري النهر المفتوح للملاحة أمر فى غاية الأهمية .

إن بربر والمتمة معروفتان ولكن أبوحمد سوف توفى بهذا الغرض مع العلم بأن كلا بربر والمتمة هي نقاط استراتيجية مهمة .

ما كان من المنظور أن يترك الدراويش هاتين المدينتين بربر والمتمة الضروريتين للدفاع عن الخرطوم ، بدون مقاومة . إن الصحراء بين كورتي والمتمة وبين سواكن وبربر توجد بها بعض الآبار المتناثرة ويمكن لأي هجوم أن يقطع خط سكك الحديد ويهلك الجيش جوعا . ولهذا كان من المستحيل التفكير فى توصيل خط سكك الحديد الى بربر والمتمة قبل أن تسقط هاتان المدينتيان فى أيدي القوات الغازية. رفض خيار طريق كورتي المتمة وأيضا سواكن - بربر ومما ساعد فى استبعاد الخيار الأخير صعوبة

بناء خط سكك حديد فى سلسلة التلال خلف سواكن . تم اختيار مسار حلفا- أبوحمد بعد استبعاد الخيارات الأخري . كانت أبوحمد لها أمتيازات وأضحة ، أولا لقربها مـــن الجيش فى مروي وهي ليست ذات اهمية بالنسبة للدراويش أو لدفاعاتهم كأهمية بربـر أو المتمة . ومن الممكن ارسال فصيلة هجانة بمحاذاة النهر للاستيلاء عليها .

لم تكن هنالك آبار فى الصحراء التي سيقطعها خط سكك الحديد أبوحمـــد ممـــا يصعب مهمة أي غارات من قوات العدو لمهاجمة عمال انشاء الخط وقبل ان يصل الخط الى أبوحمد تكون قد سقطت فى قبضة الجيش .

كانت الخطة جيدة والحجج فى صالحها مقنعة لكن بقي السؤال ما هي إمكانيـــة بناء خط حديد الصحراء، واجه السردار هذا السؤال ولجأ لاستشارة الخبراء من اكفـــأ المهندسين المختصين فى شئون السكك الحديد. كان الرد بلا استثناء هو استحالة تنفيـذ المشروع خاصة عند الأخذ فى الاعتبار ظروف الحرب الدائـــرة . استشـــار محـــاربون مشهود لهم بالكفاءة لكن كان الرد بأن المشروع غير ممكن ولا يقبله عقل ، حتي الذيـن لم يستشاروا وتبرعوا بأرائهم قالوا إن الفكرة فكرة مجنونة جملة وتفصيـــلا . اســتمع السردار لكل هذه الآراء والنصائح وقرر البدء فورا فى تنفيذ إنشاء الخط وبلا تأخير .

برز فى الحال سؤال آخر، هل يبدأ الخط لأبوحمد من كورسكو أو وادي حلفـــا؟ وكانت هناك آراء مؤيدة لكل من المسارين. اختيار مسار كورسكو سيقصر طريق النيل من أسوان بثمان واربعين ساعة، كان طريق القوافل القديم الذي سلكه جنرال غـــردون فى رحلته الاخيرة للخرطوم يمر من كورسكو عبر آبار مولرت الى أبوحمد فى الجـــانب الآخر إن وادي حلفا كانت هي آخر نقطة شمال المحطة الرئيسية لسكك حديد دنقـــلا وبها ورش بجهزة ومعدات كثيرة يمكن استخدامها وهي ميزة كبيرة . تم إجراء مســـح شامل للطريقين وتم اختيار مسار وادي حلفا وبدأ العمل فى الحال .

كلف الملازم " جيروارد " بعمل التقديرات اللازمة وعكف الملازم على تحضـــير الكشوفات. لم يغفل أي شيء وضم كشفه كل ما يمكن أن يحتاج إليه ، تخيـــل كـــل الصعوبات التي يمكن أن تواجه المشروع وكانت الاسئلة كثيرة عن أنواع الأشياء الـــتي

يجب طلبها والتي شملت: كم سعة الحمولة المطلوبة ؟ كم عربة وكم قاطرة وكميات قطع الغيار اللازمة ؟ كمية الزيوت عدد المخارط والقاطعات، وأجزاء معدات الورش .

ماذا عن ترتيبات الإشارة اللازمة- عدد اللمبات وعدد النقاط ؟ كم أعداد من الترولي ؟ كمية الفحم التي يجب إحضارها ؟ كمية المياه اللازمة ؟ كيفية حملها ؟ وكيف سوف يؤثر هذا على القوة الساحبة بالنسبة لكل الحسابات السابقة ؟ وكم عدد القاطرات ؟ وكم ميلا من الخط الحديد ؟ كم ألف كتلة خشبية كفلنكات ؟ ومن أين يمكن شراء كل هذه المواد فى هذا الوقت الضيق ؟ كم عدد بلنجات سكك الحديد سيحتاجها المشروع ؟ وما هي الآلات اللازمة ؟ أي أنواع الماكينات . كم عدد العمال المهرة وما هو العدد المتوافر منهم ؟ كيف يمكن توفير الطعام والمياه للعمال ؟ كم كمية الطعام المطلوبة ؟ كم عدد القطارات التي يجب تسييرها يوميا لنقل الطعام للعمال وجنود الحراسة ؟ وكم قطاراً لحمل المعدات ؟ كيف تؤثر هذه الاحتياجات على التقديرات بالنسبة للقوة الساحبة ؟

الأجوبة عن كل تلك الأسئلة وغيرها الكثير الذي لاأري داعيا لكي أثقل بها على القاريء ضمنها الملازم " جيروارد " فى ملف بلغ سمكه عدة بوصات . كانت دقة وشمولية كشف الاحتياجات من الاتقان بحيث لم تتأثر الحملة وفرق إنشاء الخط أو تتعطل أو تحتاج حتي لسلك نحاس فى كل مراحل المشروع .

تحت أي ظرف فان العمل كان سوف يكون شاقا ، وقد تضافرت خمسة عوامل لكي تعقد الأمور. كان يجب تنفيذ المشروع مع حماية حربية ، ليست هناك أي مياه على طول الخط، وكان إطعام حوالى ألفين من عمال الدريسة فى صحراء مكشوفة مشكلة فى حد ذاتها، وكان يجب الانتهاء من العمل قبل حلول فصل الشتاء وخامسا وأخيرا فان الأموال المطلوبة غير متوافرة، تركت كل هذه المهمة للسردار .

أرسل الملازم " جيروارد " الى انجلترا لشراء المعدات والقوة الساحبة، التي طلبت ضمن خمس عشرة قاطرة جديدة ومائتي عربة وتم إنشاء الورش الجديدة فى حلفا وعين الميكانيكيون من ذوي الخبرة لإدارتها ، تم إضافة ألف وخمسمائة فرد لكتيبة سكك

الحديد وتم تدريبهم . تم التعامل مع مشكلة المياه . أوضحت تقارير فرق المساحة أن الخط جيد لمسافة مائة وعشرة أميال وحسب رواية العرب لاتوجد أي مياه للمائة وعشرين ميلا التالية ، كانت هناك منطقتان فقط لاحتمال حفر آبارولاستعمال الجمال للترحيل أمر غير وارد وكان يجب أن يبني التخطيط على أن تحمل القاطرة المياه حتي آخر الخط وللعودة ومع فائض للطوارئ أو الحوادث .

كان من الواضح أن كميات المياه التي سوف تحملها القاطرات سوف تزداد مع زيادة طول الخط ومع تقدم الخط وتقدم العمل حتي يأتي وقت سوف تضطر فيه القاطرة لتخصيص ثلث حمولتها لنقل المياه اللازمة لاستهلاكهم . كميات المياه تحددها درجات الخط واتضح أن الصحراء المسطحة ما هي إلا منحدر مستمر حتي أرتفاع ألف وستمائة قدم من حلفا مما عقد كل الحسابات . كان لابد من حسم المشكلة ، تم شراء مائة فنطاز سعة ألف وخمسمائة جالون، وتم تركيبها على عربات سكك حديد متصلة بخرطوم كان من الظواهر العجيبة منظر قطار سكك حديد " السودان الحربي " وصفوف الفناطيز تجري على عجلات عليها تتوقف حياة القاطرة وحياة الركاب بنفس القدر .

بدأ حفر أول حفنة رمال فى بناء خط حديد الصحراء فى أول ايام عام ١٨٩٧ وحتي أول مايو عندما انتهي خط كرمه لم يكتمل إلا بناء أربعين ميلا من الخط الحديدي و لم يبذل أي مجهود كبير . استمر تدريب " كتيبة سكك الحديد " الجديدة واستمر تدفق وصول المعدات والماكينات والعتاد من كل نوع من انجلترا . بدأت الورش الجديدة فى وادي حلفا تباشر أعمالها ، أصوات المطارق والماكينات تملأ أرجاء المكان ويطير الدخان الأسود من عمليات التصنيع ليملآ السماء الافريقية . بخور المدينة الكريه قد قدم للآلهة المصرية، كل هذه هي تحضيرات و لم يبدأ بناء الخط الحديدي حتي يوم الثامن من مايو .

جاء كل فريق بناة خط سكك حديد كرمه الى وادي خلفا ، جاء رواد الحرب الحديثة بكل الجرأة وخلفهم عبر الصحاري الموحشة يجرون خط سكك حديد خلفهم ،

طريق سالم وأكيد لقوات المشاة ، الفرسان ومدفعيتها والبوارج سوف تلحـــق بكـــل السرعة والأمان .

لاتوجد كلمات يمكن أن تصف قسوة ووحشية المناطق التي سيمر عليها الخـــط وعمال البناء ، كالمحيط الأملس الناعم كانت تمتد ذرات الرمال اللامعة الى مدي البصر حتي الأفق ، وتحرق أشعة الشمس الاستوائية سطح الأرض حتي يصعب ملامستها باليد المجردة ويزمجر الهواء الحار مثل النار على الفرن وبين ألفينة والاخري تظهر كتل الحجارة كأنها جزر من الحجر فى بحر من النار.

وقف رأس خط سكك الحديد وحيدا فى كل هذا الفضاء الواسع مدينة من الخيـلم تتسع لألفين وخمسمائة نسمة كاملة بمحطة ومخازن ومكتب بريد ومكتب تلغـــراف ، وكنتين لايربطها بالعالم الخارجي وعالم الحياة إلا خطين حديديين متوازيـــين بعـــرض ثلاث أقدام وست بوصات يتواري عن الأنظار وينكمش فى المنظور الطويل حتي يتلوي ويختفى حول السراب الى ما لا نهاية .

كل صباح وسط هذه العتمة والعدم يظهر شبح أسود ، يكبر كلما قربت المسـافة الى أن تشق صافرة القطار صمت القرون معلنة الترحيب بأول قطار للمواد يحمل الميـــاه الخاصة به والفين وخمسمائة ياردة من قضيب سكك الحديد ، الفلنكات ولوازمـــــها . عند الظهر تظهر بقعة سوداء أخري ، قطار تموين يحمل المياه الخاصة به والطعام والميـــاه الكافية لنصف الكتيبة الحارسة ، والفى عامل وفني ، والخطابات والصحف والمقـــانق (السجك) والمربة والويسكي والصودا والسجائر التي تمكن البريطاني من هزيمة العــالم دون أن يشعر بأي ضجر .

وتبدأ القاطرات رحلة العودة عاكسة الرحلة الأولي فتختفى تدريجيا على الخـــط كأنها تطير فى الهواء وتختفى فى ظلال عالم غير حقيقي .

كانت الحياة فى هذه المدينة الغريبة الموحشة تسير على نمط واحد لايتغير كالآلـه ، كأنها تستمد من الطريق الحديدي خصائصها خاصة أنه سر بقائها . فى تمـــام الســـاعة الثالثة صباحا تبدأ ماكينة المعسكر وتبدأ الاستعدادات لوجبات الطعام عند الفجر يصـــل

قطار الإمداد ويلتف حوله عمال الدريسة تماما كالذباب ويحملهم الى آخر مرحلة من الخط . الكل يعرف مهام عمله ويعرف ألارجوع للمعسكر قبل الانتهاء منه يبدأ الجميع العمل دون الحاجة الى تعليمات يبدأ تفريغ مائة ياردة من المواد توضع الفلنكات على شكل صفوف متراصة -ثم يبدأ تثبيت القضيب على الفلنكة الثانية ثم تبدأ القاطرة الضخمة التي تزن ثمانين طنا فى التحرك الى الامام بحذر شديد كأنها فى ل يحاول المرور فوق كوبري ضعيف. تعاد العملية باستمرار طيلة الساعات المحرقة لكل يوم . تأتي خلف القطار المجموعات التي تقوم بغرس الفلنكات وتثبيت القضيب الحديدي على طول الردمية المعدة للخط . بعد أن يكونوا قد أنهوا عملهم. وعندما تغيب الشمس خلف الرمال فوق الافق الغربي يأتي القطار بالعربات الفارغة حاملا مئات الأجساد المجهدة راجعين الى رأس الخط حيث المعسكر الدائم هنا يكون سير القطار على خط حديدي تم اكتماله.

تأتي فترة قصيرة للراحة تتوهج خلالها أنوار المعسكر كأنها أنوار سفينة ركاب عملاقة تبحر فى المحيط بينما يتحادث الضباط ويدردشون أثناء تناولهم طعام العشاء. ثم يأتي الظلام ولا شيئ يكسر صمت الصحراء حتي يأتي الفجر بنوره الساطع ومعه يوم آخر من العمل الشاق .

وهكذا أسبوع بعد الآخر تتابع العمل ومع مرور الأيام يتم التقدم نحو المجاهل . يتغير المنظر ، ولكنه يبقي نفس المنظر، وكلما بعدت وادي حلفا واقتربت أبوحمد ظهرت بوادر الخطر لتضيف للمعاناة العجيبة التي يعيشها سكان معسكر راس سكك الحديد . ماذا لو أقدم الدراويش على قطع الخط الحديدي ، كان لديهم كميات مياه كافية لمدة ثلاثة ايام كاحتياطي وبعدها ما لم يتم التغلب على أسباب العوارض وتستأنف الحركة فان الموت والهلاك سوف يكون مصير الجميع وسوف لا تبقي سوى عظامهم وأواني الأكل كشاهد على مصير مشروعهم .

فى العشرين من يوليو تم انجاز مائة وثلاثين ميلا من الخط وأصبح من الخطورة بمكان التقدم بعد هذا حتي يتم تطهير أبو حمد من قوات الدراويش . صحيح انهم

يعدون مسافة مائة ميل ولكن الجمال تسافر سريعا وبعيدا و لم تكن إمكانات العبدو معروفة وظن الجميع أن التقدم سوف يتوقف ولكن فى السابع من اغسطس تحرك الجنرال "هنتر" من مروي مع محازاة النهر وهاجم ابو حمد واستولي عليها فى عملية سيأتي وصفها لاحقا. وهكذا بدأ العمل من جديد ونشاط أصبح معدل الإنجاز الآن رائعا فقد تم مسح وبناء خمسة الآف وثلاثمائة ياردة من الخط فى يوم واحد . وصل الخط الى أبوحمد يوم أول نوفمبر وهكذا التحم الرجال الذين خاضوا معركة الانتصار على الصحراء مع أولئك الذين شقوا طريقهم عبر النهر ، عندما تم اللقاء على ضفاف النيل .

كانت هناك آثار سلبية للمتاعب والمعاناة فقد توفى اثنان من شباب المهندسين هما "بولهويل"و "كاتور" من بين الثمانية مهندسين ، وقد تم شغل أماكنهم بآخرين بكل الحماس .

لقد تم الانتهاء من الخط قبل شهر تقريبا من موعده المحدد نسبة لحسن الطالع والتوفيق فى العثور على المياه حيث أثمرت المجهودات التي استمرت الى ستة أسابيع عن حفر بئر فى المحطة رقم ٤ التي تبعد سبعة وسبعين ميلا من وادي حلفا وجدت المياه بوفرة على عمق تسعين قدما وتم تركيب طلمبة مياه واستمر تدفق المياه العذبة بلا انقطاع .

تم حفر بئر أخري على بعد خمسة وخمسين ميلا من البئر الأولي عن المحطة رقم ٦ وجاءت بكميات أوفر من المياه . لقد ساهمت تلك الاكتشافات فى تقليل مشكلة المياه رغم انها لم تحلها تماماً، لقد زادت من حمولة الخط وقلت الخطورة على أرواح المجموعات العاملة على الخط. كانت فكرة حفر الآبار هي من اقتراحات السردار بالرغم من تهكم الأعراب الأصدقاء ولكن يبقي السجل أن النجاح كان بفضل ضربة حظ ، إذ لم يسفر حفر ثمانية آبار آخري عن نقطة ماء بالرغم من الوصول بالحفر لأعماق أكثر .

كان لابد للتلغراف من متابعة الخط وكانت رسائل الفلنكات تأتي ومعـــها مــا يحتاجه الخط من أعمدة التلغراف والأسلاك والعازلات وقدأتم الملازم "مــايني فولــد" الذي اشترك فى المعارك ضد العرب، وكان من سلاح المهندسين، بناء خط تلغراف مــن مروي الى أبي‌حمد وبذلك اكتملت دائرة الاتصالات التي ربطت بين ســكك الحديــد والنهر .

لم تنته أعباء " كتيبة سكك الحديد " وضباطها بانتهاء العمل فى خــط حلفــا - أبوحمد ، لقد تم بناء خط سكك حديد الصحراء ويجب أن يستمر العمل ، لتشــغيله ، وصيانته وامتداده . أصبحت المحطة الأخيرة فى وادي حلفا مدينة مزدحمة ، تحولت قريــة الطين الى مجمع صغير شبيه بمدينة " كروي " تم تطوير الورش التي ازدهرت مع نمو الخط الجديد وتأهلت بأحدث الآلات من جميع الأشكال والأنواع. كما تم استيراد الــورش الكاملة أما من مصر أو طلبت من انجلترا حتي اكوام الخردة التي كــان يحتفــظ بهــا "اسماعيل" كان لها دور فى توريد بعض الأجزاء ذات النفع .

وهكذا امتلات المخازن بأشكال متنوعة من المعدات بشكل غــير عــادي مــن المسابك والمخارط والدينموهات ومطارق البخــار ومكــابس هايدرولكيــه أفــران وماكينات قاطعة للمسامير ، ومداقيب قد تم توفيرها وكانت كلها تعمل باستمرار. كـل ذلك استدعي اهتمام مستمر ، كل جهاز لإصلاح الآخر كان متوافرا .

لتوفير القوة الساحبة للحمولات اللازمة لتموين الجيش وامتداد خــط ســكك الحديد، تم استيراد أربعين قاطرة ، طلبت من عدة بلاد فى أوقات مختلفة كــانت تمثــل عشرة أنواع مما استدعي أن يتم حفظ عشرة أنواع من قطع الغيار . تضاعفت التوليفــة والاستبدال فى المخازن كانت بعض قطع القوة الساحبة عبارة عــن قــاطرات قديمــة استهلكت بالكامل وكانت اعطالها متكررة وقد أثرت الرمال الناعمة على كل أجــزاء الاحتكاك وكان لابد من متابعة عمليات الصيانة بشكل مستمر . كــانت الــورش مشغولة صباح مساء ، طيلة أيام الأسبوع السبعة .

أضف الى تعقيدات الماكينات فوضي اللغات. فلقد تم التعاقد مع جنسيات مختلفة من الملاحظين من عدة بلاد من اوربا وكان التفاهم يتم بسبع لغات داخل الورش- تحولت وادي حلفا الى بابل جديدة ومع كل انتعشت الاعمال . استعمل ضباط سلاح المهندسين الدبلوماسية وطول البال وكان قائدهم بارد الأعصاب لا يكل ولا يمل وفرض السردار سيطرته الكاملة على الجميع دون أن يأبه لمشاعر الآخرين ولكنه طويل البال لا ينفعل بسرعة واحكامه معقولة . كان يتجول داخل الورش أو وسط صفوف الجنود حتي يطمئن بأن العملية تسير حسب ما خطط لها ، باقتصاد فى النفقات مع الإنجاز المطلوب . لقد نال تعاطف العمال العاديين مما اكسبه احترام وحب ضباطه .

لم يعرف فى أي مكان من السودان كما عرف فى سكك الحديد ، ولم يؤمن به فى أي مكان مثل ما أومن به هناك .

الآن آن لنا أن نتخيل سير الأحداث . استغني الجنرال "هنتر" عن استعمال الجمال لخطوط مواصلاته الى مروي بمجرد أن وصل القطار الى (أبو حمد) وصار يطلب تموينه رأسا من وادي حلفا عن طريق الخط الجديد .

بعد الانتهاء من خط سكك حديد الصحراء بقيت معدات تصلح لبناء خط لمسافة سبعة عشر ميلا إضافية وعلى الفور تم إنشاء خط حتي (دقش) بطول ستة عشر ميلا جنوب ابو حمد . تم الاستيلاء على بربر فى هذه الاثناء وحتمت الضرورة العسكرية بقاء قوة كبيرة فى هذه المدينة للدفاع عنها تم إرسال الكتائب الأربع التي بقيت فى مروي بالبواخر الى كرمة ومنها بالقطار لحلفا، ثم رحلت بقطار الصحراء الى دقش عن طريق أبوحمد الرحلة كانت بطول اربعمائة وخمسين ميلا .

عندما بدأ العمل فى خط سكك الحديد عبر الصحراء كان الاعتقاد بأن النهر صالح للملاحة بعد أبوحمد بدون أي عوائق وقد أكد هذا المسح الذي تم ولكن بعد انحسار مياه النهر اتضح أن هذه المعلومة غير صحيحة. بمجرد أن انحسرت مياه النيل ظهرت الشلالات وعليه كان لزاما ان يمتد الخط أولا الى (باشطناب) ثم الى العبيدية وأخيرا حتي عطبرة. لتنفيذ هذه المرحلة احتاج الأمر لاعتمادات مالية إضافية فى وقت

كثرت فيه المشاكل المالية ولكن تم التغلب على الصعاب واستؤنف العمل بمعدل ميل واحدا فى اليوم . تختلف طبيعة البلد كثيرا فى المنطقة الواقعة بين أبوحمد ونهر عطبرة . يحازي الخط نهر النيل لمسافة ستين ميلا يسير على حافة النهر على يمين الخط تقع الأراضي الزراعية التي هي لا تزرع تراكمت عليها الأتربة وكونت تلال من الرمال من جراء الإهمال -تنمو فيها مجموعات أشجار الدوم والسنط ويطل النيل من بين أغصان هذه الشجيرات بفيضان منعش. على اليسار تمتد الصحراء تظهر فيها بعض الأحجار والخيران -من الباشنطاب الى العبيدية كان لابد من الاتجاه بالخط نحو الصحراء نسبة لطبيعة الأرض المحازية للنيل غير الصالحة للخط .وذلك لمسافة خمسين ميلا من العبيدية الى عطبرة يسير الخط على أراضي طينية تنمو عليها الأشجار الظليلة التي ترويها مياه الأمطار . دخل الخط مناطق نزول الأمطار فيها احتمال وارد وكان لابد من الاحتياط بعمل كباري واستحكامات وفتحات لمياه الخريف والسيول حتي لاتحطم الخط مما زاد من كمية العتاد والمواد المطلوبة بلغت فى جملتها حوالى الف طن إضافة على المواد المطلوبة . عندما وصلت القوات الإضافية لمنطقة بربر تضاعفت القوة الموجودة وتضاعفت أيضا مهام التموين. أن إطعام الجيش فى الصحراء وعلى بعد ألف ميل من قاعدته ومع عدم وجود أي وسيلة للغذاء على مسيرة يوم كامل ، ليست بالأمر السار وإن لم تقل أهمية عن بناء خط سكك الحديد الذي ترتبط به حياتهم لنقل التموين الى الجبهة . إن التموين أو الأفراد والمواصلات ترتبط مع بعضها تقف او تنهار معا ويعتمد التاريخ على كليهما . ولكي نوضح دور ادارة التموين والمؤن الحربية، أجد لزاما على أن أكرر وأوضح بعضا من التفاصيل .كان السردار يشرف اشرافا مباشرا على ادارة الإمدادات إلا أن دوره اقتصر على الإشراف على توزيع الوجبات أما تحضير الطعام والتموين المستمر وقد أوكل الى العقيد " روجرز " الذي اثبت خلال ثلاث سنوات أنه فعلا يستحق لقب " مطعم الجيوش " لدقة حساباته والتفكير السليم الذي لا يغفل أى احتمالات .

كانت المهمة الحربية الاولي كما أشرنا هي تركيز أكبر قوة من القوات المصرية فى عكاشة وما كان لمسائل التموين أن تشكل أي متاعب لأن هذه طوارئ كـــل شـــيء محسوب حسابه. شاءت المقادير أن شهد بداية عام ١٨٩٦ نقصا كبير فى الغلال نسبة لانخفاض محصول عام ١٨٩٥ الى أقل من المتوسط فأضطرت مصر التي عرفـــت بأنها صومعة غلال ضخمة الى استيراد الحبوب واستورد جنودها أربعة الآف طن شعير مـــن الهند وروسيا حتي تبدأ الحملة .

إن الوجبة الرئيسية للجندي فى أغلب الجيوش تتكون من الخبز (الرغيف) وقد تسبب الخبز السيء والبديل الذي لا يخرج عن البسكويت الناشف ، فى مشاكل صحية للجنود فى كثير من المعارك الحربية . كان الجيش يحتاج لعشرين طنا من الدقيق يوميـــا ويمكننا تخيل المشاكل والمناوشات التي كانت سوف تنشأ بـــين ضبـــاط الإمـــدادات والمقاولين عندما يصر العنصر الأول على النوعية الجيدة ويكون هم العنصر الثاني هـــو الربح لا أكثر . لم تتعرض إدارة الحملة المصرية المنظمة الى أي من تلك المشاكل .

استولت وزارة الحربية فى عام ١٨٩٢ على مصنع اسماعيل باشا لصناعة الأســلحة بالقرب من القاهرة وحولته الى شونة ومطاحن للغلال ومصنع للبسكويت ينتـــج مـــا يكفى ستين ألف وجبة يوميا وانشيء مصنع للصابون فى نفس المنطقة . كـــان لهـــذه الترتيبات أثر كبير إذ ساهمت فى تأكيد جودة الدقيق وبذلك انعدمت الشـــكوي مـــن الخبز السيء وحل الصابون محل الدبش والشحم الذي كان يورده المقاولون فيما مضـــي واستطاع الجندي ان يغتسل وان يغسل ملابسه أيضا مما كان له اثر عظيم .

ثانيا انعدمت مشكلة التأخير فى التسليم فى الموعد، كما كان يحدث مع المقـــاولين وآخيرا استخدم الفائض فى إنشاء مائة وخمسين مخبزا ، وهكذا بالرغم من الأموال الـــتي صرفت لاستيراد الحبوب جاءت بداية الحرب ووجدت إدارة المؤن والتموين فى الجيـــش المصري فى حالة جيدة وكفاءة عالية .

لقد خصصت مخازن فى أسوان وأيضا فى وادي حلفا وتم تخزين كميات هائلة مـــن المواد التموينية ، ولم يكن يسمح بسحب أوقية واحدة بدون تعليمات مـــن الســـردار

شخصيا. كان القائد يتحمل المسئولية كاملة ولا يخضع لتعليمات من أحد وقد تحاشي المشاكل الناتجة من كثرة الآراء من رؤساء الآركان . عندما اكتملت الإمدادات الكافية في عكاشة ، تمت معركة فركة بعدها جاءت الصعوبة في الحفاظ علي اطعام الجنود وفي نفس الوقت الاستمرارا في بناء خط سكك الحديد وترحيل الطعام اللازم لذلك صرفت تعينات صغيرة للمسافة بين حلفا وكوشة ، تعرضت للسرقة والتلف من جراء المياه حتي أثرت علي خطوط الامداد وأعيد بعض أفراد من الجيش الى الشمال لتفادي المجاعة. لقد تدهور الموقف عندما تحركت القوة جنوبا الى دلقو وقدرت المسافة حتي دنقلا بمسيرة عشرة أيامٌ وهي كانت الحمولة القصوي لقوافل الجمال ولحمولة البواخر .

استعملت بعض المراكب الشراعية لنقل الحبوب وكانت الوسيلة الوحيدة لكنها تأخرت بسبب التيار والهواء ، ربما استطاع الجيش أسر بعض المراكب الحاملة للحبوب وربما يلتقط الأفراد بعض ثمار البلح ولكن بالكاد يوجد أي مصدر للطعام . جاء الفرج بعد ان قلب الهواء جنوبا وتم شحن تموين يكفي اثني عشر يوما على المراكب الشراعية والبواخر ووصلت مع القوة الى دنقلا ومع وصول هذا الاحتياطي المهم تمت عملية احتلال مديرية دنقلا وبالرغم من أن الجيش عاش بتموين يوم بيوم حتي وصول الخط الى كرمه لم تكن هناك أزمات في تموين الجيش يمكن أن تؤثر على سير الحملة .

انتهي الى هنا سرد قصة إدارة المؤن الحربية مع نهاية الاستيلاء على مدينة دنقلا ولكننا سنستمر معها وهي ترافق بناء خط السكة حديد .

في مرحلة أبوحمد كانت الامدادات تصل بصورة منتظمة ومتتابعة ، كانت الفرقة التي تتبع طريق القوافل عبر آبار مورات تأتي بانتظام حتي أن أحدي هذه الرحلات وصلت في اليوم التالي لانتهاء المعركة، وتم بعد ذلك فتح خط إمداد من مروي . كان دخول بربر بعد أبوحمد غير المتوقع سببا في أرباك الامدادات حتي تم توصيل الخط الى بربر كان الاعتماد قبل هذا على عدة أصعدة ، قوافل الجمال وهي تعبر الأراضي بين مروي وأبوحمد وسط أشجار وأشواك كثيرة وطرق غير معده مما أدي الى ازدياد الفاقد

أثناء الرحلة وايضا واستخدمت القوافل عبر آبار مورات اتية من رأس الخط الحديدي بالإضافة للمراكب الشراعية من مروي توزع المؤن والإمدادات للجهات المحددة لها .

حتى بعد وصول الخط الى دقش لم تهدأ حالة القلق إلا قليلا . أن تموين قوة كبيرة من الجيش على بعد مائة وثمانية أميال من رأس خط سكك الحديد ، تطلب الاحتفاظ بنظام تموين يعتمد على قوافل الجمال وحمولات المراكب الشراعية .

قل الاعتماد على هذه الطريقة كلما تقدم الخط الحديدي وقلت المشاكل ايضا عندما تم استبدال قوافل الجمال والمراكب الشراعية بالقطار الحديدي .

لكي نعطي القارئ فكرة عن حجم المسئولية وأهمية دور الإمداد ندعوه لمتابعة رحلة لصندوق بسكويت من القاهرة الى البربر . كان الطريق كما يلي : - من القاهرة لنجع حمادي (٣٤٠ ميلا) بالقطار ، من نجع حمادي الى أسوان (٢٠٥ ميلا) بالمراكب ، من حلفا لدقش راس الخط (٢٤٨ميلا) بالقطار الحربي من دقش الى الشريك (٤٥ ميلا) بالمراكب ، من الشريك بالجمال (١٣ ميلا) حول الشلال الى الباشطناب ، من هناك بالمركب الى أم شيو (٢٥ ميلا) من أم شيو حول شلال آخر بالجمال (١١ ميلا) الى قيننيطة ومنها (٢٢ ميلا) بالمركب الى بربر . إن الطريق الذي سلكه صندوق البسكويت سوف يسلكه كل طن من المؤن والعتاد التي يحتاجها عشرة آلاف مقاتل على أرض المعركة . كان لذلك أهمية عملية الإمدادات على أن تسير وسط خطة محكمة عبارة عن سلسلة من العمليات كلها تخدم بعضها فى تناسق تام دون أي اختناقات كانت سوف تؤثر على سير بقية العجلة الدائرة . كان هذا هو الأمر الذي شغل بال ضباط المواصلات واحتاج القرار الصحيح لكل الوقت وكل مرة . بالرغم من اعتماد المراكب على تقلبات الهواء التي ربما تؤخر الملاحة ، وبالرغم من تعرض الجمال للأمراض والموت احيانا وبالرغم من أعطال الماكينات المستمر وفى مواجهة كل الصعاب أمكن تحقيق إمداد مستمر ولم يتأثر بناء خط سكة الحديد ولم يسجل أي نقص فى إطعام الجنود .

استمر الخط الحديدي فى النمو ومع كل تقدم تقل مشـاكل التموين انتقلت الأحمال من على ظهور الجمال وبطون المراكب الى داخل عربات النقل على الطريق الحديدي ، توجهت كل المجهودات الآن الى خدمة الحرب ، وقد حلت سرعة القطار محل زحف القوافل البطيء .

أثرت غارات الدراويش على تقدم الخط الحديدي لبربر وكان الحذر الحربي واجبا، تم توقف العمل لمرور اللواء البريطاني الاول الى الجبهة وأيضا لتتابع وصول المؤن والمعدات بشكل يومي. اكتمل بناء الخط حتي الباشنطاب فى العاشر من مارس ووصل الى العبيدية فى خمسة مايو ووصل الخط الطويل من حلفا الى عطبرة يوم ثلاثة يوليو. واكتمل بناء رئاسة السكة حديد الجنوبية عند المعسكر الحصين الذي اقيم عند ملتقي النيل مع نهر عطبرة. من الآن فصاعدا انتهت مشكلة الامدادا نهائيا. لقد وصلت الامدادات التي تكفى الحملة لمدة ثلاثة اشهر فى أقل من أسبوع وانتهت بذلك متاعب ضباط إدارة المؤن الحربي وانتهي معها العمل المرهق . أضيفت إنجازاتهم للنجاحات العظيمة التي حققها رجال السكة حديد، لقد كافح القائد ورجاله طويلا وقد كللت مجهوداتهم بهذا النجاح الهائل . إن أول قطار وصل حاملا للجنود الى المعسكر الحصين على ملتقي نهر عطبرة مع النيل قد حدد مصير الدراويش ونهايتهم . أصبح الآن متاحا وممكنا إرسال قوة وبسرعة الى قلب السودان بصرف النظر عن المواسم مع إمدادهم ليس بالأسلحة والأطعمة ولكن بآلة الحرب العلمية الحديثة ومساندة مجهودات القوة الزاحفة بأسطول نهري مسلح يمكنه السيطرة على النهر وشواطئه ويستطيع الأسطول فى أي وقت تجاوز الخرطوم نفسها وحتي الوصول الى سنار وفشودة والسوباط .

إن النصر قد تحقق قبل ان تبدأ المعركة. إن الخليفة وعاصمته وجيشة وجميعهم الآن تحت قبضة السردار، تبقي عليه فقط التقدم لقطف الثمار فى الوقت المناسب له وبدون عناء وبأقل التكاليف .

الفصل التاسع

أبـــــو حمـــــد

مما لا شك فيه أن الجزء السابق " سكك حديد الصحراء " قد قاد الى ســـرد أخبـــار الحرب بسرعة مذهلة وأن القارئ الذي وصل الآن الى استحكامات الجيش الغازي علـــى ملتقي نهر عطبرة والنيل قد هيأ نفسه للتقدم الكبير نحو الخرطوم . لعله مـــن الضـــروري ان يسمح لذاكرته بالرجوع للفترة عندما كانت الحاميات المصرية تعج بالجيوش المصرية علـــى طول خط النهر فى حاميات، دنقلا ، الدبة ، كورتي ومروي ، وعند بدء الاستعدادات لاعادة الاستيلاء على مديرية دنقلا وعندما كان خط سكك حديد الصحراء يتمدد بصورة مرضيـــة نحو أبوحمد .

أخبار سقوط دنقلا قد سببت الهلع فى أم درمان فتركت أعدادا كبيرة من الغرب المدينة عندما احسوا بأن سلطة الخليفة سوف تنهار ، توقفت جميع الأعمال وتوقفـــت عمليـــات الإعدام لعدة أيام الخليفة نفسه لزم منزله حتي يخفى قيظة وتكدره من أفراد رعيته .

فى اليوم الخامس بعد وصول تلك الأخبار ، ذهب الخليفة الى الجامع لأداء صلاة الفجر، ثم اعتلي المنبر الخشبي المعد للخطبة وخطب فى المصلين . بعد ان اعترف بانسحاب الدراويش تحت قيادة " ودبشارة " ، هول من حجم خسائر الاتراك ووصف الحالة اليائسة التي يمـــرون بها . كرر الخليفة استياءه الشديد من استسلام بعض افراد الجهادية مذكرا مستمعيه ، كيف يعذب الانجليز والمصريون من يقع فى الآسر وكيف يتعرض لعذاب فظيع . لقد ناح وكـــاد يبكي وهو يصف عدم الايمان بالله الذي جعل حفنه من الأنصار تهجر الجهاد ضد الكفـــار وقلة الايمان والتقوي التي تسببت فى هذا العار .

وعاد وأكد ثقته فى رعاياه وفى وقوف الله ثم المهدي لنصرته واستمر حتي ألهب مشـــاعر الجماهير وعندها بدأ خطبة رنانة قائلا: صحيح أن قوادنا قد انسحبوا من دنقلا ولكنهم لـــن ينهزموا ، وأن الذين هلكوا هم الذين عصوا أمرنا فقط فأناالذي أصدرت أوامري بانسحاب القوات الى المتمة وعدم مواصلة القتال ، وهكذا فانهم قد نفذوا الأوامر التي أرسلتها لهم .

لقد جاءتني رؤية فى المنام من الروح القدس والملائكة وروح المهدي تحذرني بأن الأعداء الأشرار والانجليز البؤساء سوف تتناثر عظامهم البيضاء بين دنقلا وام درمان فى منطقة معينـــة

وهكذا سوف ينهزم الكفار ، ثم سل سيفه وصاح بصوت جهوري " ان الدين منصور " وسوف ينصر الله الاسلام .

كانت فى هذه اللحظة الجماهير التي يزيد تعدادها على عشرين ألفا من المصلين قد ملأت أركان الميدان المربع وإن لم تكن تسمع صوته الا أنها قدرأته واستل كل فرد سيفه أو لوح بحربته مكبرا الله اكبر.

عندما هدأت الضوضاء أعلن الخليفة ان الذين لايرغبون فى الاستمرار فى الايمان يمكنهم أن يذهبوا الى أين يشاءو اما هو فهو باق وواثق من نصرة الله وهكذا اعاد الطمائنية للجماهير .

عرف الخليفة أن البركة الالهية يجب أن يساندها المجهود البشري وعليه انكب على تخطيط الاستعداد ولم يترك أي سانحة الاوفكر فيها. فى البداية كان الخليفة على يقين أن جيش السردار سوف يتقدم فورا الى أم درمان سالكا نفس الطريق الذي سلكته قوة الصحراء عام ١٨٨٥ من كورتي الى المتمة وعلية فقد أصدر اوأمره لعثمان ازرق رغم جرحة أن يأخذ ماتبقي له من قوة ويحتل أبار أبوكلي- أما ودبشارة الذي كان يجمع ماتبقي من قوتة بعد معركة دنقلا فقد وصلته الأوامر لاحتلال المتمة عاصمة الجعليين، كما بعثت الرسل من أجل أن يتم حشد القوات فى أم درمان. وطلب الأمير إبراهيم خليل من الجزيرة -المنطقة الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض -فوصل الى المدينة ومعه قوته المكونة من أربعة الاف جهادية من البقارة. صدرت الأوامر لأحمد فضيل الذي كان فى طريقة الى القضارف بالعوده للعاصمة. عثمان دقنة جاء على جناح السرعة من ادراما ولكن يظهر أن الخليفة أرادأن يستشيره فقط لأنه لم يامر بتخفيض القوات فى الحاميات الصغيرة على طول خط عطبرة الدامر فى ادارما واصبري والفاشر وعليه عاد عثمان دقنه الى ادارما بعد زيارة قصيرة .

وأخيرا ولكن ليس من حيث الاهمية أمر محمود قائد الجيش فى الغرب بترك قوات صغيرة فى كردفان ودارفور والتوجه بما تبقي من قوته التي ربما بلغت عشرة الاف مقاتل الى النيل ومن ثم الى ام درمان .

محمود الطموح الجامح بنفس درجة غروره وقله كفاءته استلم الأوامر بسعادة وبدأ فى تجميع قواته .

كان واضحا للخليفة أنه لن يستطع وضع كل ثقته فى افراد القبائل النيلية -أولاد البلد- كان عدم الرضا عند الجعليين والبرارة الذين يئسوا من حكمه ومن الحرب وكانت كميـــة الاخلاص والضرائب تقل كلما تقدم الجيش المصري، لهذه الأسباب صرف النظر عـــن أي مواجهه فى بربر وأمر الأمير يونس قائد المنطقة بعد عودته من دنقلا عام ١٨٩٥ الى جمع كل الجمال والمراكب والحبوب وكل المؤن التي يمكن أن يستفيد منها جيـــش الغـــزاه بتجميعـــها وارسالها الى المتمه .

وقد أنجز المهمة على خير وجه . أجبر السكان على التخلي عن ممتلكاتهم والأشياء الضرورية لحياتهم مما تسبب فى تذمرهم من هذه المعاملة القاسية مما يفسر سير الأحـداث فيما بعد خاصة بعد سقوط أبوحمد . كانت ابو حمد هي اخر نقطة شمالية للخليفـــة و لم تعتبر نقطة مهمة وعليه فقد كانت تحت إمرة محمد زين مع قلة من الدراويش و لم تضف إليه الا قلة من الامدادات .

عرف العرب جيدا قوة البواخر المسلحة وقوة مدافعها بعد معركة دنقلا . بـــــدأ الخليفة محاولات لقفل الشلال السادس فى مضيق السبلوقة وشوهدت الباخرة "بورديــن" إحدي بواخر غردون -وهي تحمل المدافع والمهمات من أم درمان الى ود حامد وقـــد أرسل أحمد فضيل مع قوته ليعسكر هناك بعد الانتهاء مـــن عمـــل الطابيـــات شمـــال السبلوقة. كانت نبوءة المهدي ذات أثر كبير فى تفكير وتصرفات الخليفة فيما يختـــص بالمعركة الكبيرة عند تلال كرري ، بالرغم من انه لم يغفل أي تفاصيل لكن كانت تلك الفكرة مسيطرة عليه تماما . كان يشاهد طوابير جيوشه بانتظام وهي تســـتعرض فى ام درمان ، وكان كل يوم تستمر فيه القوة فى تمارينها على الساحة التي ســـوف تتنـــاثر أجسادهم عليها .

بعد مرور فترة قصيرة ظهر أن الأتراك سوف لايتقدمون. يظـــهر انهـــم اكتفـــوا بالأراضي التي احتلوها ، البواخر لم تبحر بعد من مروي والخط الحديدي لم يتجـــاوز كرمه. لماذا لم يواصل الغزاة نجاحهم ، لعلهم يخشون الجيش الكبير الذي ينتظرهـــم فى أم

درمان !. تشجع الخليفة وبدأ استعدادات لعمل هجومي فى يناير ١٨٩٧ حتي يطـــرد الغزاة من دنقلا .

يتجمع الجيش عند سفوح تلال كرري واستمرت طوابير التمارين وتجهيز المـــؤن مع تحضير كميات من الخبز البلدي "الكسرة" الناشفة وهي غذاء الداراويش فى حملاتهم.

لم تختف كل تلك الاستعدادات عن علم السردار لقد كانت عيون اســـتخباراته تمده بمعلومات كاملة عن تحركات الخليفة ، فأرسل لتمركز القوات فى دنقلا ولقفل أي ثغرات يمكن ان تهدد امن قواته.

أرسلت فرق الاستكشاف من سلاح الفرسان عن طريق الصحراء حـــتي آبـــار جقدول وعلى طول النهر . علم أن الأمير يونس قد عبر النهر فى آخر مايو وبدأ مهاجمة القري الواقعة تحت أبو حمد. أمر، بناء عليه السردار بقيام دوريات تحت قيادة النقيـــب "لي فالياس" مكونة من ثلاث سرايا من سلاح الفرسان بقيادة النقيب ماهون ، ثـــلاث فرق هجانة ومائة رجل من الفرقة السودانية الرابعة على ظهور الجمـــال مـــع مدفـــع ماكسيم للاستطلاع اعلى النهر من عند ممر شكوك حتي سلامه .

لم تتعرض هذه القوة لآي حادثة فى رحلة الذهاب ولكن وقع تصادم عند رحلـــة العودة ، جرح خلاله الضابط البريطاني بيتون جرحا شديدا وقتل تسعة جنود مصريـــين وجرح ثلاثة آخرون . كانت هذه الحادثة دليلا على تحرك الدراويش مما اســـتدعي أن تكون القوات حذره وعلى أتم استعداد .

وصل محمود بقواته من الغرب فى نهاية مايو واستعرض الخليفة القـــوات بكـــل الترحاب خارج المدينة . لم يكن لمحمود أي خبرة بالاسلحة والبنادق بالرغم من ذلـــك كان واثقا أنه يستطيع هزيمة الأعداء ودحرهم . وكان متحفزا إما أن يخضـــع قبـــائل الجعليين للولاء أو أن يثوروا قبل وصول الجيش المصري لنجدتهم عندما عُلم أن الخليفـــة مصمما على إرسال جيش كردفان الى المتمة، أحضر الخليفة زعيم الجعليـــين عبـــد الله ودسعد وأخطره بنيته فى الدفاع عن الجعليين فى المتمة وأنه قرر إرسال جيش محمـــود لذلك الغرض وعلى قبيلته أن يمدوهم بكل ما يحتاجون اليه من مؤن وأغذية ومسكن .

هنا احتج زعيم الجعليين وذكر للخليفة الحالة البائسة التي عليها اهل المتمة وقال انهم على استعداد لصد العدو وطلب ألا يرسل جيش محمود ليزيد الأعباء عليهم . طلب العفو لتقديم هذا الاحتجاج الذي املته الظروف الصعبة التي تمر بأهله .

هنا فقد الخليفة أعصابه وتوازنه المعهود فى المجالس العامة ونعت عبد الله ودسعد بكل الصفات السيئة قائلا انه كان يشك منذ مدة طويلة فى ولائه ، وأنه لا يستحق ابخص ميته وأن قبيلته لا تستحق إلا أن توصف بانها لطخة على الأرض وأنه يرسل محمود القادر لتأديبهم،هم وزوجاتهم . اعتذر عبد الله ودسعد لما بدر منه وخرج .

رجع عبد الله ودسعد الى المتمة وحكي لقومه ما تم بينه وبين الخليفة وذلك اللقاء العاصف. وعرف الجميع معني إرسال محمود وجيشه الذي لن يتورع عن مصادرة أملاكهم وخراب بيوتهم وانتهاك حرماتهم فقرروا بالاجماع الاستسلام لجيش السردار وطلب النجدة منه سواء كانت عبارة عن جنود أو أسلحة. كتبوا خطابين –للسردار الأول يطلب المساعدة وعزمهم على محاربة الدراويش إذا وصل الدعم أو عدمه والثاني خطاب سباب شديد الى الخليفة. وصلت الخطابات مع رسول الى الجنرال "رندل فى مروي يوم ٢٤ يونيو، ووصل الخطاب الثاني للخليفة يوم ٢٧ يونيو .

استجابة الجنرال " رندل " كانت فورية ، أرسل ١١٠٠ بندقية ريمنتجون وكمية كبيرة من الذخيرة محملة على جمال على طريق كورتي – المتمة مع حراسة قوية من الهجانة . عندما تسلم الخليفة خطاب السباب من الجعليين يوم ٢٧ كانت بعض قوة محمود قد اتجهت بالفعل نحو الشمال وتبعها محمود وباقي القوة يوم ٢٨ يونيو ووصلت القوة الأولي الى المتمة يوم ٣٠ يونيو .

استطاع عبد الله ودسعد ان يجمع كل الرجال الموجودين فى المتمة حوالى ٢٥٠٠ رجل وحوالى ٨٠ بندقية مع ١٥ طلقة ذخيرة لكل بندقية . تولوا حراسة الجهة الجنوبية من المتمة والبقية على الجهة الشمالية يحملون الحراب . كما توقع عبد الله ودسعد جاء هجوم محمود فى أول يوليو من الجهة اليمني للمتمة وأبدى أفراد عبد الله مقاومة شرسة سقط على أثرها الكثير من أفراد جيش محمود . كانت قوة محمود حوالى ١٠ آلاف الى

١٢ الف جندي ، نفذت ذخيرة رجال عبد الله ودسعد فانهال جيش محمود عليهم من الجهة اليمني والشمالية ودخلوا البلدة وكانت مذبحة حقيقية لم يسلم فيها النساء او الاطفال وكان عبد الله ودسعد أحد القتلي .

وصل بعض أفراد قبيلة الجعليين الى آبار حقدول ، وهنا وجدوا قوة النجدة من الهجانة والبنادق والذخيرة المرسلة من جنرال رندل ، ولكنها كمثيلتها التي ارسلت لنجدة أولئك الذين كانوا يعانون من أسوا الظروف ، قد وصلت متأخرة . رجعت القافلة وحمولتها الى كورتي .

بينما كان الخليفة مشغولا بهذه الامور ، كان هناك خطر داهم يتربص به ألا وهو خط السكه الحديد الذي ظل يمتد عبر الصحراء ، سواء علم به أم لم يعلم الدراويش لكنهم لن يقدروا مدي خطورته ، وصل الخط فى منتصف يوليو الى ١٣٠ ميلا، وكما ذكر فى الجزء السابق كان العمل قد أوقف لحين الاستيلاء على أبو حمد ووصول الجيش المصري اليها . كان ارتفاع منسوب النيل فى استمرار وسوف يمكن البواخر من الملاحة متي ما عبرت الشلال الرابع وكان احتمال تقدم الأتراك واضحا متي ما ارتفعت مياه النهر . وكان الخليفة على علم بهذا الاحتمال فسارع يأمر " الأمير يونس" أمير بربر للتحرك الى منطقة المناصير ويناوش دوريات الاستكشافات القادمة من مروي ، لم ينفذ " الأمير يونس " هذا الامر وبقي على الشاطئ الشمالى قبالة بربر حتي أرسل الخليفة واستدعاه للحضور الى أم درمان ليوضح موقفه .

الحسابات الدقيقة لارتفاع النهر وتقدم خط السكه حديد قد حددت موعد تقدم الجيش المصري .

تمت التحضيرات بكامل السرية لارسال فرقة سريعة لأبو حمد. كانت حامية الدراويش هناك تحت إمرة " محمد زين " لا تتعدي ٦٠٠ محارب. ولكن لضمان نتائج مؤكدة تقرر إرسال لواء كامل .

كان اللواء يتكون من كل الأسلحة وتشكل كما يلي : -

القائد " جنرال هنتر "

سلاح الفرسان : كتيبة

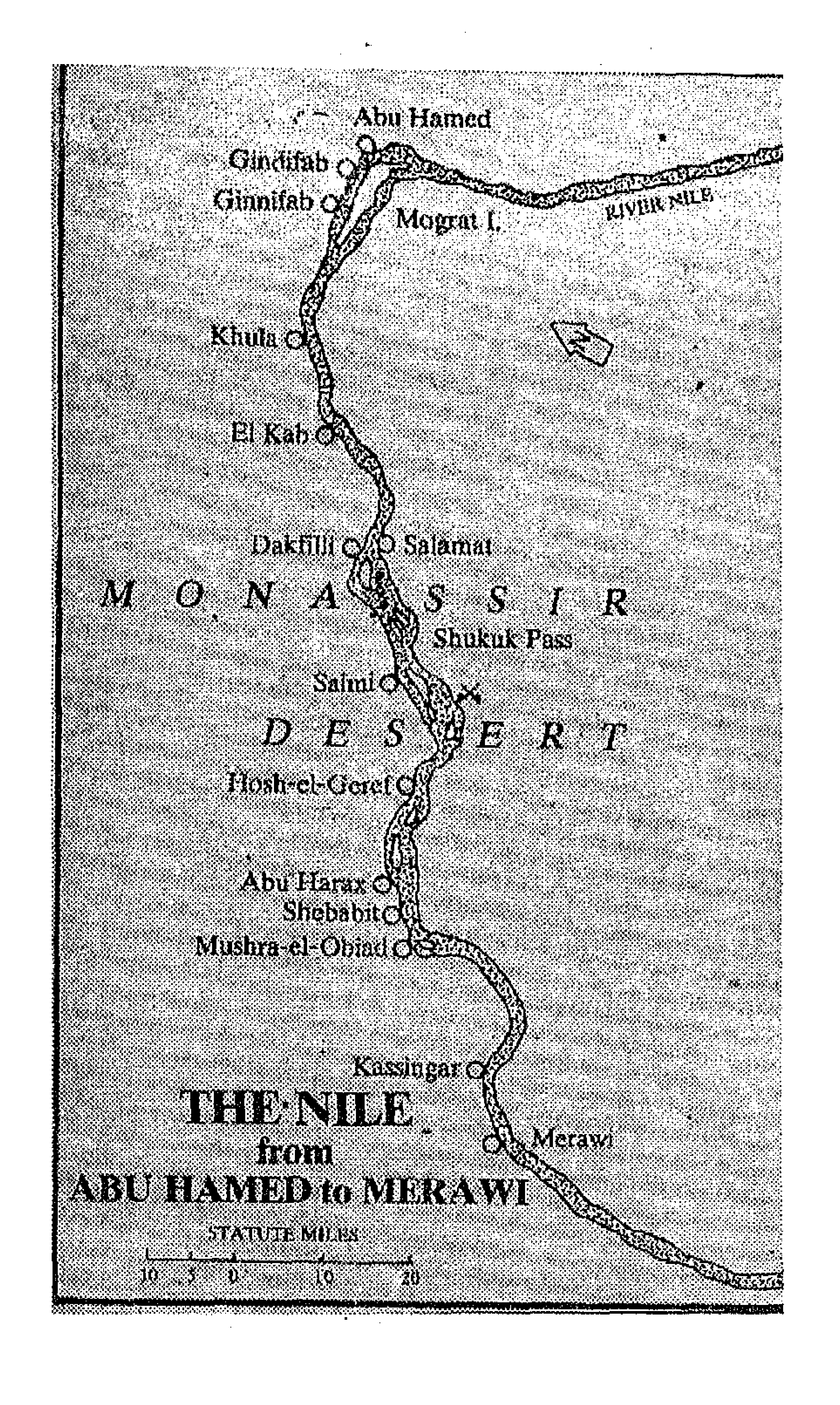
المدفعية : بطارية الميدان رقم ٢ (٦ مدافع كروب ، ٢ مدفع مكسيم ، واحد قاردنر وواحد نوردين فى‌لد)

المشاة : لواء ماكدونالد

كان سير ارشبولد هنتر الضابط الذي كلف بقيادة الحملة أشهر ضابط فى الجيش المصري وقد نال هذه السمعة لجرأته واقدامه فقد سبق ان خدم جيش الخديوي أثناء حملة النيل لعام ١٨٨٥ - ١٨٨٤. وتقلد كل المناصب متدرجا من رتبة نقيب حتي وصل الى قائد عام وقد نال هذه الرتبة لخدمته الممتازة فقد جرح مرتين ، مرة وهو على مقدمة اللواء الذي يقوده وعليه اكتسب احترام رؤسائه وأعجاب زملائه فى القتال فى اثناء "حرب النهر" ومن العجيب أنه رغم قسوته أصبح معبود الجنود. لقد كان أهم عناصر نجاح حملة السررار، روحه المرحه وقيادته الحكيمة عرف كرجل المهمات القتالية . كانت القوة التي وضعت تحت إمرته تتكون من ثلاثة آلاف وستمائة جندي و قد أوقفت جميع العمليات حتي الانتهاء من هذه العملية حتي خط سكك الحديد أوقف نشاطه فى قلب الصحراء .

تجمعت قوة اللواء الطائر فى قرية الكاسنجر التي تبعد عن مروي بضعة أميال على يمين النهر أو الشاطئ الذي تقع عليه ابو حمد .

بدأ الجنرال "هنتر" مسيرته يوم ٢٩ يوليو، لقطع المسافة بين الكاسنجر وأبو حمد والتي تبلغ ١٤٦ ميلا. بالرغم من السرية الكاملة التي ضربت على تحركات الحملة إلا أنه كان من الوارد انه بمجرد أن تتحرك القوة سوف يعلم بها الدراويش فيسرعون الى إرسال النجدات لأبو حمد مما قد يصعب المهمة ويجعل القوة غير قادرة على الاستيلاء على القرية. اذن السرعة مطلوبة ولكن حرارة الطقس وتأثير الشمس الحارقة قد اضطرت القائد أن يتم السير ليلا فى أغلب مراحل المشوار ولكن لم يمكن هذا الحل القائد من الاستفادة الكاملة نسبة للسير فى أراضي رخوة وفى جنح الظلام. تعتبر صحراء المناصير من اكثر المناطق وعوره على طول النيل فى رحلته الطويلة وهي منطقة خلوية غير مأهولة بالسكان. إن النهر يتقطع فى أجزاء كثيرة حتي تظهر الصخور التي تكون شلالات صغيرة خطيرة وتزحف الصحراء الى حافة النهر.


Abu Hamed
Gindifab
Ginnifab
Mograt I.
RIVER NILE
Khula
El Kab
Dakfilli
Salamat
M O N A S S I R
Shukuk Pass
Salmi
D E S E R T
Hosh-el-Geref
Abu Harax
Shebabit
Mushra-el-Obiad
Kassingar
Merawi
THE NILE
from
ABU HAMED to MERAWI
STATUTE MILES
10
5
0
10
20

الشاهد الوحيد للحياة فى المنطقة ظهور بعض أشجار النخيل أو بيت من الطين. كان الطابور يسير محازيا للنهر، و لم يكن هناك ثمة طريق واضح المعالم يمكن للجنود أن يسيروا عليه كان الجنود يعانون من الرمال الناعمة الرخوة، وقد غاصت أقدامهم فى بعض الأحيان حتي الركبة داخل الرمال وامتلآت أحذيتهم بالرمال والوحل أو يعاني الذين يسيرون على النهر نفسه من الحجارة البارزة التي لاتزال تحتفظ بحراراة الشمس بالرغم من طلوع القمر . استمر طابور القوة فى خط طويل يصارع ويتلوي بألم تماما كالثعبان الذي قيل فيه : " تماما كما يتلوي جسدك على التراب ، فان التراب سيلتهمك " .

تحرك الطابور فى الساعة الخامسة والنصف مساء ووصل بعد ستة عشر ونصف ميل الى "مشرع العبيد" عندها أمر القائد بالراحة حتي يسقي الجميع. هذه المنطقة لا تقارن بالشاطئ الغربي للنيل ، بالكاد عشر شجيرات ملائى بالشوك ولكنها مناسبة كنقطة تزود بالمياه. أمر القائد بالتحرك فى الساعة الثالثه والنصف صباحا يوم ٣٠ يوليو حتي وصلوا بعد ثمانية أميال الى قرية شيبات . كان السير بطيئا وصعبا وكان الجنود فى حالة من الإعياء والتعب اضطر القائد الى وقف الاستمرار الى حوش الجريف ، خاصة أن بعض الأفراد قد ضلوا من بقية الفرقة ووصلوا فى حالة يرثي لها من الإعياء .

وعليه لم تصل القوة لحوش الجريف حتي أول أغسطس . عندما اضطرت القوة بعد ابو حراز إلى الابتعاد عن مجري النيل لمسافة خمسة أميال ، افادت الراحة إذ استطاعت القوة تعويض التأخير فيما حققته لاحقا .

تحركت القوة مرة أخري بالليل وعسكرت بالنهار فى سالمي . استمر السير فى الساعات الأولي من صباح اليوم التالى . كان من المستحيل استمرار مدافع المكسيم المحمولة على عجلات أن تستمر فانحرفت داخل الصحراء لمسافة ٢٨ ميلا لقطع نفس المسافة التي قطعتها القوة وهي ١٠ أميال . وحتي لاتصل المدافع الى داكفىل بدون حماية سبقها القائد "هنتر" الذي تحرك مع الفرقة السودانية الرابعة فى الساعة ١١ مساء اليوم السابق. لقد وصلت الحملة بعد أن قطعت مسافة ١٨ ميلا من الرمال الموحلة الى قرية الكاب . جاءت طلقة واحدة من الشاطئ المقابل لمجرد ان دخلت القوة القرية الكاب دلالة واضحة ان أمر

الهجوم القادم قد انكشف لدي الدراويش . استمرت القوة المنهكة فى التقدم ومعها خطوط مواصلاتها باعجاب ، رغم معاناتها القاسية .

استهلكت الليالى فى السير ، لم يستطع الجنود التقدم بالنهار لانعدام الظل ، وصل الارهاق بكل الرتب حدا جعل بعض الجنود يسقطون أثناء السير ليلا ويغطون فى النوم العميق الى ان يحضر من يوقظهم بلهجة أمر حادة . استمرت المسيرة مسرعة حتي وصلت خولة بعد مسيرة ١٤ ميلا. انضم اليهم فى هذه النقطة الشيخ " عبد العظيم " ومعه ١٥٠ رجلاً من العبابدة على ظهور الجمال . توفى ثلاثة مصريين من إرهاق الرحلة وتركت القوة ٤٨ رجلا أنهكهم السفر مع مخازن المؤن ، صرفت كميات من اللحمة كتعيين مضاعف لكل أفراد القوة وواصلت السير حتي وصلت الى الجنيفاب الساعة الثامنة من صباح يوم ٦ أغسطس . وجاءت اخبار من العدو كانت مزعجة، اتضح منها عزم " محمد زين " للقتال وأن هناك نجدة كبيرة أرسلت من بربر لتدعيم الحامية فى أبو حمد .

بالرغم من المسيرة الطويلة المرهقة قرر الجنرال " هنتر " الإسراع، وكان قد عوض اليوم الذي ضاع عند أبو حراز وأراد أن يقدم برنامج خططه وعليه استمرت القوة فى السير كل ليالى يوم ٦و٧ و لم يتوقف فيها الا لساعة ونصف حتي يهاجم أبو حمد عند الفجر . وصل الى الجنيفاب فى الساعة الثالثة والنصف صباحا وهي تبعد ١٤٤ ميلا من الكاسنجر وعلى بعد ميلين فقط من العدو . أمر براحة لمدة ساعتين حتي تستعد القوة ، ترك الكتيبة المصرية الثالثة لحراسة خطوط مواصلاته و الإمدادات وتحرك بباقي القوة نحو موقع العدو .

ترقد قرية أبو حمد على شاطئ النيل تتكون من مجموعة من بيوت الطين تتخللها بعض الأزقة والطرقات الضيقة ، طولها حوالى ٥٠٠ ياردة وعرضها ١٠٠ ياردة ، وعلى الناحية الشمالية والجنوبية لبعض بيوت الطين المتهدمة وكميات من الحجارة فى المنطقة الجنوبية .

يحيط بالقرية من ثلاث جهات مرتفع لمسافة ٣٠٠ ياردة ، فى أعلى هذا المرتفع ثلاثة أبراج بنيت من الحجارة كان قد شيدها الجنرال " غردون " .

احتلت الأبراج بعض أفراد الدراويش للمراقبة وتمركزت قوتهم فى الخنادق والاستحكامات داخل بيوت الطين ذات النوافذ المفتوحة .

انحرفت القوة شمالا ثم استدارت يمينا حتي تكون فى اتجاه النهر وتحرك اللواء" هدوء" نحو مواقع العدو وقد احتلت المرتفع فى الساعة السادسة . على اليمين ، المدفعية على شمال شرق القرية تتبعها بقية الفرقة المصرية الثالثة ، السودانية الرابعة فى الوسط والخامسة على شمال القوة ، تراجعت قوة الدراويش التي كانت عند نقاط المراقبة فى الأبراج عندما تحرك الجيش القادم ، عندها ظهرت كل القرية من المرتفع أمام أفراد القوة الغازية .

بدأت خيوط الفجر الأولي ، ارتفعت شبورة بيضاء على سطح النهر الرمادي وظهرت ملامح القرية بوضوح ومنازل الطين على خلفية المنظر . جسم أفراد قوة الدراوش داخل الخندق الذي حفر حول القرية ، أما الفرسان الذين قد يربو عددهم المائة فارس أسرعوا بجيادهم لاحتلال المنطقة المرتفعة الجنوبية حيث كتل الحجارة وخلفها أراض رملية أكملت سلسلة التلال على شكل حدوة الحصان والخط الأسود من القوات الصورة . فى هذا المسرح الدائري الصغير سوف تعرض دراما حربية صغيرة .

عند الساعة السادسة والنصف فتحت المدفعية نيرانيها على بيوت الطين وبعد بضع دانات أمر القائد هنتر بالتقدم الكامل فى تشكيل رائع ، الكتائب الثلاث السودانية مع القائد هنتر والمقدم ماكدونالد وبعض الضباط البريطانيين على ظهور جيادهم فى الخط الأول ، تقدموا ببطء نازلين من التلال وصبوا نيران رهيبة على الاستحكامات . المسافة لم تكن بالكاد ٣٠٠ ياردة وقبل منتصفها اضطرت الفرقة السودانية الخامسة للتوقف حتي تتفادي نيران الفرقة السوادانية السادسة من على اليمين . صمت الدراويش حتي أصبحت القوة على بعد ١٠٠ ياردة عندها فتحوا مجموعة تليها مجموعة أخري على القوة الواقفة وكانت ذات اثر كبير توفى الرائد سيدني والنقيب فىتزكلارنس،و ١٢ جندي فى الحال وجرح اكثر من خمسين من أفراد القوة .

هجمت القوات السودانية على استحكامات الدراويش وطاردهم داخل بيوت الطين وهي تطلق صيحات عالية واستمر القتال فى الشوارع، ولم يتوقف حتي وصلت القوة الى شاطيء النهر فى الساعة السابعة والنصف وهي منتصرة وهكذا استولي الجيش المصري على ابوحمد. وتراجعت خيالة الدراويش الى بربر عندما رات انتصار القوة ولم ينج أحد من المشاه.

أسفرت المعركة بالإضافة الى قتل الرائد سيدني والنقيب فى تزكلارنس البريطانيين الى قتل ٢١ من الجنود الأهلية وجرح منهم ٦١ جنديا أرسلت أخبار سقوط أبوحمد عن طريق الجمال والاسلكي الى من يهمه الامر واصدر السردار الذي كان يترقب الأخبار أوامره للبواخر كي تبدأ الاستعداد لعبور الشلال الرابع، وكذلك لخط السكة حديد كي يواصل العمل وبدأ الخط ينمو بخطوات سريعة .

أما الدراويش الذين جاءوا مسرعين من بربر لتقوية الحامية فى أبوحمد فقد قابلوا فلول القوة المنسحبة على بعد ٢٠ ميلا من أبو حمد وعليه عادت أدراجها وانسحبت الى الشلال الخامس لبضعة أيام ثم واصلت انسحاها. كان موقعهم من ابوحمد يظهر قصر الوقت الذي كان متاحا لجنرال هنتر، ويؤكد صحة تقديره وصواب قراراه بالاسراع فى المسيرة. وصلت أخبار سقوط الحامية المتقدمة لأمير بربر يوم ٩ مارس فأرسل للأمير محمود الذي أفاد يوم ١١ أنه قادم بكل جيشة لنجدة بربر ولكن كان واضحا انه لن يستطيع التحرك بدون أوامر من الخليفة إذ كان مازال بمعسكره حتي يوم ٢٠ وظل سؤال أمير بربر عن أخبار الترك وكانت للحقيقة الأخبار كثيرة .

بدأت يوم ٤ أغسطس محاولات عبور البواخر التيب والتامي للشلال الرابع حتي تنزل الى النهر عند أبوحمد بربر. كانت العملية تحت قيادة الرائد ديفيد وتولي قيادة الباخرتين النقباء هود وبيتي من سلاح البحرية الملكية. كان ٢٠٠٠ فرد من الفرقة المصرية السابعة قد حملوا على صنادل لكي يساعدوا فى تعدية البواخر عند النقاط الصعبة لأن التيار كان قويا وتركت ثلاثة صنادل تتحمل ١٦٠ جنديا عند حافة الشلال .

لم يكن هذا المانع من الموانع التي تعتبر جبارة وعلى أية حال قرر الرائد ديفيد بدأ العملية وبدأ فى اليوم الخامس محاولة عبور التامي فأحضر ٣٠٠ فرد من قبيلة الشايقية، وترك أمر توجيههم لاثنين من المصرين أو على الأصح سوء توجيههم إذ لم توضح لهم الأوامر ماهو المطلوب بالضبط ودخلت التامي الشلال وماكينا تها تدور بسرعة كاملة وما إن وصلت الى نصف المسافة حتى اندفعت المياه القوية وجرفتها فدارت مقدمتها دورة كاملة وكانت بين قوسين أو أدني من الفرق لولا جرفها التيار القوي بعيدا الى مجري النهر .

ظن الضابط أن الفشل يرجع لقلة القوه أو التحكم فى السلبة التي تربط الباخرة- تم جلب ٤٠٠ فرد إضافيين من الشايقية وبدأت عند العصر محاولة تعدية التيب كان حظه، أسوأ بكثير من التامي. فقد كان انعدام التعاون والنظام وسط المجموعة التي كلفت بحمل السلبة (الحبل) وعدم وضوح التعليمات سببا فى ضعف القوة الجاذبة وعدم تصرفها كما يجب، وهكذا اندفعت المياه فوق سور الباخرة الحصين حتى غطت أرضية المركب بالكامل وفى لحظات دارت مقدمة الباخرة دورة كاملة قبل أن تنقلب رأسها على عقب ولم يظهر منها غير أسفلها هنا ترك الرجال الحبل تحت ضغط قوة الاندفاع وجرفت التيب مع التيار الى مجري النهر . قفز النقيب.بيتي وبعض البحارة وسقط البعض الآخر فى المياه الفوارة وزبدها الأبيض وجرفهم التيار الى مجري النهر الرئيسي تلقفتهم التامي التي كانت لحسن الحظ فى حالة تشغيل ومكنتها دائرة. كانت نجاتهم معجزة اذ من كل العدد الذي سقط وقفز للماء غرق مصري واحد واعتبر اثنان فى عداد المفقودين. حجزت بعض الصخور الباخرة "التيب" الغارقة فذهب الضابط والبحار على ظهر التامي للنظر فى امر انقاذها كان أسفلها فقط ظاهرا فوق سطح الماء وبدأ للجميع ان اصلاحها سوف يستغرق شهرا على الأقل. فى اللحظة التي قرر فيها الضابط ترك الباخرة سمع - خبط على هيكل الباخرة من الداخل .

لهذا احضرت الآلات وتم رفع الصاج فخرج بالسلامة وصحة تامة مساعد المهندس والعطشقي من المخبأ الذي ضمهما. إذا اخذنا فى الاعتبار انقلاب الباخرة والماكينات دائرة، والغلايات ملأي ومع الظلام الذي ساد والمياه المرتفعة تبقي نجاة مساعد المهندس والعطشجي تجربة لايمكن ان تنسي وامر عجيب حقا .

تم البحث عن ممر آخر وقد وجد على الجانب الأيمن للنهر وصلت الباخرة "المتمه" يوم ٨وعلى ظهرها ٣٠٠ فرد من القوة المصرية السابعة هذه المرة استغرقت الاستعدادات ثلاثة أيام وانتظرت الحملة حتي ارتفعت مياه النيل قليلا فى يوم ١٣ عبرت "المتمة" بسلام ورست على الشاطي تبعتها"التامي" فى اليوم التالى فى يوم ١٩ ، ٢٠ عبرت البواخر "الفتح" "الناصر" و"الظافر" وهي أقوي باخرة على النهر. فى هذه الأثناء كانت المتمة التامي قد

واصلت الملاحة لأعلى النهر. فى يوم ٢٣ عبرت الباخرة غير المسلحة دال ووصـــل كـــل الأسطول النهري بسلام لأبوحمد يوم ٢٩ .

تطورت الأمور بشكل سريع بعد وصول البواخر الحربية. فأخبار الهجمة السريعة علـى أبوحمد قد أربكت كل حسابات الدراويش، وعندما شعر زكي عثمان أميربربر بعدم تقدم محمود لنجدة بربر انسحب هو وقواته وترك بربر يوم ٢٤ واتجه نحو الجنوب. عندما علـم القائد هنتر أرسل فرقة استكشاف من ٤٠ من العبابدة وعلى رأسهم عبد العظيـم شـيخ العبابدة وشقيقة أحمد بي خليفة على ظهور الجمال الى بربر لاستجلاء الأمر. شقت هـذه الزمرة الشديدة البأس طريقها الى بربر والتحمت مع دورية من الدراويش ودخلت بربر. فى الطريق وجدوا الأهالى فى كل مكان مرعوبين أو يائسين فنشروا بينهم حكايات مرعبة عـن الجيش القوي القادم، ولم يكن هناك أي أفراد لقوة الدراويش فاحتل عبد العظيـم شـونة الحبوب باسم الحكومة وارسل للقائد يخطره بما فعل وفى انتظار التطورات .

وصلت الأخبار المدهشة عن سقوط بربر للقائد هنتر يوم ٢ سبتمر ففارق مـروي فى الحال. واجه سير هيربرث كتشنر سؤال مهم هو هل يحتل بربر ؟ فى أول الأمر بـدأ هـذا الاحتمال واردا خاصة إذا عرفنا أن هدف الحملة هو أم درمان وأن احتلال فرقة مصريـة بربر سوف يؤمن طريق سواكن على الفور والمعروف أن بربر هي ميناء مفتوح للملاحـة لعاصمة البلاد. احتلال بربر سوف تكون له آثار نفسية بالغة على كل سكان المناطق النيلية بل كل أنحاء السودان. لأن بربر هي أخطر نقطة استراتيجية على كل طريق الزحف وهاهي تعرض نفسها كجائزة عند الطلب .

كانت الاحتمالات الأخري رهيبة ،إن احتلال أبوحمد كان نقطة تحـول خطـيرة فى مسيرة التقدم والزحف. فالمنطقة من مروي الى كل الحاميات فى دنقلا أصبحـت مواقـع حصينة، ويمكن الدفاع عن كل الخط من أبوحمد حتي الدبة بسهولة ويمكن تحصين أبوحمـد بحيث تصبح قلعة منيعة ضد أي هجوم للدراويش. والقوات الموجـودة فى دنقـلا يمكـن تركيزها لحماية أي نقاط ضعف فى هذه المرحلة من الحملة. لعله من المناسـب أن يقـف الزحف بكل سلامة وينتظر بينما يضعف موقف الخليفة فان خط السكه حديـد سـينمو

وبمجرد أن يصل الى نقطة تكون زاوية للنهر عند ابوحمد يمكن للزحف أن يستمر بحذر وحسابات مدروسة .

لكن احتلال بربر يعرض القوة الى جيش محمود وقواته المنتصرة المرابطة فى المتمة وأيضا يجعلها على مسافة بسيطة من عثمان دقنة الذي يحتل ادراما مع قوة تبلغ ألفى محارب هذا بينما كان خط السكة حديد لايزال يترنح فى الصحراء وإرسال قوة من دنقلا للمحافظة على بربر سوف يضعف الموقف فى دنقلا، إضافة الى أن وجود الدراويش فى المناطق الداخلية تحت زاوية أبو حمد يمكنه أن يهدد خطوط امدادات الجيش مما يجعلة يعتمد على مؤن تحملها الجمال عبر الصحراء من مروي ونظرة سريعة للخريطة تبين خطورة هذا الموقف. إن دخول بربر سوف يؤثر على مجري الحرب باكملها وربما اضطررت القوات للدفاع عن وجودها إذ قطعت خطوط مواصلاتها. احتلال بربر لن يكون كمعركة حربية شبيهة بمعركة الحفير أو ابوحمد مع ترجيح كفة الجيش المصري من حيث العدد لكنها ستكون معركة متكافئة. ان وجود قوة بريطانية ضرورة ملحة لمثل هذه المعركة ولكن تحت تلك الظروف لايوجد احتمال بالحصول عليها. أما إذ تقرر التقدم واحتلال بربر قبل وصول القوة البريطانية إليها مستكون مخاطرة متروك امر نجاحها للظروف. لقد نجح حتي الآن السردار وبسلام شديد فهل ينتظر فى سلام أم يجازف للخطر؟ كانت الحالة غير واضحة المعالم وانتظر الضباط الذين خدموا فى الجيش المصري لمدة طويلة بحثاً عن حل لهذه المعضلة انتظروا القرار بلهفة وترقب وتحمل السردار والقنصل العام المسئولية معا. الى أن تسلم القائد هنتر أمراً بحتلال بربر فى الثالث من سبتمبر.

بدأ على الفور بقوة ٣٥٠ من الفرقة السودانية الرابعة على ظهر البواخر "التامي" "الظافر" "ناصر" و"الفتح" عند صباح يوم ٥ سبتمبر رفع العلم المصري على المدينة بعد أن تم إنزال أفراد المشاه فى المدينة وواصلت قطع الأسطول النهري الملاحة جنوبا لملاحقة الأمير. الذي تمكنوا من اللحاق به فى اليوم التالى على شاطيء النهر فى حالة فوضي وعدم انتظام سير هو ومعه فلول اللاجيئين. فتح الأسطول نيران مدافعه وفرق شملهم فهرب الجميع خيالة وراجلين الى الصحراء بعيدا عن نيران الأسطول. ورجعت البواخر الى بربر بعد أن غنمت دستة مراكب محملة بالحبوب وهي خسارة كبيرة للعدو ومكسب كبير للجيش. فى هذه

الأثناء لهذا قرر السردار زيارة الجبهة شخصيا فسافر من مروي عبر الصحراء مـــع بعــض الحرس الى أن وصل الى مشروع البقارة وعبر النهر الى بربر يوم ١٠ سبتمبر. وبعد ان فتــش الخطوط الدفاعية واصل سيره ورجع الى أبوحمد فبدأ التحضير للتطورات القادمة التي يعلـــم أنها قادمة لامحالة وفى غضون الشهور القليلة المقبلة .

الفصل العاشر

بـــربـــر

تقع مدينة بربر على مسافة قصيرة من النيل على يمين مجرى موسمي ، يمتلئ بالمياه عنـــد حدوث الفيضان . بين هذا المجرى والنهر يمتد شريط من التربة الغنية التي يغذيها الفيضـــان كل عام بالطمي المخصب للأرض . عند انحسار مياه الفيضان تمتلئ هـــذه الرقعـــة بشـــتى المحاصيل أغلب أوقات العام . وقد حدد هذا الشريط الخصيب حدود بربر إذ أنها تمتد معـه على مسافة تزيد على سبعة أميال . تماما كبقية قرى النيل فانها ضيقة ، عرضها لا يزيد على ثلاثة أرباع الميل . هناك طريقان يشقان القرية طوليا من الشمال الى الجنوب تتفرع منـــهما الأزقة والحواري والطرق الفرعية التي أما إن تتجه الى الصحراء او الى النيل . بقايا مدينـــة بربر أيام المصريين ترقد على جنوب الطرق الرئيسية بينما شيد الدراويش المدينة الجديــــدة على شمال الطرق كلاهما كريه وغير صحي. وإن بدأت بربر القديمة كالأطلال فان المدينـــة الجديدة لا تفوقها فى شئ وتبدو للناظر كأنها فى حالة انهيار . التصميم الهندسي يكاد يكـون مطابقا . يتم البناء بطريقة سهلة وبسيطة . تحفر حفرة كبيرة يستعمل التراب فى عمل الطين لبناء الجدران ثم تسقف بأغصان الشوك والجريد والسعف من أشجار الـــدوم والنخيـــل . هكذا كانت تبدو بربر "مركز السودان التجاري " كما كان يسميها المتحمسون كان بهـــا عند استيلاء الجيش المصري حوالى ٥٠٠٠ رجل و ٧٠٠٠ امرأة يفتقـــرون لاي ممتلكـــات كافتقار بيوتهم لاي رونق حسن(١) .

تكونت الحامية المصرية فى بربر فى الايام الأولي من ٣٥٠ رجلا من الفرقة الســـودانية الرابعة بالإضافة للفرقتين هجانة التي وصلت يوم ١٦ سبتمبر عبر طريـــق الصحـــراء مـــن مروي. كان من الضروري تقوية الحامية نسبة لقرب موقع عثمان دقنة فى ادراما .

فى أواخر سبتمبر تحركت قوة ماكدونالد، كل اللواء ما عدا نصف الكتيبـــة المصريـــة الثالثة تحرك جنوبا من أبو حمد حتى وصلت القوة مع نهاية الشهر لثلاث ونصف كتيبـة . فى ١١ أكتوبر وصلت الفرقة السودانية الثالثة عشر وباقى نصف الكتيبة المصرية الثالثة وهكذا

بلغت القوة فى حامية بربر خمس كتائب (الثالثة ، الرابعة ، الخامسة ، السادسة ، والثامنة) مع الفرقة الثانية مدفعية ميدان وفرقتى الهجانة .بعدأن تراجع الدروايش عن يمين شاطئ النيل واتجهوا جنوبا رئي أن ترسل قوة هجانة بصحبة جماعة الأعراب الحلفاء الى الدخيله ، على ملتقي نهر عطبرة ونهر النيل.كانت هذه البداية المتواضعة هي نواة تطور عطبرة الى استحكامات عظيمة فى وقت قصير .

كان لاحتلال بربر أثر كبير على القبائل التي تعيش حول سواكن فقد عاد الهدوء وولاء القبائل بعد أن عم السلام وانتهي نفوذ عثمان دقنة، و لم تعد هناك غارات على القبائل الخليفه. أصبح حاكم المدينة اسما على مسمي حاكم ساحل البحر الأحمر وفتح الطريق من سواكن الى بربر، وجاءت فرقة هجانة بصحبة بعض قوافل التجار ومجموعة من المراسلين الاجانب الذين يحق لهم أن يعلنوا أنهم أول أوروبيون يسلكون هذا الطريق بسلام منذ ١٣ سنة .

لعله من الضروري الآن أن نلقي نظرة على العدو .لو أن الخليفة قد سمح لمحمود بالتقدم للدفاع عن بربر ، لكان قادراً على الدفاع عنها بجيشه القوي ، وكان سير الأمور سيكون مختلفا تماماً . بعد سقوط أبو حمد ، كان من المحتمل أن يتاخر التقدم حتي يصل خط السكة حديد إلى النهر أوربما تاخر الهجوم لعام كامل . ولكن كما جاء ذكره فى الجزء السابق، الاستيلاء المفاجئ لأبوحمد وهروب القبائل النيلية ثم ظهور البواخر الحربية بعد الشلال الرابع كل هذا قد اوحي للخليفة أن المعركة الفاصلة قادمة وأن الجيش الغازي لابد واصل الى عاصمته .

لذلك كرس كل جهده فى عمل استحكامات دفاعية ومنع أي من قواده من أي نشاط هجومي شمال المتمة . كانت النتيجة سقوط بربر وقد اكد هذا للخليفة ان قراراته كانت صائبة !! سار العمل بجهد مضاعف فقد تم بناء طابيات للمدافع فى سور على طول ضفاف النهر المواجهة لمدينة أم درمان ، وتم حشد القوات من القضارف ، كردفان ، ودار فور .

كميات كبيرة من الحبوب والجمال والمؤن الأخري يتم جمعها من منطقة الجزيرة (الأرض الواقعة بين النيل الأزرق والنيل الأبيض) وتم تخزينها فى المدينة. كان عدم الرضا

واضحاً لدي القبائل لهذه الضرائب الاضافية ولكن لم يشفع لهم ، وكان الرد حاسماً من الخليفة وهو أن الكل يجند في سبيل المعركة .

تم تجنيد أفراد القبائل المتضررة وأجبروا على التمارين العسكرية بانتظام، الخليفة شريف الذي اتهم بتعاطفه مع قبيلة الجعليين أدخل الى السجن وأي عصيان قوبل باشد العقاب ، ثم فرض حصار على المدينة ومنع أي اتصال بالشمال مما صعب وصول المعلومات للجيش المصري .وبالرغم من حدوث تمرد صغير في كردفان بعد انسحاب محمود وجيشه إلا أن الأحوال كانت هادئة وتمت السيطرة الكاملة للخليفة الذي استطاع ان يجهز القوة الباقية لمواجهة هجوم الأعداء المتوقع .

في الأسبوع الأول من اكتوبر قرر السردار إرسال البواخر الحربية التي تمركزت بصعوبة خلف وبعدالشلال الخامس ، لكي تمسح منطقة المتمة وتستكشف قوة وموقع جيش محمود. في يوم ١٤ أرسلت البواخر "الظافر" و "فاتح" و"ناصر" للملاحة جنوبا من بربر تحت قيادة القمندان كيبل، وحملت كل باخرة بالاضافة لطاقمها من البحارة المحلين ، ٥٠ فرداً من الكتيبة السودانية الرابعة ،واثنين ثاوشية بريطانيين من مدفعية البحرية . بمجرد طلوع الفجر تحرك الأسطول نحو مراكز العدو،وكان الصمت شاملا للدرجة التي فاجأت قوة صغيرة من الدراويش في النقطة المتقدمة وهم نيام . استيقظوا على أصوات طلقات مدافع المكسيم وليشاهدوا هذه الماكينات الفظيعة وهي تحاصرهم . واصلت البواخر الملاحةصوب شندي ولم تابه لبعض الطلقات التي جاءت من اطلال شندي ووصلت الى مشارف المتمة حوالى السابعة ، على مدي النيران ،كانت المدينة تبعد بحوالى ١٠٠٠ياردة من النيل، ولكن كانت هناك ٦ طابيات من الطين بها مدافع علىطول الشاطي للدفاع عنه . ابتعدت البواخر الى الجهة الشرقية للنيل حتى تبعد عن مدي نيران مدفعية الدراويش. ومن على بعد ٤٠٠٠ يادرة بدأت البواخر الضرب المركز واستهدفت أول طابيتين وشوهدت اجزاؤها تتناثر في الهواء ، رد الدراويش النيران ولكن لم تكن بالفعالية المؤثرة، لقد وصلت دانه الى سطح "الظافر" وقتلت جنديا سودانيا ووصلت دانتان الى " الفتح" واستمر القذف لمدة ساعة تحرك بعدها التشكيل النهري الى الجهة الأخري للعدو وامطرت باقي الطابيات حتى اسكتتها تماماً .بدأ بعض أفراد القوة التي كانت عند الطوابي وبعض الخيالة من البقارة في الركض بجيادهم على

ضفاف النيل وكانوا هدفا سهلا لمدافع المكسيم التى لحستهم رغم المدي البعيد . بمجرد أن عبرت البواخر منطقة الطابيات توقفت نيران الدراويش لصعوبة توجيه المدافع الثابتة. نحو الجنوب وعرف القادة أنهم فى أمان ولكن بينماهم يهنئون أنفسهم فجأة جاءتهم مجموعة من الرصاص يطلقها حوالى ٢٠أو ٣٠ درويشاً من مخبئهم قرب الشاطئ تحت ظلال اشجار السنط، و لم يصب أحد بالرغم من انهمار الرصاص . دارت مدافع المكسيم على محاورها وامطرتهم بسيل دامي انتقاماً لفعلتهم . تعدت البواخر حدود المدينة وأكملت استكشافها ثم رجعت مع ٦مراكب حاملةللحبوب كغنيمة. فى طريق العودة تبادلت إطلاق النيران مع الدراويش ووصلت الى جزيرة صغيرة تبعد ٦ أميال من المتمة حيث رست لقضاء الليلة .

كانت النيران قد أوقفت تماماً منذ الساعة الثانية والنصف ظهراً .

كان واضحا أن تبادل إطلاق النيران كان ممتعاً ومثيراً وعليه قرر الأسطول الصغير تكرار التجربة، وتحركت القطع صباح اليوم التالى فى الرابعة صباحاً حتي اخذت موقعها قبالة المتمة قبل طلوع الشمس. مع طلوع الفجر بدأ تبادل أطلاق النيران وظهر فجأة أن الدروايش كانوا فى حالة من النشاط بالليل . عندما أحس محمود بأن توقعاته لهجوم قادم من جهة آبار جقدول غير وارده ، أحضر المدافع التي كان قد وضعها على الشاطي الشرقي مع قوات لملاقاة العدو والتعامل معه احضرها الى الطابيات وبني طلبيتين اضافيتين، وهكذا تسني للدراويش ١١مدفعا من ثمانية مواقع صغيرة. لم تكن لنيرانهم فعالية و لم تسبب أي خسائر للاسطول الذي استمر تفوقه لليوم الثاني على التوالى والحق خسائر جسيمة بأعدائه . بعد أربع ساعات من الضرب المركز أمر القائد كيل الأسطول بالانسحاب .بالرغم من خسائرهم الكبيرة، هلل الدراويش لمنظر انسحاب الأسطول واستمروا فى إطلاق النيران عليه حتي غاب عن الأنظار . بينمايواصل الضباط انسحاهم فجأة شاهدو منظراً غريبا ومختلفا تماما من الطابيات عديمة الفعالية ، شاهدو جموع غفيرة تتحرك واعلام ترفرف فوق التلال الرملية خلف القرية . ظهر جيش الدراويش بالكامل حوالى ١٠,٠٠٠ مقاتل من خيالة ومشاة ينشدون الاناشيد وأهازيج النصر ، لكنه كان نصرهم الوحيد ..! .

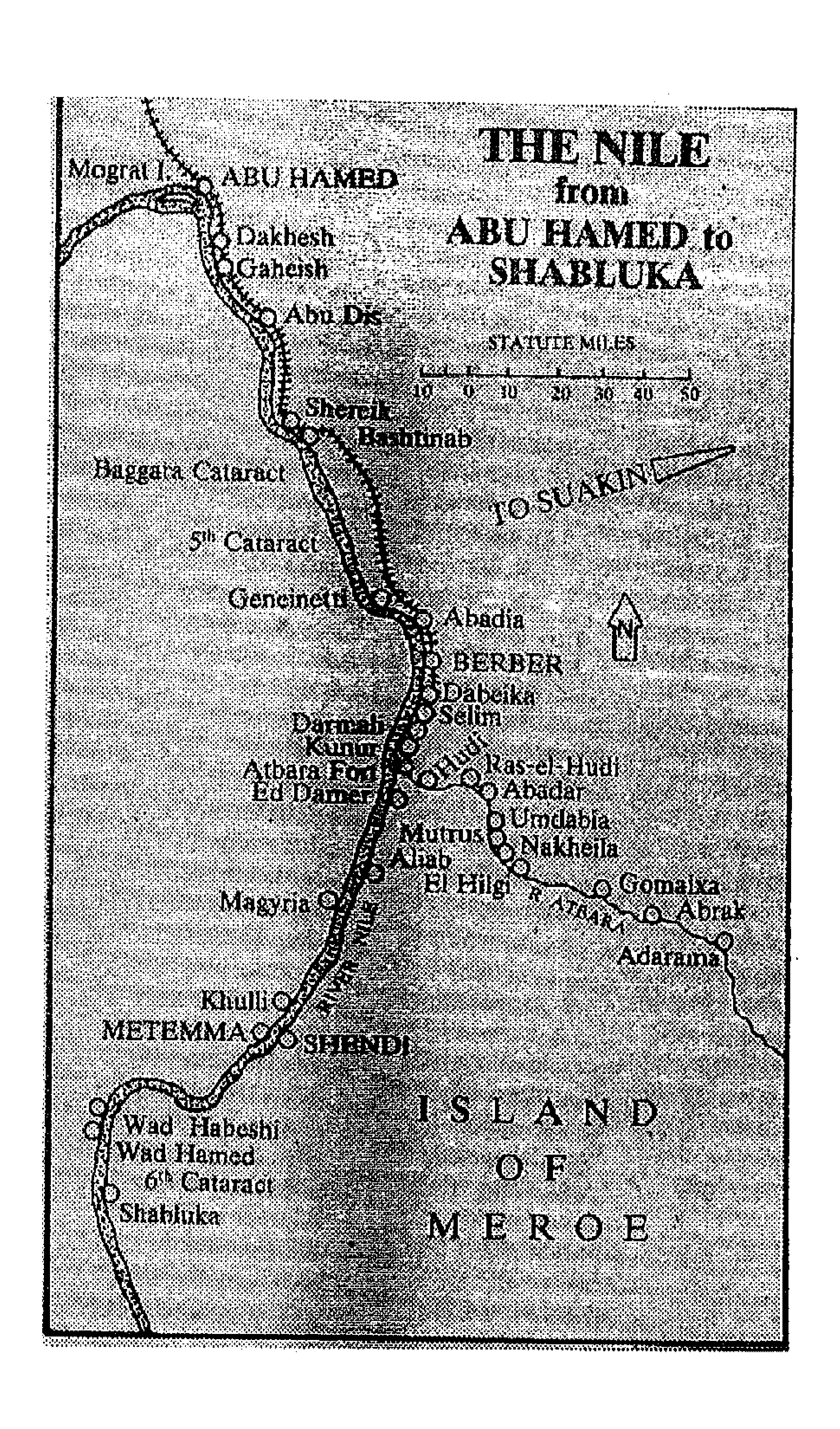
كانت الخسائر بالنسبة للأسطول قتيل واحد ، الجندي السوداني الذي توفى متأثراً بجراحة وبعض الإصابات الخفيفة بينما بلغت خسائر العدو من المذبحة حوالى ١٠٠٠ قتيل

أو إن لم نرد المبالغة تصف هذا العدد. استخدمي في يومي القتال ٦٥٠ دانة مدفع وبضع آلاف من رصاص المكسيم الرشاش . رجع الأسطول الى بربر وتم الإبلاغ عن مواقع العدو وقواته .

بمجرد أن أحكمت القوات المصرية قبضتها بعد احتلال بربر بدا لعثمان دقنة خطورة موقفة في ادراما وعدم جدية بقائة هناك، وكان محمود قد كرر طلبه له للانضمام إليه وبالرغم من كرهه الشديد للقائد الكردفاني لسوء استعمال سلطاته، فان للضرورة أحكام، هنا أخذ قوته المكونة من ٢٠٠٠مقاتل هدندوي وسارشمال نهر عطبرة حتي وصل نقطة يضيق فيها النهر مما يسهل عبوره وعبر مع جنوده وواصل الى شندي بكل سهولة . تم هذا أثناء هجوم البواخر على المتمة .

عندما بلغت السردار هذه الأخبار أراد أن يتحقق منها وأيضا لكي يدمر أي ممتلكات يكون قد تركها خلفه عثمان دقنة وراءه بعد انسحابة . أرسل في ٢٣ أكتوبر "فرقة طائرة"، تركت بربر مكونة من الفرقة الرابعة السودانية تحت إمرة الرائد جاكسون ٢مدفع ،فرقة هجانة وعبدالعظيم ومعه ١٥٠ من الحلفاء غير النظاميين بأسلحة خفيفة ، يحملون الإمدادات على ظهر ٥٠٠جمل تحت قيادة الجنرال " هنتر " وصلت الحملة لملتقي النهرين يوم ٢٤ وواصلت سيرها حتي وصلت اداراما يوم ٢٩ بعد أن قطعت ٨٤ ميلا . ثبت صحة الأخبارعن رجوع عثمان دقنة الى النيل . دورية من ٦٠ من افراد الهجانة استطلعت مسافة ٤٠ميلا على طول نهر عطبرة و لم تجد أثرا للعدو. أحرق معسكر عثمان دقنة عن أخره وعادت القوة الى بربر .

جاء نوفمبر وبدأت مياه النيل في الانحسار سريعا ، ظهرت شلالات على بعد أربعة أميال شمال ملتقي النهرين،سوف يصعب عبورها وكان لدي السردار مهلة قصيرة لكي يقرر ما إذ كان سيترك أسطوله النهري خلف هذا الشلال، وبالتالى تنعدم قدرتها على المناورة متي ظهر الشلال كاملا ،أو يحركها ويتركها جنوب الشلال ناحية العدو حتي يستطيع استطلاع مواقعه عند المتمة. في النهاية تقرر أن تعبر البواخر قبل فوات الآوان ولكن



THE NILE
from
ABU HAMED to
SHABLUKA
STATUTE MILES
10 0 10 20 30 40 50
N
TO SUAKIN
Mograt I.
ABU HAMED
Dakhesh
Gaheish
Abu Dis
Shereik
Bashtinab
Baggara Cataract
5th Cataract
Geneinetti
Abadia
BERBER
Dabeika
Selim
Darmali
Kunur
Atbara Fort
Ed Damer
R. Hudi
Ras-el-Hudi
Abadar
Umdabia
Nakheila
Mutrus
Aliab
El Hilgi
R. ATBARA
Gomaixa
Abrak
Adarama
Magyria
RIVER NILE
Khulli
METEMMA
SHENDI
Wad Habeshi
Wad Hamed
6th Cataract
Shabluka
ISLAND
OF
MEROE

بأي أعمال ضرورية لقطع الأسطول . لتأمين هذا الميناء الصغير فى الدخيلة ، تحركت نصف الفرقة المصرية الثالثة من بربر وأقامت فى معسكر عند الملتقي . بعد أسابيع قليلة لحقت باقي الفرقة الثالثة، وهكذا سوف يتحول هذا المعسكر الى سكنات جيش هائلة بعد شهور قليلة .

استمرت المناورات العادية بالنسبة للبواخر على طول رأس النهر وفى أول نوفمبر تحركت البواخر الثلاث ، الظافر ، المتمة وناصر وأبحرت جنوبا تحت قيادة كيبل . فى اليوم التالى لحقت بهم الباخرة "فتح". فى ٣نوفمبر ، طلعت البواخر قبالة التحدي ، طابيات العدو- أطلقت بعض القذائف ولكن تصويب الدراويش لم يكن مضبوطا كالعادة و لم تصب أي من البواخر. لوحظ أن قوة العدو لم تتغير إلا أن هناك ثلاث طابيات جديدة أقيمت جنوب المدينة . استمرت البواخر فى الملاحة جنوبا حتى وصلت واد حبيشي ،تراقبها خيالة العرب من على بعد على طول الشاطئ . بعد أن أتمت المناورة عادت البواخر متخطية الطابيات فى المتمة .

هذه المرة لم تمر البواخربدون خدش ، سقطت دانة على سطح الباخرة فتح وجرحت ثلاثة رجال .

لم تأت حادثة تعكر ملل شهر نوفمبر . استمر الخليفة فى استكمال استعداداته . بقى محمود بدون حركة ، بالرغم من توسلاته الكثيرة للتقدم والالتحام بالقوة القادمة عند بربر ، قوبلت بالرفض الدائم فاكتفى بالإغارة على بعض القري الواقعة يسار شاطئ النيل وسلب كميات كبيرة من الحبوب لإمداد شونة الحبوب لديه، استمر خط السير الجديد فى التقدم وكان لابد للمعاناة التي سببها الاحتلال المفاجئ لبربر لخطوط الامدادأن تنتهي وبتخف مع تقدم الخط . الهدوء الذي ساد بعد احتلال بربر كان فرصة بقرر ما كان غير متوقع. سعد السردار كثيراً أن مغامرتة لم تتعرض الى أي حادثة سيئة ، لم يهاجم أو يناوش، لذلك سافر الى كسلا ليعد الى استعدادها.

الموقع المميز لكسلا حيث إنها تقع على بعد نفس المسافة من أم درمان، بربر، سواكن ومصوع ، تربتها الخصبة تجعلها فى مصاف ارقي المدن فى شرق السودان كله . تربتها غنية جدا ، الطقس معتدل طيلة العام ما عدا أثناء موسم الأمطار ، وهو صحي جداً ، النسيم العليل بالليل يلطف حرارة النهار ووجود كميات وفيرة من المياه الجوفية على عمق أقدام

قليلة يعوضها عن وجود النهر . كان تعداد السكان عام ١٨٨٣ اكثر من ستين ألف نسمة، قدرها المصريون جداً وأقاموا بها حامية عليها ٣٩٠٠جندي .كان هناك مصنعـــا لنسـيج القطن به معدادت كافية وتصاعد الدخان من المدخنة يعطي إحساسا بـــالأمل فى التصنيـــع مستقبلا وأثبتت الورادات للخزينة أن هناك نشاطا تجاريا ملحوظا.ولكن جاءت الكـــوارث متلاحقة وعطلت ازدهار عاصمة الشرق الجميلة ، فى عام ١٨٨٥ سقطت حامية كسلا بعد صراع مرير،فى أيدي الدراويش ، كانت مذبحة ،من لم يقتل ضم إمـــا لزمـــرة الرقيـــق أو لجيش المهدية .انهارت المدينة ومعها النشاط التجاري .لأكثر من عشــــرة أعـــوام احتـــل الدراويش المعسكر والمباني المحطمة وأصبحت كسلا هي نقطة الحدود بالنسبة لهم . كـــان يمكن أن يبقي الحال كما هو عليه ، الى بعد معركة أم درمان لو اكتفى الدراويش بـــاحتلال كسلا ، ولكن قائد المنطقة لكي يثبت جدارتة اغراه طموحة بمهاجمة الايطاليين فى أغوردات فى أريتريا حتي بدون موافقة الخليفة . هاجم بقوتة المقدرة بحوالى ٨ آلاف محـــارب قلعـــة اغوردات المحصنة خلف الجبال وكان عدد القوة الإيطالية ٢٣٠٠جنـــدي بقيـــادة المقـــدم "اريمونديي".

بعد هجوم عنيف ،ولكنه بلا أمل تم صد الدراويش بعد أن خسروا ٣٠٠٠مقـــاتل فى المعركةعلى رأسهم قائدهم المتهور . كانت هذه المواجهة كارثة لإيطاليا كما هي كارثـــة للخليفة . كانت ضربة قوية للسياسة الأفريقية لدي سنيور كرسبي، وكذلـــك وتمشـــيامع سياستهم التوسعية فى الحبشة ،تقدم الايطاليون واحتلوا كسلا تحت قيادة الجنرال بارتـــيري من منطقة اغوردات . اعترفت مصر بهذا الاحتلال بدون التفريط فى الاحتفاظ بحقها وجـــاء ٩٠٠ جندي إيطالى وأقاموا معسكراً وقلعة حصينة . كانت الهزيمة المهينة لجنرال بارتيري فى معركة عدوة على أيدي الجيش الجبشي عام ١٨٩٦ الذي أباد قوة بارتيري ،وتلاها سقوط حكومة سينوركرسبي قد انهت اى طموحات افريقية لإيطاليا. وهكذا أصبحت تركة ثقلية، خاصة عندما شجع انتصار الأحباش الكبير الدراويش، وبداوا مهاجمة الحامية الإيطالية ، ممـــا اضطر الإيطاليين للدفاع والصمود بقوة للدفاع عن مراكزهم ، بالرغم من عدم حمـــاس أو رغبة حكومتهم فى هذا الأمر . هنا قررت الحكومة الإيطالية أن تعرض التخلي عن كســـلا للقوات المصرية، وقد قبل العرض وتمت الترتيبات اللازمة . كان تقدم قـــوات الخديـــوي

لاحتلال دنقلا أثره عليهجمات الدراويش، كما جاء ذكره. فقد احتل العرب بعض النقـلط حول نهر عطبرة وبالقرب من المدينة، واكتفت قواتهم بالاغارة فقط دون المواجهة، وصمـــد الطليان في موقف المدافع فقط ينتظرون بلهفة الفرصة لتسليم القلعة للقوات المصرية .

لم يجد السردار أي صعوبة في الاتفاق مع القائد الجنرال كانيفا لكي تحتـــل القـــوات المصرية الحامية، ويتم شراء الاسلحة والمعدات الموجودة بعد تثمينها وينضم أفـــراد القـــوة العربية غير النظامية المحاربة مع الطليان الى الخدمة في صفوف الجيش المصري. رجع السردار للنيل، حيث أصبحت الحالة فجأة حرجة .خلال شهر نوفمبر وترك العقيد بارسونز الفرقـــة ١٦ المصرية وبعض المدفعجية من الاهالي من سواكن ووصلوا الى كسلا يوم ٢٠ديسمـــبر. قوة الأعراب غير النظامية ، التي سوف نطلق عليها من الآن فصاعدا اسم "الكتيبة العربيـــة" والتي أرسلت على الفور لمهاجمة الدراويش في منطقتي الفاشر واصـــبري ،تمـت مفاجـــأة الدراويش واحتلت القوة هذه النقاط بدون أي خسائر .ان الضباط الايطاليين رغم مـــرارة اشمئزازهم من مجريات الأحداث ،عاملوا ممثلي مصر بكل احترام وتمت اجراءات التســـليم والتسلم على أن تنتهي في يوم عيد الميلاد "الكرسماس" .

احتفالية التسليم والتسلم تمت بمراسيم تستحق الذكر، كانت الطابيـــة علـــى شـــكل مستطيل جدرانها من الطين جوانبها سور كساتر وبه فتحات للبنادق . بـــالداخل الخيـــام والمخازن وفي الوسط تماماً مصنع النسيج ، كل الماكينات تحطمت و لكن شـــكل المبـــني الرئيسي رئاسة للطابية واستعملت المدخنة الطويلة كنقطة للمراقبة وعمود الإضـــاءة لرفـــع العلم.كانت بيوت الطين المهدمة على جنوب الطابية ترقد في حيرة ،خلفـــها سلســـلةجبال الحبشة السوداء .رفع العلمان الايطالي والمصري واصطف الجنود في طـــابورطويل تبـــادلا التحية العسكرية الواجبة وسارالحرس المصري لتسلم مواقع الجنـــود الإيطـــاليين ،عزفـــت موسيقي النحاس التابعة للكتيبة ١٦ بعض المارشات، وانزل العلم الإيطالي وباطلاق ٢١طلقة تمت استعادة كسلا بالكامل.

دعونا الآن نترك ولمدة سنة كاملة،العقيد بارسون وقوته الصغيرة ،مع حـــرب طابيـــة الطين في كسلا،يشغل نفسه برد غارات الدراويش وهو يرنو نحو القضارف آمـــلاً ان دوره

قادم لامحالة متى ما سقطت أم درمان .وتماماً كالسردار،على القاري أن يسرع الخطى الى النيل مرة أخرى.

عندما جاء آخر نوفمبر ، تحقق للخليفة أن الأتراك سوف لن يتقدموا إلا بعد سنة عند وصول فيضان النهر القادم وسوف تبقي القوة بالقرب من بربر ، وخط السكة حديد لايزال على بعد مسافة جنوب أبوحمد . الضربة قادمة لكنها تأجلت . عندما وصل الى هذا الاستنتاج أصبح أكثر استجابة لطلبات محمود المتكررة. كان يعتقد أن انحسار مياه النهر سوف تعوق تحرك البواخر جنوبا وان كل القوة الموجودة ببربر لا تزيد على ألفى جندي. لم يقدر القوة الكبيرة التي جاء بها خط السكة حديد مما ساعد اعداءه لحشد تلك القوة الهائلة، ففكر فى المبادرة بعمليات هجومية ولكن محمود يحب ألا يترك وحدة ، كل قوات الدراويش يجب أن تجهذ لطرد الغزاة .

تقرر أن تتحرك كل القوات الى الشمال. وبدأ حشد القوات فى كررى وتم معسكر كبيرفى كمررى ، جُمعت الاف الجمال وبدأت الاستعدادات للتقدم المهم. أرسل الخليفة سكرتيرة الخاص يبلغ محمود بالخطة واعدا اياه بكل الامدادات من عتاد وجنود. أعلن الخليفة حرب جهاد جديدة لطرد الكفار، وكان غريبا أن يوجه المجاهدين للنيل من الكفار وليس أفراد الجيش المصري ، كان واثقاً من الحرض الرئيسي لمهاجمته وتهديد دولته . كان عدد الأوربيين فى السودان فى هذه الأثناء حوالى ١٥٠ فرداً وكان لهم دور واضح ومعروفون للجميع .

كان السردار عائدا من كسلا عندما سمع إشاعة نية الدراويش بالهجوم ، فطلب من الاستخبارات سرعة التعامل لجمع أي معلومة فى هذا الخصوص ، عند وصوله لوداي حلفا يوم ١٨ ديسمبر تاكدت له الأخبار ، أن الخليفة ، ومحمود وكل جيش الأنصار وأمرائه سوف يتحركون شمالا . مما لا شك فيه أن هذه التحركات من جانب العدو سوف تؤثرعلى سير الحملة ووضح أن ثمة معارك لابد أن تدور حتى لا يجبر الجيش الغازي على التقهقر . كان رد السردار علىنوايا الخليفة الواضحة أن أمر بحشد القوات حول بربر، أبرق لورد كرومر طالبا لواء بريطانيا وقفل طريق سواكن بربر .

ظهر الآن وجود الأسطول النهري ناحية العدو فى حماية نصف لواء فقـــط فى منتـــهي الخطورة ، ولأن الأسطول لن يستطع أن يعود شمالا نسبة لانسحاب المياه تماما فى الشـلال ، كان مجبرا للبقاء حيث هو ومعه مراكز الصيانة التى أقيمت وأصبح حمايته بقوة كبيرة امـــر مهم. بالرغم من شعور السردار بضعف موقفه حتي على الدفـــاع إلا أنـــه وجـــد مـــن الضروروي ان يستمر فى التوجه جنوبا. وفى ٢٢ ديسمبر تحرك لواء لويس وكتائبه الأربـــع مع المدفعية عن طريق النيل الى ملتقي النهرين وبدا بسرعة اقامة معسكر حربي عند زاويـــة الملتقي، وهكذا ظهرت حامية عطبرة الى الوجود .

استمر حشد القوات ، كل القوة التي كانت فى دنقلا ما عدا أفراد قلائل تركوا لحراسة الحاميات فى كورتي والدبة ومروي ، ثم نقل القوات بالمراكب مع أسلحتها الى كرمة ومـــن هناك بالسكة حديد لحلفا وأسرع بها بخط سكة حديد الصحراء من وادي حلفا لأبوحمد، ثم واصلت الرحلة الى نهاية الخط الذي كان قد وصل فى أول يناير الى دقش . كل هذه الرحلة من مروي الى دقش استغرقت اربعة أيام ، بينما أخذت ثمانية أيام من الجنرال هنتر وفرقتـــة الطائرة ،برهاناً حقيقة، أنه فى بعض الظروف تكون زاويتا المستطيل معا هما أقصر من الضلع الثالث ، وهذا برهان لم يفطن له "أوكليد" عالم الرياضيات اليوناني القديم. وصلت الأوامـــر الى سلاح الفرسان المصري يوم ٢٥ ديسمبر ، فترك الضباط الانجليز غذاء عيد الكرسمـــاس مسرعين متجهين الى بربر عن طريق منحي النهر. وزعت الثمانية السرايا الثمـــاني بحيـــث أرسلت ثلاثة لتلحق بلواء لويس فى معسكر عطبرة ، أو ما عرف "بالعطبرة" ثلاثة انضمـــت للحشد الكبير فى بربر وبقيت الاثنتان فى دنقلا للوقت الحاضر، تراقبان أن الطريق القادم من آبار جقدول والمتمة بكل اهتمام وترقب .

ازداد قلق وزارة الحربية مع تطور الأحوال ، واحداث اعوام ١٨٨٤-١٨٨٥ مـــازالت حية فى الأذهان ،وأسرعت بارسال القوة البريطانية التي طلبـــت علـــى عجـــل،ممـــا يثبت الإمكانيات الجيدة لادارة العمليات عندما يستدعي الأمر الارتفاع لمستوي الحدث .

الفرق العسكرية ، كتائب الفرقة ورويك شير الملكية ،فرقـــة لينكـــون والكمـــرون هايلندرز تجمعت كلواء وارسلت من القاهرة الى الجبهة فى السودان .احضرت فرقة ســـي فورس هايلندرز من مالطا الى القاهرة فى حالة استعدادا للذهاب للجبهة بأسرع وقت .

وصلت فرق أخري تحل محل الفرق المسافرة للجبهة وذلك حتي لا تتأثر قوات الاحتلال بمصر.

الضابط الذي اختير لقيادة اللواء البريطاني كان الجنرال كاتاكري المشهور بالكفـــاءة ، عندما قاد لواء فى حملة شيترال فى الهند، وعندما كان يعمل تحت قيادة سير روبرت لو وسير بندون بلود. وقد اكتسب سمعة طيبة عندما اقتحم ممر مالكاند والمعارك اللاحقة في ســـهول خار ، تم ابدا اللواء مع لواء الجنرال كينلوخ وأرسل الى شيترال. ونقل الجنرال من جبـــال الحدود فى الشمال الغربي الى بومبي، حيث بدأ فى محاربة داء الطاعون الذي انتشر فى المنطقة وهكذا وحول مجهوداته من المعارك الحربية الى معركة محاربة الطاعون وعمل التفرقة اللازمة لعزل المصابين من بين الأصحاء . كان قدعين برجدار قبل اندلاع التمرد فى الحدود عنـــد الرشوط تجده الآن يرسل بسرعة للسودان. كان متوسط الحجم ، قوي البنيــــان دائـــب الحركة شجاع دائم القلق ، لا يعيبه إلا النشاط المستمر حتي يصيبة الإعياء ويكون ضحيـــة لطاقتة . احتشدت القوات الضاربة على طول النهر من أبوحمد حتي عطـــبرة و لم يتحـــرك الدراويش حتي هذه اللحظة .

تجمعت قوات الخليفة فى كرري وتمت الاستعدادات لكن ظهرت على السطح مســـألة القيادة . كان الخليفة قد اوعز لامراءيه أنه سيعلن بأنه سيقود الحملة بنفسه، ولكن عليـــهم الالحاح عليه بعدم اتخاذ مثل تلك الخطوة حتي لا يعرض قداسته لمثل هذه التجربة . التفـــت الى قواده فتقدم الأمير على ودحلو لنيل هذا الشرف الكبير بالنسبة لأهل السودان . فاجـــأ الخليفة الامير ودحلو بأن القوة سوف تذهب بدون بنادق لعدم وجودها، وأن هذا لن يؤثـــر لن فى شئ . رأى ودحلو أن الأمر خطير وسحب ترشيحه للقيادة فتقدم عثمان شيخ الدين، إذا سمح له بتسليح القبائل النيلية وضمها لقوته ، هنا اعترض يعقوب بشدة واصفـــا تلـــك القبائل بالخيانة وانهم كلاب لا تستحق إلا الذبح، واسترسل فى وصف طرق التعذيب الـــتي يمكن أن تتبع مع أفراد تلك القبائل .

استمرت المناقشة والنزاع ، عندما يئس الخليفة من حل الاشكال قرر أن يرسل مـــدداً عسكراً فقط لمحمود يتكون من ٥٠٠٠ مقاتل تحت قيادة يونس .اكتشف أن محمود لايطيق

يونس ولن يقبل أي تعامل أو تعاون معه. أمر الخليفة بفض المعسكر ورجع الجيش للمرة الثانية للمدينة مع شعور الغيظ والاشمئزاز .

كان ظاهرا للذين يعلمون تصرفات حركة الدراويش أنه قدصرف النظر من أي خطط هجومية بمجرد أن انفض المعسكر، وقد تاكدت الاستخبارات بأن هذا معناه عدم وجود أي نية للتحرك شمالاً.

سيمر الصيف بدون أحداث ومع وصول فيضان النيل سيتحرك الجيش الغازي للمعركة الفاصلة . كانت أخبار ساره تلك التي وصلت يوم ١٥ فبراير بأن محمود قد عبر النهر بدون أي مدد من أي نوع . لم يصدق السردار هذه الأخبار السعيدة وبدا على الفور في تركيز قوته عند المتلقى .في ٢١ فبراير صدرت الأوامر للقوة البريطانية لتكون على اهبة الاستعداد: وتحركت فرقة السي فورس من القاهرة وتحركت الكتائب المصرية المختلفة تجاه بربر. والمعسكر الكبير في عطبرة. ووصل خبر عبور محمود للشاطئ الأيمن للنهر في يوم ٢٥ وأعلنت التعبئة العامة بين الجنود .

الفصل الحادى عشر

الاستطـــــلاع

بالرغم من أن حكاية الحملة تتكون بالضرورة من تفاصيل كثيرة لا يمكن إغفالها ، إولا لإظهار الحقيقة ثم لمصلحة السرد نفسه فانه من الضروروي جداً للقارئ أن يختزن تصـــوراً عاما على مدي السرد كله . والا فان كل قصص التقدم والمعارك والاســتطلاع قدتبــدو كاحداث لاترابط بينهما وان الأمر لا يخرج عن وصف معركة كبيرة تمت بشكل عشوائي؛ لكي يتم تقدير هذا العمل ، ليس من المهم أن يري القارئ المعارك الوحشــية والأحــداث المثيرة بقدر ما يكون له تصور كامل عن المنطق وراء كل الأحداث التي تكون فى النهايـــة الحكم على اختبار القوة. لقد تم رصد الأخطار التي صاحبت الاستيلاء الجزئي لبربر فى الجزء الأخير . فى الفترة من أكتوبر لديسمبر كانت الأخطار محدقة وتازم الموقــف فى ديســمبر فجأة. ولو كأن الأمير محمود كان تقدم حتي منتصف يناير،لكان بامكانة استعادة بربر، أمـا إذا كان الجيش الكبير قد قدم لمساندته من أم درمان لكان هذا الواقع حقيقة مؤكدة.

لقد قرأ القائد الصغير القادم من كردفان الموقف جيداً وطالب مراراً متوسلا أن يعطي الإذن لانتهاز الفرصة، ولكن لم يأت الإذن إلابعد أن عاد جيش الخليفة أدراجه إلى المدينة، وكـان عنده سوء تقدير رهيب عن إعداد قوة العدو فى الجيش المصري والإمكانات المتاحة. تسـلم محمود الأمر فى نهاية ينايروكان الموقف قد تغير تماماً. لقد تم حشد الجيش المصري، ووصـل اللواء البريطاني، كما وصل خط سكة الحديد الى القنينيطة. أما المخازن والورش المتواضعـة فى الدخيلة فقد تحولت إلى حامية، ومن حامية الى معسكر ضخم للجيش الغازي تعســكر عند متلقى النهرين، عطبرة والنيل. لم يكن للدراويش لاعلم ولا قوة يمكن أن تقف أمام هذا الحشد .لعل محمود لم يقرر مقدرة السكة الحديد فى حشد كل تلك القوة ربما ظـن مثـل الخليفة أن القوة التي دخلت بربر لا تزيد على ألفى رجل مصري ، أو قد أعمـاه غـروره واستهتاره عن وعي الحقيقة وهذا هو الأرجح .على كل حال لقد بدا فى الأســبوع الأول من فبراير بتحريك قواته شمالا. مع كل مما طلة العرب، زحف بقوته على مهل الى ملتقـي النهرين. وعندما وصل الى الزيداب تصرف كانه أحس بقوة أعدائه توقف بـــدون قـرار

وعقد بمجلس الحرب. كان محمود يري التقدم الفورى ومهاجمة العدو الا أن القائد المحنك عثمان دقنة قد عارضه، والمعروف أن عثمان دقنه كان قد اكتسب خبرة طويلة فى محاربة العدو خاصة القوات النظامية، وخبر عن قرب قوة البندقية الحديثة، لقد قدم حججة للقائد الذي ينفر منه ويحتقره، بشكل واضح. إن المشكلة التى تواجههم جد كبيرة، وإذا كان لابد من التصرف فى جب بتجنب المواجهة المباشرة .اقترح عثمان دقنة الالتفاف حول المعسكر فى عطبرة بالاتجاه نحو الصحراء ثم الهجوم على بربر واستعادتها مع أمل أن يساعد أهالى بربر فى العملية، ثم يتم قطع السكه الحديد الذي يعتبر شريان الحياة بالنسبة للغزاة ومتي ما وصل الدراويش خلف القوة فالها انتهت . وافق بمجلس الحرب على رأي عثمان دقنة مما أضعف موقف محمود وقلل من هيبته ، فكره عثمان دقنة أكثر . تحرك بقواته يوم ١٨ مارس عبر الصحراء الى قرية الهدي على نهر عطبرة، ومن هناك مع مسيرة طويلة يصل الى النيل ثم الى بربر . بينما لم تكن معلوماته عن أعدائه كافية عن طريق جواسيسه من الحلفاء ، كان السردار يمتلك كل المعلومات عن تحرك محمود مرة بالبواخر ومرة عن طريق سلاح الفرسان. أول ما علم بخطتة محمود للالتفاف حول الجيش ، حرك السردار القوات عبر عطبرة الى الهدي . وهكذا وضع محمود فى موقف صعب أما أن يهاجم السردار وهو فى مركز قوي أو يتحاشاه ، وقد اختار القرار الأخير وتوغل أكثر فى الصحراء متجها الى الشرق بالتفاته حول الهدي، ووصل الى نهر عطبرة مرة أخري عند النخيلة . المسافة من هنا لبربر بعيدة والأبار قليلة مما يهدد محمود وخططة وعليه كان أي تقدم جديد مستحيل . قرر محمود أن يعسكر فى ذلك المكان، ولكن بدأت المؤن والأغذية تتناقص. فقد دمرت كل مخازنة فى شندي بمجرد أن تركها، ومع أن الدرويش يمكن أن يعيش على أكل الدوم،ولكنهم لن يستمروا على ذلك طويلا.وفعلاً بدأ بعض الجنود فى الهرب. وعثمان دقنة كان فى حالة عداء وغضب مستمر طالما كانت الشورة شورته، ورأي قواته تتناقص .

كان العدو الرهيب فى هذه الأثناء يتابع محمود كالنمر الذي يحوم حول فريسته المضمونة التي لاحول ولاقوة لها، كان يتابع فى صمت بلارحمة ومنتهي الجبروت . بمجرد أن وصل التكتيك الى حد أضعف والعدو واصفا معنوياته الى درجة الاستكانة والعجز عن الهرب عندها ينقض عليه النمر بخطوات محسوبة فى الهدي ، وابدار ومن ابدار حتي أم دبيبه

وقطعت تقطيعاً. هذا وصف موجز لاستراتيجية المواجهة فى حملة نهر عطبرة ولكن سرد الحكاية يجب أن يكون كاملاً .

علم الخليفة يوم ٢٣يناير بوصول القوة البريطانية قرب أبو حمد وعندما أرهقته المناقشات حول من يقود الجيش الى الشمال ، أمر بانهاء المعسكر وعوده القوات للمدينة التي بدا فى عمل التحصينات حولها. بعد أيام قليلة من هذه الخطوة أصدر أوامره لمحمود بالتقدم ، لم يجرؤ على هذه العملية بقوة ٦٠ ألف مقاتل ، يحاول الآن بقوة ٢٠ ألف مقاتل، الحسم الذي كان سيكون فعالا لو تم خلال الثلاثة شهور الماضية يمضي فيه الآن ليقود الى خراب وتدمير كامل . أصدر الأمر بعد أن أصبحت المحاولة ضربا من الجنون القاتل . كيف يأتي هذا التصرف من رجل اشتهر بالذكاء والمهارة فى إدارة العمليات الحربية وقد اثبتتها المعارك الدامية .؟

استمرت البواخر فى دوريات مستمرة على طول النهر وتم تبادل إطلاق بعض الدانات مع طابية الدراويش، ولكن مضي شهر يناير بدون أي حوداث تستحق الذكر. لقد جاءت تقارير الجواسيس بأن الخليفة إما فى كرري أو فى أم درمان، وان أحمد فضيل فى منطقة السبلوقة بينما عثمان دقنة فى شندي وكانت الطابيتان الاضافيتان اللتان تم بناؤهما جنوب المدينة شاهدتان علي وجوده. لقد كان موقف الدراويش سلبي حتي تلك اللحظة . فى يوم ١٢ فبراير انسحبت قوتهم من خولي وتخيل الجميع أن هذا دلاله على نشاط جديد ، اتضح فيما بعد أن محمود كان يعبر النهر بقواته فحاولت البواخر تأخير مواصلاته واستولت على بعض المراكب الصغيرة ولكن محمود نجح فى العبور بكل قواته يوم ٢٨ فبراير وأقام معسكره شرق النيل فى حوش بانقا، وهي قرية صغيرة على بعد خمسة أميال جنوب شندي . تأخر التقدم لمدة أسبوعين كانت خلالها البواخر فى منتهي اليقظة تحسباً لأى تحركات. وتم قفل طريق سواكن - بربر أمام القوافل ووصل السردار الى بربر يوم ١١ مارس . ماتبقي من أفراد قبيلة الجعليين التي تمركزت حول آبار جقدول وصل المتمة لتجدها خالية الأمن بقايا الجثث الخاصة بأهاليهم. أما الفرقة المصرية فقد عسكرت فى جزيرة شبلاي يوم ١٣، حيث هاجمتها قوة من الدراويش هجوماً أصيب خلاله الرائد سيتول بجروح ، فى نفس الوقت جاءت الأخبار أن محمود اتجه الى العالياب شمالاً وكان هذا دليلا على أن تقدمه قد بدأ.

تحرك محمود من شندي بقوة قدرت بـ ١٩ ألفا فيها نساء وأطفال وتبع، وقدر عدد المقاتلين بـ ١٢ ألفا مع كل واحد مؤن تكفى لشهر و ٩٠ طلقة. بينما أمر السردار كل القوة البريطانية / المصرية للتمركز فى كنور ، ما عدا سلاح الفرسان ولواء لويس الذي بقي ومعه ثلاث فصائل لحراسة المعسكر عند ملتقي النهرين .

تحرك برودود مع الفصائل الخمس الباقية يوم ١٦ ومعه كل سلاح الفرسان وقوة الهجانة لمراقبة المنطقة على طول نهري النيل وعطبرة .

استمر الحشد فى كنور واتحدت اللواءات السودانية تحت قيادة الجنرال هنتر، ووصلت مع سلاح المدفعية الى كنوُر فى ليلة يوم ١٥ وواصلت الفرق البريطانية- الورويك، اللينكون والكمرون سيرها الى الدخيلة . فرقة السي فورس هايلندرز التي كانت لاتزال فى وادي حلفا، تم إرسالها بالسكة الحديد على وجه السرعة عبر الصحراء الى القنينيطة ، من هناك أرسلت نصف الكتيبة بالبواخر الى كنور ونسبة لقلة البواخر وضرورة الاستعجال، أرسلت البقية على ظهور الجمال من راس خط السكة الحديد وعبر الصحراء الى كنور ، وهي تجربة لم يتمرن عليها أحد حتي ملابسهم لم تكن مناسبة لمثل هذه الرحلة .

اكتملت القوة كلها يوم ١٦ وجاء السردار فى اليوم التالى لتفتيش قواته. وأمضي الجميع الأيام الثلاثة التالية فى قلق وترقب. فقد جاءت شائعة تقول أن محمود قد عبر نهر عطبرة عند الهدي وعلى بعد عشرة أميال من المعسكر وفى حركة التفاف ليتجه الى بربر، معني هذا ان المعركة على الأبواب .

أمسك الضباط بنظاراتهم المعظمة يستكشفون الرمال وكل الأفق لاي بادرة للعدو، ولكن ظل الموقف صامتاً لاحركة إلا للريح والغبار وعاد الهدوء مرة أخري . هنا تأسف الضباط على الأشياء المهمة التي تركوها فى الدبيكة وهم على عجلة لتنفيذ الأوامر بالتوجه الى كنور بأخف الأغراض

فى يوم ١٩مارس أبلغت البواخر أن محمود قد ترك النيل دلالة على أنه بدأ مشروعه، وهنا أمرت كل القوة بالتوجه فى اليوم التالى من كنور الى الهدي. كان منظر الجيش مهيبا وسلاح الفرسان والهجانة، فالمدافع المحمولة تجرها الخيول غطت كل الجهه اليمني للقوة، والمشاة وعلى يمينها القوة البريطانية تحركت فى شكل اصطفاف المعركة -كتله من اللواءات

خلفها الإمدادات والاتصالات . هبت عاصفة رمليه مخيفه ، قطعت القوات مسـافة ١١٠ أميال فى خمس ساعات لكنها وصلت قبل الليل واستطاعت بناء زريبة كبيرة وقويه . هنـا جاء لواء لويس المصري قادماً من معسكر عطبرة وتركت الكتيبة ١٥ لحراسـة عطـبرة. فأصبحت القوة التي تحت إمرة السردار الآن ١٤ ألف مقاتل ، تشكيلت القوة كما يلي :-

القائد العام ـ السردار

اللواء البريطاني ـ الجنرال كاتاكري

الكتيبة الأولي ووررويك شير الملكية (٦ فرق)

الكتيبة الأولي لينكون شير

الكتيبة الأولي سي فورس هايلندرز

الكتيبة الأولي كاميرون هايلندرز

قوة المشاة المصرية ـ الجنرال هنتر

اللواء الاول	اللواء الثاني	اللواء الثالث
العقيد ماكسيول	العقيد ماكدونالد	العقيد لويس
الفرقة الثامنة المصرية	الفرقة المصرية الثانية	الفرقة المصرية الثالثة
الفرقة السابعة السودانية	الفرقة الرابعة السودانية	الفرقة المصرية الرابعة
الفرقة الثامنة السودانية	الفرقة الخامسة السودانية	الفرقة المصرية السابعة
الفرقة الرابعة عشر السودانية	الفرقة السادسة السودانية	

قوة سلاح الفرسان

١ العقيد برودود

٨ فصائل

٢ مدافع مكسيم

قوة سلاح الهجانة

الرائد تودوي

٦ فرق

سلاح المدفعية

العقيد لونج

جزء من الفرقة ١٦ – ٦ مدافع خمسة بوصة ب د . هاويتزر

مدفعية خيول مصرية ٦ مدافع

البطاريات للميدان المصرية ، الأولي والثانية والثالثة ١٨ مدفعا

بطارية المكسيم البريطانية ٤ مدافع

بطارية الصواريخ ٢قسم .

عندما علم محمود بتحركات الجيش المصري الانجليزي ،غير من خطته الأولي للعبور عند الهدي لأنه سوف لا يستطيع ملاقاة جيش السردار باكمله، وعليه فقد كان مصرا على الاستمرار الى النخيلة . اشتهر العرب بالترحال واتقان دروبة ولذلك فلا غرابة فى أن تتحرك محمود بكاملها وتواصل السير من العالياب الى النخيله عبر صحراء لاماء فيها، وبدون توقف بما تشمل من مشاة وخياله ومدافع ، ونساء ورجال وأطفال لتقطع مسافة أربعين ميلا فى يوم واحد وتصل النخيلة مساء يوم ٢٠. كان هدف السردار أن يبعد العدو على طول نهر عطبرة بحيث لا يشكل أي تهديد لبربر أو راس خط السكة حديد، فاصدر أوامره لتتحرك كل القوة الى راس الهدي حتي تكون على بعد ١٥ ميلا من العدو، كما كان يعتقد. فضاعفت هذه الحركة من المسافة التي يجب على العرب قطعها لتنفيذ خطة الالتفاف حول الجيش، وأصبح من رابع المستحيلات لقوتهم التقدم، للالتفاف حول جيش يحتل محور الدائره بالكامل.

كانت تحركات القوة المصرية / الانجليزية تحت حراسة سبع سرايا من سلاح الفرسان ومدفعية الخيول، وقد أمر العقيد برودود باستمرار مناوراته على طول النهر حتي يتقصي تحركات ومواقع العدو. المنطقة الواقعة على جانبي نهر عطبرة غير صالحة لتحركات الجيوش الحديثة، لأنها لما بها من أشجار شوكية، وأشجار الدوم التي تمتد بعرض ثلاثة أرباع الميل

بجريدها الأخضر الكثيف لتعطي منظرا ساراً بعكس المنظر عند شاطئ النيل، فهنا الخضـــره وأصوات العصافير الجملية وبعض الببغاوات وطيور الزينة . بعد رأس الهدي يتحول نهـــر عطبرة الى كتل رمال بيضاء فى الفترة ما بين مارس وأبريل، بحيث نجد هناك بعض البرك التي تحتفظ بالماء الصافى تجد فيها الأسماك والتماسيح ملجأ لأخيرا بعد انحسار مياه النهر.

الجو رطب مما يزيد من الشعور بالحر ويزيد من العرق . بينما لا يحب الأهـــالى ميـــاه العطبراوي لأن طعمها به بعض المرارة بالمقارنة مع مياه النيل الحلوة ، وجد البريطـــانيون أن ماءه طيب ومقبول . الأرض خارج هذه المنطقة ليست منبسطة تماماً فالسطح إما حجـــري أو عبارة عن مجري لمياه الفيضان والامطار، ملأئ بالحفر ، والخيران مـــلأئ بالأعشـــاب الموسمية الطويلة مما أعاق تحركات الفرسان والمدفعية بشكل خاص .

تحت مثل هذه الظروف تحركت الفصائل بحذر وبعد أن قطعت ١٥ ميلا بعد الهـــدي وصلت الى طابية قديمة فى أبعدار ، هنا عسكر برودود مع جنوده وواصلت المسير فصيلـــة واحدة تحت قيادة النقيب لي كالياس. رجعت هذه الفصيلة في الساعة الثانية صباحاً بعـد ان قابلت دورية صغيرة للعدو وليس القوة الكاملة .

بينما كانت القوات تسقي خيولها بالدور من النهر ، كلف النقيب بارنج مع فصيلتـــه لعمل حراسة على مسافة ميل وربع ناحية الجنوب الشرقي كنقطة حراسة متقدمة . كـــانت هناك قوة من خياله الدراويش قد تبعت فصيلة النقيب لي كالياس وجاءت مستترة داخـــل الأعشاب الطويلة والأشجار وانقضت على النقطة المتقدمة وقتلت ثمانية وجرحت سبعة مـن الجنود وفقدت النقطة ١٣ حصانا ، بعضها بعد أن تخلص من فارسه، اســـرع بـــالركوض خلف مهر الخيل التي كان يمتطيها الدراويش .

جاءت عصر ذلك اليوم أخبار عن هجوم وقع على ادراما، واستطاع العقيد بارســـونز صد العرب بقواته من الأحباش الحلفاء لكن لاداعي للدخول فى تفاصيل ذلك الهجـــوم إذ ليس به ما يستحق الذكر ونسيانه أفضل ، وليس هذا مجال سرد أساطير النضال للحلفاء من الأهالى .

وقفت القوة المصرية الانجليزية لأكثر من أسبوع فى رأس الهادي، تنتظر أن تنهار الـــروح المعنوية للعدو وتجعله فى حالة من اليأس حتي يقدم على الهجوم. كل صباح يستعد ســـلاح

الفرسان ويتوجه نحو معسكر الأعداء ، يشاهد فرسان البقارة أو يناوش بعضهم ، وفى المساء تعود الفرقة المتعبة الى المعسكر . كل صباح تستعد القوة لصد الهجوم ولكنها ترجع فى نهاية اليوم الى الزريبة فى حالة من اشمئزاز وتنام فى سلام . فى هذه الفترة بدأت تسري روح الاستقرار فى المعسكر، فكبرت الزريبة وتوسع المطبخ ، واتسخت البرك فى نهر عطبرة . استمرت الشمس تلسع الرجال البيض بلارحمة ولا انقطاع أينما كانوا تحت أكواخ القش أو فى الخيام ، سجلت درجات الحرارة أثناء النهار أعلى معدلاتها حيث بلغت ١١٥ درجة، أما فى المساء فان الطقس رطب ومنعش .

بالرغم من شعور القوة الرئيسية بان اليوم يمر طويلا ومملا إلا أن الوقت الذي قضاه الجيش فى رأس الهدي لم يكن خاليا من النشاط. كان عمل الفصائل والدوريات اليومية عملا شاقا على الجنود والخيول التي لم تجد الراحة إلا فى المساء. كان السردار يعلم تفوق فرسان العدو وكان لابد من اليقظة التامة لقائد سلاح الفرسان. البواخر المدرعة ايضا وجد لها بعض المهام .

عندما ترك محمود شندي كان قد ترك بها مخازن لباقي المؤن وزوجات الأمراء تحت حراسة ٧٠٠ مقاتل من حملة البنادق و ٢٥ خيالة . بالمنطق العسكري العادي أو حتي لاغاظة العرب وإغضابهم قد تقرر احتلال هذه الحامية وبعثرة ما بها من مدافعين . وعليه عادت الكتيبة الثالثة المصرية يوم ٢٤ بقيادة لويس من رأس الهدي الى عطبرة ، لتحل محل الفرقة ١٥ الموجودة هناك. وتجمعت قوة صغيرة تحت إمرة القمندان كيبل تتكون من الفرقة ١٥ بقيادة الرائد هيكمان مع مدفعي ميدان من بطارية بيك و ١٥٠ من الجعليين من القوات غير النظامية. ركبت القوة على مراكب كانت تجرها البواخر، الظافر وناصر والفاتح، التي ابحرت الى شندي فى نفس تلك الليلة .

فى فجر يوم ٢٧ ظهرت وحدات الأسطول النهري على مشارف شندي، وشعر بها الدراويش وجهزوا دفاعاتهم لكن كانت قوتها بالنسبة لهم مهولة. تحت ستار مدفعية البواخر تم انزال المشاة والمدافع وبمجرد أن بدأ تعامل المدفعية . هرب العرب وهم يطلقون رصاص بنادقهم عديمة الفعالية. ترك أمر المطاردة لأفراد قوة الجعليين الذين كان يهمهم جدا الثأر لأبناء قبيلتهم فقتلوا ١٦٠ من الدراويش وكان انتقاما محسوسا خاصة أنه فى نفس الموقع

الذي سقط فيه أهاليهم صرعي. كان كل ما فى البلدة غنيمة ، امتلأت البواخر بـــاغراض كثيرة، وبينما هربت نساء وزوجات الأمراء بقيت ٦٥٠ امراة باطفـــالهن مــن الطبقـــات الشعبية تم ترحيلهن الى عطبرة ، سرعان ما اتحدن مع افراد الجنود السودانيين وكما كـــان ظاهراً عاش الجميع فى سعادة وبناء أسر جديدة . لم تكن هنـــاك أي خســائر فى القـــوة للهاجمة، لكن الجعليين فقدوا بعض الأفراد أثناء مطاردتهم للعـــدو ، تم عـــادت القـــوة الى عطبرة.

كان الثالث من أبريل هو أخر يوم للجيش فى رأس الهدي ، انتهت فـــترة الانتظـــار. وجري استطلاع كامل عن قوة العدو التي تستمر فى التدهور بحيث لا يجرؤ على الهجـــوم لكن فى نفس الوقت تدهورت الحالة الصحية فى معسكر رأس الهدي. وبـــالرغم مـــن أن الموقف كان على ما يرام ، لكن السردار ما كان ليقتنع باستموار الوضع كما هو. طيلـــة الوقت والجيش يركز نشاطه على طول العطبرة كانت كل إمدادته تصل مع مخصوص مـــن عطبرة قافلة تحميها قوة صغيرة من الهجانة لمسافة أربعة أيام هي المدة التي ستستغرقها الرحلـة من عطبرة الى رأس الهدي .

إن جهل الدراويش وحده هو الذي سمح باستمرار هذا التدفق بدون أي اشـــتباك. إن محمود يملك سلاح فرسان قوي، ولذلك وإذا نظر أي شخص الى الخريطة يتعجب كيف لم يفكر محمود فى إرسال قوة على شمال النهر لتعترض سير تلك القوافل .

كان مثل هذا النشاط سوف يضعف من قوة السردار، اذ سوف يضطر لسحب بعـض أفراد المشاة ليكونوا فى حراسة القوافل وتأمين خطوط المواصلات، كما أن تاخير المؤن كان سيوثر على القوة أو على الأقل يؤخر هجومها ولكن لم يفعل الدراويش أي شئ من هـــذا القبيل. وهنا قرر القائد وضع حد لهذه العملية، فتحركت كل القوات يوم ١٤ ابريـــل الى أبعدار وأقامت معسكرها على بعد ٥ أميال من مواقع العدو. لقد تعب النمر من مشـاهدة فريسته فوثب الوثبة الأولى نحوها .

بالرغم من وفرة المعلومات عن حجم وأحوال قوة العدو إلا أن السردار أمر باستطلاع أخير يوم ٥ أبريل .

ابتدا برودود فى الرابعة صباحاً قاطعا الزاوية التي يكونها نهر عطبرة مع قرية أم دابيـــا ، متجنبا أشجار الشوك ووصل الى قرب معسكر الدراويش . لم يشاهد أي افــــراد داخــل الأشجار ، ولا توجد أي آثار للحياة وكان الصمت كاملا . تحركيت الفصائل حتي وصلت الى حوالى ١٢٠٠ ياردة من زريبة العدو فى وضع موازي للزريبة ، هنا ظهرت لهم بعــض قوات سلاح فرسان العدو ، لم يتاكد من تعدادها الا أنها بدت كقوة كبيرة للاســتطلاع. فرسان الدراويش استمروا فى السير الى الجنوب الشرقي حتي كادوا يلامسون جناح الفرقــة المصرية الشمالى، بينما تقدمت القوة المصرية وعند وصولها الى الجـــانب الجنــوبي لنهايــة الزريبة، ظهرت قوة فرسان أخري من الجانب الشمالى مهددة خط تراجعهم . وفى نفـــس الوقت دب النشاط داخل الزريبة وشوهد أفراد كثيرون يستعدون لأخذ مواقعهم الدفاعيــة وهم يتابعون سير القتال. واقترب سلاح الفرسان الى مسافة حوالى ١٠٠٠ يادرة من الزريبة وأطلق الدراويش بعض الأعيرة ، خفيفة النيران .

تراجعت فرقة سلاح الفرسان على الأجنحة بطريقة منتظمة لكــن اســتمر فرســان الدراويش حتي كادوا يطوقون الفرقة مما يهدد باحتمال هجوم. ولكي يقابل هذا التــهديد أرسل برودود إحدي فصائله من وسط التشكيل لتنضم للفصيلة التي يقودها تحــت قيــادة النقيب بارنج، وهكذا كانت هناك أربع فصائل لقوة الاستطلاع فى الصحراء، اثنتان معــهم مدافع واثنتان على ضفاف النهر . أغرى ضعف الجناح على النهر فرسان العدو فأســرعوا بالهجوم للاستيلاء على المدافع، ولقد كانت حركة جريئة وذكية ولكن قابلها قائد ســلاح الفرسان بجدارة تستحق الإعجاب. كانت حركة الغبار،على بعد ٣٠٠ ياردة من الموقع هـي الإنذار الوحيد له بنية العدو، فتسلم قيادة الفصيلتين تحت إمرة برسي ولى كالياس وأمرهــم بالتوجه يمينا مع الهجوم.

هجمت القوة يتقدمها ضباطها البريطانيون وأسرعت بالركض نحو خيالــة البقــارة ، الذين يربو عددهم على حوالى ٤٠٠فارس ولكنها قوة مشتتة، أبادرهم. أثناء ســير هــذه المعركة، حاول خيالة الدراويش الهجوم مرة أخري نحو المواقع فى الجانب علــى الصحــراء وأسرع النقيب بارنج مع فصيلتين واشتباك معهم وفرقهم مع بعض الخسائر. كان الهجــوم جيداً وفاعلا، لكنه تم بشكل غير منتظم مما سبب بعض الارتباك وسط الكتيبتين عند لقــاء

الدراويش على ضفاف النهر وأسرع النقيب بيرس والنقيب لى كالياس وطلبوا من جنودهم الترجل من خيولهم وفتحوا نيرانهم على الدراويش المتراجعين، ونجح هذا التصرف ليس فى صد الأعداء فقط ولكنه أيضا منع اختلاط الفصائل مع تلك التي بدأت الهجوم وهي فى حالة ارتباك وسوء تنظيم .

بالرغم من هزيمة فرسان الدراويش فقد استمر مشاتهم فى الهجوم على فصائل الفرسان التى ترجلت وتم تبادل إطلاق النيران لفترة طويلة، وجرح النقيب بيرس جرح كبير وأصيب بعض الجنود، تم انسحاب كل القوة فى الساعة الحادية عشرة بعد أن توقف الهجوم . كانت الخسائر وسط القوة مع حسن الحظ جد بسيطة، إذ جرح ضابط بريطاني واحد وتوفى ٦ مصريون وجرح عشرة، وفقدت فصائل الفرسان حوالى ٣٠ حصانا ما بين مفقود ومعاق.

لقد أصبحت الآن المعلومات عن العدو واضحة إذا تم الحصول عليها من مصادر موثوق بها، ووضح من تكرار فرار أفراد قوته وإنهيار معنوياتة أن الامل له فى النجاح وهنا جاءت ساعة الخلاص عليه وتدميره . .

فى صباح يوم ١٦ أبريل تحرك الجيش من معسكر ابعدار وسار الى قرية مهجورة اسمها أم دابيا وعسكر بالقرب من بركة على نهر عطبرة تبعد بحوالى سبعة أميال من موقع العدو .

الفصل الثانى عشر

معارك نهر عطبرة ٨ أبريل ١٨٩٨

فى مساء يوم الخميس ٧ أبريل ، أقام الجيش فى أم دابيا استعراضاً للهجوم على زريبة محمود ، كان المعسكر داخل الأشجار القصيرة الكثيفة التي تنمو على جانبي نهر عطبرة تماما كتلك التي توجد عند شاطئ النيل. وللاستفادة من السهل المفتوح ، تحركت اللواءات الأربعة للمشاة يتقدمهم اللواء البريطاني نحو الصحراء على طرق متوازية ، بينما بقيت فى المعسكر فرق الخيالة وبطاريات المدفعية الأربع حتي الساعة الثانية من صباح اليوم التالى وبقيت فى حالة استعدادها. إذ المسافة بين الشجيرات على ضفاف النهر والصحراء حوالى الميل ونصف، لكن القوة استطاعات الخروج من تلك المنطقة حوالى الساعة السادسة مساء .

مالت الشمس الى المغيب وبدأ الوهج الأحمر يشع على التلال الرملية مما جعل الافق بلا نهاية حتى لا يكاد المرء يفرق أين ينتهي الأفق وأين تبدأ السماء. كانت ثمة مجموعة من الغزلان فى طريقها الى مورد الماء اعترضتها تحركات القوات، فركضت بهدوء بعيدا عبارة عن نقاط بيضاء على سطح لون الرمال البني الوردي ، وعلى السهل الممتد وقف ١٢ ألف جندي مشاة واثقون من قوتهم ومتلهفون لملاقاة العدو ، اصطفوا بطريقة منسقة فى أربع كتل بشرية صلبة. ثم بدأت المسيرة ، كانت المسافة بين المعسكر وموقع الأعداء حوالى سبعة أميال زادت بمقدار خمسة أميال أخري نسبة لتوسيع الدائرة لكي تلتف حول الأشجار وتتجنب انحناءة النهر. كان سير القوة بطيئا، ولم تبعد كثيرا قبل أن تغرب الشمس تماما وبدون فاصل بين الضوء والليل، غطي الظلام كل شئ، واصلت القوة فى السير فى سكون الليل الهادي تتقدم فى هدوء لا يقطعه إلا صوت الأرجل على الرمال، واصلت للانقضاض على الاعداء.

ليس هناك أخطر وأحرج من عملية حربية تتم بالليل ، كثيرا ومرارا وفى بلاد عديدة ، تعرضت القوات التي حاولتها الى كارثة وفناء حقيقي ، وفى حالة الالتحام والمصيبة، يتغير شكل الأرض وتتغير ملامحها .

مناطق معروفة بالنهار تكون مجهولة تماما بالليل واي حادثة صغيرة تؤثر فى تقدم القوة التي عليها السير ببطء وحذر شديدين مع ضرورة التوقف والمراجعة بين حين وآخر . تتأثر

أعصاب الأفراد بتوقع الكارثة بنفس قدر تأثرها بطبيعة الأرض، إذ يسير الجنود ببطء وآذانهم مرهفة لسماع أي صوت قادم وتكاد أنظارهم تخترق ستار الظلام ، وكل جارحة فى النفس تتهيأ لتوقع المجهول .

فى مثل تلك الساعات يسيطر الشك والخوف معا على عقل المحارب ، ويفكر فى المصير المنتظر ، هل سيمرالأمر بسلام على الجيش وعليه هو شخصيا ؟ هل هو ناج من هذا الحدث ؟ وماذا إذا انفجر هذا الصمت الأسود فجأة وانهمرت طلقات الرصاص وصيحات الجنود المهاجمين ؟ سوف يربك هذا الأمر أثبت القوات ويحولها الى كتلة من الهلع لن يتوقف إلا بعد تدمير القوة بالكامل . كان الهجوم عند الفجر أمرا ملحا حتي ينتهي القتال اثناء النهار وعليه بالرغم من الأحداث والمخاطر فان الزحف ليلا أمر معروف فى المعارك الحربية.

هكذا استمرت القوات تتحرك لمدة ساعتين، على الرمال الناعمة التي تتخللها بعض الشجيرات والأحجار، وكانت بعض الخيران المملوءة بالأعشاب الطويلة تؤخر تقدم اللواءات حتي لا تعدو السرعة أكثر من ميلين فى الساعة . كانت للأعشاب رائحة حلوة ، سوف تعيش فى ذاكرة البعض كل ما جاءت ذكر انطباعات تلك الليلة . النسيم الذي هب بعد غروب الشمس لطف الجو وأثار عاصفة رملية ناعمة ، عمقت الظلام برزاز أبيض .

عند الساعة التاسعة وقف الجيش فى نقطة تم تحديدها مسبقا بالقرب من قرية مطروس المهجورة وعلى بعد ميلين من النهر . هكذا تم قطع نصف المسافة الى زريبة محمود، ولم تبق إلا اربعة أميال تفصلهم عنه ، ولكن نسبة لعدم الرغبة فى الوصول قبل الفجر سمح للقوات أن ترتاح وجلست على الأرض بنفس تشكيلاتها، ووزعت عليهم وجبة من البسكويت واللحم. وكلفت قوة حراسة لمرافقة حيوانات النقل التي تسقي من البرك على نهر عطبرة، لتملأ تنوكة المياه وكذلك زمزميات المياه . بعد أن تم انتداب قوة للحراسة ، نام افراد الجيش على حالة الاستعداد للقتال . ظهر القمر أثناء فترة الراحة ، وعندما استؤنف السير حوالى الساعة الواحدة صباحا ، أظهر ضوء القمر حجم القوة الكبير وانعكس الضوء على لمعان السنج فأشاع منظرا فريدا توج المرابع بشؤم ساطع .

استمرت القوة فى السير فى صمت كامل لمدة ٣ ساعات ومنع التدخين تماما . فى هـذه الأثناء وصلت قوات سلاح الفرسان وسلاح الهجانة والمدفعية وتم حشد كل القـوة بينمـا الدراويش نيام .

فى تمام الساعة الثالثة بدأت الأنوار تظهر فى الجنوب ، وهكذا وصلـت الأربـاع الى موقع الدراويش، ما عدا اللواء الاحتياطي، واصطفت اصطفاف هجوم فى خط طويل موزعة بين الشجيرات والأعشاب وبدأت تظهر على مرتفع كبير يطل على زريبة محمود من مسافة ٩٠٠ ياردة .

كان الليل مازال يرخي سدوله وشبورة الضباب تلتف حول معسكر الدراويش يسطع بينها ضوء نيران الحراسة وكان الصمت رهيبا. لا يمكن لأحد أن يصدق أن أكثر مـن ٢٥ ألف رجل كانوا على أهبة الاستعداد للقتال على بعد نصف ميل . لم يكن التقدم بـالخفى تماما فقد علم العرب أن عدوهم اللدود يتربص بهم عند المرتفع ينتظر انبلاج الفجر وتأجلت الاثارة الى حين . وأخيرا وبعد أن مرت لحظات ظنها البعض انها بلا نهاية، وحين تم اختـراق السواد الذي كان يغلف كل الأفق بأول ضوء لوقت السحر. بدأ الضوء يقـوي تدريجيـاً ويرتفع كستارة المسرح، ليذهب الظلام وتبدأ الأشكال المبهمة تتحول الى واقـع ملمـوس وتظهر الصورة كاملة .

على طول المرتفع ظهر الجيش البريطاني المصري كقوس عظيم، اللواء البريطاني علـى الشمال ، لواء ماكدونالد فى الوسط ولواء ماكسويل على اليمين وسطح التربة كله تـوج بلمعان السنج والآف الأجسام النحيلة من الرجال يجلسون أو يستلقون على الأرض يحدقون أمامهم فى فضول، وكانت خلفهم فى مربع صلد المواصلات والامدادات يحرسها لواء لويس. سرايا الفرسان المتقدمة ، اخذت مواقعها بتمهل على شمال التشيكل تحركـت البطاريـات الأربع للمدفعية ووحدة الصواريخ وتمركزت فى منطقتين مناسبتين أمام الكتـائب بحـوالى ١٠٠ ياردة. كل شيء أصبح جاهزا ولكن ظل الموقف هادئا ومع الصمت المصاحب لضـوء الفجر، كأنما الطبيعة تحبس انفاسها .

على بعد نصف ميل وتحت المرتفع ، ظهرت صفوف غير منتظمة من شجيرات الشوك السوداء تغلف دفاعات الدراويش وخلف هذه الزريبة سور منخفض واستحكامات تعطـي

ظهرها للنهر والشجيرات حول ضفافه. ظهرت علي وسط الحلقة قلعات من الطـين هنـا وهناك ، اظهرت مواقع المدافع وبعض الاستحكامات الأخري .

انتظر المقاتلون فى السهل المنبسط، الذي كانت بعد إخلائـه تماما مـن الأشـجار والأعشاب نفضية الرمال الناعمة، ووقفت وسط كل هذه بعض أكواخ القـش ، يـزداد تعدادها كلما نظرت جنوبا ومن بينها أشجار النخيل وخلفها يظهر بوضوح مجـري نهـر عطبرة الجاف وبركة مياه واحدة تلمع مع ضوء النهار. تلك كانت هي زريبة محمود الشهيرة التي شغلت فكر القوات لأكثر من شهر ، منظرها لا يوحي بأي انطباع بـالقوة ، بـل إن بعض الجنود ظنوها مهجورة. كان هناك دستة خيالة يجلسون على ظهور خيولهم ينظـرون لعدوهم وبين الحين والآخر يظهر بعض الافراد خلف السور المنخفض ويختفون .

بالرغم من أن منظر الزريبة لم يكن مهابا ، إلا أن كمية النيران الـتي تحضـر وجبـة الصباح ، التي لن يأكلها أحد ، تدل على أن هناك رجالا يحتلون الزريبة، وكانت الأعـلام الخفاقة حول الاستحكامات أو على صدر المعسكر دلالة على أن هناك نفـر مسـتعدون للموت دفاعا عنها .

ودوت قنبلة كسرت حاجز الصمت وحالة الترقب لدي القـوات ورفـع الجميـع رؤوسهم ناحية الصوت ، بطارية كروب على يمين الكمرون هـايلندرز فتحـت النـيران وجاءت دانة أخري من ناحية اليمين وانفجرت دانة فى أكواخ القش داخل أشجار النخيل ، بدأت بطاريتا مدافع المكسيم نوردن فيلد إطلاق رشاشاتها. ونظر الضبـاط الى سـاعاتهم، وكانت الساعة السادسة والربع، وبدأ هجوم المدفعية .

انفجار تلو انفجار فى دفعات متتالية ، حتي اشتركت قوة الصواريخ ، داناتها تطلـق صوتا وصريرا عندما تنطلق من قواعدها متجهة نحو الزريبة حتي امتـلأت سمـاء المعسـكر بالقنابل واحدة تلو الأخري وكونت شابورة داخل الدخان الذي ملأ المكـان . بعـد أول طلقة، اختفى الأفراد ذوي الرداء الأبيض ، قفزوا داخل الخنادق ، وقف بعض الخيالة لبرهـة وسط المعسكر يشاهدون أثر النيران كان الأمر لا يعنيهم. ووقف أفراد القوة البريطانية علـى أطراف أرجلهم يشاهدون منظر الحرب المثير لأول مرة ، وفى البداية تـابعوا كـل دانـة وتفاكروا فى الأثر الذي تركته ، الى أن ضاعف المدفعجية من ضربهم ، وتكاثرت الدانات فى

الهواء فى نفس الوقت حتي اصبح المنظر يدعو للملل بعد حين، قفـل الضبـاط نظـاراقم وجلسوا على الارض مرة اخري بعضهم قد نام بالفعل وتعب البقية من متابعة المنظر المثـير الذي لن يشاهدوا مثله قط وانتظروا فى تلهف الى متابعة احداث اخري ، او شيء جديد .

بعد انقضاء عشرة دقائق على اطلاق القنابل ، شوهدت مجموعة من خيالة الدراويـش تمتطي جيادها وتخرج من فتحة فى اخر المعسكر على الناحية اليمني الى الفسحة المفتوحـة، وتطاير الغبار من اثر ركضها .

لمقابلة احتمال هجوم على الناحية الشمالية للتشكيل سارعت السرايا الثمانية لسـلاح الفرسان بالتوجه ناحية الخطر القادم. وغطي الغبار الكثيف الناتج من حركة الخيـل كـل المنطقة دلالة على كثرة عددها حتي حجبت الرؤيا امام المشاة الا ان استمرار الغبار عن ناهية الاشجار وسماع رشاش المكسيم كان يدل على اشتباك سلاح الفرسان فى المعركة . امتنـع فرسان البقارة من الدخول فى معركة متكافئة ، اكثر من مرة شعر جنود سلاح الفرسان انهم سيلتحمون فى مواجهة ولكن كان رشاش المكسيم سلاحا فاعلا فى صد العدو ، فى كل مـرة يوقع اصابات مباشرة لا تقل عن عشرين بين قتيل وجريح , بخلاف سرية واحدة جنحـت ناحية اليمين كانت بقية سرايا سلاح الفرسان المصرية على شمال التشكيل تحمـي المشـاة وهجومهم.

فى هذه الاثناء استمرت المدفعية التي ما عاد احد يشاهد نشـاطها بنفـس اللهفـة ، استمرت فى اصابة الإهداف بدقة متناهية وظلت تختار الاهداف واشعلت النيران فى اكـواخ القش وتهدمت الزريبة والسور فى اكثر من موقع. وفى تمام الساعة السابعة والربع امرت فرقة المشاة بتكوين اصطفاف تقدم للهجوم .

كانت خطة الهجوم للجيش بسيطة، القوات التي طال حشدها تقتحم اسـتحكامات العدو ، تجبر نيرانها القوية نيران العدو وتخرسها ، وتحطم الزريبة تحطيما كاملا . تدخل الكتل البشرية غطاء نيرانها داخل الزريبة فى الفتحات التي يتم تدميرها ثم تنحرف ناحيـة اليمـين لتطهر المنطقة من افراد العدو بالرصاص او السلاح الابيض .

فى تمام الساعة الثامنة الا ثلث ، امر السردار البورجي بعزف نداء التقدم العام وقـد رددته كل الوحدات وظهر النداء واضحا حتي غطي على صوت المدافع . كـل الضبـاط

رؤوساء الوحدات ترجلوا وأخذوا مواقعهم أمام وحداتهم ما عدا القواد هنتر ، ماكسويل وماكدونالد .

تحركت كل كتل المشاة بما يقدر بأحد عشر ألف مقاتل نحو الزريبة ، كان منظر القوات وهي تنزل من على المرتفع على شكل هلال رائع ومهيب ، كتل بشرية في صفوف مزدوجة وبطابور منظم تتقدمها شعاراتها وأعلامها تتقدم للالتحام . موسيقي القرب التابعة للهايلندرز اختلطت مع موسيقي السودانيين وطبول الفرقة الانجليزية لتعطي إحساسا مثيرا للحماس ، بمجرد أن تخطي الهجوم مواقع المدفعية ، تحرك هذه الى الأمام لتشترك مساندة الهجوم. وفتحت فرق المشاة نيرانها بدون توقف على الاستحكامات مما جعل الخطوة بطيئة نوعا ما .

بقي الدراويش صامتين الى أن وصلت القوات الى ٣٠٠ ياردة فبدأ انهمار الرصاص من عند السياج المنيع تاركا الدخان يتصاعد من على طول السياج ، يزداد إطلاق الرصاص بصورة تدريجية حتي تعرضت قوات المشاة عند مسافة ٢٥٠ ياردة الى نيران مركزة حامية وفعالة وبدأت تتساقط الخسائر . غطت النيران والدخان كل الاستحكامات وحولها بنداقة الدراويش ظهروا للعيان وهم يتعاملون مع كتل المشاة المتقدمة ، ظهر خلفهم مئات من حملة السيوف والحراب .

كانت هناك ربوة أمام فرقة لينكون استطاعت أن تحميها ولكن بدأ الجنود يتساقطون من بين كتيبتي الهايلندرز . كان الجو مشحون بأصوات الرصاص المنهمر ، الذي يثير الغبار أو يحدث أصواتا عند الاصطدام ، بدأت طلقات العرب تعلن عن نفسها بشكل فعال ، حتي غطي صوت الرصاص على صوت المدافع ، بدأت كل كتائب المشاة المهاجمة في تلقي الخسائر ولكنها هي والفرقة المتقدمة لم تتوان أو تتراجع رغم صرامة النيران ، سيل جارف من الرجال غير مبالين أو وجلين ولا يمكن مقاومتهم . لمسافة ٢٠٠ ياردة من الاستحكامات و ١٥٠ ياردة من زريبة الشوك بدأ إطلاق النار ، مستقل ، ولكنه على طول الخط من بدايته لنهايته .

استمرت الفرقة البريطانية والسودانية فى إطلاق النار باستمرار لكـــن دون عجلــة او ارتباك واستمر تقدم القوة بلا مبالاة أو شفقة ، وكان واضحا بالرغم من شدة نيران العــدو التي بدأت تحدث خسائر كثيرة فى الأرواح ، أن الهجوم سيكون ناجحا .

كانت الخسائر عند اقتحام الزريبة والهجوم على الاستحكامات كبيرة ومؤثرة. فقــد أصيب النقيب فبندلي والرائد اركوهارت من فرقة الكمرون هايلندرز اصابات مميتة وفـلضت روحاهما وهما يشدان من أزر رجالهم ويحثانهم على القتال. وأصيب الرائد نابير مــن نفــس الفرقة والنقيب بيلي من السي فورث هايلندرز وتوفيا فى وقت لاحق متأثرين بجراحــهما ، على مسافة ياردات قليلة. لكن استطاعت جموع المشاة كسر السياج فى كل موقع ودخلــت قلب المعسكر , خلف السياج ظهرت خنادق ثلاثية وامتلأت كل مساحة المنطقة الداخليــة بالحفر والخنادق الطولية التي يشغلها الآف الدراويش الذين كانوا يحاولون باستماتة ان تكون جبهة أمام الهجوم. قتل الملازم جور ضابط صغير حديث التخرج من ساندهيرست ، بــين زريبة الشوك والسياج وأصيب ضباط آخرون من فرقة اللينكون ووريك شــير إصابــات خطيرة وقتل جنود كثيرون وجرح آخرون فى المكان الضيق . كانت هناك إصابات مماثلــة لدي اللواءات المهاجمة . فى زمن الدقائق الخمس التي استغرقها اقتحام الزريبة بلغت الــوفيات حوالى ٤٠٠ قتيل ، واستمر القتال .

اقتحم اللواء البريطاني الجانب الشمالى للزريبة وهو يطلق النيران القوية على طول خط المواجه حتي جرفت أفراد قوة الدراويش أمامها وامتلآت الساحة بجثثهم. وبالرغم من التقاء خطوط الهجوم بما لا يسمح إلا لنصف اللواء بالتقدم ، إلا أن اللواء بكامله استمر فى التقدم، وقد أخطر قاد الفرق بالوضع وارتفع الضباط لمستوي الموقف ونظم كل قائد فرقته بحيــث تنسق موقعها مع المجموعة دون فقدان للنظام ، يدفع بها كلما ظهر فراغ بين الخطوط وكــل ما اتسع الفراغ فى الخطوط الأمامية واندفعت القوة بالكامل ، الفرق ، الكتـــائب وحــتي اللواءات اتحدت كقوة ضاربة تتقدم ناحية النهر تدمر الأعداء أمامها وهم لا حول ولا قــوة لهم وفى حالة ذهول تام. ومع كل بالرغم من فشل الدراويش فى تكوين خط مواجهة لصــد الهجوم إلا أنهم لم يفروا . صمد الكثيرون يطلقون رصاص بنادقهم الى النهاية بكل شـجاعة، حارب البعض بالسيوف والحراب. الغالبية منهم تراجعوا وهم يقاتلون إما للجوء الى الخنادق

أو يسيرون على السهل ، يلتفون ويطلقوا رصاص بنادقهم أكثر من مرة . تعرضت الفرقة السودانية السادسة لمقاومة عنيفة بعد اجتياز الدفاعات، حيث واجهت قوة صغيرة داخل الزريبة كانت معدة لقوات حرس الامير محمود، إذ أطلق هؤلاء مجموعات متتالية على وسط الفرقة السودانية وألحقت بها إصابات مباشرة قاتلة حتي كادت تفني الفرقة بأكملها، وسقط الجنود وهم على هيئة التشكيل ، حتي صاح ضابط انجليزي فيهم " ماذا انتم فاعلون ، تستلقون على الأرض؟! وبلا مبالاه لما حدث لأفرادها، استمرت الفرق بقيادة عقيدهم ومساندة الفرقة السوادنية الخامسة فى الهجوم على تلك الزريبة حتي ذبحوا المدافعين عنها لآخر رجل .

وقد تم أسر الأمير محمود نفسه – الذي كان قد ، لجأ الى أحد الاستحكامات التي بنيت خصيصا له بعد أن أنهي ترتيبات دفاعاته. لقد تم اخراجه منها، وما إن تعرف عليه البعض حتي كادوا يفتكون به لولا أن تدخل ضابط بريطاني وانقذه من ثورة السودانيين المتحمسين .

استمر التقدم والهجوم وكان لهؤلاء الذين اشتركوا فيه أشبه بكابوس مريع اكثر منه حقيقة واقعة . النقباء والضباط الصغار ، جمعوا ما تيسر لهم من مقاتلين بصرف النظر عن الجنس أو الرتبة وجاهدوا للتحكم فى اطلاقهم للنيران ، وكلما هب لابسو الجبب وأطلقوا النار أو هجموا ، تم التصدي لهم وأبيدوا فى كل مرة لآخر رجل . ويستمر الزحف فوق أجسادهم، فوق الخنادق المليئة بالجثث والمحتضرين ، وبين كتل من الجمال والحمير الممزقة الأشلاء مبتورة الأطراف بارزة الأحشاء ، ونتيجة لقذف المدفعية الوحشي كان هنالك عشرات القتلي والجرحي من النساء والأطفال ، والنسوة اللاتي لم يصبن يتضرعن فى رعب للرحمة ، والرجال سود مقيدون بالسلاسل داخل الخنادق، قتلوا وهم لا يزالون فى الأغلال ، وكان الجيش المنتصر يتقدم، دائما للأمام والدماء تقطر من سنج بنادقهم ، ملابسهم أياديهم ووجوههم ملطخة بالطين والتراب، تملآ الروائح الكريهة خياشيم أنوفهم ، وتصفر الطلقات حول آذانهم .

وصلت كل القوة لشاطئ نهر عطبرة فى تمام الساعة الثامنة والثلث تتقدمها فرقة سي فورس هايلندرز ، بعد أن دمرت المعسكر بمن فيه ، إما طعنا بالسنج أو رميا بالرصاص ،

كان هناك مئات الدراويش يتراجعون الى الشجيرات فى الجانب الآخر للنهر ، فتحت فرق السي فورس هايلندرز ولينكون وما وُجد من فرق الكمرون نيران بنادقهم على تلك المجموعة ، حقيقة انهم لا يفرون قد جعلت خسائرهم كبيرة . وكان منظر غريبا ، آخر انطباع لليوم ، أن تشاهدوهم يصارعون الموت بين سحاب من الغبار تثيره طلقات الرصاص من حولهم ، لم ينج إلا القليل وانتشرت جثث موتاهم تملأ مجري النهر الجاف ، فى تمام الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة جاء نداء وقف إطلاق النار، وبذلك انتهت معركة نهر عطبرة .

بدأت الكتائب إعادة التشكيل وتعداد الأفراد ، كانت الخسائر جسيمة . فى هجوم لم يستمر اكثر من نصف ساعة ، قتل ١٨ ضابطا بريطانيا ، ١٦ ضابطا أهليا و ٥٢٥ جنديا بين قتيل وجريح ، أكبر الخسائر كانت عند عبور الزريبة .

لم تتواصل ملاحقة العدو. الكتيبتان تحت إمرة لويس عند اتجاهها للجزء الجنوبي للزريبة وجدت بعض الدراويش يتراجعون داخل الشجيرات قبل شاطئ النهر وأطلقت عليهم الرصاص . كل سلاح الفرسان وفرقة الهجانة عبرت النهر وتوغلت فى منطقة ذات أشجار كثيفة وخيران وحفر مما جعل من مهمة المطاردة أمرا صعبا ، وبعد ان قطعت ثلاثة أميال أنهت المطاردة ، واستطاع العرب التراجع بسلام . كان فرسان البقارة ، بقيادة القائد المحنك عثمان دقنة فى موقع يسمح له بالمناورة واستطاعت التراجع بأقل الخسائر . اما باقي الجيش إما قتل أفراده أو تشتتوا . هرب بعضهم على طول نهر عطبرة جنوبا تاركين الجرحي لمصيرهم المحتوم على طول خط التراجع. لم يتبق من جيش محمود القوي المكون من ١٢ألف مقاتل، سوي ٤ آلاف وصلوا القضارف بسلام ، أضيفوا لقوات أحمد فضيل وبذلك لم يذهبوا الى أم درمان لينشروا الأخبار المروعة بين سكان العاصمة، بينما رجع عثمان دقنة وود بشارة وبعض الأمراء الذين لا يشك فى ولائهم الى أم درمان ، بدون مرافق .

بعد أن تم تكوين الفرق أخليت الزريبة من القوات وتحركت القوة الى مرتفع بالقرب من المنطقة وكانت وقتها الساعة التاسعة صباحا فحسب، وكان الهواء بارداً ومنعشاً. أوقد الجنود النيران وحضروا الشاي ثم صرفت لهم التعيينات من البسكويت واللحمة ، بعد أن تناولوا الوجبة ، استلقوا على الأرض فى انتظار المساء. ازدادت حرارة الشمس مع مرور

الوقت، وليس هناك أي ظل سوي الشجيرات الصغيرة، واستمرت الحرارة وأشعة الشمس تحرق حتي البلاد بالرغم من الموسم، وكانت ساعات النهار تمضي ببطء وتثاقل . تعكس الرمال على المرتفع أشعة الشمس فتحول الجو الى فرن ملتهب والأرض الى رمال محروقة . حتي الماء داخل الفناطيز والزجاجات كان حارا ونادرا ، البرك فى العطبراوي أصبحت ملوثة وكريهة بالرغم من تفاني ضباط السلاح الطبي الذين سمح لهم بمرافقة القوة ، إلا أن المعاناة بالنسبة للضباط والجنود الجرحي كانت رهيبة وأن البعض قد توفى متأثرا بجراحه، وربما كانت ستكتب لهم النجاة لو وجدوا فى ظروف تختلف عن تلك الظروف .

مئات الأفراد تم أسرهم ، كان أغلبهم من الزنوج والقوات السوداء ، لأن العرب رفضوا الاستسلام إما حاربوا حتي النهاية أو تراجعوا . كانت هذه القوة السوداء على استعداد للقتال مع أي جانب لذلك تم استيعابهم مع الفرقة السودانية ، هكذا فان الذين حاربوا الى جانب الخليفة ، سوف يحاربون لدحره في أم درمان . كان أهم سجين هو الأمير محمود ، وهو عربي طويل القامة قوي البنيان عمره حوالى ثلاثين عاما ، اقتيد الى السردار بمجرد أن وقع فى الاسر .

فبادر السردار محمود بالسؤال ، لماذا أتيت الى بلادي تحرق وتقتل؟؟ أنا أطيع الأوامر،"كانت الاجابة" - وهكذا أنت أيضا رد الأسير بنذق لا يخلو من الكرامة . كانت إجاباته مختصرة أو مراوغة وقال له إنه سوف يدفع ثمن هذه المذبحة ، عندما يواجه القوة فى أم درمان . كان نموذجا جيدا لشموخ القسوة ، وكان ربما يستحق مصيرا أكرم من أن يفني عمره فى سجن رشيد .

ما إن جاء المساء، حتي تركت القوات سرير العذاب ورجعت الى أم دعيبة، وكانت العودة تجربة قاسية والقوات منهكة فى طريق الذهاب، وكانت الفرقة تحمل الجرحي الذين بدأوا يعانون من الحمي وكانت آلامهم لا تحتمل ، لم تصل القوة الى المعسكر إلا عند منتصف الليل. ظل أفراد المشاة تحت السلاح فى الطوابير والسير والمعارك وفى الشمس المحرقة لأكثر من ثلاثين ساعة لم يغمض لهم جفن ليومين كاملين . جاهد الضباط والجنود البريطانيون ، السودانيون والمصريون اثناء فترة الراحة وراحوا فى نوم عميق ، منهارين من التعب لكنهم منتصرون .

كانت جملة الخسائر لمعركة عطبرة كما يلي :

اللواء البريطاني

ضباط بريطانيون قتلوا او توفوا متأثرين بجراهم (٥)

الرائد ار . اف . تابير فرقة الكمرون هايلندرز

الرائد بي . سي . اركهارد فرقة الكمرون هايلندرز

نقيب سي . فندلي اركهارد فرقة الكمرون هايلندرز

نقيب أ . س . بيلي فرقة سي فورس هايلندرز

ملازم ثاني . بي . فور فرقة سي فورس هايلندرز

ضباط جرحي بريطانيون (٨)

ملازم أم . جرين فرقة وروكسير الملكية

عقيد . تي . أي . فىرنز فرقة لينكون شير

ملازم اتشي . بوكسر فرقة لينكون شير

ملازم . س . ج . ريني فرقة لينكون شير

عقيد . ار . اتش . موري فرقة فورس هايلندرز

نقيب . سي . ماك لاخلان فرقة فورس هايلندرز

ملازم . ار . اس . فاندولر فرقة فورس هايلندرز

ملازم . ان . أ . تومسون فرقة فورس هايلندرز

اسم الفرقة	قتيل		جريح		المجموع
	ضابط	صف ضا	ضابط	صف ضابط	
ورور كشير	–	٢	١	١١	١٤
لينكون شير	–	١	٣	١٣	١٧
سي فوري هايلنو	١	٥	٥	٢٢	٣٣
كاميرون هايلندرز	٢	١٣	١	٤٤	٦٠
خدمات الجيش	–	–	–	١	١
المجموع	٣	٢١	١٠	٩١	١٢٥

الجيش المصري

ضابط بريطانيون جرحوا (٥)

****

نقيب أتشي بيرسي : الحرس دراقون الثانية والجيش المصري

نقيب سي ووش : لواء البنادق والجيش المصري

رائد أ.ك هارلي : د . أس . أو القوة الهندية والجيش المصري

رائد أتشي بي شيكلون : ساوس لا نكشير والجيش المصري

نقيب اف ولتر : لانكشير فى ذليارز والجيش المصري

ضباط بريطانيون احتياطي - ٢ جرحي

القوة الاهلية

سلاح الفرسان	٦ قتيل	١٢ جريح
سلاح الهجانة	-	٢ جريح
سلاح المدفعية	٣ قتيل	١٥ جريح

سلاح المشاة :

لواء ماكسويل :	قتيل	جريح
الثامنة المصرية	١	-
السابعة السودانية	٤	٤٠
الثامنة السودانية	٦	٥٢
الرابعة عشر السودانية	٦	٦١

لواء ماكدونالد :	قتيل	جريح
الثانية المصرية	٧	٥
الرابعة السوادنية	٧	٦١
الخامسة السودانية	٦	٣٧
السادسة السودانية	١٧	٧٨

لواء لوبيس :	قتيل	جريح
الثالثة المصرية	–	٥
الرابعة المصرية	–	–
السابعة المصرية	–	٣
المجموع	٥٦	٣٧١

المجموع الكلي ، كل الرتب بريطانيون ومصريون : ٢٠ ضابطا بريطانيا و٥٣٩ رجلا خسائر الدراويش قدرت رسميا ، ٤٠ أميرا و ٣٠٠٠ مقاتل لم تكن هنالك إحصائية بعدد الجرحي .

ولأن معركة عطبرة كانت معركة حاسمة ، وزعت القوات بعدها الى راحة صيفية ، ووزع الجيش المصري على ثلاث حاميات رئيسية ، ٤ كتائب لعطبرة ، ٦ كتائب مع الفرسان لبربر و ٣ كتائب للعبيدية . وزعت المواصلات والمدفعية بنسب متساوية . اللواء البريطاني كتيبتان فى دارمالى وكتيبتان فى سليم على بعد ميل ونصف الميل من بعضهما .

طلبت ٣ بواخر جديدة من انجلترا للمرحلة الأخيرة من الحمله أرسلت على أجزاء عن طريق سكك حديد الصحراء . كل الإجراءات اللازمة تم القيام بها من قبل ضباط الخط بهمة وكفاءة وركنت العربات التي تحمل الشحنة الغريبة الى خط جانبي ووصل السردار بنفسه ليباشر عملية تركيب البواخر فى العبيدية ، هذه البواخر التي سوف يعتمد عليها كثيرا . وبقي كل الصيف يراقب بناء البواخر الحربية ينقح خططه ، ينتظر ارتفاع مياه النهر لكي يحقق اسقاط دولة أعدائه، دولة الدراويش .

الفصل الثالث عشر

الزحف الكبير

انقضت، كل شهور الصيف الأولى فى التحضيرات للزحف الكبير النهائي. طلب لـواء بريطانى ثان للتوجه الى السودان، بطارية جديدة لمدافع الهاوتزر ٣٧ التى تقذف دانات رهيبة ومتفجرات مكونة من اللاديت المادة الحارقة ارسلت من إنجلترا . أرسل مدفعان كبيران ٤٠ رطل من القاهرة، جهزت فرقة من أربعة مدافع مكسيم فى القاهرة مـن رجـال الفرقـه الايرلندية الملكية بيادة، ثلاثة بواخر مسلحة من أكبر الأحجام ونيران قوية ، وصلت علـى أجزاء، وتختفى فقط على خط سك حديد الصحراء ، تبحر الآن فى مياه النيل المفتوحة بعد معسكر عطبرة . وأخيرا وليس آخرا تم ارسال فرقة الأنسر ٢١* (الرماحة) لتنضم للحملـة فى النيل . تلاحقت الأحداث بسرعة مزهلة . بعد ثلاثة أسابيع فقط من وصول الإمـدادات كانت ذروة الحرب قد انتهت ، وبعد خمسة أسابيع كانت اللواءات البريطانيـة راجعـة فى طريق العودة للوطن . لم يكن هناك أى تاخير وحتى قبل وصول اللواء الثانى بأكمله ، قـد تم إرسال بعض كتائبه إلى ودحامد ،نقطة التمركز الجديدة .

تبعد ود حامد أميال قليلة من شلال السبلوقة، وعلى بعد ٥٨ ميـلا فقـط مـن أم دورمان. تأكد أن اللحظة الحاسمة خلال السنوات الثلاث الماضية قدحـانت تم اسـتعمال البواخر لترحيل الموظفين ، مشاة الفرقة البريطانية، المدفعية والمخازن، مع استعمال صنادل ، الى الجنوب ،جنوب المعسكر الكبير فىعطبرة ، اللواءات المصرية سارت الى ودحـامد عـن طريق البر . أرسلت خيول البطاريات وحيوانات النقل للقـوة البريطانيـة (عددهـاحوالى ١٤٠٠راس)، مساعدو الضباط،بعض الأبقار ،وأغلب المراسلين للصحف تم إرسالهم علـى الشاطيء الشمالى للنهر ، تحت حماية فرقة اللانسر ٢١ (الرماحة)، سـريتان ومراقبـين و٢مدافع مكسيم .

بقيت السرايا الـ١٣ ثلاثة أيام فى ودحامد كانت فرصة طيبة بعـد عنـاء السـفر لالتقاط الانفاس وزيارات الفرقة الاخرى ، الأمر الشائع فىمثل غير تلك الظروف ثم كتابـة

*قاد المؤلف قوة من هذه الفرقة أثناء الزحف النهائي على أم درمان ، ومن هذا المواقع يسجل الأحداث فى الأجزاء اللاحقة كشاهد عيان.

الجوابات. هذه الأخيرة ، كتابة الجوابات مهمة لأنه أصبح واضحا الآن ، سوف لاتكـــون هناك اتصالات أورسائل مع مصر أو اوروبا الى ما بعد الأنتهاء من المعركة الفاصلة .

الترحيب بهذه الفترة أيضا بسبب آخر ،أن المعسكر الجديد يستحق التـــأمل . أقيـــم المعسكر بشكل طولى ، على طول شاطىء النيل على مسافة ميلين ، يؤمن النيل دفاعاته مـــن الشرق . الناحية الغربية والجنوبية تملؤها أشجار الشوك ، قطع بعضها لعمل الزريبـــة ،أمـــا الواجهة الشمالية يؤمنها مجرى خور عميق يساعد النهر فى تصريف الميـــاه مـــن شـاطىء هذاالخور تستطيع أن تشاهد المعسكر كله . فى أقصى النهاية الجنوبية تشاهد الخيام البيضـــاء، معسكر الفرقة البريطانية ، ثم تشاهد بعد ذلك اكواخ القش وبعض خيام من البطاطين مقـــر الفرقة المصرية والسودانية ، ثم خيمة السردار البيضاء الكبيرة يرفرف عليها العلم المصـــرى بلونه الأحمر فىنقطةمميزة ،وعلى اليمين حيث أشجار النخيل ، عســـكر ســـلاح الفرســـان المصرى . امتلأ شاطىء النيل على طوله بغابة من الصوارى ، بمجموعـــات مـــن المراكـــب الشراعية ، الصنادل والبواخر رأسية قريبة من بعضها إن المظهر العام ومداخن البواخر توحى للناظر بأنه أمام ميناء مدينة آهلة بالسكان كأى مدينة فى بلد متقدم ومتحضـــر . تتعـــاظم الصورة والرؤى عندما يسبق العقل النظر الى ما بعد التلال المنخفضة وشلال الســـبلوقة، الى حيث خرابات الخرطوم ومدينة أم درمان . كان من المعروف أن الخليفة قد حشد ٥٠ ألـــف مقاتل فى آخر منطقة حصينة لديه . يمكننا أن نتخيل مدى الإثارة والشـــائعات الـــتى تمـــلأ العاصمة المهدده بالقذف . اعلن الخليفة أنه سوف يحطم الغازين الوقحاء،قد ظهر له المـــهدى فى المنام وطمأنه أن جيوشا من الملائكة سوف تحارب معه ومع جيوش الإسلام . سوف يفنى أعداء الله وسوف تنتشر عظامهم البيضاء على السهل العريض . كان التفاخر بلا حـــدود وكم قسما قد أعلن لهاملة الكفار الكلاب عند وصولهم للمدينة امتلأت شـــوارع المدينـــة بجحافل الرجال وأصواتهم العالية، كل التحضيرات تجرى بكل التحدى ، وبالرغم من ذلـــك كانت سحابة الخوف السوداء عالقة فوق الهواء .قريبا قريبا يرنو هذا الجيش كثعبان ضخم ، يتحرك ببطء ولكنه دائما متقدم . كان قبل أسبوع على مسافة ٦٠ ميلا الآن على بعـــد ٥٠ ميلا ، فى الاسبوع القادم ستكون المسافة بالكاد عشرين ميلا سوف تفصل القـــوات عـــن بعضها ومهما كان من أمر فإن النهايةالمحتومة لابد قادمة .

كان الطريق للمعسكر القادم طويلا ، فإن المسافة لجزيرة الرويان التى اختيرت للمعسكر تبعد سبعة أميال بالطريق المباشر إلا أنه كان من الضرورى تفادى المرتفعات حول شلال السبلوقة ، بالاتجاه نحو الصحراء والسير ثمانية أميال قبل الرجوع يمينا نحو النهر مرة أخرى . رافقت المشاه بعض الجمال تحمل المياه على قناطينر حديد صغيرة ، واستطاعت أن تقطع الرحلة فى نصف الطريق وتواصل سيرها اليوم التالى .

القوة الراكبة التى بقيت فى ودحامد حتى غادرت كل القوة ،أمرت بالتحرك يوم ٢٧ أغسطس حتى تلحق بباقى الجيش .

ودحامد اختفت الآن إلا اسما ، تم ترحيل المخازن والمواصلات بالبر والنهر الى جنوب السبلوقة حيث أقيمت قاعدة حول جزيرة الرويان أنتهت كل الاتصالات مع معسكر عطبرة والقاهرة وحملت القوة معها بالبواخر كميات من المؤن تكفى الى ما بعد معركة أم درمان على أن ترجع اللواءات البريطانية فور انتهاء المعارك . قدر أن العملية لن تستغرق أكثر من ثلاثة أسابيع ، صرف للجيش تعينات يوم ٢٧ تكفى لواحد وعشرين يوما ، حملت هى ما يكفى ليومين ، تعيينات ٥ أيام على صنادل الفرقة ، وتعيينات ١٤ يوما على بواخر المواصلات للجيش وما تبقى من مؤن تم تخزينه فى الرويان وأقيمت فيها مستشفى ميدان .

كانت قوة الحملة التى تم حشدها وتسليحها وإعدادها للمعركة الفاصلة لحرب النهر تتكون من الأسلحة الآتية :

القائد العام : السردار

القوة البريطانية – تحت قيادة كاتاكرى

اللواء الأول	اللواء الثانى
البرجدار العام : ووشهوب:	البرجرار العام : ليتلتون .
الكتيبة الأولى فرقة ووركشيرالملكية.	الكتيبة الأولى فرقةحرس الجرينا دير.
الكتيبة الأولى فرقة لينكون شير.	الكتيبة الأولى فرقة بيادة نورث همبر لاند.
الكتيبة الأولى سى فورس ها يلندرز.	الكتيبة الثانية فرقة بيادة لانكشير .
الكتيبة الأولى فرقة كامرون ها يلندزر.	الكتيبة الثانية فرقة لواء البنادق.

القوة المصرية تحت قيادة الجنرال هنتر

اللواء الأول	اللواء الثانى	اللواء الثالث	اللواء الرابع
العقيد ماكدونالد	العقيد ماكسويل	العقيد لويس	العقيد كولينسون
الثانية المصرية	الثامنة المصرية	الثالثة المصرية	المصرية الاولى
الرابعة السودانية.	الثانية عشرة السودانية.	الرابعة المصرية.	نصف المصريةالخامسة.
الخامسة السودانية.	الثالثة عشرة السودانية.	السابعة المصرية.	المصرية السابعة عشر.
السادسة السودانية .	الرابعة عشرة السودانية .	الخامس عشر المصرية .	المصرية الثامنة عشر.

القوة الراكبة

٢١ لانسر (الرماحة) .	قوة الهجانة .	الفرسان المصرية .
العقيد مارتى .	رائد تودوى .	عقيد بروورود .
٤ سرايا .	٨فرق .	٩سرايا .

سلاح المدفعية

تحت قيادة العقيد لونج

بريطانية :-

٣٢ بطارية ميدان مع مدفعين ، ٤ رطلا –٨مدافع.

٣٧ بطارية ميدان ٥بوصة هاوتزرز –٦مدافع .

مصرية :-

<u>بطارية الخيول ار أكروب -</u> ٦مدافع .

الفرقة الأولى بطارية ميدان مكسيم نوردن فىلر - ٦مدافع.

الفرقة الثانية بطارية ميدان أى .أ ٦مدافع .

الفرقة الثالثة بطاريةميدان أ ى .أ ٦مدافع .

الفرقة الرابعة بطارية ميدان أى .أ ٦مدافع .

رشاشات (مشين قن)

بريطانية :-

الفصيلة ١٦ الفرقة الشرقية ار أ ٦مدافع مكسيم .

الفصيلة الأيرلندية الملكية بيادة ٤مدافع مكسيم .

المصرية :-

٢مدافع مكسيم لكل فرقة من الفرق الخمس ١٠ مدافع مكسيم .

سلاح المهندسين

فصيلة من فرقة المهندسين الملكية

الأسطول النهرى

بقيادة قومندان كيبل (القبطان)

بواخر مسلحة موديل ١٨٩٨ -٣

-سلطان تحمل كل واحدة :

-ميليك ٢ مدفع نوردن فىلر

-شيخ ١مدفع سريع الطلقات ١٢ رطلا

١مدفع ها وتزر

٤ مدافع مكسيم

بواخر برولاب مسلحة موديل ١٨٩٨ -٣

تحمل كل باخرة :-

ناصر ١مدفع سريع الطلقات ١٢ رطلا

-ظاهر ٢مدفع ٦ أرطال

٤مدافع مكسيم .

بواخرقديمة رولاب مسلحة ٤

-التامى تحمل كل باخرة

*-الحفير ١ مدفع ١٢ رطلا

-ابو كيلى ٠ ٢مدفع مكسيم نوردن فى لر

٥بواخر مواصلات

دال-عكاشة-الطاهرة -عكمة -كيبار

القوة الكاملة للحملة تكونت من ٨٢٠٠ بريطانى ١٧٦٠٠ جندى جيش مصرى مع٤٤مدفعا ، ٢٠ مدفع مكسيم فى البر ،مع ٣٥٢٤ جمل ٢٢٩ حمارا بالإضافة للمرافقين وحيواناهم ، عمالة خدمات... الخ.

بينما يزحف الجيش غرب النيل ، الجهة التى تقع عندها أم درمان ،تكونت قوة من الأعراب الأصدقاء كقوة غير نظامية وتحركت شرق النيل لتطهر أى قوة دراويش تكون موجودة ، وهكذا فإن بقايا القوة التى حطمتها القوات المصرية ، تساق الآن لمحاربة الدولة المنهارة .

متحفزون للسلب والنهب وحريصون ليكونوا مع الجانب الكسبان ؛ هرع شيوخ وأمراء من قبائل كثيرة مع ما تركته لهم الحروب الطويلة ،الى ودحامد . فى يوم ٢٦ أغسطس تكنت القوة غير النظامية من ٢٥٠٠ رجل أغلبهم من قبيلة الجعليين الذين نجوا ، وأفراد من قبائل البشارين ،هدندوه من سواكن الشكريه مربى الجمال من البطاحين الذين عانوا كثيرا على أيدى الخليفة ، من الشايقيه حلفاء غردون المتعبين ، وبعض من قبيلة الجميلاب بقيادة ابن الزبير باشا الشهير . أعطيت قيادة هذة القوة الملونة الى الرائد ستيوارت ورتلى على أن يرافقه الملازم وود كاركان حرب. كان وجود هؤلاء الضباط وسط هذه الزمرة من الأعراب غير الموثوق فيهم نذرا للخطر .

عندما كانت قوات المشاة تسير حول مرتفعات السبلوقة نزلت البواخر وعدت مضيق شلال السبلوقة ساحبة خلفها كل الصنادل والمراكب الشراعية . كانت نهاية المنطقة الشمالية

---

*الباخرة "التيب" التى تحطمت عند الشلال الرابع فى عام ١٨٩٧ ،قد تم اصلاحها واعادتها للملاحة تحت اسم"الحفير" لتغير الحظ.

للشلال محروسة بخمس طوابى التى تقف الآن خالية بعد أن انسحب الدراويش منها. كانت الطابيات قوية ووضعت باتقان على الجانب الغربى وواحدة على الجانب الشرقى كل طابية بها ثلاث فتحات للمدافع وكانت وكان مقدرا أن تكون مانعا رهيبا للدفاع عن الممر الضيق إذ تم استخدامها .

دخلت البواخر واحدة خلف الأخرى الى المضيق . النيل تحته لمسافة ميل يضيق لمسافة ٢٠٠ ياردة خيث تزداد سرعة المياه ، هنا تظهر حجارة سوداء طويلة كأنها حجارة من البازلت ترتفع وتنخفض على سطح النهر تمر المياه الهادرة بصوت مسموع وفى شكل زبد أبيض كلما ارتطمت مع الحجارة القريبة من السطح . تنمو بعض الأشجار والأعشاب من عند المرتفع الى حافة الشلال وتكون منظرا رائعا بالمقارنة مع لون المياه البنى والأحجار السوداء . إنه ممر رهيب ، بعض حملة البنادق على المرتفع وبعض المدافع فى الطابيات ويقفل الباب تماما .

تحركت القوات الراكبة فجر يوم ٢٧ ضاربة فى الصحراء من ودحامد وهى تعبر التلال الحجرية بجانب فرقة اللانسر ٢١ وتسع سرايا للخيالة المصرية من سلاح الفرسان ضم الطابور ٨٠٠ من فرقة الهجانة القوية ، وبطارية مدفعية الخيول .

كان منظرا فريدا أن ترى الخيول والجمال وهى تركض فى الرمال بنفس تشكيلاتها ، من فرق وسرايا تاركة عاصفة من الغبار خلفها متجها ناحية الشمال .

كانت القوات السودانية التى كانت أول من وصل لموقع المعسكر والقاعدة الجديدة فى جزيرة الرويان قد انتهت من بناء الزريبة ونظافة الأرض ، تم إنشاء مخازن للمون والعتاد وأيضا مستشفى ميدان من الخيام البيضاء ووراءها غابة من صوارى المراكب وشراعاتها . كانت الصنادل والمراكب الحاملة للإمدادات فى انتظار القوات التى كان عليها أن تستريح وتجد لها ملجأ من حرارة الشمس الحارقة . تلال السبلوقة السوداء التى شيد المعسكر حولها وتحتها كانت ترقد خلفنا .جنوب هذه المنطقة يقع سهل منبسط ملىء بالشجيرات الصغيرة تظهر من حين لآخر بعض مرتفعات حجرية تقطع رتابة السهل .

النيل الخالد يجرى مسرعا بجانب الخيام والمخازن ويختفى بطريقة غامضة داخل الشلال، ويظهر على الجانب الآخر جبل عظيم ، جبل الرويان ،الذى يقال يمكن أن تشاهد الخرطوم من أعلى قمة فيه .

ترك الجيش كله معسكر الرويان يوم ٢٨ أغسطس فى حوالى الرابعة عصرا وسار حتى وصل وادى العبد على مسافة ٦ أميال جنوبا، وصلنا الآن الى منطقة مفتوحة يمكن أن يتحول فيها الجيش الى تشكيل قتال، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يمكن للمرء مشاهدة كل وحدات الجيش مجتمعة، المشاة ، الفرسان والمدفعية كلها زاحفة .

فى الهواء الطلق تبدأ تفاصيل الصورة مدهشة كانت هناك ٦ لواءات مكونة من ٢٤ كتيبة من المشاة ، ومع ذلك كانت كل كتيبة ظاهرة للعيان تتكون من أحجام صغيرة. أرسل لواء من الفرقة السودانية الى الموقع للحراسة ضد أى تهديد للقوات حتى يتم بناء الزريبة .استطاع أحد أفراد الدراويش أن يتخطى هؤلاء ومع مغيب الشمس وصل حتى مكان فرقة وروكشير ورمى عليهم حربته فى تحد سافر والعجيب فى الأمر أن عنصر المفاجأة ألجم الجميع واستطاع ذلك الفارس المغوار أن يفلت بعملته وفر بسلام .

يوم ٢٩ بقيت القوات واقفة فى موقع قبالة أم طريف فرقة الفرسان المصرية هى التى ذهبت للاستطلاع والاستكشاف ، عاد العقيد برودود بعد أن كشفوا المنطقة لمسافة ٨-٩ أميال و لم يجد أى مكان مناسب للمعسكر .

أثناء ذلك النهار جاءت الأخبار بكارثتين على النيل واحدة تخصنا والأخرى تخص العدو . فى يوم ٢٨ أبحرت الباخرة المسلحة الظافر من القاعدة فى عطبرة فى طريقها لتعدية شلال السبلوقة وبلوغ ودحامد . فجأة دخلتها المياه وبالرغم من كل المحاولات لإنقاذها انقلبت على رأسها وغرقت فى المياه العميقة قرب المتمة . الرجال الذين كانوا على ظهرها ومعهم القومندان كيبل قائد الأسطول النهرى استطاعوا بعد جهد الوصول الى الشاطىء حيث وجدوا بعد حين يعانون من البرد والجوع . تماما عشية الهجوم على دنقلا ، سوء الطالع لازمها هذه المرة أيضا . وصلت هذه الأخبار الى السردار تأسف لفقد باخرة قوية ولكنه كان قد أعد فى حسبانه مجالا لخسارة وفى النهاية تقبل سوء الطالع بروح عالية ، أيام المعاناة الحربية قد ولت ، فهو يعرف أن الحادث لن يؤثر على القوة الكافية التى لديه .

الكارثة الأخرى جاء بها الجواسيس الذين يندسون وسط قوات الخليفـــة وحتى وهـــى تتقدم . لم يقنع الخليفة بالاستحكامات التى بناها على الشاطىء كان يخاف مواجهة البواخـــر المسلحة ، أرسل الى ضابط سابق فى الجيش المصرى وأحضره من سجنه وأمر بعمل لضـــم بحرى . جاء بغلايتين قدامى ملأها بالبارود ووضعت أحداها على الباخرة الإسماعيلية لحملها ووضعهافى مكان استراتيجى -كانت الخطة أن يتم ربط مسدس بخيط ، يطلق النار علـــى المفجر عند جذبه انزلت الغلاية من الباخرة . كان الخليفة يناقش "أن البارود سينفجر بمجرد جذب الخيط " وقد كان محقا فيما يقول ، انجذب الخيط بطريق الخطأ أثناء تنـزيل الغلايـه وانفجر فى الحال ، دمرت الإسماعيلية ومن عليها الى أشلاء .

غير مبال بفقد الأرواح ، أمر الخليفة بإنزال الغلاية الأخرى ، بعد أن مات الضـــابط المصرى الخبير ، ترك الأمر لأحد الأمراء الذى ارتفع لمستوى المسئولية ، أخذ حـــذره بـــأن سكب الماء فى البارود ليرطبه ، نجح فى إنزالها على النيل ، الخليفة الذى يجهل أن البارود الآن عديم الفاعلية أثنى كثيرا على نجاح الأمير وأمر له بالهدايا .

فى وادى العبد ،مضى اليوم والجنود تتبادل تلك القصص وجاء الليل فظهرت العنـاكب والخنافس ولدغت العقارب بعض الرجال ، لدغتها مؤلمة لكنهاىليست خطرة..

عند الفجر هطلت الأمطار غزيرة بللت الكل حتى أشرقت الشمس من خلف التـــلال وفرقت السحاب الى كتل كأنها شعلة بلون القشطة ثم ركبنا وتحركنا. فى هذا اليوم تحركـت القوات وهى فى حالة استعداد للقتال وأرسلت فرق سلاح الفرسان الى الأمـــام كســتارة جبارة تمتد من عند البواخر فى النيل حتى مشارف الهجانة عند الصحراء . بعد قليـــل مـــن تحركنا ظهر أمامنا مرتفع جبلى — تلال مرح ، تحركت فرقة الأنسر ٢١ واحتلـــت هـــذه المنطقة وظهرت كل مساحة البلد أمامنا ، كنا على بعد ٢١ ميلا من الخرطوم ظهرت لنـــا منها على الأقل عشرة أميال ، ولكن لا أثر لأى أعداء ، هل هربوا ؟ ، ليست هناك مواجهة أو مقاومة ، هل سنجد أم درمان مهجورة ومستسلمة ؟ كانت كل هذه الأسئلة تـــدور فى عقل كل واحد وتمت الإجابة عنها بشكل إيجابى. كان العقيد مارتن قد بلغ السردار أن كل المنطقة خالية تماما من أى دراويش . بعد حين صدرت الأوامر أن تبقى سريةواحدة للمراقبة

وتعود البقية الى المعسكر . أرسلنا بمجموعة لمسافة ميل وانتظرنا ننظر ونراقب من التل ، مر الوقت ببطء وكانت الشمس حامية فجأة ظهر أن أحد أفراد

المجموعة يرسل إشارة بشكل قوى ، كانت أشارة وأضحة ، الضابط مع المجموعة شاهد الدراويش أمامة ، شاهدنا بخلال نظاراتنا وجدنا فعلا أن هناك أحجاما صغيرة من اللون الأسمر تتحرك نحو موقع فرقة الفرسان المصرية التى ترابط فى أقصى الغرب ، كان تعدادهم حوالى ٧٠ فارسا لم نستطع أن نرفع نظرنا عنهم ، هؤلاء القوم الذين جئنا إن أمكن أن نهلكهم . وصلت دورية الدراويش هذه الى يمين فرقتنا ويظهر أنهم كانوا أقرب مما يتصورن. فتح الملازم كونلى نيران سلاح الكاربلين عليهم فاستداروا عائدين دون أن يركضوا .

عند عودتنا وجدنا معسكرا يختلف كثيرا عن ذلك الذى تركناه فى الصباح . بدلا من شاطىء النيل أقيم هذا وسط شجيرات الشوك تم تنظيف المكان وشيدت زريبة كبيرة بيضاوية الشكل ضمت داخلها كل الألوية الستة،مع الفرسان والمدفعية وخطوط المواصلات.

فى الساعات الأولى لوقت السحر فى اليوم التالى بدأ الجيش الطوابير على ضوء النجوم ومع طلوع الخيوط الأولى للفجر ، أرسلت فرقة الفرسان الى المقدمة . مؤمنة تماما خلف ستارة الفرسان والهجانة تحركت قوات المشاة فى تشكيلاتها العادية . بعد يوم ٢٧ الفرقة تسير كوحدات متجانسة، بعد يوم ٣٠ كان السير على شكل قوات مقاتلة . الفرقة البريطانية على الشمال والجيش المصرى على اليمين . كل اللواءات سارت فى اصطفاف المعركة الكتائب على الأجنحة شكلت قواتها على التقدم أو أرباع الكتائب البريطانية الأخرى جعلت تشكيلاتها لست فرق فى المقدمة اصطفاف تقدم رباعى وفرقتان للمساندة . سارت اللواءات المصرية عادة بثلاث كتائب فى المقدمة وكتيبة فى الاحتياطى ومعها أربع فرق فى المقدمة واثنتان للمساندة .

كان منظر الجيش المتحرك ، جيش النيل العظيم وهو يتقدم لتحقيق أهدافه كان المنظر فى الصباح الباكر مع الهواء الصافى رائعا ومهيبا . صفوف طويلة من كتل بشرية سمراء اللون مشاة ومدفعية وفى الأطراف جموع خيول طويلة من الفرسان وجمال الهجانة وهى تنهب الصحراء ، رجال بلون الشكولاتة على جمال بنيه اللون تنتشر فى الصحراء فى الجانب الأيمن،

والبواخر البيضاء وهي تمخر عباب الماء فى صمت تام مدافعها ترصد الشواطيء وفى المؤخرة خطوط المواصلات تظهر وسط السراب ، وتظهر المناظير المعظمة مواقع العدو على الأفق البعيد، ساعة بساعة ويوما بعد يوم استمر التقدم عندما وصلنا الى مقر المعسكر الجديد، كان لابد من تشييد زريبة وقد استغرق هذا العمل الشاق كل فترة الظهيرة. كلفت قوات المشاة المتعبة بالقيام بالحراسة وظلت فى مرور مستمر تحرس الزريبة وكل من بداخلها .

المعسكر التالى كان فى أرض منبسطة تتيح ضرب النيران على كل الاتجاهات. نام كل واحد نوما قلقا مع شعور قوى بالترقب وعلى كل حال سوف ينجلى الموقف فى اليوم التالى . ستسير قوة سلاح الفرسان الى جبال كررى إن لم تجد قوات الدراويش تستمر حتى جدران أم درمان . إذا كان للدراويش جيش ، إذ كان هناك احتمال لمعركة سوف نعلم علم اليقين بعد ساعات قليلة . كانت البرقيات التى أرسلت فى المساء هى آخر البرقيات التى وصلت الى انجلترا . هطلت أمطار غزيرة أثناء الليل وغسلت كل البلاد بالمياه ، كان خط التلغراف قد وضع فى الأرض نسبة لقلة الوقت لعمل عمدان له. الرمال المسبللة تفقد خاصيتها العازلة فقد توقفت كل الاتصالات وأصبح كل هؤلاء فى الوطن من لهم أزواج ،أبناء ، أشقاء ، أو أصدقاء يعملون ضمن الحملة ، فى حالة من عدم الرؤية تماما كتلك التى نمنا ونحن عليها وأكثر إيلاما .

أصاب التعب الجميع من جراء هذا اليوم الطويل . كانت طيلة فترة الأربعة عشر يوما منذ أن تحركت الحملة من قاعدة عطبرة هى فترة شاقة ، وعليه كان ضباط الأنسر سعداء بتناول وجبة سريعة ونسوا هذا الإرهاق ، هذه الأرض الصلبة وتوقع الأحلام المزعجة أثناء النوم العميق . استمرت قوات المشاة فى حراسة المعسكر كل الليل وحتى أثناء النهار . فى تمام الساعة الثانية صباحا هطلت أمطار مصحوبة بعاصفة رعدية وبرق أضاء المكان والكتل البشرية النائمة والحيوانات والخيام تهتز من جراء الهواء والريح ، ومن وسط المعسكر كان بالإمكان رؤية أفراد المشاة والحرس الذين استمروا فى أداء واجبهم بدون كلل . لم يكن هذا هو كل شيء . على البعد بالقرب من تلال كررى ظهرت قرية تحترق لاتطفى نيرانها الأمطار ، وتختفى فقط عند انتشار ضوء البرق ، كانت الحرب دائرة فى الاتجاه الجنوبى .

الفصل الرابع عشر

معارك أول سبتمبر

كانت فرق الفرسان البريطانية و المصرية تتـــاور و تركــض الى الأمَــام بانتظـــام، سرعان ما اكتشفت مراكز للعدو تفصلها عنـــهم ٨ أميـــال .اعتـــادت فرقـــة الفرســـان اللانسر ٢١ أن تكون على الناحيـــة الشـــمالية بـــالقرب مـــن النـــهر ،بينمـــا الســـرايا الخديوية تشكل منحني على شكل نصف القمر (هلال) ميلها الى الخلـــف لكـــي تؤمـــن الجانب الأيمن وتساندها فرق الهجانة ومدفعيـــة الخيالـــة ، شـــاهدت البواخـــر تتحـــرك، الأسطول النهري المسلح ،بدأت الملاحة فى النيل ،البواخر البيضـــاء واحـــدة مـــن خلـــف الأخرى تبحر بكل هدوء ،منظرها رائع .بدأت تظهر علـــى فـــترات ،المســـافة حـــوالى ميل أو ميلين بين الباخرة والأخرى التي خلفها ،الآن احتفظت المســـافة المعتـــادة و هـــي ٣٠٠ ياردة. كانت الأوامر لســـلاح الفرســـان اســـتطلاع مواقـــع العـــدو والأوامـــر للأسطول أن يدمر أم درمـــان.

بمجرد أن تركت سرايا اللانسر ٢١ كتف تلال كـــرري ، شـــاهدنا علـــى البعـــد قبة بنية اللون ترتفع فوق الأفق ، إنها قبة المـــهدي تتوســـط أحيـــاء مدينـــة أم درمـــان. تمكنا من المنطقة المرتفعة أن نشاهد بالنظارات المعظمة بيـــوت الطـــين ،صفـــوف خلـــف الأخرى ،تشكل كتلا بنية علـــى ســـطح الأرض، علـــى الشـــمال بـــان النـــهر بلونـــه الرمادي الحديدي مع ضوء الصباح يرتفع الى فرعـــين وعلـــى اللســـان الـــذي يفصـــل بينهما ظهر مبني أبيض خلف الأشـــجار ،كـــانت أمامنـــا بقايـــا الخرطـــوم و حطامـــها وملتقى مقرن النيلين الأزرق و الأبيـــض.

كان هناك تل أسود كبير يحتل المكان الذي يفصـــل تـــلال كـــرري وأم درمـــان، يمتد منه مرتفع أخفى الأرض التي تقع خلفه. باقي المنطقة عبارة عـــن ســـهل رملـــي بـــلا حدود تتخلله بعض أكوام الحجارة والأعشاب وفى منطقـــة أخـــري تنمـــو الشـــجيرات الصغيرة. على شواطئ النهر الذي يحتضن الصورة كالبرواز ظـــهرت قريـــة ،بيـــوت مـــن الطين تقف شمال الشاطئ ، كانت وإن لم نعلم وقتها ،هـــي ميـــدان أم درمـــان ،كـــانت

مهجورة ، لم نشاهد أثر المخلوق. الآن ظل البعض يردد مرة أخرى سوف لن يكون هناك قتال ،ها نحن أمام جدران أم درمان ولا أثر للعدو فى طريقنا. بدت السرايا الأربع كنقاط صغيرة وسط السهل الفسيح ، تحركت للأمام ،وفى نفس الوقت تحركت فرقة الفرسان المصرية وفرقة الهجانة ودخلت منطقة السهل من ناحية الغرب ، تركض على بعد عدة أميال .

كنا على بعد ثلاثة أميال لآخر المرتفع الذي يفصل بيننا و المدينة ،إذا كان هناك جيش للدراويش ،إذا كانت هناك معركة وإذا تمسك الخليفة برباط الجأش واعتزازه بقبول تحكيم المعركة والحرب ، يجب أن يظهر الكثير من هذا المرتفع. نظرنا ،فى أول الأمر لم نر شيئا سوى بيوت أم درمان و السهل الرملي الممتد من عند النهر حتى التلال البعيدة و فجأة ظهر صف طويل على بعد أربعة أميال من موقعنا صف أسود تتوسطه نقاط بيضاء ،إنه العدو. بدا لنا أن هناك حولي ٣٠٠٠ رجل داخل زريبة من الشوك .قال بعض الضباط شيئا أحسن من لا شئ .لا يمكن أن نحتاج لوصف حالة الاضطراب النفسي الذي كنا نعانيه ونحن نتحرك نحو مواقع الدراويش. ننظر للأمر من زاوية مرة ومن زاوية أخري مرات أخر وفى كل الحالات نزداد اقترابا .تقدمت فرق الفرسان وتوقفت على السهل على بعد ثلاثة أميال، ثلاثة أحناش عظيمة من الرجال . ثعبان فاتح اللون هي اللانسر ٢١ ، أخر أطول أسود اللون هي الفرسان المصرية وأخر مرقش الألوان هي فرقة الهجانة ومدفعية الخيالة. من هذه المسافة كانت الرؤية واضحة شاهدنا بعض فرسان العدو على خيولها أمام الصف الأسود الطويل الذي يغطي سطح المنحدر ،أتجه بعض هؤلاء بلا حذر للنظر على السرايا ، لم يكن لهم علم بمدى رشاش الكاربناين لى ما تفورد الطويلة .ترجلت مجموعة وعندما اقترب العدو لمسافة ٨٠٠ ياردة ،فتحت المجموعة النار عليهم أصيب اثنان وسقطا على الأرض ،ترجل زملاؤهما فحصوهما، حملوا واحدا وتركوا الآخر وركبوا عائدين من دون أن يعملوا أي حساب للرصاص حتى بالإسراع فى الخطوة .

مرت هذه الحادثة ومر معها الوقت ،إنها الآن الساعة الحادية عشرة. فجأة بدأ الصف الأسود الذي كنا نظنه زريبة فى التحرك كان يتكون من الرجال و ليس من الشجيرات ،ظهرت خلف هذا الصف كتل من البشر يموج بها سطح الأرض، وبينما نحن مبهورون من هذا المشهد امتلأ كل السهل بأسراب من المتوحشين واكتست الأرض بلون السواد . غطت هذه الجموع مسافة أربعة أميال من طرف لطرف ،بدأت كخمس أورط بدأ هذا الجيش المهول فى التحرك وبسرعة حتى بدا كأن التل قد بدأ يتحرك ،وسط هذه الكتل يتحرك فرسانهم بشكل مستمر ،أمامهم بعض الدوريات تظهر فى السهل كنقاط بيضاء صغيرة فوقهم تلوح مئات الأعلام والشمس ترسل أشعتها على آلاف الحراب المعادية ،فتحولها الى سحابة لامعة .

أصبح من المعلوم الآن أن الخليفة قد استطاع حشد جيش أكثر من ٦٠ ألف مقاتل فى أم درمان . قد تذكر أن كل الانتصارات التي حققها الجيش المصري كان مهاجما فيها بينما دافع الدراويش فى كل الهزائم الأخيرة التي حلت بهم . لذلك قرر ألا يواجه الجيش فى السبلوقة أو أثناء زحفه لأم درمان . سوف يسوى الأمر كله فى معركة فاصلة عند تلال كرري . لقد تحققت نبوءة المهدي ،جيش الدراويش كان مهولا ، عندما يصل الأتراك سوف يلقون فى النهر .

و بناء عليه كان الخليفة يتابع مراقبة تقدم جيش الحملة من ودحامد بمجموعة فرسان أقوياء تبلغ ٢٠٠ فارس . فى يوم ٣٠ أغسطس أخطر بأن الجيش يقترب، فى يوم ٣١ جمع كل قواته وقوات الحرس الخاص ما عدا الأفراد الذين يرابطون فى الطابيات على شاطئ النهر مع طابية المدفعية ، جمعهم فى ميدان أم درمان الخاص بالاستعراضات وألقى خطبة رنانة على قادتهم و أمضى الليلة وسط معسكر قواته . فى اليوم التالى أجبر كل الرجال البالغين بالتوجه نحو الجبهة ،لم يبق إلا مدفعجية وحامية النهر بقيت فى المدينة بالرغم من الحزم و تشديد الرقابة هرب حوالى ٦ آلاف رجل فى ليلة ٣١ وأول سبتمبر ،جعل هذا مع تعداد القوة فى الحامية أن ينخفض عدد القوات التي اشتركت فى القتال الى ٥٢ ألف مقاتل .

عدد الذين تقدموا نحو فرق الفرسان البريطانية و المصرية حوالى ٤٠٠٠ أشداء كان تشكيلهم فى طابور منتظم ومحدد ،يواجه الشمال الشرقي بعرض ٤ أميال من ركن لركن ،وقفت فصيلة قوية من الملازمين فى الوسط .على ود حلو وأعلامه الخضراء كون امتدادا من ناحية الشمال يتبعه ٥٠٠٠ محارب أغلبهم من قبائل دغيم وكنانة ،أصبح يقترب من الفرسان المصرية. فى الوسط كان الجيش الأساسي فى تشكيلات رباعية تحت قيادة عثمان شيخ الدين وعثمان أزرق ،قوته ١٢ ألف بنداقة و ١٣ ألف حرابة من القوات السوداء يتوسطها علم كبير لونه أخضر غامق ، أختاره شيخ الدين ليغيظ على ودحلو الذي كان يغار من لون علمه الأخضر الفاتح . خلفهم سار الخليفة خلف قوات الحرس حوالى ٢٠٠٠ رجل أشداء .. خلف كل هؤلاء ركب يعقوب وعلمه الأسود مع ١٣ ألف رجل مسلحينً بالسيوف والحراب مكونا مع القوة التي امتدت فى المقدمة قوات تأمين. تكونت الجبهة اليمني من لواء الخليفة شريف و علمه الأحمر وقوته ٢٠٠٠ رجل من الدناقله ، عثمان دقنه ،وهو لا يحتاج لعلم ومعه ١٧٠٠ رجل من قبيلة الهدندوة، كان يؤمن أقصي اليمين و الجناح الذي يقترب من أم درمان كان هذا هو الجيش العظيم الذي زحف سريعا نحو السرايا ،وهذه فرقة الاستطلاع كأنها تريد أن تتحقق من أن الذي تراه هو حقيقة بعد أن وقفت برهة على المرتفع الرملي؛ تركت مجموعة لعمل مناورة أمامية محدودة .

المشهد بالنسبة للفرسان المصرية كان يختلف ،كانت تعمل بجانب اللانسر ٢١ عند النهر وصلت سراياها المتقدمة الى أقصي موقع غرب تلال كرري حوالى الساعة السابعة، كانت قبة المهدي ظاهرة للعيان من هذا الموقع لم يمنع تل سرغام الرؤية فتمكنت الفرقة البريطانية من اكتشاف عن طريق المنظار المعظم ، طوابير طويلة من الدهم البنية و هي تسير نحو الغرب على طول الصحراء التي تمتد من أم درمان . أثبت المنظار المعظم فائدته فى الاستطلاع ،اتضح أن هذه الدهم ما هي إلا قوات ومجموعات من الخيول وهي ترعى ،بعض الجمال ومجموعة من الخيام البيضاء ناحية الجنوب ،ولم يكن واضحا إن كان هذا تقهقر فقرر العقيد برودود أن يقترب

أكثر ليتحقق أخذ كل القوة تحت إمرته وتحرك ناحية الجنـــوب الغـربي حيـث يوجـد تل مرتفع هو أخر شئ عال فوق السهل على مسافة أربعـــة أميـال مـن نهايـة تـلال كرري. تحركت الفرقة المصرية ببـطء ناحيـة نقطـة المراقبـة الجديـدة ، فى مسـيرتها اعترضها خور شمبات ، هو مجرى لتصريـــف الميـاه مـن تـلال كـرري وأم درمـان ويصب فى النيل على بعد أربعة أميال مـن المدينـة. الأمطـار الـتي هطلـت فى الليلـة الماضية جعلت الأرض المنخفضة عبارة عـن بـرك ميـاه وابتلـت التربـة الرمليـة ، لم تشكل هذه أي عقبة وفى حوالى الساعة الحادية عشر والنصف بـدأت الفـرق تنـزل من على التل فانفجر المنظر أمامهم فجأة ، على بعد أقل من ثلاثـة أميـال كـان جيـش الدراويش يتقدم فى شكل طابور اسـتعراض.

حمل الهواء القادم من الجنـوب أصـوات الطبـول وموسـيقي القـرون التقليديـة وأكثر رعبا أصوات همهمة وتكبير الآلاف وهي تصـل الضبـاط المندهشـين ،وقفـت فرقة اللانسر ٢١ على بعد ثلاثة أميال من نهاية المرتفع الذي يمتـد غربـا مـن سـرغام وكذلك الجنود بقوا فى السهل على حالة استعداد. تحولت الأنظـار فجـأة مـن مشـهد تقدم الدراويش الكبير الى انفجار القنابل وأصوات المدافع صـوب النـهر.

بدأت قطع الأسطول النهري الملاحـة داخـل المجـري النيلـي واشـتبكت مـع بطاريات العدو على الشاطئين. طيلة اليوم كنـا نشـاهد البواخـر ونسـمع أصـوات القنابل ونري البواخر البيضاء و الدخـان الأسـود يعلـو مداخنـها وأيضـا الدخـان الأبيض المتصاعد من المدافع . الطابيات الـتي كـانت تملـك ٥٠ مدفعـا ردت علـى نيران الأسطول بقوة ولكن قوة الأسطول ودقة التصويـب مكنتـهم مـن دك الطابيـات و حولتها الى أشلاء ، وتعاملت مدافع المكسيم مع حملة البنادق داخـل الأسـوار علـى الشاطئ وأسكتت نيرانها . أما القذائف البعيدة المدى أصـابت المنـازل والمبـاني طـيرت الغبار الأحمر فى الفضاء تاركة الخراب فى كـل مكـان .

بالرغم من تشبث وشجاعة الدراويش إلا أنهـم أجـبروا علـى الانسـحاب مـن دشم المدافع الى داخل المدينة، وتم هدم حائط أم درمان العظيـم فى أكـثر مـن موقـع وقتلت أعدادا كبيرة مع الأسف من بـين الأهـالى.

فى هذه الأثناء اشتركت القوات العربية غــير النظاميــة (الحلفــاء) تحـت إمـرة الرائد ورتلي فى القتال ،كانت تعليمات الضــابط لهـم أن يعــاونوا الأسـطول النــهري بمهاجمة الطوابي والقرى شرق النيل فى المؤخرة على شـــاطئ النــهر وبعــد أن أسـكتت مدافع الأسطول الطابيات على هــذا الشــاطئ أمــر القــائد ورتلــي بــالهجوم علــى الطابيات والمنازل . وضع الجعليين الوحيدين الذيــن كــانوا محـل ثقـة فى الأحتيــاطي ووزع البقية حسب إمكاناهم وميولهم . تقدمـــت القــوة المكونــة مــن ٣٠٠٠ رجــل نحو المنازل ، بدأ الدرلويش ضرب النــار فى الحــال، وعندمــا وصلــت القــوة لحـوالى ٥٠٠ ياردة من العدو ، بدأوا إطلاق رصـــاص بنادقــهم فى الهــواء ثم مارســوا بعــض الرقصات التي تدل على غضبهم وفوقمم رافضـــين أي تقــدم .

أمر الرائد ورتلي الجعليين بــالهجوم كونــوا اصطفــاف التقــدم وهجمــوا علــى القرية تدفعهم الرغبة الشديدة فى الانتقام، فى خطـــوة بطيئــة يحــاصرون منـــزلا وراء الآخر ويذبحون كل من بداخله من مدافعين حتى الأمير نفســـه قــد قتــل و ٣٥٠ مــن رجاله. كانت خسائر الجعليين أنفسهم ٦٠ قتيلا وجريحــا فى تلــك المعركــة .

بعد احتلال القرية والعدو فى الشـــاطئ الشــرقي إمــا قتــل أفــراده أو تبعــثروا ، التفتت قطع الأسطول للطوابي فى أعلى النـــهر وأنزلــت مدافــع الهــاونز وفى الســاعة الواحدة والنصف بدأت فى قذف قبة المهدي. كانت هـــذه العمليــات مثــار اهتمامنــا ونحن على حافة المرتفع ننتظر ونراقب حتى أنها لهتنــا عــن مراقبــة جيــش الدراويــش. كانت قمة القبة تقف فى شموخ وإجلال أعلى من بيـــوت الطــين فى المدينــة ،أصابتــها دانة ليدايت شديدة الانفجار ارتفع دخان أبيض تلته أصـــوات الانفجــار لدانــة ثانيــة وثالثة وبدلا من الدخان الأبيض ارتفع دخان أحمر غطـــي علــى كــل القبــة . عندمــا انجلى الدخان شاهدنا أن قمة القبة قد تحطمت و لم تعد لهـــا قمــة أصبحــت مســطحة تماما. استمر القذف أحدثت القذائف فتحــات فى جنبــات القبــة و أخــري خطمــت السقف المستدير وغلفته بالدخــان .

كانت فى هذا الوقت قوات الدراويش تتقــدم وتقــترب أكــثر ممــا أجــبر فرقــة الفرسان المصرية على التقهقر، وعندمـــا أحــس العقيــد بــر وودود بحــرج موقفــه ،

تحركت ٨ سرايا وخيالة المدفعية أولا ، خمس فرق هجانة و مدافع المكسيم ، ثم تبعت السرية التاسعة فى المؤخرة لحماية الانسحاب بقيادة الرائد تودوي .

قنع فرسان الدراويش بإطلاق رصاص بنادقهم، وتم الرد عليها برشاشات الكاربابن، كلما سنحت فرصة للترجل. بين الحين و الآخر يظهر فارس عربي جرئ يتقدم نحو السرايا المتقهقرة ولكن رصاصة من الكاربابن دائما تجبره على التوقف استمر تراجع القوة بدون تدخل وتم إعادة عبور خور شمبات مرة أخرى بسلام.

بمجرد أن شاهدنا الفرقة المصرية، والكتل السوداء تحت التلال السوداء ناحية الغرب قد أتمت انسحابها ، انسحبت اللانسر ٢١ ببطء الى جبل سرغام الذي شاهدنا منه الدراويش لأول مرة ، رجعت الفرقة عن طريق الأجنحة المتتابعة ، تاركين فصيلتين فى المؤخرة لتأمين الفرقة من أي هجمات وهي منسحبة وحتى تبعد دوريات العدو لمسافة آمنة . عندما شاهد العدو أن كل فرق الفرسان انسحبت أصبحوا أكثر جرأة وبدأت مجموعات من خمسة أو ستة فرسان تقترب وهي تعدو، وعليه كلما سمحت ظروف الأرض تقف السرايا وتتبادل إطلاق النار معهم، وهكذا سقط أكثر من نصف دستة بين قتيل وجريح ، لم يرتد الآخرون واستمروا فى تعريض السرايا للخطر وأصبح لزاما إرسال مجموعة لطردهم . هجمت مجموعة من اللانسر ٢١ بكل قوة ناحية الدوريات الفضولية ، كانوا مشتتين وعندما لم يستطيعوا التجمع رفضوا المواجهة . استمر جيش الدراويش العظيم فى التقدم ضاغطا على سلاح الفرسان أمامه ،وكان واضحا أن الخليفة لو استمر فى تقدمه فإن الصدام بين القوتين واقع لا محالة قبل حلول الظلام .

كان المشهد غير عادى من على قمة تل سرغام . ابتلع السهل الواسع جحافل جيش الدراويش حتى بدوا كالأقزام بمجرد دهم وأحجام صغيرة على سطح الأرض البني. وعندما تتجه شرقا تجد جيشا أخر ظاهرا للعيان الآن: القوات البريطانية والقوات المصرية،عدت كل اللواءات الستة تلال كرري، وتقف الآن فى شكل هلال ظهورهم على النيل،خطوط المواصلات و الإعدادات وبيوت قرية عجيبة تملأ

الفراغ ، لا تري القوات بعضها البعض رغم أن خمسة أميال فقط تفصل بينها. طوابير العدو كانت بلا شك طويلة وعميقة ولكن إحساس القوة كانت مع الكتائب الصلدة التي تقف صفا مستقيما كأنه رسم بالمسطرة .

دب النشاط فى المعسكر ، رصت القوات أسلحتها واستعدت لتناول وجبة الغداء مع توقع بداية المعركة ،وكانت قد شيدت سورا حولها من الشوك. وفى تمام الساعة الثانية أمرت كل القوات أن تقف على أهبة الاستعداد لصد الهجوم الذي توقع الجميع أنه آت من جيش الدراويش .

فى الساعة الثانية إلا ربعا وقف جيش الدراويش ، كان تمرينهم جيدا إذ وقف الجميع بأمر واحد . وفجأة أفرغ حملة البنادق (البنداقة) رصاص بنادقهم فى الهواء مع صيحات بربرية مدوية تنادي بالنصر . ارتفع الدخان الأبيض على طول الصف من أوله لآخره ، ثم بعد هذا استلقي الجنود على الأرض ووضح أن الأمر سوف لن يسوى ذلك اليوم .

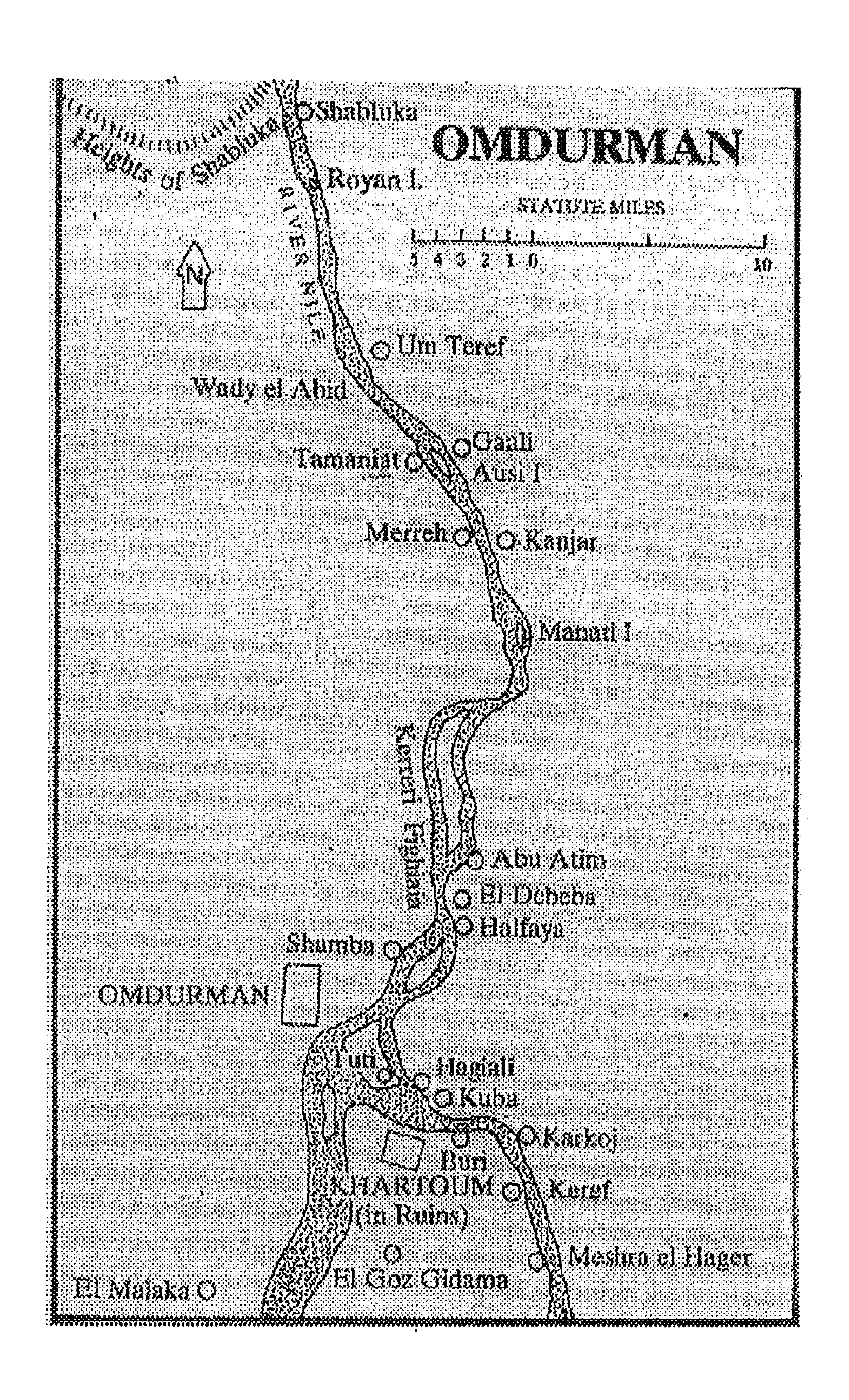
بقينا فى مواقعنا بين رمال المرتفع حتى جاء المساء ، وكانت فترة الظهيرة قد شهدت عمليات متقطعة بين دورياتنا وأفراد العدو تكبدوا فيها خسائر حوالى ١٢ فرد بين قتيل وجريح ،وخسائرنا جرح عريف واحد وقتل حصان . عندما حل الظلام عدنا الى النهر لنسقي الخيول ، مرورا بالزريبة وعندما تحدث معنا الضباط البريطانيون والجنود سائلين إذا كان العدو قادما فأجبناهم بكل ثقة الاحتمال الأكبر عند الصباح .

عندما أكملت البواخر المسلحة عملياتها ، أغرقت باخرة للدراويش ،أسكتت بطاريات العدو وهدمت قبة المهدي ،عادت بهدوء للشاطئ قبالة المعسكر حتى توفر لنا الحماية اللازمة إذا تعرضنا للهجوم.

وعند حلول الظلام وجهت البواخر أنوار كشافاتها أمام الزريبة والى التلال البعيدة . ظلت الكشافات تضيء المساحات الموحشة فى الصحراء والتي لم تكن خالية هذه المرة ، قضي الدراويش الليلة حول المنخفض الشرقي لخور شمبات جلس كل الـ ٥٠ ألف محارب المخلصين كل حول علم فرقته وبالقرب من قائده وأميره

ونام الخليفة فى وسط المعسكر وحوله قادته وفجأة أضاءت المكان أنـــوار كاشـــفة قويـــة آتية من شاطئ النهر أضاءت كل المكان ،عيني الشيطان البـــاردة، وضـــع الخليفـــة يـــده على كتف عثمان أزرق وهمس فى أذنيه " عثمان من ذا الذي ســـيقود الهجـــوم غـــدا؟"
ما هذا الشيء الغريب ؟ سأل عثمان ،أنهم ينظرون الينا، هنـــا دخـــل الخـــوف قلـــوب الجميع، كان للخليفة خيمة بيضاء صغـــيرة لكنـــها ظـــهرت فى الضـــوء فـــأمر الخليفـــة بفكها بسرعة ، غطي باقي الأمراء وجوههم بأيديهم حتى لا يعميـــهم النـــور الســـاطع، وتوقع الجميع أن تتبع هذه الأنوار قذائف طويلة المدى ،و فجـــأة اختفـــى النـــور.

. الجندي العامل علـــى العدســـات الكاشـــفة لم يكـــن يـــري شـــيئا غـــير الأرض المنبسطة ومر على أجساد الجيش النائم وبعض المحاربين كمرور الهـــواء العـــاصف علـــى حقول الـــذرة .



OMDURMAN
STATUTE MILES
5 4 3 2 1 0
10
N
Heights of Shabluka
Shabluka
Royan I.
RIVER NILE
Um Teref
Wady el Abid
Gaali
Tamaniat
Ausi I
Merreh
Kanjar
Manatl I
Kerreri Hills
Abu Atim
El Debeba
Halfaya
Shamba
OMDURMAN
Tuti
Hagiali
Kuba
Karkoj
Buri
KHARTOUM
(in Ruins)
Keref
Meshra el Hager
El Goz Gidama
El Malaka

الجيش الإنجليزي المصري لم يشيد معسكرا مربعا كما كان يحدث فى الليالى السابقة ، بقي الجنود و الضباط على حالة الاستعداد التي كانوا عليها فى الظهيرة عندما كان الهجوم متوقعا . كانت هناك حراسة كل ٥٠ يأردة وعلى بعد كل مائة ياردة دورية على رأسها ضابط ،الرجال من كل الدرجات مدججون بالسلاح ينبطحون على الأرض فى حالة تدل على أقصي حالات المعاناة ،والعدو الذي هو ضعف قوة الحملة على بعد خمسة أميال ، تقدم العدو بثقة وتصميم ولكن كان من المستحيل التخيل أنهم سيهجمون فى وضح النهار وفى هذا السهل المفتوح . كان هناك تفسيران لتقدمهم ووقوفهم الفجائي. إما أنهم اختاروا موقعا وتوقيتا بحيث لو هاجمهم السردار فسوف يضطر للقتال حتى المساء ، لو بدأت المعركة فى الرابعة وظهره للنيل ، أما التفسير الثاني هو أن العدو قد قرر أن يهاجم بالليل . كان من غير المتوقع ومن قائد كفؤ أن يهاجم فى الظهيرة فى ذلك الوقت المتأخر ، وإذا قرر الدراويش الهجوم فالخسائر سوف تكون من نصيبهم . ولكن سيبقي الجيش فى حالة دفاعية بحتة ، على أي حال حتى صباح اليوم التالى. فان الخيار الباقي أمام العدو هو الهجوم الليلي .

هنا كان مكمن الخطر الذي يهدد الحملة ، ماذا سيكون حالة الجنود أثناء ساعات الليل ؟ بالنهار لم يكن العدو يسبب لهم أي قلق ولكن بالليل وأقصي حدود لنيرانهم ٤٠٠ ياردة سيكون من الصعوبة بمكان ومشكوك فيه القدرة على رد الأعداء والحفاظ على الجبهة متماسكة. كان التفكير مدمرا فى احتمال نجاح العدو فى اختراق الجبهة عند حلول الظلام، ظهور حشود فجأة وهي تقتحم للهجوم فى أسراب تجلب الشؤم . صوت انفجارات الرصاص والمدفعية على طول خط الزريبة والحشود مازالت تتدفق رغم الرصاص ،والنار المشتعلة وعدم إمكانية السيطرة عليها والضرب الشديد وانهيار جزء من الجبهة والهرج والحيرة والاضطراب المجنون مع مئات المقاتلين شاهرين سيوفهم عاملين طعنا وتقطيعا فى كل كائن حي، من خلال أي فراغ فى الزريبة وهيجان الحيوانات واندفاعها الى كل اتجاه تعرقل أي تشكيل أو أي محاولات لإعادة النظام. أو عندما تلتحم اللواءات وتطلق نيرانها على

العدو والحليف على السواء وبوحشية ،الى أن يسلم آلاف بل مئات يهربوا عن طريق الصنادل والبواخر يبلغوا عن الهزيمة والخراب

هذه الصورة لو كانت حقيقية أو غير ذلك لطافت بأبصار وأفكار كل من كان بالمعسكر من القادة فى تلك الليلة ومهما كانت أفكارهم فإن خططهم صلدة. مهما قيل من نصائح أو أفكار طرحت، سوف تبقي المسئولية على أكتاف سير هيربرت كتشنر وحده يتحمل مسئوليه أي قرار صدر .

ربما كان عليه أن يجهز الجيش من كتلة من الرجال و الحيوانات وحولها رجال المشاة كسور سميك أو خندق كبير ويشيد زريبة عالية كما سمح الوقت أو كان عليه أن يملأ المنازل بأفراد المشاة وعمل استحكامات بينها تكون دائرة آمنة للفرسان والمواصلات والمدافع ،تستغل المساحة الضيقة المتاحة .

ولكنه كون تشكيل الجيش على شكل صف طويل منحن ظهره الى النهر وشغل مساحة هائلة من الأرض وحولها الإمدادات والحيوانات منتشرة فى كل السهل بطريقة مترفة . كانت خطوطه عميقة مع فرقتين لكل كتيبة ولواء المصريين (كتولپنسون) كاحتياطي، كذلك جهز أقوي النيران ووقف ينتظر مستعدا ولكنه يتضرع ألا يضطر فى دخول مغامرة ليلية .

مرت الليلة بدون إزعاج وبقي معسكر القمر الساطع وجنرالاته المتحفزون، وجنوده المتعبون ،والة الدمار الرهيبة ، كلها على حافة النهر العظيم ظلت يلفها الصمت ، كأنها تسترجع فرص الغد والفشل الماضي .وبالكاد على بعد أربعة أميال هناك جيش أخر ضعف عددهم وبنفس إصرارهم وبنفس القدر من الشجاعة ينتظر فى لهفة الى الصباح لتسوية هذا الصراع الطويل نهائيا .

الفصل الخامس عشر

معركة أم درمان

٢سبتمبر ١٨٩٨

صدحت أصوات بروجي إلايقاظ فى تمام الساعة الرابعة و النصف صباحا فى كل أرجاء المعسكر وعلى طول خط الأسطول النهري على النهر ، بروجي الخيالة، سلاح الفرسان ،وطبول ومزامير الفرق البريطانية انضمت للكورس واستيقظ الجميع على نغمات سعيدة متحدية ،ثم تدرج الصوت فى الخفوت وامتطي الخيالة خيولهم ، استعد المشاة بأسلحتهم وذهب المدفعجية لبطارياتهم وطلعت الشمس فوق النيل وظهرت السهول الواسعة والتلال السوداء وقوات الجيش المنتظر .كأن كل التحضيرات قد انتهت وجهزت الأرض و لم يبق إلا الفصل النهائي وعنف اللعبة .

حتى قبل ظهور الضوء تم إرسال بعض السرايا من فرق الفرسان البريطانية والفرق المصرية لتستطلع مواقع العدو وتكشف نواياه . كانت أول هذه السرايا بقيادة النقيب بارنج وقد وصلت الى تل سرغام وانتظرت طلوع الفجر لتستبين مواقع الدراويش . كانت عملية خطرة إذ ما كان العدو قريبا منهم من غير توقع . عند طلوع الشمس تحركت اللانسر ٢١ من الزريبة وأرسلت بعض الضباط كدورية . طالما لم يكن هناك هجوم ليلي لعل قوة الدراويش قد رجعت لمواقعها الأصلية أو دخلت المدينة، فما كان لأحد أن يتصور أنهم يمكن أن يهاجموا الزريبة فى وضح النهار بل كان أحد الاحتمالات أن قلوبهم قد وجفت أثناء الليل وأنهم ذابوا فى الصحراء . سرعان ما انتفت كل تلك التوقعات بالمشهد الذي كان ظاهرا من سطح المرتفع .

كانت الساعة السادسة إلا الربع ، كان الضوء خافتا لكنه يقوي مع مرور الوقت ، كان العدو يملأ السهل ،أعدادهم لم تتغير، ثقتهم لم تهتز، خطوطهم الأمامية بطول خمسة أميال متصلة ببعض مع صفوف أقل كثافة، وكانت على

أجنحة التشكيل والمنطقة الخلفية قوات احتياطية كبيرة بانت من على المرتفع كخيط من الطمس الأسود ، متباينة ومختلفة يشع ضوء غريب من أسنة رماحهم. حوالى السادسة إلا عشر دقائق كان واضحا أن الكتل البشرية بدأت فى التقدم وبحركة سريعة، وكان كل أمير يعدو على فرسه أمام كتائبه وبعض أفراد الدوريات ينتشرون أمام خطوط الجيش ثم بدأوا فى التكبير. كانوا على بعد ميل واحد من التل وتخفيهم عن جيش السردار الأرض المنخفضة ،سمعت القوات على النهر أصوات التكبير وإن كان الصوت خافتا ولكن الذين يراقبون من عند التل جاءهم الصوت كموجات هدير صاخبة كصخب الريح والموج قبل العاصفة .

كانت اللواءات البريطانية المصرية على تشكيل اصطفاف ظهرهم على النيل يؤمن أجنحتهم البواخر المسلحة الراسية على النيل ،أمامهم السهل الرملي المنبسط يبدو من المرتفع سطحا أملس كالطاولة . كانت جبال كرري على يمين القوة حيث مواقع الفرسان المصرية ككتلة سوداء من البشر والحيوانات. كانت على اليسار فرقة اللانسر ٢١ التي تقدمت منها سرية واحدة ووقفت تراقب المجموعة وهي تحتل قمة تل سرغام والمنطقة المحيطة به أو تمركزت على المرتفع كما فعلنا .

ترتفع الأرض تدريجيا من عند النهر حتى يظهر أن نهاية تل سرغام وتلال كرري تكاد تتلاحم طامسة الأرض بينهما وعلى البعد من هذا السهل الرملي الذي كون الجانب الغربي لجدار هذا المسطح ظهرت ظلال تلك التلال السوداء فى شبورة غامضة . كان المتحدون داخل الحلقة ، ظهر شرهم بسرعة .

بالرغم من تقدم الدراويش إلا أن حقيقة أن مدي نيرانهم وقوتها ضعيفة قد شجعنا على الاقتراب أكثر ،ركضنا جنوبا جهة الجنوب الغربي لمنحدرات سرغام حتى وصلنا الى التلال الرملية على ناحية العدو، نفس المنطقة التي كنا بها فى اليوم الماضي. ظهر كل طابور بكل تفاصيله . كان من الممكن فحص كل فرد من بين آلاف الأفراد بسهولة. كانت خطوة تقدمهم ثابتة وسريعة وشعرنا أنه من الخطورة الانتظار على التلال الرملية، ولكن كان المشهد مثيرا رغم خطورته ، بقينا لبرهة .

كانت أعلام ورمـوز الأمـراء المشـهورين ظـاهرة بوضـوح ويمكـن رصدهـا بسهولة. فى أقصي الشمال تجمع قادة وجنـود الرايـة الخضـراء الفاتحـة تحت قيـادة الأمير ودحلو ، بين هذه فى الوسط ، العلـم الأخضـر الغـامق لعثمـان شـيخ الديـن ارتفع فوق كتل من حاملي الحراب تتقدمها صفـوف طويلـة مـن المقـاتلين مسـلحين ربما بالبنادق أيضا. فى جهة الوسط وبقيادة يعقـوب كـانت الرايـة السـوداء المقدسـة للخليفة تخفق عاليا بشكل مميز بينما حشدت قوات كبـيرة تحت عـدد مـن الرايـات البيضاء، كان بينها الرمز الأحمر للخليفة شـريف كأنـه متخفـي. كـل عـزة وقـوة إمبراطورية الدراويش خرجت واحتشدت فى هـذا اليـوم الأخـير فى حياتهـا. البنداقـة الذين ساعدوا فى القضاء على هيكس، حـاملو الحـراب الذيـن هـاجموا فى ابو كلـي، أمراء شاهدوا كنائس قنبر، البقارة عائدون لتوهم بعد إغـارتهم علـى قبـائل الشـلك، المقاتلون الذين حـاصروا الخرطـوم ، جـاءوا جميعـا تحفزهـم ذكريـات انتصـارات الماضي، وتؤلمهم أخبار الهزائم الأخيرة ،لتدمير هذا العدو الوقح مـن الغـزاة الملعونـين .

استمر التقدم ، أبتدأ الجناح الشمالى لقـوة الدراويـش ، بـدأ فى الانتشـار فـوق السهل ناحية تلال كرري ليهاجم كتفنا اليمين كمـا كنـت أظـن ، وسـطهم تحت الراية السوداء تحرك مباشرة لتل سرغام اليمني أتخذ تشكيل تقـدم جنـوب ذلـك التـل، كانت هذه القوة بالذات أكثرهم هيبة ، عددهم لن يزيـد علـى ٦ آلاف لكـن زيـهم وطابورهم كان جيدا، وكانوا يحملون أعلامـا كثـيرة تبلـغ أكـثر مـن ٥٠٠ علـم كانت كبيرة بيضاء من بعيد ولكنها كانت تحمل آيات من القرآن ،مـع ولائـهم المثـير للإعجاب ظهر هذا الجزء من جيش الخليفة ليذكرنا بممثلـي الحـروب الصليبيـة وهـم منقوشون على القماش المزركـش .

تطور الهجوم ، شمال القوة ، ٢٠ألفا أشداء يزحفـون عـبر السـهل اتجـهوا نحـو السرايا المصرية . جنود الحشد فى الوسط اسـتعدوا واتجـهوا نحـو الزريبـة للالتحـام المباشر. بينما كل جيش الدراويش يتقـدم ، القسـم الـذي يحمـل الأعـلام البيضـاء والذي كان حتى تلك اللحظة يرافق مؤخرة اليمين ، تقـدم الصفـوف الأماميـة وبـدأ التسلق الى السفوح الجنوبية لتل سرغام ،ومجموعة كانت تسـير خلـف حملـة الأعـلام

البيضاء أعدادها ليست كبيرة كانت تتجه ببطء نحو النيل، ليس بعيدا عن يمين المؤخرة وأقرب الى أحياء أم درمان . هذه المجموعة فى الغالب قد كلفت لتمنع قطع خط الرجعة للدراويش وتأمين خطوط التقهقر ،ومعهم قد قرر لفرقة اللانسر ٢١ (الرماحة)أن يتم التعارف بعد ساعتين من الآن .

وصل وسط الدراويش الى مدى النيران ولكن لم يكن البريطانيون أو المصريون هم البادئين بإطلاق النيران . إن أضعف سلاح لدي العرب بالمقارنة مع أعدائهم هو سلاح المدفعية ،وقد اختاروا هذا السلاح لبدء هجومهم . ظهر وسط القوة بقع دخان أبيض ثم سقطت قذيفتان على بعد ٥٠ياردة من سور الشوك وارتفع دخان أحمر وسط الغبار فى المكان الذي سقطت فيه القذائف . كانت هذه القذائف بمثابة تحد تم الرد عليه فى الحال . كتل من السحاب الأسود ظهرت على طول جبهة اللواءات البريطانية والسودانية وفتحت أربع بطاريات نيرانها الواحدة تلو الأخرى على العدو من مدى ٣٠٠٠ ياردة . وصلنا صوت المدفعية ونحن على المرتفع ورددت صداها التلال . بدأت الدانات والشظايا تسقط فوق رؤوس الكتل الزاحفة وتملأ الهواء بكرات بيضاء من الدخان وتملأ الأرض بالجثث .

كانت هناك كارثة أخرى قريبة فقد وصل حملة الأعلام البيضاء الى السهل وبعد دقيقة أخرى سيكونون على مدى نيران البطاريات ، هل كانوا يعلمون ما ينتظرهم ؟ كانوا عبارة عن كتلة كثيفة من البشر على بعد ٢٨٠٠ ياردة من البطارية ٣٢ للميدان وأيضا البواخر. كان المدى معروفا والأمر متروك لآلة الحرب وكانت المذبحة فى المسار البعيد تمضي دون ملاحظة ، حيث سيطرت على العقول نتيجة الرعب القادم ، بعد ثوان معدودة سيحل الدمار على هؤلاء الرجال الشجعان الذين ظهروا على السطح وبانوا لكل أفراد الجيش ، تميزهم أعلامهم البيضاء فوق الجميع. عندما شاهدوا معسكر الأعداء بدأوا إطلاق رصاص بنادقهم وأسرعوا الخطى. فى لحظة قطع كل القسم الأرض الفضاء وأصبحوا مكشوفين تماما. فى الحال فتحت البواخر المسلحة نيرانها عليهم بالإضافة للبطارية ٣٢ لمدافع الميدان ومدافع أخري من داخل الزريبة ، سقطت عليهم ٢٠ دانة فى الدقيقة

الأولي، بعضها انفجر فى الهواء والأخـــر مباشــرة علــى وجــهوهم ودانـــات أخـــري انفجرت على الرمال محدثة غبارا أحمرا ورصاصا وشـظايا وسـط صفوفــهم . ســقطت الأعلام البيضاء فى كل الاتجاهات ولكنها ارتفعت مرة أخــري فى الحــال عندمــا تقــدم صف أخر ليموت شهيدا لنصرة أهداف المهدي المقدســة ودفاعــا عــن خليفــة النــبي الحقيقي. لقد كان منظرا مريعا ، لأنهم جــتى هــذه اللحظــة لم يســببوا أي آذى لنــا، وبدا تفوقا غير عادل أن نضربهم بهذه القسوة ، وهم لا يملكون إمكانيــة الــرد علينــا. نتيجة لدانات المدفعية ، تقلصت قوات الأعلام البيضـــاء الى أفــراد قلائــل مــن حملــة الرماح وبعض المناوشين وجاءوا بدون تشــكيل مرتــب ولكــن بعــزم لا يلــين . الآن بعد أن انكشف الهجوم بإتقــان جــاء دور ســلاح الفرســان ليطــهر أرض المعركــة بسرعة كبيرة وليترك باقي الحوار لسلاح المشاة ورشاشـــات المكســيم . عــادت كــل الدوريات الى سراياها ورجعت الى الزريبة بينما كــانت مدافــع البواخــر تمطــر الجــو فوق الرؤوس واشتعلت النيران على طــول صفــوف الموقــع وارتفــع الدخــان وجــاء هدير صوت الرصاص ليغطي على صوت المدافع بعد فــترة وجــيزة .

كان شاطئ النيل ملجأ ممــيزا، ترجــل أفــراد فرقــة الفرســان وســقوا خيولهــم وانتظروا ما ينجلي عنه الموقف . وفى كل مرة تزداد الضوضـــاء ويعلــو الضجيــج حــتى يغطي على أصوات رشاشات المكسيم ، كـــانت البطاريــة رقــم ٣٢ لمدافــع الميــدان تعمل على بعد ٨٠ ياردة وارتفاع حــوالى ٢٠ قدمــا فوقنــا . كــان أفــراد المدفعيــة يتحركون فى خفة ورشاقة وهم يهمون بالتعـــامل مــع آلــة الدمــار ، صعــد بعــض الضباط فوق صناديق البســكويت لكــي يســتعملوا نظــاراتهم المجســمة لمراقبــة اثــر الضــرب .

ألقيت نظرة فى هذه اللحظة . رأيت على مسافة ٨٠٠ ياردة مجموعــة مــن حملــة الأعلام البيضاء وهي تناضل فى وجهة النيران غــير الرحيمــة، يســقطون وينــهضون ، دخان أبيض بسيط ينطلق من بنادقــهم بينمــا تســقط عليــهم كتــل مــن الشــظايا. والدخان الأبيض ينتشر على طول خط المواجهة من جراء انفجــار قذائــف المدفعيــة .

كان أفراد المشاة يطلقون رصاص بنادقـــهم بثبـــات وبـــدون اســـتعجال أو إثـــارة لأن أفراد العدو علـــى بعـــد كـــاف والضبـــاط حريصـــون بالإضافـــة الى أن الجنـــود منهمكين باهتمـــــام فى عملـــهم بكـــل الحـــرص والمعانـــاة ، الآن أصبحـــت العمليـــة الجسمانية مملة . تبدو الأحجام أكبر من حجمها عند مشـــاهدتها فـــوق منحـــدر المنظـــر الخانى ولكنها تتناقص بعد ضرب موحـــــد .

ارتفعت حرارة مواسير البنادق للدرجة التي بدلت مـــع بنـــادق فـــرق الاحتيـــاطي استنفذت مدافع المكسيم كل كمية المياه المخصصـــة لهـــا ،وتم تموينـــها مـــن زجاجـــات فرقة الكميرون هايلندرز حتى تستمر فى عملها المميـــت- كـــانت خراطيـــش وظـــروف الرصاص الفارغة تسقط على الأرض حتى تكونت كومة كبيرة بجـــانب كـــل مقـــاتل . فى كل الوقت تسمع أصوات الرصاص فوق الســـهل وهـــي تخـــترق الأجســـام محطمـــة العظام ، ينفجر الدم فى جروح رهيبة ، رجال يصارعون بكـــل إقـــدام جحيـــم صفـــير الحديد وانفجارات الدانات ، وعواصف الغبـــار ، يائســـون ، يموتـــون ، هكـــذا كـــان مشهد المرحلة الأولي لمعركة أم درمـــان.

كانت خطة الخليفة للهجوم ، خطة معقدة وعبقريـــة لكنـــها بنيـــت علـــى خطـــأ قاتل هو عدم تقدير قوة السلاح الحديث الرهيبة ، بخلاف هـــذا الخطـــأ فلـــن يســـتطيع أحد أن ينتقدها . كان المفروض أن تهاجم قوة من ١٥ ألــــف رجـــل واجهـــة العـــدو، وهي من قوات عثمان شيخ الدين لكنها وضعت تحـــت قيـــادة عثمـــان أزرق ،وانتظـــر الخليفة نفسه مع قوة مماثلة بالقرب من جبل سرغام يراقـــب نتيجـــة الهجـــوم . إذا نجـــح الهجوم يتقدم هو بقوات الملازمين وهم أقوي جيش لديه لتحقيـــق النصـــر ،وإذا فشـــل الهجوم هناك فرصة أخـــرى . الدراويـــش الذيـــن هـــاجموا الزريبـــة فى أول هجـــوم لم يكونوا أحسن الجنود الذين يعتمد عليهم لذلك فقدهم ســـيكون خســـارة كبـــيرة لكنـــه لن يوقف الصراع. وبينما القتال مستمرا يزحـــف للشـــمال الأبطـــال الصنـــاديد وهـــم من تبقي من كتائب عثمان شيخ الدين دون أن يلحظـــها أحـــد ،الى الجنـــاح الشـــمالى فى شكل قوس لمهاجمة لواء القوات المصرية، ويستمر علـــى ودحلـــو بقواتـــه الى جبـــال كرري يبعد عن مدى نيران العدو وعن أنظـــارهم إن أمكـــن .

إذا قدر ، لا قدر الله للهجوم الأمامي والجانبي أن يفشلا سوف يترك أعداء الله معسكرهم فى الزريبة ليتجهوا نحو المدينة للاستيلاء عليها ونهبها . عندما تكون القوات مزهوة وفرحة بالنصر وخارج معسكرها الحصين فى الزريبة ينقض عليها الخليفة بقوة الـ١٥ ألف مقاتل من خلف تلال سرغام بينما يهاجم على ودحلو بقواته من جبال كرري، وهكذا تحاصر قوات العدو من الشمال والجنوب تتشتت وتفقد توازنها وتشكيلها ويلاقي كتشنر مصير هيكس وغردون . سوف نعرف من السرد أن هناك تطوران منعا تحقيق هذه الخطة . و لم يتم الهجومان فى نفس الوقت وإن كان كانت الغلبة ستكون لرصاص الحملة ، رغم تحملها لبعض الخسائر إلا أنها لن تؤثر فى النتيجة ،وهكذا خابت آمال البربرية مع أول خيوط الظلام .

صدرت الأوامر للعقيد برودود وقوته ،٩ سرايا فرسان قوة الهجانة ، ومدفعية الخيول، بأن يمنع شمال الدراويش من محاصرة جناح الزريبة الذي تحتله الفرق المصرية التي ما كان مخططا لها الاشتراك الكلي فى هذه المرحلة من المعركة. لتحقيق هذا الهدف احتل برودود جبال كرري ووضع فى سفوح التلال مدفعية الخيول وقوة الهجانة وترك الفرسان فى الخلف كاحتياطي فى مؤخرة الوسط .

مرتفعات كرري التي جاء ذكرها مرارا تتكون من معلمين بارزين وترتفع بحوالى ٣٠٠ ياردة فوق السهل ، كل مرتفع بطول ميل من الشرق الى الغرب ويفصلها منخفض بعرض ١٠٠٠ ياردة . الجهة الشرقية لهذا المرتفع على بعد ١٠٠٠ ياردة من النهر ، وبين هاتين النقطتين توجد حجارة ومتعرجات مما يجعلها غير صالحة لاستعمال سلاح الفرسان وخيولها، وكذلك الكتل الحجرية الصلدة سوف لن تسمح للجمال بالحركة كما يجب. لذلك أوقفت الخيول والجمال فى هذا المنخفض ترجل الفرسان فى السفوح الجنوبية تاركين الصحراء على يمينهم وبعدهم الهجانة ثم تحركت الفرسان فى الوسط ومدفعية الخيول على الشمال وبقية أفراد الفرسان فى الفراغ خلف المدافع .

تقدم عثمان العاصف ،قد وضعه أمام هذه القوة الراكبة ،نواياه لم تكن واضحة ومحل جدل ،هل سيهاجم الفرقة المصرية ،أو يطرد الفرسان أو يختفى وراء

جبال كرري كما كان يخطط على ودحلـــو ، لم يستطع أحـد الإجابـة عـن هـذه الأسئلة . الخيارات أمامه على أي حـال كـانت محـددة ، لا يمكنـه مهاجمـة اللـواء المصري ويترك مؤخرة شماله تهددها فرقـة فرسـان قويـة ، لذلـك اسـتمر فى السـير عكس اتجاه الزريبة ،وليبعد عن مدى النيران انحـبرف شمـالا وفجـأة ظـهرت قـوات بردودو ، هذا الضابط الذي توقع أن يلاقي قوة صغيرة مـن الدراويـش وجـد نفسـه فى مواجهة ١٥ ألف مقاتل أغلبهم حـاملو بنـادق .

السردار الذي يراقب الموقف من الزريبـة ، أرسـل اليـه أمـرا بالانسـحاب الى خطوط المشاة ، رد برودود أنه سينسحب شمالا مـرورا بجبـال كـرري سـاحبا قـوة عثمان خلفـه .

كان لابد من إخلاء الموقع الأول فى الحـال فقـد كـان الدراويـش يتقدمـون فى الاتجاه الشمالى الشرقي واستطاعوا مهاجمة تـلال كـرري بشـكل ينحـرف ليحـاصر الجناح الأيمن للقوات الراكبة المدافعة عن الموقع . كما يتضح مـن الخريطـة أنـه بمجـرد أن تصل قوة الدراويش حاملة البنادق الى أي نقطـة غربيـه يمكنـها احتـلال الفـراغ الكبير بين تلال كرري ومن ثم يمكنهم التوجه جنوبا وتهديـد خـط الرجعـة للقـوات المدافعة . عندما أحس العقيد برودود باستحالة الدفاع عـن الموقـع سـحب البطاريـة الى نهاية المرتفع الشرقية ، وما إن انكشـف الفـراغ (الحـوض) حـتى فقـدت فرقـة الفرسان التي تابعت الانسحاب، ٥٠ رجلا وعددا كبيرا من الخيـول والجمـال مـا بـين قتيل وجريح. كان موقف الهجانة فى منتـهى الحـرج ومعـهم الجرحـى مـن الأفـراد والجمال وقد ظـهرت صعوبـة الأرض والحجـارة وظـهر أن الدراويـش يسـتطيعون التقدم سيرا على الأقدام أسرع من الجمال، وقـد اسـتطاعوا وهـم علـى سـرعة ٧ أميال فى الساعة ،وبدون إعاقة من مدفعية الزريبة أو مدافـع الهاوتـزر المجـرورة بـالخيول حجم ٧ ارطال عديمة النفع فى مثل تلك الظروف، اسـتطاعوا تقليـص المسـافة بينـهم وبين أعدائهم . هنا قرر برودود أن يرسل الهجانة راجعـة الى الزريبـة ، تحـت حمايـة مدفعية إحدى البوارج التي كانت تراقب العملية وتركت لتقـديم أي مسـاعدة للقـوة المنسحبة . كانت المسافة بين المقاتلين بالكاد ٤٠٠ ياردة وتتنـاقص كـل دقيقـة. فرقـة

الفرسان سحبت عرضا ، على الناحية الشرقية للحوض والمتاخمة للنهر . استمرت نيران الهاونز من مواقعها الجديدة شمال المرتفع، ولكن كانت فرقة الهجانة مازالت تناضل للخروج من الأرض الرخوة . غطت قوة الدراويش الجانب الجنوبي من المرتفع بأسراب من اللون الأصفر الممل ،وغير عابئة بالقذائف التي تسقط عليها من ناحية الزريبة ، استمرت فى تنفيذ خطتها الهجومية . شعروا أن الفريسة تحاول الهرب كحيوان جريح الى حيث قوات مشاتهم وبغريزة تجارب الحرب لدي الجندي الوحشي ، وهي أحد مورثاتهم ، التفت القوة الى اليمين وغيرت اتجاهها من الشمال للشرق واندفعت حول الحوض على طول الجانب الجنوبي ناحية النيل. كان هدفهم محدد ، أن يفصلوا قوات الهجانة ويطاردوها داخل النهر .

كانت اللحظة حرجة جدا وبدا لقائد الفرسان أن الدراويش سوف ينجحون مما يعني تدمير قوة الهجانة الأمر الذي لا يمكن السماح به . استعدت السرايا التسع للفرسان وأصبح احتمال الصدام مع أسراب قوة الدراويش المندفعة داخل الحوض كبيرا . تحويل مسار الهجانة ربما ساعدها فى الهرب ، لكن طبيعة الأرض سيئة للغاية وقوة أعدائهم مهولة. كانت مجموعة الفرقة المصرية مستعدة لإطاعة الأوامر ، وهذا كل ما فى الأمر. ليس هناك أعظم من لحظات الحماس فى مثل تلك الظروف يمكن أن تورد أو تفرش طريق النصر بالشؤم ولكن كانت المعركة حتمية ولا مفر منها، ربما رجع القليل منهم سالما ، ولكن لا خيار غير المعركة . كانت فرقة الهجانة قد اقتربت من النهر وآلاف الدراويش يركضون نحوها ، بزاوية قائمة نحو خط الرجعة، لا أمل فى نجاتهم لو حاولوا الاستمرار لاختراق قوات العدو ، أي محاولة من هذا القبيل معناها فناؤهم . الخيار الوحيد أمامهم أن يصمدوا فى مواقعهم قرب النهر ويدافعوا حتى يعطلوا الدراويش لحين وصول النجدة وكان على الفرسان القيام بهجوم يائس .

فى اللحظة الحرجة وصلت البارجة الى قبالة موقع العملية وبدأت إطلاق نيران رشاشات المكسيم ، مدافع سريعة الطلقات والبنادق وكان المدى قريبا والأثر رهيبا وهي تطفو على سطح الماء بعظمه ، شيطان أبيض جميل لفت حولها الدخان ،

سفوح تلال كرري تموج بآلاف الزاحفين الذين يقفزون فى الهواء ويتحولون الى سحابة غبار أو حجارة متناثرة. تكومت قوات الدراويش أكواما على الأرض، وقفت الكتل البشرية فى المؤخرة محتارة أو مترددة ، كانت النيران حامية حتى عليهم هنم، وصول بارجة ثانية قبالة الموقع كانت كافية لزرع اليأس فى قلوبهم وإفشال مشروعهم . أسرعت فرقة الهجانة على طول الشاطئ ثم عبرت نقطة الالتماس المميتة وشاهدوا السلامة والزريبة أمامهم .

نسبة لخيبة الأمل الكبيرة هذه ، وجه جنود عثمان شيخ الدين نشاطهم نحو فرقة الفرسان هذه المرة ،ونسوا فى غمرة غضبهم طبيعة الفرسان المرنة والمتحركة، طاردوهم لمسافة ٣* أميال ناحية الشمال . سعداء بهروب فرقة الهجانة ، قرر العقيد برودود أن يلعب مع عدوه لعبة الثور والمصارع ،ونجح فى جذب هذه القوة من جيش الدراويش بعيدا عن أرض المعركة التي كان تحتاج وجودهم بشدة وأثر غيابهم على خطة الخليفة كان مدمرا .

طبيعة الأرض فى الحوض قد عطلت مدفعية الخيول ، غرست منها اثنتان فى أرض موحلة ، أصيب بعض الأفراد والخيول وهم يحاولون إنقاذها ، هنا أمر العقيد برودود الجنود التخلي عن المدفعين ، سرعان ما وصلت كتل الدراويش ، شجعتها هذه الغنيمة ، هاجم فرسان عثمان بكل جراءة قوات الفرسان المقهقرة ولكن تصدت لها سرية بفاعلية تحت قيادة الرائد ماهون .

البارجتان ، بعد أن شاهدتا هروب فرقة الهجانة بسلام عادتا مع التيار ووجهتا نيران مدافعها على قوات الدراويش حتى اجبرتاهما على التقهقر ناحية الصحراء من الغرب ، بعيدا عن النهر عندما أخليت هذه المنطقة ، عاد برودود لينضم للقوة الرئيسية والتقط المدفعين اللذين كانا قد تركا فى الوحل وعاد بهما للمعسكر .

بينما كانت هذه المعارك تجري فى القطاع الشمالى، استمر الهجوم فى واجهة الزريبة. وانضمت فلول حملة الرايات البيضاء لباقي القوة فكانوا حوالى ١٤ ألف رجل يتقدمون نحو العدو بعدأن غيروا من تشكيلاتهم ، بالهجوم بمجموعات صغيرة

بدلا من زحف الكتل البشرية ، وقف التقدم على بعد ٨٠٠ يـاردة مـن موقـع الفرقـة البريطانية و لم يستطيعوا كسب أي أرض . في مواجهـة الفرقـة السـودانية الـتي كـان أفرادها مسلحين ببنادق مارتن هـنري ، وصـل المقـاتلون الى مسـافة ٣٠٠ يـاردة ، وصل رجل عجوز شجاع وهو يحمل العلـم الى ١٥٠ خطـوة مـن الخنـدق ولكـن كانت النتيجة إيجابية على طول خط المواجهـة ، قـد تم تدمـير الهجـوم . قـائدهم في جبته المزركشة ذات الألوان العديدة دفر بفرسـه نحـو النـيران الـتي لا ترحـم حـتى اخترقته مجموعة من الرصاص ، سقط بلا حراك ، هكـذا كـانت نهايـة ذلـك المقـاتل العنيد الذي خاض معارك كثيرة، عثمان أزرق العنيـد، فكـان مخلصـا حـتى المـوت جلس الناجون من الدراويش على الأرض غـير راغبـين في الـتراجع واسـتمر حملـة البنادق منهم في إطلاق رصاص بنادقهم في قتال غير متسـاو . عندمـا حـانت السـاعة الثامنة كان واضحا أن هجومهم قد فشل وكـانت خسـائرهم ٢٠٠٠ قتيـل، وعـدد مماثل جرحي . بالنسبة لفرقة المشاة للحملة الذيـن كـانوا مشـغولين مـع بنادقـهم لم تظهر لهم المعركة حقيقية . بالرغم من هذا فإن الرصـاص الـذي ظـل يـدوي فـوق الرؤوس وداخل الصفوف قد أسفر عـن بعـض الخسـائر وكـانت هنـالك وفيات في كل كتيبة . قتل النقيب كالدي كوت في فرقة ورويبكشير وجـرح اثنـان مـن فرقـة الكمرون ، النقيب كلارك والملازم نيكلسـون جـراح خطـيرة ، حـرس القرينـاديرز النقيب باقوت . العقيد أف.رودس جرح بين كتفيه وهو على ظـهر حصانـه بـالقرب من بطارية المكسيم للفرقة البريطانية في اللواء الأول ورحـل بعيـدا عـن أرض المعركـة عندما كان الهجوم في قمتـه .

كان هناك بالإضافة لهؤلاء الضبـاط ١٥٠قتيـلا مـن الجنـود ،ضعـف الهجـوم ولكن نيران بنادق العدو استمرت وبـدأت تحـدث أثـرا بمجـرد أن سـكتت النـيران الثقيلة. كانت الأرض ذات تعرجات ومنخفضات ، اسـتعملها رمـاة العـدو كسـاتر والكتل الكثيرة خلف الزريبة كانت هدفا سهلا . هنا بـدأت المدفعيـة في تطـهير هـذه المنطقة وكان أثرها كقوة مستكشفة فعالة . كلما سقطت دانـات المدفعيـة علـى هـذه المنخفضات ، نهض حملة البنـادق والحـراب للـهرب منـها ليصبحـوا هدفـا جيـدا

لرشاشات المكسيم ورصاص بنادق المشاة، التي تصرعهم على الفور ويسقطون على الأرض بعضهم موتي وآخرون مرعوبين. وتسقط دانات أخرى تجبرهم على الوقوف، تكررت عملية المكسيم وبنادق المشاة التي تراقب الموقع باهتمام فى تساقط المهاجمون ، كل مرة عددهم أقل من ذي قبل حتى أخليت المنطقة المواجهة للزريبة لمسافة نصف ميل من أي قوة معادية . هرب قلة ، والبعض الأخر رافضين الهام الرذيلة والدمار الذي حاق بهم ، حملوا جرحاهم بكل النخوة والعزة ، من زملاء السلاح ورجعوا بهم للخطوط الخلفية . بعد أن تم القضاء على الهجوم وتم تطهير منطقة الزريبة من أي فرد من الدراويش، طلب من فرقة اللانسر ٢١ مرة أخرى أن تقوم بمهمة. اتفق السردار وجنرالاته على نقطة واحدة وهي وجوب الاستيلاء على المدينة قبل رجوع قوات الدراويش اليها، إذ يمكنهم مقاتلة أي عدد من الدراويش فى هذا السهل لكن داخل البيوت الأمر يختلف. وكما توقع الخليفة كان الكفار منتشين بانتصاراتهم ، يريدون دخول المدينة وإن كان لسبب مختلف وهو أمر فى مقدورهم تماما الآن. كانت أكبر قوة للعرب الآن بعيدة فى الصحراء وجزء كبير منها فى تلال كرري . يمكن للقوات أن تزحف نحو الخطوط الداخلية ويمكنهم وصول أم درمان قبل قوات العدو . لابد من استطلاع سفوح تل سرغام ثم المنطقة الواقعة بين الزريبة وأم درمان وتطهيرها من الدراويش ، باشتراك قوات المشاة إذا دعت الضرورة . ولكن الأفضل عن طريق فرقة الفرسان لأن ذلك أسرع .

بينما تباطأ أفراد البيادة وقف أفراد اللانسرز بجانب خيولهم ، جاء الجنرال كاتاكري مع النقيب بروك وباقي القادة يركضون بجيادهم عند مؤخرة فرقة الفرسان و المدفعية وصاحوا للعقيد مارتن . بعد محادثة قصيرة ، وإشارة نحو السفح، كان الأمر ، أسرعنا الى جيادنا ، نظمنا جنود الصف ومع ترقب المعركة ، بدأنا التحرك ، كانت هناك دوريتان تركضان أمامنا نحو المرتفع وبقية الفرقة تواصل التقدم .

كنا عبارة عن مربع من الأشكال البنية الصغيرة غير المهندمة مع خيول صغيرة الحجم متعلقين بزجاجات المياه ، شنط السروج، عصي الوقوف ، علب البولي

بيف، كلها تتصارع معا، اللمعان، أيام السلم قد ولت، جنود أصبحـــوا بـــدون وهـــج، خيالة بدون زهو ، ولكنها على أي حال فرقة فرسان جاهزة لمعركـــة مـــع العـــدو .

كانت أرض المرتفع علي بعد نصف ميل، وكـــانت خاليـــة مـــن أي أفـــراد تـــلال سرغام قد حجبت الرؤية عن الاحتياطي الكبير الذي احتشـــد تحـــت العلـــم الأســـود . جنوبا السهل بيننا وأم درمان مكشوف ، إلا فلـــول الدراويـــش ، مجموعـــات صغـــيرة من ١٠ أو ٢٠ فرد بعضها راكبا والبقية راجلون وعلى بعد ٣ أميـــال ، ســـيل عريـــض من النازحين والجرحى فى طريقهم للمدينة ، الســـراب طمـــس الصـــورة فكـــان بعـــض الأعراب يمشون فى الصحراء وآخرون على سطح الماء وكأنها ضبـــاب ، غـــير حقيقـــي، كان المنظر كافيا ليثير حمية الفرسان للمطاردة ، ولكن المحـــاميع المنتشـــرة علـــى الســـهل منعت ذلك . أرسل ضابط الإشـــارة رســـالة الى الســـردار بـــأن المرتفـــع خـــال مـــن الدراويش، ولكن هناك آلاف منهم يتجهون نحو المدينـــــة . ونحـــن فى انتظـــار الأوامـــر شاهدنا ناحية الشمال فى المنطقة التي شـــهدت صـــد الهجـــوم أمـــام الزريبـــة أشـــكال مبهمة فى كتل طولها حوالى ميل . النظـــارة كشـــفت الأمـــر ، كـــانوا مئـــات الأفـــراد الضئيلة أحجامهم بلباســـهم الأبيـــض ، مكومـــين أو منتشـــرين ، يزحفـــون ، بعـــض الخيول واقفة بين الجثث فى غيظ وذهول وبعض الأفـــراد الأصحـــاء يحملـــون زملاءهـــم الجرحى . بدأ أفراد المقاتلين الذين يحتلون المنطقة الحجرية مـــن تـــلال ســـرغام تســـليط رصاص بنادقهم نحو الفرقة ،احتمينا حول تل تـــرابي وبـــادر اثنـــان مـــن الفرقـــة الـــرد برصاص غدارالهم . بدأت الإشارة من الزريبـــة فى إرســـال رســـائل مســـرعة وعاجلـــة كان الأمر مهما ، قوة العدو تحاول الرجـــوع للمدينـــة ، يجـــب منعـــها بكـــل الســـبل والوسائل . أمر واضح وصريح لا شـــك فيـــه ، ويجـــب تنفيـــذه أرســـلت دوريتـــان، المجموعات الصغيرة المنتشرة فى السهل وتلك التي علـــى ســـفوح التـــل كـــانت تحتـــاج لسرية كاملة لتولي الأمر حتى لا تأتي النتائج بكارثة ، تحركـــت الدوريـــة الأول نحـــو أم درمان ، شاهدتها المحاميع الصغيرة وأطلقت عليـــها النـــار فى حمـــاس ظـــاهر . الدوريـــة الثانية اتجهت للاستطلاع بقيادة الملازم قريـــني فى ل لاستكشـــاف الأرض علـــى طـــول المرتفع وعند السفوح لتل ســـرغام.

حملة البنادق المتحصنون خلف الصخور حولوا نـيرانهم مـن الفرقـة الى الأهـداف القريبة منهم ، كانوا خمسة تستروا خلـف الأرض الوعـرة ، لكـن النـيران المسـتمرة جعلتهم يختفون . ظهروا مرة أخرى بعد دقائق ، لكن تحت غطـاء نـيران الفرقـة علـى التل ، استطاع اللانسرز الانسحاب ، ضباطهم فى المؤخـرة . صـرح بـأن التـل آمـن من الناحية الأخرى بنفس القدر عند موقعنا الحالى ، عادت الدورية الثانيـة هـم أيضـا حالفهم الحظ وكانت معلوماتهم صحيحة ،بلغوا عـن وجـود قـوة مـن الدراويـش فى حدود ألف رجل على نقطة تشبه الخور جنوب غرب علـى بعـد ثلاثـة أربـاع الميـل بين الفرقة وجموع النازحين قرر العقيد مارتن الهجوم بنـاء علـى هـذه المعلومـات ،لأن هذه القوة تقف وحدها بينه وبين خط الرجعة للدراويـش ، وبدأنـا.

كل هذا الوقت كان العدو مشغولا ، تـرك الخليفـة قـوة مـن ٧٠٠ مقـاتل فى أقصي اليمين لتأمين خط التراجع لأم درمان . كانت هـذه القـوة مكونـة مـن قبـائل الهدندوة تحت علم عثمان دقنه يقودها أحد الأمراء من مساعديه ، اتخـذت لهـا موقعـا استراتيجيا داخل الخور . ما إن تركت فرقة اللانسر ٢١ الزريبـة حـتى أخطـر الخليفـة من قبل رجال دوريته فى أعلى تل سرغام أن الفرقة الإنجليزيـة تحركـت لتقطـع خـط رجعته لأم درمان . فى الحال أمر الخليفة تقوية أقصي يمينه وأرسـل أربـع فصـائل كـل واحدة ٥٠٠ مقاتل وحشدت فى اللواء تحت العلـم الأسـود وبقيـادة إبراهيـم خليـل أمرت لتقوية عثمان دقنه عند الخور . هرع هؤلاء الرجال بينمـا كنـا ننتظـر الأوامـر تحجبهم منخفضات التل وانضموا لقوة الخور . كـان اللانسـرز قـد اسـتطلعوا هـذه النقطة ، بمخاطرة كبيرة وكان بها ٧٠٠ رجل مـن الهدنـدوة قـد رجعـوا وبلغـوا أن النقطة بها حوالى ١٠٠٠ رجل ، كان العدو قـد زاد الى ٢٧٠٠ رجـل قبـل أن يصـل اللانسرز للفرقة وما كان فى مقدورهم معرفة ما اسـتجد مـن أمـر . بعـد أن أرسـل الخليفة المدد، جاء على ظهر حماره مع قوة صغيرة الى ناحيـة الخـور علـى بعـد ٥٠٠ ياردة ليشهد الحـدث .

بعد أن غادرت فرقة فرسان اللانسر (الرماحه) شمـال المرتفـع توقـف العـرب عن ضرب النار. المجموعات المتناثرة للدراويش اختفت راجعـة ،وشـريط مـن الرجـال

ذوي اللباس الأزرق كانوا ينتظرون بلا حراك على بعـــد ميـل مــن شمــال المقدمــة .
كونت الفرقة صفوف تقدم وتقدمت حتى مسافة ٣٠٠ يــاردة مــن تلـك المجموعــات.
لقد انتهي ضرب النار تماما من وراء المرتفع وساد الصمـــت ،خاصــة بعـد الضوضــاء
السابقة. وخلف صفوف الدراويــش الزرقــاء كــان الهــاربون يواصلــون ســيرهم لأم
درمان . هل تحتاج هذه الثلل من الرجال الخلصاء الى فرقـــة كاملــة ؟.

كان من الضروري دراسة الموقف فى جناحهم الأخر قبـــل إرســال ســرية لهــم .
انطلق قادة السرايا للشمال ببطء وبدأ الرماحه فى اخــتراق الصفــوف الأماميــة للعــدو
فى اصطفاف تقدم ، عندها وبحركة موحدة ســجد ذوو اللبــاس الأزرق علــى ركبــهم
وانطلق صوت انفجار الرصاص ، ما كان يمكن لأحــد أن يخطـئ مثـل هــذا الهــدف
السهل وعلى ذلك المدى القصير ، ســقطت الخيــول والرجــال فى الحــال . شــاهدنا
القائد الذي كان أقرب للموقع مــن فرقتــه حــث المقــاتلين وأمــر بتشــكيل تقــدم
هجومي، صدحت أصوات البروجي ، سمعت كــهمس بــين أصــوات الانفجــارات،
فى تلك اللحظة تحركت الفصائل الست عشرة اســتدارت وراحــت تركــض فى صــف
طويل وهكذا جاء أول اشتراك للانسرز (الرماحـــة) فى الحــرب .

على بعد ٢٥٠ ياردة كان الرجال الزرق يطلقون رصاص بنادقــهم بجنــون لكــن
رصاصهم سقط على الرمل وأثار الغبار الكثيــف ، حــتى اضطــر أفــراد الفرســان الى
جذب الخوذة للأمام لحماية وجوههم ، تماما كما فعــل فرســان الكيراســاز فى معركــة
ووترلو . كانت الخطوة مسرعة والمسافة قصيرة ولكن قبــل أن نقطــع نصــف المســافة
فجأة تغيير الموقف كله . ظهر مجرى لمياه الأمطار خور صغــير فى منطقــة كنــا نحســبها
سهلا منبسطا وخرجت فجأة من داخل هذا الخور كتل بشــرية بطــول فرقتنــا وبعمــق
١٢ مجموعة من المحاربين والخيول كأنهم نبــت شــيطاني أو خيــال البــانتيوم ، ومعــهم
دستة أعلام زاهية ، انطلق مقاتلوهم الى الأمام لاســتقبال الصدمــة وبقــي الآخــرون فى
ثبات لانتظارنا : كان رد فعل الرماحة لهذه المفاجــأة ،زيــادة ســرعة الركــض حــتى
يستطيع كل فارس تخطي هذا الصــف المنيــع ، الفرســان علــى الأجنحــة انضمــت
للداخل فى شكل هلال تم ذلك فى ثوان معــدودة وبنداقــة العــدو يطلقــون رصــاص

بنادقهم بشجاعة للنهاية لكن خيول الخيالــة جرفتــهم أمامــها وسـقط معــهم داخــل الخور أكثر من ٣٠ فارسا من الرماحة وأكثر من ٢٠٠ عربي ســـقطوا أيضــا ، كـــانت المفاجأة مذهلة للجانبين ولعشر ثوان لم ينتبه أحـــد لعــدوه ، الخيــول المفزوعــة تقفــز وسط الحشد رجال مجروحون تهزهم المفاجأة يتكومـــون ينــاضلون فى بلاهــة ، بعــض الرماحه كانت لديهم الفرصة لامتطاء خيولهم مــرة أخــري لــولا أن ركبــت حملتــهم حمية الفرسان ، كراكب ينفذ فى جسد عصفور شــق الضبــاط طريقــهم كالمنشــار فى قلب لوح الخشب تبعتهم الفرقة فشتتوا جيش الدراويش حــتى عــبروا للجــانب الأخــر للخور تاركين بعض القوة وراءهم ، بينما واصــل آلاف العــرب الهجــوم .

هنا فقط بدا القتل وبعدها شاهد كل رجل العالم خــلال رمحــه تحــت معدتــه أو فى كعب مسدسه وكان لكل واحد قصة غريبــة يرويــها .

من النادر أن يتقابل سلاح مشاة عنيد مع فرقة فرســـان غــير مــهزوزة ، إمــا أن تركض قوات المشاة ويتم دحرهم فى القتال ، أو ترفع رأســها وتطلــق الرصــاص علــى الفرسان حتى تبيدهــم

فى تلك اللحظة تصــادم حائطــان بشــريان مــع بعضــهما البعــض ، حــارب الدراويش برجولة حاولوا إصابــة ركــب الخيــل ، أطلقــوا رصــاص بنادقــهم حــتى لامست مواسير بنادقهم أجساد أعدائهم ، قطعوا أحزمة الجلد ، رمــوا حرابهــم بقــوة، استعملوا كل الاساليب المعروفة فى الحرب لمقاتلة الفرســان وشــهروا ســيوفهم الحــادة التي تغرس عميقا . كان قتال رجل لرجل قد انتــهي بعــد دقيقــة واحــدة تقريبــا ، ثم بدأت الخيول فى العدو وتخلص الرماحة مــن أعدائــهم وبعــد دقيقتــين مــن الصــدام المروع كان كل فرد حي خارج دائرة كتل الدراويش أمــا مــن ســقط فقــد تم طعنــه بالسيوف حتى سكت جسده ، لكن لم تجر أي عمليات فنيــة للتمثيــل بــالجثث .

وقفت الفرقة على بعد ٢٠٠ ياردة من العدو ، نظمـــت صفوفــها وفى أقــل مــن خمس دقائق كانت قد أتمت استعدادها للهجوم الثاني ، كــان الرجــال حريصــين علــى العودة شاقين طريقهم بين أعدائهم . كنــا هنــا وحيديــن ، فرقــة الفرســان ولــواء الدراويش وقف المرتفع كستار بيننا وبين الجيش ، نســينا المعركــة الرئيســية كأنهــا لم

تكن ، هذه مشاجرة خاصة ، المعركة الأخرى ربما كانت مجـــزرة ،ولكـــن هنـــا القتـــال متكافئ وعادل لأننا نحن أيضا نحارب بالحراب والســـيوف وفي حقيقـــة الأمـــر إن لهـــم ميزة الأرض والعدد ، ظهر أن الجميع حريصون علـــي تســـوية الحســـاب في الحـــال والى الأبد .

بدأت تكاليف هجمتنا الطائشـــة والورطـــة تظـــهر للمسئولين . خيـــول بـــدون خيالة تجري فوق السهول ، رجال متعلقون بسروجهم والدماء تـــترف مـــن أكـــثر مـــن جرح ، خيول تعاني آثار الطعـــان الفظيعـــة، تعـــرج ، وفرســـالها علـــى ظـــهورها . في ١٢٠ ثانية لقي ٥ ضباط ،و ٦٥ رجلا ،و١١٩ حصانا حتفـــهم أو جرحـــوا مـــن بـــين ٤٠٠.

بدا صف الدراويش الذي انكسر من الهجوم في إعـــادة تنظيـــم أنفســـهم نفضـــوا عنهم الغبار واستعدوا لمعركة ثانية . كـــان مـــن الناحيـــة العسكرية مـــن الضـــروري إخراجهم من الخور وهذا المنخفض حتى نحرمهم من هـــذا الســـاتر الطبيعـــي. تحركـــت كتيبة من ثلاث سرايا في اصطفاف معركة وسرية اصطفاف تقدم واتجـــهنا يمينـــا حـــول جناح الدراويش ، ترجلنا وأطلقنا رصاص مسدساتنا فـــأنهمر عليـــهم الرصـــاص بشـــدة فاستداروا لمواجهة هجومنا وبذلك كونا زاويـــة قائمـــة .

الحقيقة ، كانت النيران دقيقة ومما لا شك فيه فقد كـــان الأثـــر المعنـــوي للـــهجوم عظيما وقد هز هؤلاء الرجال الشـــجعان . ولكـــن بـــالرغم مـــن كـــل هـــذا تراجـــع الدراويش بشكل منظم وانضموا لقوات الخليفـــة تحـــت العلـــم الأســـود عنـــد تـــلال سرغام ، بقيت فرقة الرماحة في حراســـة الأرض الـــتي اســـتولت عليـــها ومـــع جثـــث موتـــاهم .

كان هذا سردا حقيقيا لأحـــداث الهجـــوم ، ولكـــن للقـــارئ أن يعطـــي بعـــض الاعتبار لأحداث أخرى ، العقيد مـــارتن الـــذي كـــان مشـــغولا بتوجيـــه الفرقـــة ، لم يشهر سيفا أو مسدسا وركب وسط كل هذه الجموع بـــدون أي ســـلاح ولم يجـــرح. ضرب الدراويش حصان الرائد كرول وإيرن هام وهو علـــى ظـــهره ، بعـــد أن عـــرس ماسورة بندقيته في جلد الحصان ، مع كل هذا اســـتطاع الرائـــد كـــرول وســـط هـــذا

الحشد الوحشي أن يسير على قدميه الى بر السلامة . الملازم مولينكس سقط فى الخور وسط الأعداء ،فى وسط هذا الاضطراب نهض وشهر مسدسه وقفز من الحفرة ، استعاد الدراويش وعيهم بعد صدمة الهجوم عليهم. أطلق النار على أقربهم اليه، فى هذه الأثناء قطع أخر رسغه الأيمن . سقط المسدس من يده الثابتة، مجروح، راجلا وبدون سلاح ،وجه أنظاره الى اللحاق بتقدم سريته التي كانت قد عبرت للجانب الأخر ، العدو من خلفه للإجهاز عليه محاصرا من كل جانب ومطاردا بكل قوة ، شاهد الضابط الجريح رماح واحد على حصانه فى طريقه صاح اليه للمساعدة ، جاء الجندي بيرني والذي كان مصابا برصاصة اخترقت يده اليمني، صاح بدون تردد كله تمام يا سيدي ، التفت وهجم على الدراويش الأربعة الذين كانوا يطاردون الضابط لقتله ، أشهر سيفه لكن يده المجروحة لم تتحمله فسقط من يده وأصيب بحربة فى صدره ، لكن هجمته قد أبعدت الدراويش وعاد الملازم مولينكس سالما الى سريته . عندما شعر الجندي أنه قد أنجز هدفه ، ركض الى وحدته عند وصوله شاهد الضابط حالته وطلب منه أن يترجل لكنه رفض وطلب أن يسمح له بهجوم أخر عليهم . أخيرا اضطر أن يترك الميدان وسقط مغشيا عليه لفقده كمية كبيرة من الدماء .

كان هروب الملازم نيشام أكثر غرابة من هروب مولينكس ، كان يهم بالخروج من الخور عندما أوقف حصانه ، مسك عربي لجام حصانه ، ضرب الملازم الرجل بسيفه ولكن لم يمنع هذا من أن ينجح العربي فى قطع اللجام . عندما طارت يده فى الهواء وفى لحظة كاد سياف عربي أن يفصلها من جسده بضربة واحدة ، ثم طعنوه من كل اتجاه طعنة اخترقت خوذته وشقت رأسه طعنة أخرى تركت جرحا عميقا فى قدمه اليمني ، وأخرى لاقتها دروع كتفه ، شلت ذراعه اليمن ، طعنتان تفاداهما ، قطعتا السرج وجرحتا ظهر الحصان .الضابط الجريح كان أصغر فرد فى القوة ، قبض كل قدم من قدميه رجل محاولا إنزاله من ظهر الحصان ولكن الرمح الطويل تشبث بأهداب حصانه عندها شب الحصان المجنون برأسه مندفعا الى الأمام مارقا من بين الأعداء حاملا فارسه، ينزف مغميا عليه ولكنه لا يزال حيا، الى بر

السلامة بين السرايا الراكبة . تجربة الملازم تيشام كانت تجربة الرجال الذين قتلوا ، نجا هو ليصفها لنا .

أرسل الجرحى مع قوة خاصة الى النهر والى مستشفى الميدان وأرسل ضابط بالأخبار . فى نفس اللحظة بدأت المدافع قذائفها بدأت البنادق فى إطلاق الرصاص فى تتابع خلف المرتفع واشتدت أصوات الانفجارات حتى طغى صداها على كل سطح الأرض وبدأت المرحلة الثانية للمعركة .

حتى قبل أن تستكشف فرقة اللانسر ٢١ (الرماحة) مرتفع جبل سرغام ، كان السردار قد بدأ عجلة التحرك للوءاته لكي تتوجه وتحتل أم درمان وهي خالية وقبل أن يرجع جيش الخليفة من السهل ليدافع عنها ، ميزات هذه الخطة جيدة ولكن الحركة كانت سابقة لأوانها وفى منتهى الخطورة . كان الخليفة لا يزال غير منهزم فى تلال سرغام علي ودحلو لا يزال متربصا فى كرري وعثمان كان يعيد ترتيب قواته . كان هناك ٣٥ ألف رجل فى ميدان الحرب وما كان فى الإمكان دخول أم درمان قبل القضاء عليهم كما أثبتت الأحداث لاحقا .

بعد أن جددت قوات المشاة ذخيرتها تحولوا شمالا كمجموعة لواءات متجهين نحو مرتفع سرغام ، كانت حركة القوة العظيمة بطيئة وليس من الحكمة وضع القوة البريطانية التي كانت تقود الطابور ، فى منحدر السفوح شمال سرغام . ليس أمامها مجال للنيران وسوف لن تري أي شئ . وعليه تحرك اللواءان فى نفس التوقيت لاحتلال أرض المرتفع، تمت خطوتان فى خطوة واحدة ، وكان لواء ماكسويل الذي تبع لواء ووشوبي ستيلون على بعد ٦٠٠ ياردة جنوبا إذا نفذ الأمر الأول بالنسبة للتشكيل فى الزريبة كان لواء ماكدونالد جوار ماكسويل لكن الترتيب تغيير الآن ، توقع الجنرال أن مؤخرة التشكيل سوف تكون مهددة من ناحية كرري . هل انشقت الأرض وابتلعت مئات الآلاف من قوات العدو الذين تحركوا من السهل ناحية التلال ؟ لابد أن يضع أقوي قواته وأكثرها خبرة فى أكثر من موقع توقعا للخطر . لذلك أمر لواء لويس تتبع لواء ماكسويل ، وترك لواء

ماكدونالد أخر التشكيل مع تقويته بثلاث بطاريات مدفعية وثمانيـــة مدافـع مكســيم ، كولينسون تحرك مع المواصـــلات .

تحرك ماكدونالد غربا ناحية الصحراء ليأخذ مكانـــه فى التشـكيل ولكـي يـترك مجالا للواء لويس كما جاءت الأوامر . أسرع لويس خلــف ماكسـويل وأخــذ مكانــه وسوف يبعد مسافة ٦٠٠ ياردة جنوبا حسب ما يسمح بــه التشـكيل . الخطـوة الــتي اتبعت فى إرسال الفرق البريطانية معا قد تركت فراغــا بـين لـواء ماكدونــالد وبـاقي القوة وتزايدت هذه الثغرة خاصة أن ماكدونالد كان يتجه ناحيــة الغــرب بينمــا تتجــه اللواءات الخمسة ناحية الجنوب ، وهكذا عزل لـــواء ماكدونــالد .

فى الساعة التاسعة والربع تحرك كـــل الجيــش فى تشــكيل تقــدم نحــو الجنــوب واللواء فى المؤخرة علــى ضعــف المســافة المسـموح بهــا ، تحــرك كولينســـون مــع المواصلات لكن بقيت مستشفيات الميدان وحدهــا فى الزريبــة المــهجورة ، مشـغولة بجمع الأغراض والتعبئة . كان بالمستشـــفى ١٥٠ جريحــا أمــر الســردار بوضعــهم فى الصنادل المجهزة طبيا . على أن تلحـــق مستشــفيات الميــدان بقــوة الجيــش ووحــدة المواصلات. كان تحرك الجرحى أمرا بالغ الحـــرج وبقــرار فى منتــهى الغبــاء تركــت الصنادل المجهزة طبيا لاستقبال الجرحــــى علــى الجــانب الأيمــن للنــهر ، اســتعملت صنادل الذخيرة لنقلهم . الوقت يمضي والأطباء يعملون بكـــل تفــان وجــهد خــارق. فجأة اكتشفوا ليست هناك حماية لهم والجرحى إلا بعـــض فصــائل مــن بقيــة الفــرق البريطانية والقوة المصرية وهي تبعد نصف ميل ولا توجــد قــوات بينــهم وبـين تــلال كرري الداكنة . البارجتان اللتان كانتا يمكن أن تكونــا مصــدر تــأمين ، قــد ســحبتا لمعاونة قوات المشاة جنوبا ، ماكدونالد مع لواء المؤخــرة بعيــدا فى الســهل، كولينســـون يسرع على شاطئ النهر مع المواصلات . كانوا وحدهــــم وبــدون أي حمايــة الجيــش والنهر حرف فى باتجاه الجنوب، مضيق ريدان فاتح تماما نحــو جبــال كـــرري ، ومــن كرري بدأت تظهر علامات تحذير قبل العاصفـــة الممطـرة ، مجموعــات صغــيرة مــن فرسان الدراويش . دخلت هذه الدوريات المتطفلة الى داخل شـــكل الفــى وشــوهدت مجموعة من الفرسان البقارة تسقي خيولها علـــى بعــد ٣٠٠ يــاردة مــن المستشــفيات

غير المحروسة أو المحمية . على البعد ظهرت أعلام العـــدو ، كـــانت اللحظـــات حرجـــة ، الجرحى الذين كوموا فى الصنادل وليس هنـــاك بـــاخرة تقطرهـــم للشـــاطئ الأخـــر ليسوا فى مأمن الآن أكثر مما كانوا عليه قبل أن يحولوا للصنادل . بينمـــا شـــغل الأطبـــاء الضباط أنفسهم ، ظهر العقيد ســـلوقيت بجـــواده متحديـــا فرســـان البقـــارة وأســـرع لحماية المستشفيات وشاغليها الذين لاحيلة لهم . فى أثناء هـــذه اللحظـــة المضطربـــة بـــدأ وصول جرحى المشاة نتيجه للهجوم الدائـــر .

بعدما تحركت الفرق البريطانية من الزريبة كـــانت هنـــاك مناوشـــات بـــين تـــلال سرغام دلت على وجود أفراد للعدو . تشكل كـــل لـــواء فى أربـــاع تقـــدم متســـاوية حتى انضمت الألوية على بعد ٤٠ خطوة من بعضها البعض ، تنتشـــر للداخـــل، اللـــواء الثاني قرب النهر ، اللواء الأول فى نفس الصف وعلى يمينـــه ، أســـرعت جميعـــها لـــترى المشهد وما يقع خلف المرتفع . وما انتظمت الألوية فى تشكيل التقـــدم حـــتى تعرضـــت لنيران من أعلى سفح الجبل ، لم يلتفت السردار ولا ألويته لتلـــك النـــيران تاركـــا الأمـــر للفرقة السودانية ، وصلت القوة لسطح المرتفـــع وفى الحـــال ظـــهرت كـــل بانورامـــا أم درمان أمام أنظارهم ، قبة المهدي البنية المهدمة ، بيـــوت الطـــين المرصوصـــة ، ولســـان الماء اللامع معلنا عن مقرن النيليين . للحظة وقفوا مبهورين ثم اتجـــه اهتمامـــهم نحـــو مـــا يقرب من ١٢ حصانا بدون راكب ، جـــاءت راكضـــه تقـــف محتـــارة تحـــدق فيـــهم ببلاهة ، جاءت من أسفل السهل الذي لم يظهر لهم بعد ، كـــانت أول إشـــارة لهجـــوم فرقة الرماحة . التفاصيل بدأت تصل مع وصول أول دفعات الجرحـــى بـــين الكتـــائب، تغطي الدماء أجسادهم ، بعضهم جروحـــه خطـــيرة ، وجوهـــهم ممزقـــة ، أحشـــاءهم خارجة ، حراب مثل سنارة الســـمك لا تـــزال داخـــل أجســـادهم ، ســـرد حقيقـــي لجوانب مظلمة من الحرب . شغل هذا المنظر الأفكار عن الرصـــاص المنـــهمر مـــن قمـــة التل . فجأة تحولت الأنظار ناحية انفجار يأتي من الخلـــف ، كـــانت بطاريـــة المدفعيـــة بين الزريبة والمرتفع تصب نيران مدافعها على قمة التل . كـــانت هـــذه الطلقـــة كأنهـــا إشارة للمعركة كي تبدأ . جاءت من المؤخرة أصـــوات رصـــاص المشـــاة وهنـــا أمـــر الجنرال كاتاكري قواته بـــالتوقف .

حتى قبل استيلاء القوات البريطانية على الأرض المسطحة للمرتفع وحينما كان العقيد سلوقيت يقطع المسافة فى المنطقة الخطرة بين النهر والجيش أحس السردار أن العدو يستعد له . عندما نظر للخلف فى سفوح سرغام وجد أن ماكدونالد ذلك القائد المخضرم قد أوقف تحركه، وبدأ بنشر قوته استعدادا لشن الهجوم . كان قد اكتشف قوات كبيرة للعدو على الجناح الغربي لسرغام ، أمر بطاريات المدفعية الثلاث بفتح نيرانها ، بعد خمس دقائق ظهرت القوة المهولة تحت الراية السوداء ١٥ ألف مقاتل تحت قيادة يعقوب ، بالإضافة لقوة الحرس (الملازمين) وكل أمجاد إمبراطورية الدراويش ، خرجت من خلف التلال مستعدة لهجوم جديد فرصة نجاحه ثلاثة أضعاف الهجوم السابق .

أمر سير هيربرت كتشنر ماكسويل لتغيير وجهته الى اليمين يهاجم تل سرغام، وأرسل الرائد ساندباخ الى لويس آمرا إياه أن يحاذي لواء ماكسويل من يمينه ، ركض بنفسه للقوة البريطانية التي أوقفها الجنرال كاتاكري فى الوقت المناسب على السطح الشمالى للمرتفع وأمر ليتلتون مع اللواء الثاني أن يشكل ناحية الغرب على شمال ماكسويل وجنوب سرغام وأمر ووشوب مع اللواء الأول أن يسرع لسد الثغرة بين لويس وماكدونالد، وأخيرا أرسل الى كولينسون وفرقة الهجانة أن يستديروا الى جهة اليمين لكي يملأوا الفراغ فى شكل فى للجيش . معنى هذه التحركات أن يتحول الجيش من اتجاهه نحو الجنوب مع شماله على النهر ويمينه الى الصحراء عليه أن يتجه غربا شماله للصحراء ويمينه ناحية النهر ، تغيير "شقلبة" كاملة .

إطاعة لتلك الأوامر تحرك ليتلتون بلوائه بتشكيل يتجه غربا ، تسلق لواء ماكسويل مع الفرقة السودانية تل سرغام وطهروه من قوات العدو بالسلاح الأبيض والتفوا حول الجانب الآخر ، بدأ لويس نشاطه على يمين ماكسويل أما ماكدونالد الذي واجه القوات الرئيسية للخليفة فقد استمر فى موقعه الجنوب الغربي تغطيه سحائب الدخان المنبعث من مدفعيته ورصاص بنادقه . هاجمت الألوية الثلاثة وهي تتجه ناحية الغرب وبعيدا عن النيل، الجناح الأيمن لفرقة الدراويش التي كانت

هاجم ماكسويل وأجبرهم على تكوين جبهة تجاه النهر ، وخففت دون شك الضغط الكبير على اللواء شبه المعزول فى المؤخرة . كانت هناك الثغرة بين لواء لويس ولواء ماكدونالد فسارع ووشيب وهو على تشكيله الأول كلية للشمال وملأ الفراغ الخالى من القوات . بخلاف ووشبي ووحدة كولينسون المصرية، كانت كل قوات المشاة والمدفعية مشتركة فى القتال الجاري.

زادت حدة القتال وأصوات انفجارات القذائف بشكل أكبر من الهجوم على الزريبة، إذ اشتركت كل الألوية والكتائب وأصبح الضجيج عاليا. استمرت الألوية الثلاثة فى التقدم غربا فى شكل صف طويل يلتف حول تل «سرغام»مع وجود الكتيبة الرابعة فى تقدم هجوم المؤخرة. عندما اقتربت القوات وضح أن الدراويش ربما هجموا على الفراغ بين لويس وماكدونالد فأمرت كتائب الأجنحة لتتحول لتأمين الجانب الأيمن ، كانت تفاصيل هجوم العدو مهولة ، كتل بشرية من الرجال تتجه نحو ماكدونالد الذي تغطيه سحائب الدخان ، كتل أخرى تتجه لصد الهجوم الذي بدأ يتطور على يمينها . مع الزاوية التي تكونت الألوية من الثلاثة متجهة غربا ولواء ماكدونالد المتجه نحو الجنوب ، كانت هناك قوات يربو عددها على ١٥ ألف مقاتل محاصرين فى الوسط .

كقطيع من الشياه فى زريبة حولها الصف البنى من اللواءات البريطانية والمصرية. كانت الكتيبة السابعة على يمين لويس وعلى مقربة من ذلك اللواء ولواء ماكدونالد، قد كلفت للاستعداد لحماية الجناح لكنها بدأت تتردد وتترنح مع بعض حركات التقهقر ، كانت لحظة خطرة ، أمر جنرال هنتر الذي كان فى نفس الموقع أفراد الفرقة ١٥ المصرية تحت قيادة الرائد هيكمان ، والتي كانت فى الاحتياطي لكي يسيروا خلفهم شاهرين سنج بنادقهم . عندها عادت لهم الروح المعنوية وتم القضاء على الخطر واستمر تقدم الألوية الثلاثة .

وجد يعقوب نفسه غير قادر على تحمل الهجوم من ناحية النهر، فهجومه على ماكدونالد تم دحره والقذائف أحدثت خسائر جسيمة بين قواته المكدسة. فقد سقط الأمير المقدام ودبشارة وأمراء آخرون أقل شهرة، لذلك بدأ تدريجيا يتراجع

عن موقعه. كان واضحا أن القوات المتمدنة هـي الأقـوى ، وقبـل أن ينتـهي القتـال عرف الخليفة أن اليوم أنتهي، وهو يشـاهد الموقـف عـن قـرب ذلـك أن الفرصـة الوحيدة لنجاح مثل هذا الهجوم هي اشتراك قوات علي ودخلو وقـوات عثمـان شيخ الدين مع قوة يعقوب، إذ هاجمت من كرري فى نفس التوقيـت . هـذه القـوات الـتي تجمعت الآن فى كرري تأخرت جدا عن أداء مهامـها وأي هجـوم لهـا الآن سـيكون بالتتابع ، كان أثر نشاط برودود على الجناح الأيمن، عمليـات الفرسـان علـى أقصـي اليمين ومؤثـرا.

لا الأسف ولا الغضب يجديان. دمرت الألوية الثلاثة المتقدمـة قـوات الدراويـش وشتتها فى الصحراء . علىَ طول ميل مـن الجبهـة تعـالت وتهـاوت نـيران مكثفـة، مدفعية الميدان ٣٢ التي تجرها البغال اشـتركت هـي الأخـري فى المعركـة فـامطرت رشاشات المكسيم بنشاط محموم، صعد ضابط فى قمـة حماسـه بمدفعـين مكسـيم الى قمة جبل سرغام واشترك من هذا العلـو فى التدخـل بنـيران مميتـة . وهكـذا تقـدم الصف الطويل بقوة لا تقاوم . فى الوسط وتحت العلـم المصـري الأحمـر. غـير عـابئ بالنيران التي يمكن أن توجه لهذا الرمز والتي أحدثـت بعـض الخسـائر فيمـن حولـه، ركب القائد، السردار عـابس وكئيـب، لا يحركـه لا الخـوف أو الحمـاس بنفـس القدر. على بعد ميل من المؤخرة كانت البـوارج الحربيـة مسـتاءة لأن القتـال أصبـح بعيدا عن مدى مدافعها ، تمخر عباب الماء جيئـة وذهابـا فى ملـل، كأنهـا دب قطـبي يبحث عن فريسة للالتـهام .

قبل هذا الموقف الرهيب ، كان نظـام الخليفـة قـد انهـار . كـل الأرض تعـج بالآلاف من القتلى والجرحى ، كان الجنود السودانيون حريصـين علـى عـدم تخطـي جثث الموتى أو المشي فوقها وهي عادة سودانية معروفـة ، آلاف الأفـراد الذيـن نجـوا من الموت يتزاحمون مع النازحين والفارين الى مدينة أم درمـان زحمـوا السـهل ترقبـهم أعين أفراد الرماحة بروح الانتقام. صمد يعقوب ورجال الرايـة السـوداء و لم ينكصـوا على أعقابهم فارين. وقفوا وقفة رجال حـتى النهايـة آثـروا المـوت فى نفـس الموقـع وعليه فإن الغزاة عندما وصلوا لمكان العلم ، كان يرفرف ، فـوق الموتـى فقـط .

بينما يجري كل هذا ، كانت الأحداث تتحرك بسرعة فاللواء الأول البريطاني، كان يضاعف الخطى فى مؤخرة لواء ماكسويل ولواء لويس يملأ الثغرة بينهما ، وعندما استدار، استطاعت الفرق أن تكسب حسب قربها من محور الجناح ، اتبع اللواء تشكيل هجوم متحرك مع فرقة اللينكون التي كانت المحور فى المقدمة ، أول ما وصلت الى يمين قوات لويس بدأت الفرقة فى الاستعداد. كان واضحا أن هجوم الخليفة قد كسر وأن قواته فى موقف تقهقر، فى السهل القريب ترقد جثث العرب سميكة الحجم ، بمجموعات من الفارين تمشي على البعد، لم يبق إلا العلم الأسود ، وظل وحيدا يرفرف فوق جثث المدافعين عنه ، كانت المعارك قد أنتهت أمام اللواء ، لكن الذين نظروا بعيدا ناحية اليمين شاهدوا منظرا آخر، جاء جيش جديد فيما يبدو، من مرتفعات كرري ، جاءت أوامر جديدة لتقطع الحيرة . ركض ضابط بجواده ، سرت أخبار أن هنالك معارك ضارية يخوضها لواء ماكدونالد فى ناحية الشمال وأن قوات الحرابة قد اشتبكت مع قواته واخترقت دفاعاته . كانت هذه هي الشائعات التي ترددت . كانت الأوامر محددة ، أقرب فرقة هي اللينكون شير تسرع لنجدة ماكدونالد وتقابل الهجوم. كانت فرقة اللينكون شير تلهث من المجهود ومرهقة ولكنها استجابت للأوامر بروح معنوية عالية . بدأوا فى الوصول لمؤخرة لواء ماكدونالد غير مدركين التحولات التي تجري بين صفوفه، لكن كانوا يسمعون صوت إطلاق النار المستقل وحثيث صوت الرصاص السام .

لو كان هجوم قوات الخليفة جاء فى توقيت واحد ، لكان أحرج موقف ماكدونالد وجعله ميئوسا منه تماما ، بل ربما كان هالكا أكيدا . بينما خف الهجوم على مقدمته ، زاد عنف الهجوم على يمينه وبدرجه مخلة للتوازن وكان عليه مواجهة الهجومين معا . كانت اللحظة حرجة والخطر محدق فقد توقف كل شئ على ماكدونالد الضابط الشجاع الذي رشحته قدراته العسكرية الممتازة من بين الصفوف ، من جندي عادي الى رتبة قائد لواء ، ومما لا شك فيه أنه تنتظره ترقيات أخرى قادمة، فقد ارتفع لمستوي المسئولية .

لمواجهة هجوم جيش الخليفة كون كتائبه الثلاثة فى اصطفاف معركة وكتيبة فى اصطفاف تقدم على مؤخرة الجناح الأيمن مكونة شكل لام، عندما شعر بضعف الهجوم على الجانب الغربي حول قواته ناحية الشمال الغربي لاشتداد الهجوم فى تلك الجهة، وغير تشكيل قواته جاعلا حرف لام أصغر من جهة واستطاع تحريك قواته وأن يوازن حجمها وحشدها كل مرة حسب قوة أو ضعف الهجوم واستطاع توقيت هذه المناورات أن يصد أكثر من هجوم فى نفس الوقت . ما إن شعر أن جيش الخلفية بدأ يترنح ريتقهقر أمر الفرقة السودانية الحادية عشر وبطارية على شماله أن تتحرك عبر زاوية قائمة مع اللواء وتستعد فى حركة سريعة قصيرة لمواجهة الهجوم القادم من قوات على ودحلو. للاستعداد لهذا الموقف كونت الفرقة السودانية التاسعة التي كانت على يمين الجبهة فى التشكيل الأصلي، استدارت ناحية اليمين من اصطفاف تقدم الى اصطفاف معركة بدون الانتظار للتعليمات وبذلك واجهت كتيبتان هجوم الخليفة وكتيبتان الهجوم الجديد. كان واضحا أن جيش الخليفة قد دمر فأمر ماكدونالد الفرقة السودانية الخامسة وبطارية مدفعية أخرى لتغيير الجبهة وتكوين عمق فى الطول للفرق التاسعة والحادية عشر. ثم حرك الفرقة المصرية الثانية بانحراف الى يمين جبهتهم حتى تلتئم الثغرة فى الزاوية القائمة بين صفوفهم وصفوف الكتائب الثلاث الأخرى . تمت هذه المناورات تحت ضغط نيران مكثفة نتج عنها فى عشرين دقيقة ١٢٠ قتيلا بين الكتائب الأربعة بخلاف خسائر بطاريات المدافع كل هذا أمام عدو عنيد يفوقه عددا بنسبة سبعة لواحد كان يكفى لو التحم مع القوة أن يحقق النصر . فى وسط كل هذا الاضطراب والغبار وجد الجنرال الوقت ليستدعي ضباطه فى الفرقة التاسعة ويلومهم على التصرف قبل صدور الأوامر وبمجرد توقعها . أصر عليهم أن يتصرفوا كما كانوا فى طابور التدريب

أصبحت الآن الفرق السودانية الثلاث تواجه كل عنف وفوران هجوم الدراويش القادم من كرري. إن شجاعة السود لا تقل اشتعالا عن رصاص بنادقهم. انتابتهم نوبة حماس وأخذوا يطلقون الرصاص بدون نيشان أو تصويب ،

كل هم أي واحد منهم، أن يضرب ثم يعمر ويضرب وهكـــذا بـــدون توقـــف . حـــاول الضباط البريطانيون تهدئة الثائرين دون جدوى ، نادوا عليـــهم بأسمائـــهم أخـــذوا منـــهم البنادق دون فائدة . بدأت الذخيرة تتناقص واستدار الجنود يطلبـــونّ المزيـــد ، صرفـــت لهم طلقات قليلة لكي يقتصدوا لكنهم استعملوها وجـــاءوا يطلبـــون غيرهـــا . بـــالرغم من ثقل حجم خسائرهم من نيران الكتائب الثلاثة مدافـــع المكســـيم اســـتمر الدراويـــش فى التقدم بالآلاف حتى بات أن التلاحم لابد واقـــع ، جـــهز الجنـــود الســـود أنفســـهم بكل إقدام لمواجهة الاشتباك بدون أي اعتبار لتعداد القـــوات المهاجمـــة الهـــائل.

الذخيرة لم يتبق منها أكثر من ثـــلاث مجموعـــات مـــع كـــل فـــرد فى اللـــواءات. فتحت بطاريات المدفعية نيرانهـــا بشـــكل مكثـــف، دانـــات، شـــظايا، اســـتمر تدفـــق الدراويش حتى وصل الأحياء منهم على بعد ١٠٠ ياردة من الصفـــوف خلفـــهم حملـــة العلم الأخضر ، كتل بشرية متحركة ، نحو النصر كمـــا كـــانوا يعتقـــدون .

فى هذه اللحظة وصلـــت فرقـــة اللينكـــون وبمجـــرد أن عـــدت مؤخـــرة لـــواء ماكدونالد كونت اصطفاف وبدأت إطلاق النيران أمـــام جبهـــة القـــوات الســـودانية . كانت مجموعات من الدراويش ، اثنين أو ثلاثة أفـــراد علـــى بعـــد ١٠٠ يـــاردة مـــن القوة ، والكتل البشرية على بعد ٣٠٠ ياردة ، استمر الضـــرب الفـــردي لمـــدة دقيقتـــين بعدها استعدت الفرقة كلها وأمرت بضرب بمجموعات متتاليـــة (فـــولي) كـــان الغـــرض منها صد الصفوف الأولي من العرب . فقـــدت الفرقـــة فى مرحلـــة الاســـتعداد حـــوالى ١٢ محاربا بما فيهم العقيد سلوقيت الذي كان يعتني بأحد الجرحـــى عندمـــا أصيـــب فى صدره . أوقف الضرب الانفرادي وبنظام جيد بدأ ضـــرب المجموعـــات الـــذي تدربـــت عليه القوات والذي يناسب بنادقها وبشكل كبير أطلق كل فـــرد حـــوالى ٦٠ مجموعـــة وتم القضاء على الهجوم ودحـــره.

كانت قوة فرسان الدراويش ضعيفـــة ، حـــوالى ٢٠٠٠ فـــارس ، وحـــوالى ٤٠٠ من هذه كانت خيول تابعة لبعـــض الأمـــراء مـــن خاصتـــهم ، كونـــت منـــها فرقـــة وأضيفت لقوات علي ودحلو . عندما شـــعرت هـــذه الفرقـــة أن لا أمـــل فى الانتصـــار كونت كتلة هاجمت شمال لواء ماكدونالد علـــى مســـافة كـــانت حـــوالى ٥٠٠ يـــاردة

وبما عرف عن قوة نيران الفرقة السودانية ، كان هنـــاك شـــك فى أنهـــم ســينجحون فى ذلك الهجوم اليائس . كان أغلبهم لا يحمل أي سلاح فى يـــده ورغـــم ذلـــك أصـــروا على إجبار خيولهم للتقدم الى حيث الموت المحقق . سقطوا جميعـــهم عندمـــا وصلـــوا الى النيران ، ثلاثة ، عشرون ، خمسون ، مائتان ، ستون ، خمســة ثم واحـــد ، طوابـــير مـــن الرجال السمر تلون دماؤهم رمال الســـهل الممتـــد . لم تدخـــل صفـــوف المشـــاة، الا الجياد شاردة بدون فرســـانها . .

بعد أن فشل الهجوم من كرري تقـــدم كـــل الجيـــش الإنجلـــيزي / المصـــري الى الغرب فى تشكيل معركة بالسنج والمدفعية بطول ٢ ميـــل داحريـــن فلـــول الدراويـــش أمامهم لتشتيتهم فى الصحراء بحيث لا يتمكنوا مـــن التجمـــع مـــرة أخـــرى أو تكويـــن أي وحدات قتالية . جاءت الفرقة المصرية التي كـــانت علـــى طـــول النـــهر لتشـــارك المشاة فى مهمة المطاردة . فى تمام الحادية عشرة والنصف ، قفـــل ســـير كتشـــنر نظارتـــه وعلق بأنه يعتقد أن العدو " قد تلقي تعفيرة جيدة " وأعطي أوامـــــره للألويـــة لمواصلـــة مسيرتها لأم درمان بدون أن يتعرض لها أحد، فالحركة ممكنة الآن بعـــد هزيمـــة القـــوات على الســـهول .

أوقفت الألوية ضرب النار وشكلت قواتها بأوضاع مناسبة واتجـــهت جنوبـــا نحـــو المدينة ، بقيت فرقة اللينكون شير فى المؤخـــرة للتـــأمين .

إن جيش الدراويش العظيم الذي تقدم عنـــد شـــروق الشـــمس بكـــل الشـــجاعة والأمل ، هرب تطارده الفرقة المصرية للفرسان وفرقـــة اللانســـر ٢١ (الرماحـــة) تاركـــا وراءه ٩ آلاف قتيل وعددا مماثلا من الجرحـــى .

هكذا انتهت معركة أم درمان أكبر إشـــارة لانتصـــار العلـــم علـــى البربريـــة ، فى زمن قدره خمس ساعات تم القضاء على أكبر قوة وحشـــية تواجهـــه قـــوة أوربيـــة ، وتم تشتيتها بدون صعوبة ، مع مخاطرة صغيرة نسبيا وخســـائر لا تذكـــر للمنتصريـــن .

الفصل السادس عشر

سقوط المدينة

الآن بعد أن تأكد للخليفة أن الجيش الذي وقف معه قد هزم وفشلت كل هجماته وقتل آلاف المقاتلين الشجعان ، ركب راجعا للمدينة كقائد عنيد شجاع، لعمل الاستحكامات الضرورية للدفاع عنها وفى نفس الوقت ، كقائد حذر ، يعمل على تأمين خروجه من المدينة إذا تعسرت إمكانيات الدفاع عنها . أمر بضرب النحاس وعزف الأمبيات آخر النغمات التي عزفتها ، لم يستجب لها أحد، العرب قد نالوا ما فيه الكفاية من القتال . وضح لهم أن كل شئ انتهي وأن من الخطورة الرجوع للمدينة .

كانت هجمة فرقة الرماحة مكلفة ،ولكنها كانت ذات فعالية كبيرة ، انسحاب اللواء الذي كان يؤمن المحور الأيمن قد كشف خط التقهقر . كان لابد لفرقة الفرسان الاستفادة من الاستيلاء على هذه الرقعة لأقصي حدود .وعليه بينما كان الهجوم الثاني على أشده تحركنا لكي نقطع خط الرجعة على مئات الفارين من أرض المعركة . بعد تجارب الساعات الأربع الماضية ، وكثرة أفراد العدو أمامنا تخيل الجميع أن تكون هناك معركة حامية دموية . لم نقطع مسافة كبيرة حتى جاء الدراويش طواعية نحو السرايا المتقدمة ، رموا سلاحهم فى الأرض رفعوا أيديهم الى أعلى طالبين الرحمة . بمجرد أن ظهر أن تسليم الأفراد يتم قبوله بدأ الدراويش الحضور ووضع سلاحهم ، فى الأول كأفراد مثني وثلاث ؛ وستة وأخيرا بمجموعات، فى نفس الوقت ألتف هؤلاء الذين لا يرغبون فى التسليم ، حول فرقة الفرسان بمسافة ميل وتابعوا تراجعهم بدون انقطاع . أخر تسلم السلاح ومرافقة الأسري تقدمنا نحو المدينة لكن نشاط الفرسان قد منع رجوع المقاتلين للمدينة استجابة لنداء الخليفة للتجمع والدفاع عنها ، إذ اتجهوا جنوبا متجاهلين أوامر أمرائهم. واستعمل أفراد الفرسان طبنجاتهم لإطلاق النار على تلك الفئة التي لم تبادر بالاستسلام وسط جموع الفارين ولكن بالرغم من ذلك تمكن أكثر من

٢٠ ألفا من الهروب، كان بينهم مقـاتلون شرسـون ردوا علـى نيراننـا مـن رصـاص بنادقهم لكنها لم تحدث خسائر لبعد المـدى .

طبعا كان سيكون عمل جنوني أن تفكـر فرقـة مـن ٣٠٠ فـرد فى الدخـول فى معركة مطاردة وسط هذه الآلاف و أكتفي‌نا بنتائج رصـاص طبنجاتنـا .

بينما تجري هذه الأحداث استمر الجيـش فى تقدمـه نحـو أم درمـان ثم شـاهدنا مقدمة المشاة آتية من مرتفعات سرغام تملأ السهل الذي يفصل بيننـا والمدينـة ، يحمـل اللواء الوسط علم الخليفة الأسـود وتحتـه العلـم الأحمـر أظـهر موكـب الرئاسـة . استمرت هذه الكتل السوداء فى المسيرة ببطء أثناء تعاملنا مع الأعـراب وعنـد السـاعة الثانية عشرة شاهدناهم واقفي‌ن ناحية النهر على بعد ثلاثة أميال مـن المدينـة . جاءنـا الأمر للانضمام لهم ورحبنا جدا حيث كانت الشمس حاميـة ونحـن متعبـون وجوعـي والخيول يجب سقيها . أكملت بقايا جيـش الدراويـش تقـهقرها بـدون إزعـاج أو تدخل من أحـد .

رجعنا الى النهر كل القوة وقفـت لتشـرب ، تـأكل أو تسـتريح عنـد خـور شمبات، كان المنظر مثيرا ، تخيل ٦٠٠ ياردة من طول قنـاة السـويس تمتلـئ الضفتـان بمجاميع سمراء بلون الشكولاته ، أسراب تحتل الجـانب الشـمالى مـن مشـاة الفـرق البريطانية، آلاف الحيوانات، خيـول الفرسـان ، بغـال المدفعيـة ، وجمـال الـترحيل والمواصلات تملأ الفراغ وفى المقدمة مجموعات كبيرة مـن لابسـي الكـاكي ، يجلسـون فى صفوف على المنحدر مئات تقف عند حرف المـاء ،بعضـهم داخـل المـاء العكـر يشربون بعمق ، بالرغم من وجود ثلاث جثث فى الميـاه الضحلـة القريبـة ، أظـهر أن الجنود العطشى لا يهمهم غير إطفاء الظمأ مئات الزجاجـات كـانت تمـلأ مـن النيـل وهو قد جاء الى الصحراء لينعش الحيوانات والرجـال المنـهكين .

أثناء الهجوم على لواء ماكدونالد ، كانت الفرقة المصريـة تراقـب مـن مواقعـها فى السفوح الجنوبية بجبال كرري ومستعدة للتدخـل إذا لـزم الأمـر لمسـاندة اللـواء بهجوم خاطف . عندما كسر هجوم الدراويش وبـدأوا فى التقـهقر ، شـكل بـرودود السرايا فى صفي‌ن من ٤ الى ٥ سرايا وتقـدم للمطـاردة فاتجـه أولا للغـرب لمسـافة

ميلين ثم جنوب غربي لثلاثة أميال ناحيــة التــل ذي الــرأس الدائــر . كمــا حــدث للرماحة أخرهم استسلام الدراويش وترحيلهم للنهر عندما اقــتربوا مــن كتــل الجيــش المهزوم ، اتضح لهم بأن الروح القتالية للعدو لم تمــت تمامــا،رجــال عنيــدون يطلقــون النار وهم جرحى على الأرض ، رافضين طلب الاستسلام الذي ربمــا أحســوا أنــه لــن يعطي اهتماما. كل الذين احتموا تحت الشجيرات قــد تجمعــوا للقيــام بمهمــة يائســة، رجال بالحراب وقفوا فى تحد دون أن يرمش لهم جفن فى انتظــار هجــوم ســرية كاملــة . رجال بين الحياة والموت يقفذون فجأة ويطلقــون الرصــاص علــى الفرقــة ، بــدأت الفرقة تعاني من الخسائر نتيجــة لهــذا التصــرف غــير المعتــاد ، إذ زادت الإصابــات والخسائر مع كل تقدم . وكان للمطاردة العامــة أن تتوقــف .

الرائد لي كالى‌س قائد السرايا الثلاثــة فى المقدمــة أراد أن يقطــع خــط الرجعــة على الجموع العربية المنسحبة ، فغير اتجاه الســرايا ناحيــة النــهر علــى محــاذاة خــور شمبات وهجم على مؤخرة الجيش المدحور . ولكن العدو صمــد ودافــع عــن موقعــه بإطلاق الرصاص بطريقة مكثفة وعلى كل الاتجاهــات نتــج عنــها إصابــات مباشــرة لكثير من الرجال والخيول . هنا اكتفت الســرايا بــأن تحــول يمينــها لناحيــة اليمــين وتخرج من بيت النحل الذي أوجدت نفسها فيــه، وتحركــت نحــو تــلال ســرغام . بعدها صدرت لها الأوامر بالانضمام لباقي القوة على شــاطئ النيــل .

تسلمت فرقة الفرسان فى الرابعة بعد الظــهر تعليماتهــا بضــرب حصــار حــول المدينة لمنع أي تسرب لقوات العــدو خــارج أم درمــان ، تحركــت فرقــة الفرســان والرماحة وعملت كردونا على بعد ميل من المنــازل علــى مشــارف المدينــة . قــوات المشاة كانت قد دخلت المدينة يدل على ذلك صــوت إطــلاق الرصــاص ورشاشــات المكسيم على فترات متقطعة. لواء الفرقة السودانية المتقدمــة -ماكســويل- تحــرك مــن خور شمبات فى الثانية والنصف وعمل تشكيل معركة من عــدة فصــائل تتكــون كمــا يلي :-

-السودانية الرابعة عشرة -السودانية ٢١ -المكســيم -المصريــة الثامنــة -بطاريــة ميدان ٣٢-الســودانية ١٣ .

ركب السردار ومعه كل قادة رئاسته ، خلف علم الخليفة وتسبقه موسيقي السودانية السادسة وخلف الكتيبة ١٤ ،أحاطت المنازل بالقوة المتقدمة داخل الشوارع المتعرجة استمرت القوة فى المسيرة مع جبهة عريضة ، تتبعها الكتائب واحدة وراء الأخرى والألوية لواء وراء لواء حتى امتلأت بهم الساحات واكتظت الشوارع والأزقة بالكتل البشرية من الرجال المسلحة تشق طريقها الى الحائط العظيم .

استمر السير لمسافة بين الأحياء، كان القائد مسرعا مع قادته حتى وجد نفسه أمام حائط أم درمان تصحبه المدفعية ومدافع المكسيم . بعض مئات من الدراويش وقفت تدافع عن المدينة أطلقت طلقات طائشة ، لم تكن هناك مساطب يقفون عليها لتساعدهم على التصويب ، ردت عليهم رشاشات المكسيم بعنف تم تطهير الحائط فى ربع ساعة . ترك السردار البطارية ٣٢ لمدافع الميدان على الزاوية الشمالية وواصل مع بقية القوات لناحية النهر . كانت الثغرات التي أحدثتها مدفعية البوارج قد تم إغلاقها بالحجارة والأبواب والأخشاب ولكن البوابة الرئيسية مفتوحة .

دخل منها لقلب المدينة داخل الجدران كانت الصورة أكثر رعبا من الأحياء الخارجية . كانت أثار نيران مدافع البواخر واضحة للعيان . نساء وأطفال على طول الطرق خائفين مرعوبين. فى أحد الأماكن عائلة كاملة تم القضاء عليها بدانة من قذائف المدفعية ، القتلى من الدراويش بدأت جثثهم مع حرارة الجو الشديدة ، فى التحلل تملأ الأرض . المنازل مكدسة بالجرحى ، مئات الحيوانات النافقة تملأ الهواء برائحة كريهة .

هنا ظهر المترجمون يعلنون فى الأزقة والطرقات ،شروط الغزاة الرحيمة للاستسلام تطالب الجميع بإلقاء أسلحتهم . جدد السكان ولاءهم وترحيبهم تصاعدت أكوام السلاح الذي تم جمعه تحت حراسة الفرقة السودانية . طلب عرب كثيرون الرحمة ولكن البعض الأخر رفضها لذلك كان هناك قتال داخل المدينة . كل الدراويش الذين رفضوا الاستسلام تم قتلهم إما بالرصاص أو بسلاح السنج،

ظل صوت الطلقات المتفرقة يسمع حول شوارع المدينة . بينما كانت النساء يتجمعن حول جواده وبعض الرجال العابسين يطلقون الرصاص من داخل المنازل، وبينما يسلم المحاربون المهزومون أسلحتهم من حراب وخلافه وبقية لا تزال تقاوم يتم حصارها على الأركان ركب السردار وسط كل هذا الاضطراب والروائح الكريهة والخطر حتى وصل الى قبة المهدي .

عند الجامع اثنان من المتعصبين هاجما الحرس السوداني فقتلا جنديا وجرحا الأخر قبل أن يقتلا رميا بالرصاص . كان اليوم قد انتهى وكان الوقت وقت المغيب عندما وصلت القوة الى السجن وكان السردار أول من دخل ذلك العرين العربي المشئوم الكريه . تم الإفراج عن شارلس نيوفلد مع ٣٠ سجينا أخر كانوا مكبلين بالأغلال والسلاسل وامتطي شارلس نيوفلد ظهر جحش (حمار صغير) ظهر كما أصابته لوثة كان يتكلم ويأتي بحركات من يديه فى إشارات غريبة " ثلاثة عشر سنة كم انتظرت هذه اللحظة " قال لمنقذه . خرج من السجن حل الظلام الآن فتوجه الى الميدان حيث أقيم مركز إقامته والمكان الذي عسكرت فيه الآن الفرق البريطانية. بقية القوات توزعت على الأحياء والطرقات ، بقي لواء ماكسويل فقط داخل المدينة لحفظ النظام والقانون ، الأمر الذي حجبته أسرار الظلام .

كان السردار وقوات المشاة يستولون على أم درمان ، تحركت فرق الفرسان البريطانية والمصرية حول ناحية الغرب حول المدينة وبقيت لمدة ساعتين ، تسمع تبادل طلقات النار داخل المدينة غير مدركة لما يجرى هناك .

أعداد كبيرة من الدراويش وبعض الأمراء غيروا الجبة المشهورة وجاءوا يسلمون أسلحتهم ويعلنون الاستسلام ،حتى صار عندنا كميات كبيرة من الحراب والسيوف كان من المستحيل أن نحملها كلها واضطررنا الى تدمير الكثير من التحف. كاد الليل يرخي سدوله عندما ظهر العقيد سلاطين على ظهر جواده، هرب الخليفة، وكان على الفرسان المصرية مطاردته فى الحال. وعلى الرماحة انتظار أوامر أخري وكان سلاطين متلهفا وهو يتحدث للعقيد برودود وسأل لاثنين من

الأمراء الذين كانوا فى الأسر ثم اختفى عند الأفـــق . غـــادرت الفرقـــة المصريـــة أيضـــا راكضة بخيولهـــا .

لم يدرك الخليفة، بعد أن غــــادر أرض المعركـــة ، أن جنـــوده لم يطيعـــوا أوامــــره واستمروا فى تقهقرهم و لم يصل المدينة إلا بضع مئـــات، للدفـــاع عنـــها. ذكـــر خادمـــه الأثيوبي أنه قد تلقي صدمة الهزيمة وهو متماسك استراح حـــتى الثانيـــة ، تنـــاول بعـــض الطعام ثم رجع الى القبة تضرع فى هذا الضريح المقدس لــــروح محمـــد أحمـــد أن تعينـــه على تحمل هذه المحنة ، كانت أخر صلاة تقام حول قـــبر المـــهدي . هـــذا التعبـــد تمليـــه مثل هذه الظروف ويتفق مع مجريات الأحداث . سمـــع الخليفـــة فى الرابعـــة أن الســـردار يدخل المدينة وأن الفرق البريطانية وصلـــت ميـــدان الاحتفـــالات فى الغـــرب ، امتطـــي ظهر حماره واصطحب زوجته الأولي ، راهبة إغريقية كرهينـــة وبعـــض خاصتـــه واتجـــه ناحية الجنوب كانت الجمال السريعة تنتظره على بعـــد ثمانيـــة أميـــال مـــن أم درمـــان سرعان ما انطلقت به الى حيث بقايا جيشه فى انتظاره . هنـــا وجـــد بعـــض الأصدقـــاء مكسوري الخاطر ولكن حقيقة أن يلتقي أي أصدقـــاء بعـــد هـــذه المأســـاة هـــو شـــئ إيجابي يحسب له ولشعبه. عندما وصل لم تكن معـــــه أي حراســـة و لم يكـــن يحمـــل أي سلاح. كان النازحون لديهم كل الحق فى أن يكونوا ثائرين ؛أن قائد هـــم قـــد جرهـــم الى الخراب والدمار، قطع رقبة هذا الرجل الوحيد الذي كـــان سببا فى كـــل معانـــاتهم ما أسهله على أي واحد منهم ويمكن أن يتم بـــبراءة ولكـــن لم يهاجمـــه أحـــد . هـــذا الظالم الجبار ، سبة السودان ، المتكبر المكروه رمز الشر،كما تصفـــه العيـــون الأوربيـــة، الشخص الذي ينال كل الكره من شعبه كما كان الاعتقـــاد الســـائد فى إنجلـــترا ، يجـــد مثل هذا الشخص كل السلامة بـــين جنـــوده الفـــارين . هـــرع الأمـــراء النـــاجين الى جواره ، سقط أغلبهم على السهل المميت عثمـــان أزرق البطـــل الصنديـــد ودبشـــاره ، يعقوب وكثيرون لم تعتم أسماءهم الغريبـــة هـــذه الصفحـــات ولكنـــهم جميعـــا كـــانوا رجالا عظماء رقدوا وأنظارهم نحو النجوم . وهؤلاء الذين لم يـــهتز ولاؤهـــم للحظـــة، على ودحلو الذي يرقد معانيا من شدة الألم جـــراء القذيفـــة الـــتي أصـــابت قدمـــه ، ثم شيخ الدين، عثمان دقنه القوي ،وإبراهيم خليل الذي تحمـــل هجـــوم الرماحـــة ،وأمـــراء

آخرون هرعوا جميعا الى جانب خليفه محمـــد أحمـــد و لم يتخلـــوا حـــتى فى مثـــل هـــذه الظروف القاسية ، عن التمسك بأهدافـــه.

وهكذا أسرع الجميع مع جنـــح الظـــلام، جمـــوع مضطربـــة يائســـة ، محـــاربون منكسرون يحملون بنادقهم على أكتافهم ، رجال جرحـــى يعرجـــون فى أسـي ،حمـــير وجمال محملة بالمواد ، نساء باكيـــات يجـــري خلفـــهن الأطفـــال ،الآلاف حـــوالى ٣٠ ألف مع قليل من الطعام وميـــاه قليلـــة لا تســـتطيع أن تموهـــم ، الصحـــراء أمامـــهم ، البواخر الحربية علـــى النيـــل ،وخلفـــهم الشـــائعات ،وشـــريط عريـــض مـــن الموتـــى والمحتضرين تعلم طريق الهروب . بـــدأت الفرقـــة المصريـــة للفرســـان فى مهمتـــها غـــير المجدية . تقلصت قوات السرايا حمل الرجـــال مـــا يكفيـــهم حـــتى الصبـــاح، وحملـــت الخيول ما يكفيها حتى الظهر، على أن تلحق بهم باخرة على النيـــل تحمـــل بقيـــة المـــؤن فى اليوم التالى . كان الطريق على طول النيـــل الأبيـــض يعـــج بـــالدراويش المســـلحين ولكي يتفادى هؤلاء الفاون الخطرون، عرج بالفرقة جنوبـــا ناحيـــة الصحـــراء وبعـــض الجبال التي ظهرت ظلالها عبر السماء كانت المنطقة غـــير معروفـــة ومليئـــة بالمســـتنقعات والخيران لذلك عانت الخيـــول والجمـــال وســـقطت علـــى الأرض وزاد الظـــلام مـــن صعوبة الموقف فقرر العقيد أن يتوقف حـــتى ظـــهور الضـــوء واختـــار منطقـــة جافـــة وعسكر فيها مع قوته. بعض البرك التي ظهرت مكنتـــه مـــن حســـن الحـــظ أن يســـقي الحيوانات وتملأ زجاجات المياه . كلف بعض الأفراد بالحراســـة ونـــام البـــاقون تيقظـــهم من وقت لآخر أصوات الرصاص الآتية من أم درمان وأيضا من اتجـــاه القـــوة المنســـحبة

تحركت قوة برودود مرة أخـــرى فى الســـاعة الثالثـــة صباحـــا يـــوم ٣ ، كـــانت الخيول وأفراد الفرقة منتعشين وساعد ضوء القمر أن تقطع القـــوة مســـافة جيـــدة حـــتى وصلت الى نقطة اللقاء مع الباخرة فى الســـابعة وصلـــت البـــاخرة وظـــهرت مدخنـــها الطويلة من مسافة بعيدة باعثة الأمل فى الحصول علـــى وجبـــة شـــهية خاصـــة أنهم لم يتناولوا أي وجبة منذ الليلة السابقة للمعركة . بعـــد أن اقـــتربت القـــوة مـــن البـــاخرة وضح أن هناك مستنقعات وميـــاه عميقـــة علـــى مســـافة ٣٠٠ يـــاردة بينـــهم وبـــين

الباخرة، تمنع الاتصال المباشر ليس هناك أي طريقة لإنـــزال المـــؤن والأغذيــة. تحركــت القوة على أمل أن تجد الباخرة موقعا صالحـــا كمرســـي واســـتمرت لمســافة ٧ أميــال بدون جدوى لم يظهر من الباخرة إلا الصاري والعلم واســـــتمرت المســـتنقعات كمـــانع مائي يحول بين القوة والمؤن وبدون طعـــام اســـتحال الاســـتمرار فى المطـــاردة وتـــأمين مسيرة العودة كان فى الاعتبار بالنسبة للمؤن . جـــــاءت أخبـــار مـــن بعـــض الهـــاربين الذين أسروا أن الخليفة أسرع فى انسحابة وأنه بـــــدأ يعيـــد صفـــوف قواتـــة . العقيـــد برورود أراح خيوله حتى تنتهي فترة الحر واســـتأنف رحلـــة العـــودة و لم تصـــل الفرقـــة المتعبة وأفرادها الجوعى الى معسكرهم.خارج أم درمان إلا فى الحاديـــة عشـــر مـــن يـــوم ٤ سبتمبر .كان هذا حال المطاردة التي قامت بها القـــوات النظاميـــة.

واصل عبد العظيم ومعه ٧٥٠ من العـــرب الملاحقـــة ، كـــانت معداتـــه خفيفـــة وهو يعرف طبيعة الأرض واستطاع أن يصل الى شقيق علـــى بعـــد ١٠٠ ميـــل جنـــوب الخرطوم فى يوم ٧ . هنا يحصل علـــى معلومـــات مؤكـــدة أن الخليفـــة يســـبق بمســـيرة يومين ومعه كميات كبيرة من الأطعمـــة والميـــاه وجمـــال كثـــيرة واســـتطاع أن يجنـــد ٥٠٠ فرد من الجهادية كحرس خاص ويرافقه أفراد كثـــيرون مـــن قبـــائل مختلفـــه مـــع كل هذه الصحبة القوية ، كان يسافر ليـــل نهـــار فى اتجـــاه الأبيـــض الـــتى .. يحتلـــها ٣٠٠٠ مقاتل فى الحامية التي ما زالت تحت سيطرته . مع سماعـــه هـــذه الأخبـــار وجـــد أفراد فرقة الأعراب الموالين أنه من غير المفـــيد أو ليـــس مـــن الحكمـــة الاســـتمرار فى المطاردة وعادت لأم درمـــان .

فى معركة أم درمان والاستيلاء عليها كانت خسائر قوات الحملـــة كمـــا يلـــي :

الفرقة البريطانية

عدد القتلى — (٣) ضباط

نقيب كـــالديكوت	:	الفرقة الملكية الأولي ورويكشـــير .
مستر فريـــن فى‌ل	:	الرماحة ١٢ ، تبع للرماحة ٢١ الملكيـــة
مستر هـــوارد	:	مراسل جريدة التـــايمز

ضباط جرحى — (١١) ضابط

العقيد رودس	:	مراسل جريدة التايمز
ملازم أول سلوقيث	:	أ.أر.أم.سي
النقيب باقوت	:	ف الأولي كاميرون هايلندرز
النقيب كلارك	:	ف الأولي ورويكشير الملكية
ملازم نيكلسون	:	ف الأولي كاميرون هايلندرز
ملازم مولينكس	:	الحرس الملكي يتبع اللانسر ٢١
ملازم بيري	:	اللانسر ٢١
ملازم برنتون	:	الفرقة الثانية للحرس تبع اللانسر ٢١
ملازم نيتشام	:	اللانسر ٢١ (الرماحة)
مستر وليامز	:	مراسل الديلي كورنيكل .

ملخص لخسائر الفرق البريطانية

الفرق	قتيل		جريح		العدد الكلي للخسائر
	ضابط	جنود	ضابط	جنود	
لانسر ٢١	١	٢٠	٤	٤٦	٧١
فريندير الأولي	–	–	١	٤	٥
نورث سمرلاند الأولي	–	–	–	٢	٢
رويال ورويك الأولي	١	–	١	٦	٨
لينكون شير الأولي	–	١	–	١٧	١٨
لانكشير بيادة ٢	–	–	–	٦	٦
سي فروث هايلندرز	–	١	–	٨	٩
الكاميرون الأولي	–	٢	٢	٢٧	٣١
لواء البنادق ٢	–	١	–	٨	٩
فصائل جيش تابعة	–	–	–	١	١
فصائل طبية تابعة	١	–	٢	–	٣
المجموع	٣	٢٥	١١	١٣٦	١٧٥

الجيش المصري

ضباط بريطانيون وضباط احتياطي جرحـــــوا (٦)

النقيب دي روقيمونـــت

النقيب سميث من الاســـتخبارات

الملازم هوبكنسون من الهجانـــة

الملازم ماندلـير

الصول هوبـر

القوات الأهلية

الفرق	ضابط		أفراد	
	قتيل	جريح	قتيل	جريح
الفرسـلن	١	٢	١	٣١
المدفعيـة	–	١	٢	٢٦
الهجانـة	–	٤	٤	٣٨
المصريـة الأولي	–	–	١	٥
المصرية الثانيـة	–	–	–	١٧
المصرية الثالثـة	–	–	١	٥
المصرية الرابعـة	–	–	–	٤
المصرية الخامسـة	–	–	–	٤
المصرية السـابعة	–	١	١	٣
المصرية الثامنـة	١	–	١	١٠
السـودانية ٤	–	–	–	٤٠
السـودانية ٥	–	–	٢	٢٣
السـودانية ٦	–	–	–	٣١
السـودانية ٧	–	–	٢	٥
السـودانية ٨	–	–	٢	١٠
السـودانية ١٤	–	–	١	٧
المصريـة ١٥	–	–	–	٧
المصريـة ١٧	–	–	–	٤
المصريـة ١٨	–	–	–	٢
الـترحيلات	–	–	–	١
المجمـوع	٢	٨	١٨	٢٧٣

المجموع العمومي ٢٠ ضابطا بريطانيـا و ٤٦٢ رجـلا

خسائر قوات الدراويش قدرت فى الإحصائيات الميدانيـــة وصححـــت فيمـــا بعـــد اتضح أنها ٩٧٠٠ قتيل وجرحى قدروا بـــــــ١٠٠٠٠ الى ١٦٠٠٠ بـــالتقريب، إضافـــة الى خمسة آلاف أســـير .

الفصل السابع عشر

حادثة فـــاشودة

إن الحوادث المتتابعة التى حاولت أن أسردها فى هذا الكتاب ، لم يكن لها تأثير علـــى أى بلاد غير تلك التى تتأثر بالنيل . الجزء التالى يحتاج من القارىء نظرة واســـعة ، اذ أنــه يتعرض لوصف حادثة كادت تعصف بأوروبا، وكان لها أبعاد خطيرة . إن العالم سوف لــن يعلم علم اليقين المشروع الأصلى لحملة مارشند أو المخطط الذى كانت جزءا منه ليــــس فى مقدورنا أن نجزم إن كانت الحكومة الفرنسية قد خططت لقوة صغيرة ، أن تحتل مســـتنقع غامض على أعالى النيل بالرغم من خطورة العملية بالنسبة للقوة ، ولكن كل التفســـيرات تشير الى بعد الاحتمالات الاخرى ، أو عدم تحديدها. ما هو الدور الـــذى كـــان علـــى الأحباش أن يلعبوه ؟، وأى خدمات قدمت لهم أو ما هي الحوافز التي وعـــدوا بهـــا، وأى أسلوب كان سيتبع مع الخليفة ؟ وكيف كان سيوظف أفراد قبائل المنطقة ؟ كل هذه الأمور كان يخفيها سر هذا اللغز . كان المعروف أن محاولات فرنسا للتقرب مع الحبشة قد كلفتـــها بعض الشيء ولكن ، كلف هذا التقارب إيطاليا الكثير ، الأسلحة التى هزمت الطليـــان فى معركة عدوه ، جاءت من مصادر فرنسية . وجود بندقية سريعة الطلقات حديثة الصنع ومن أصل أوربى فى حوزة الخليفة مؤشر قوى على وجود مثل ذلك التعاون مع الدراويش ولكـــن لأى حد كان الغرض من هذه العمليات ، هو مساعدة حملة مارشاند، يبقى هـــذا معروفـــا فقط لهؤلاء الذين خططوا لهذه المبادرة والقلائل الذين لم يفصحوا عن شيء .

إن الحقائق غير القابلة للجدل قليلة. من ذلك أنه مع نهاية عام ١٨٩٦ أرسلت حملـــة فرنسية بقيادة مارشاند من الاطلنطي الى قلب افريقيا . كان اعادة الاستيلاء على دنقلا قـــد تمت، وكانت الحكومة البريطانية تفكر بجدية فى استمرار التقدم . مع بداية ١٨٩٧ أرســـلت بريطانيا حملة برئاسة العقيد ماكدونالد يرافقة ١٢ ضابطا اكفاء ، تم اختيـــارهم بعنايـــة ، سافروا من انجلترا ، وصلوا الى مومبسا ثم واصلوا مسيرتهم الى يوغنـــده داخـــل القـــارة . الأخطار المؤسفة التى تعرضت لها هذه الجملة هي خارج نطاق هـــذا الســـرد ، ســـوف لا أتعرض للمشاكل والغيره بين المحلين التى احاطت بها . يكفى أن نذكر أن العقيد ماكدونـــالد

كان قد زود بقوات سودانية كانت تقريبا فى حالة تمرد ،وقد تمردت بالفعل بعد يومين من تسلمه القيادة . اضطر الضباط للدفاع عن أنفسهم ، قتل بعضهم ، مضي العام فى مقاومة التمرد والثورة التي كانت إحدى نتائجه. إذا كان هدف هذه الحملة هو الوصول الى أعالى النيل فالواضح أن هذا الهدف صعب التحقيق. سعدت الحكومة بتكليف الضباط بعمل مسوحات جغرافية للمنطقة ، حتي تحقق بعض المكاسب .

مع بداية ١٨٩٨ ، كان واضحا لكل أولئك العالمين ببواطن الأمور ويديرون السياسة الخارجية ببريطانيا العظمي ، إن أى نتائج لحملة ماكدونالد سوف لن يكون لها أى تاثير على سير الأحوال فى السودان . التقدم للخرطوم ، إعادة احتلال المديريات المفقودة ، كان قرارا لارجعة فيه وكانت قوات الجيش الانجليزي / المصري تحتشد فى بربر .

كان معلوما أن حملة مارشاند كانت فى طريقها الى أعالى النيل وكان متوقعا وصولها لوجهتها فى خلال شهور قليلة . كان أقوي الاحتمالات ، أن الجيش الجبار الذي تحرك من البحر الأبيض المتوسط متجها جنوبا ، والحملة الصغيرة التي تحركت من المحيط الإطلنطي متجهة شرقا ، لابد أن يلتقيا قبل نهاية العام وأن أي لقاء سيتسبب فى صدام بين بريطانيا العظمي وفرنسا.

لا أتظاهر بأنى امتلك معلومات خاصة عن هذا الأمر غير تلك التي أعلنت فى وقتها على المواطنين ولكن على القارئ أن يأخذ فى الاعتبار ، إذا كانت سياسة الوفاق التي ظل اللورد سالزبوري يتبعها فى ذلك الوقت تجاه روسيا والصين، والتي أثارت انتقادات حادة فى انجلترا ، كان الغرض منها فى حالة حدوث صدام فرنسي / بريطاني حول احتلال أعالى النيل أن تجد فرنسا نفسها فى عزلة تامة . بعد هذه الخواطر والمقدمات يمكننا أن نرجع الآن لمسرح الحرب .

فى السابع من سبتمبر ، خمسة أيام بعد معركة أم درمان والاستيلاء عليها ، ظهرت الباخرة "التوفيقية" باخرة صغيرة يمتلكها الداروبش من بقايا البواخر فى عهد غردون، ظهرت تبحر على النيل الأبيض . بحارتها العرب عندما اقتربوا من الخرطوم وشاهدوا العلم المصرى الأحمر فوق الأبنية عرفوا أن الأمور ليست على ما يرام خاصة بعد أن شاهدوا قبة المهدى المتهدمة ، استمروا فى الملاحة، فوجدوا أنفسهم محاطين ببواخر الأتراك ، فاستسلموا بدون

شروط . كانوا قد غادروا أم درمان قبل شهر بصحبة الباخرة الصافية، التي تحمل ٥٠٠ رجل وكانت تعليمات الخليفة هي جلب الغلال والحبوب من النيل الأبيض . سارت الأمور حسب ماخطط لها إلى أن وصلوا حامية الحكومة القديمة فى فاشودة . هنا أطلقت عليهم النيران فرقة من الجنود السود تحت قيادة ضباط بيض ومعهم علم غريب الشكل كانت النيران قوية حتى فقدوا أربعين شخصا بين قتيل وجريح. ساورتهم الشكوك فى هوية هذه القوة العنيفة، فاستداروا راجعين. الأمير المسئول تخلف مع الباخرة الصافية فى منطقة الرنك وأرسل "التوفيقية" للخليفة لتعود بالتعليمات و الإمدادات والمدد العسكرى .

بلغت القصة للسردار وسرت فى المعسكر كالنار فى الهشيم . ذهب بعض الضباط للنهر للتأكد من القصة وصحتها. أثار الرصاص ظاهرة فى هيكل الباخرة الخشبى ، استعمل الضباط المطاوى واستخرجوا الرصاص ، ليست كتلة خشنة من الرصاص ، المصنوعة من سلك التلغراف أو حديد قديمة كتلك التى تستعملها القبائل البدائية ولكنها رصاصة مدببة مغلقة بالنيكل كالتى تستخدمها القوات الحديثة فقط وللبنادق ذات العيار الصغير ، هذا دليل مادى قاطع ، أن هنالك قوة أوربية على أعالى النيل . ذكر البعض أنها قوات بلجيكية من الكنغو ، وقال البعض أنها حملة إيطالية ، وآخرون قالوا إنها قوات فرنسية . بعض الذين يؤمنون بقدرات الخارجية البريطانية ظنوا أنها قوات بريطانية ، لابد أنها الحملة المذكورة . تم استجواب البحارة العرب عن العلم الذى شاهدوه ، إجاباتهم لم تكن قاطعة ، ألوانه زاهية كانت إجاباتهم ولكنهم لم يستطيعوا تحديد ألوانه أو التشكيل الذى كان عليه. كانوا رجالا فقراء وأن الله عظيم .

لا الصبر ولا التنبؤات يمكن أن تريحا الفضول ، استمع من كان فى المعسكر لهذه القصة بدون اهتمام ، بعد انتصارهم السهل كانوا يتمخطرون فى دعه ، كانوا واثقين أنهم ينتمون الى أقوى جيش اخترق قلب أفريقيا . إذا وجدت حرب جديدة ، ما للحكومة إلا أن تعطى الأمر وسيلحقون الهزيمة بالقادمين الجدد بنفس القدر الذى هزموا به الدراويش .

فى الثامن من سبتمبر تحرك السردار الى فاشودة مع خمس بواخر، الكتائب السودانية السادسة والثامنة ، فرقتان من الكاميرون هايلندرز بطارية بيك للمدفعية وأربعة مدافع مكسيم. وبعد رحلة ثلاثة أيام وصلوا معا الى الرنك ووجدوا الباخرة الصافية راسية على

الشاطئ ومعها الـ ٥٠٠ درويش يعسكرون على شاطىء النهر تماما كما ذكر بحارة التوفيقية. كان هؤلاء البلهاء من الحماقة بحيث فتحوا النيران على البواخر الحربية، عندها بادرت الباخرة سلطان بإطلاق مدفعيتها عليهم حتى هربوا . كانت ماكينات الصافية تدور، محاولة الهرب، الأمر الذى لايمكن الجزم به ، صوب قائد الأسطول كيبل قذيفة الى غلاية الصافية وفجرها، اغتاظ السردار من هذا التصرف إذ كان يأمل أن يضم الصافية الى اسطوله النهرى.

بعد هذه الحادثة، استمرت الحملة فى تقدمها على النيل الأبيض -السدود التى قابلتهم بعد رحلةيومين من الخرطوم لم تعرقل سير البواخر لأن التيار القوى كان يطهر المجرى الرئيسى للنهر ، ولكن كانت الأعشاب التى تطفو على سطح الماء بعرض من ١٢ الى ٢٠٠ ياردة كانت تمنع البواخر من الاقتراب من الشاطىء لترسوا عليه .

الشواطىء نفسها قد أصابت أفراد الحملة بالاكتئاب لأنها كانت تبدو غير مضيافة أو مرحبة كان النهر فى بعض الأوقات يجرى لمسافات طويلة مليئا بالأعشاب والمستنقعات وتوجد فيها فقط مجموعات من فرس النهر . ساعات كانت تظهر مساحات شاسعة من الأرض الطينية على مدى البصر وساعات غابة كثيفة من الأشجار تحتها شجيرات الشوك الصغيرة تمتد حتى حدود الماء . تنطلق بعض القردة بنشاط وأحيانا حتى الفهود تظهر على الأشجار بدون اكتراث . ولكن البلد ، سواء كانت غابة سهول طينية مسطحة أو وديان كانت دائما رطبة محمومة، أرض مبتلة تتبخر تحت أشعة الشمس الحارقة وتعج بالناموس وكل أنواع الحشرات الأخرى.

واصل الأسطول النهرى رحلته محولا الماء البنى اللون الى زبد ومحيرا للكائنات التى توجد على جانبى النهر حتى وصل الى مشارف فاشودة يوم ١٨ سبتمبر. توقفت قطع الاسطول ، راسية على الشط لبضع ساعات فى العصر لتتيح الفرصة لرسالة من السردار الى القوة الأوربية الغامضة كى تسبق وصوله . فى الصباح التاسع عشر، شوهدت مركب حديدية صغيرة تتوجه ناحية الحملة كان بها صول سينغالى ورجلان حاملان رسالة من الرائد مارشند ، تعلن وصول القوة الفرنسية واحتلالها للسودان ثم هنأ السردار على انتصاره ورحب بقدومه الى فاشودة باسم فرنسا .

بعد أميال قليلة وصلت البواخر الى نهاية رحلتها ورست على الشط بالقرب من مباني الحكومة القديمة ومدينة فاشودة . تكونت قوة المارشاند من١٢ ضابطا ، أو ضابط غير نظامي فرنسي و ١٢٠ جنديا أسود من إقليم النيجر . كانت لديهم ٣ مراكب حديدية صالحة للشراع أو التجديف ولنش بخاري صغير " فى رهبردي" الذى ارسل جنوبا لجلب مدد إضافي . كان لديهم مؤن لستة أشهر للضباط وتكفي لثلاثة شهور بالنسبة للجنود ، لم تكن لديهم مدفعية وكانوا فى حاجه ماسة لذخيرة للبنادق ذات عيار صغير . كان موقفهم حرجا ومهزوزا . كانت القوة الصغيرة غير قادرة على الحركة بدون أى وسيلة للاتصالات وبدون أى امكانيات لشن هجوم أو حتى النجاح فى التقهقر ، استنفدوا ذخيرتهم فى طرد الدراويش وصد هجماتهم وكانوا كل يوم يتوقعون الهجوم . تملكهم الذعر عندما سمعوا من بعض الأهالي أن جيش الدراويش يتقدم نحوهم بخمس بوارج مسلحة ، ظلوا لثلاث ليال لم يغمض لهم جفن منتظرين هجوم العدو القوى .

تنفس الفرنسيون الصعداء و لم يستطيعوا إخفاء فرحتهم وراحتهم لوصول القوة الأوربية .

السردار وضباطه هم أيضا كانوا متأثرين ومعجبين بالانجازات المدهشة لهذه الفئة الصغيرة من الرجال الأبطال . مضت سنتان منذ أن تركوا المحيط الأطلنطى ، انقطع اتصالهم بعالم البشر . حاربوا قبائل متوحشة ، عانوا من الحمى ، تسلقوا الجبال اخترقوا الغابات الخطيرة .

مكثوا خمسة أيام ولياليها داخل المستنقعات والماء حتى رقابهم . فقدوا خمس قوتهم ومع كل ذلك واصلوا حتى وصلوا الىفاشودة يوم ١٠ يوليو وزرعوا العلم الثلاثى فى أعالى النيل .

نزل الضباط البريطانيون متأثرين بهذه الانطباعات وجاء الرائد مارشند مع حرس الشرف لاستقبالهم .شد على يد الجنرال بحرارة ، قال السردار لمارشند " اهنئك على كل إنجازاتك " رد الرائد" بل إنها انجازات هؤلاء الجنود ، مشيرا الى قواته " .عندما حكى السردار حكاية هذا اللقاء قال " عندها تأكدت من أنه رجل مهذب " جنتلمان " .

لا حاجة لنا فى الدخول فى تفاصيل المحادثات الدبلوماسيةالتى تلاحقت . تجاهل السردار بكل أدب وجود العلم الفرنسى ، وبدون التدخل مع حملة مارشند أو الطابية التى احتلتها رفع الاعلام المصرية والبريطانية مع كل ما يلزم من مراسيم ومع أصوات الموسيقى والتحية من مدافع الأسطول النهرى أقيمت حامية فى فاشودة مكونة من الفرقة السودانية السادسة ، ٤ مدافع من بطارية بيك ومدفع مكسيم ، كلها تحت قيادة العقيد جاكسون الذى عين حاكما مدنيا وعسكريا على اقليم فاشودة .

عند الساعة الثالثة بعد الظهر واصل السردار رحلته بالبواخر الى الجنوب وصل فى اليوم التالى الى مصب نهر السوباط الذى يبعد مسافة ٦٢ ميلا من فاشودة . هنا أيضا رفعت الأعلام وكونت حامية أخرى تتكون من نصف كتيبة الفرقة السودانية الثامنة والمدفعين الباقيين من بطارية بيك . ترك السردار الباخرتين سلطان وأبو كلى تحت تصرف العقيد جاكسون ورجعت الحملة الى الشمال .

سوف لن أحاول وصف المفاوضات العالمية أو المناقشات التى تلت وصول الأخبار الى أوروبا ولكنه من الأهمية بمكان أن نذكر بفرح غامر أن هذه الأزمة ظهرت وإنجلترا متحدة . كان تصميم الحكومة تباركه المعارضة المخلصة ، يؤيده رضاء الجماهير الهادى ومسلح بفاعلية الأسطول البريطانى .

فى البداية وعندما كان السردار يبحر جنوبا ملأ عقول الناس كثير من التعجب والإثارة ، ولكن عندما انتهت الأثارة باكتشاف أن ثمانية مغامرين فرنسين قد احتلوا منطقة بحجم فرنسا ، هي فاشودة واعلنوها رقعة فرنسية ، اجتاحت الناس موجات من الغضب العميق ليست هناك قوة أوربية ينظر اليها الرجل الانجليزي العادي بكراهية أكثر من فرنسا ومع كل كان الاتفاق كاملا ، يجب أن يذهبوا. يجب أن يغادورا فاشودة وإلا كل الجبروت الملكي، كيان وقوة ، وأي شئ يمكن للخيال أن يسميه بريطاني يجب توظيفية لإجبارهم على الرحيل .

أولئك الذين لا يستطعون استيعاب الجو الساخن والطبع الحاد الذي اكتسح الأمة، عليهم بالرجوع الى الدراما السودانية الطويلة. الواجب كان يحتم إعادة الاستيلاء وغزو المستعمرة التي تم الرحيل والجلاء عنها ، ولما كان هذا الأمر يمكن أن يتم بيسير وسلام ،

أصبح الواجب متعة. تابع الناس أخبار العمليات بشغف واهتمام زائدين، وكلما تقدمت ازداد حماس الأمة . عندما تم قهر المد البربرى ، بدأت علامات البحر المقديمة تظهر واحدة بعد الأخرى . أسماء المدن التي غابت عن الذاكره ، أو ذكرت مع المرارة والحزن بدأت تظهر فى اللافتات ، فى الجريدة الرسمية وفى ضدر نشرات الصحف . أننا راجعون ، دنقلا ، بربر ، المتمة ، من لم يسمع عن هذه الأسماء ؟ الأن ترتبط بالانتصار . جيوش غفيرة حاربت فى الحدود الهندية ، كانت هناك حرب فى الجنوب والشرق وفى غرب إفريقيا لكن عيون انجلترا تركزت نحو النيل والحملة الزاحفة للأمام ببطء وثبات بدون مقاومة ولا يمكن أن تقاوم.

عندما جاء النصر النهائي بعد طول انتظار ، جاء كاملا دون نقصان ، استقبلته الجماهير بموجه عارمة من الانتشاء ، والشعب البريطاني الذي نال أكثر مما توقع ، جلس يشكر ربه ، حكومته وجنرالاته . فجأة مع كورس احتفالاته المبهجة ، ظهرت نغمة نشاذ . واجهتهم حقيقة أن " قوى صديقة " وبدون أى تحدى أو استفزاز ، تعمل لسلب ثمار انتصاراتهم . ظهر لهم الأن انهم بينما كانوا يفنون أنفسهم بعمليات حربية عظيمة وفى وضح النهار وأمام أنظار العالم ، فى تنفيذ مشروع قريب الى قلوبهم ، تجري عمليات أخرى فى الخفاء وبالخداع ، تتقدم نحو قلب القارة السوداء بهدف شرير ومثيرا للقرف ليحرمهم من ثمرة مجهوداتهم. الآن يقفون بصلابة ضد مثل هذا السلوك ، كل الشعب يدا واحدة .

تراجعت فرنسا عندما وضح لها جليا أن بريطانيا العظمى مستعدة للحرب من أجل الاحتفاظ بفاشودة . فاشودة منطقة مستنقعات بائسة وليست ذات أهمية لهم . ذكر لورد سالزبوري فى كتابه "صعاب تواجه مكتشف فى أعالى النيل" أن الوزير الفرنسي قد ذكر له أن حملة مارشاند ما هي إلا "بعثه حضارية" وأنهم فى غني عن المستنقع أو البعثة إذا كان هذا الأمر سيورطهم فى مخاطر وحرب مدمرة ، لقد فشلت المؤامرة . كاد "جي فواكس" أن يقفذ الحواجز ، بارا بقسمه وتنفيذا للأوامر ، ولكن باقي المتآمرين لم يكن لديهم نفس الحماس . ابتعد الأحباش عن المشكلة القبائل الزنجية كانت تنظر باستغراب نحو الأغراب ولم تكن لديهم أي رغبة فى القتال الى جانبهم . كرامة وعزة الخليفة رفضت أى تقارب أو حوار مع أى نوع من أنواع الاستعمار ولا يمكن أن تميز بين غازي وآخر ، كلهم أتراك ملعونون . وأخيرا فإن النصر فى أم درمان ، وقبله خط سك حديد الصحراء ، قد احدث

ثورة فى الأوضاع فى وداي النيل كله . بعد عدة أسابيع من التوتر ،رضخت الحكومة الفرنسية ووافقت على سحب الحملة من أقليم أعالى النيل .

توالت الأحداث فى هذه الأثناء فى فاشودة . تقع المدينة التي اختير موقعها بعد دراسة من قبل الحكومة المصرية ، على الشاطي الشمالى للنيل الأبيض على سفح متدرج يرتفع بحوالى أربعة أقدام من أعلى نقطة لفيضان النيل فى ذروته . يبدأ موسم الأمطار فى يونيو ويستمر حتي أكتوبر وأثناء هذا الموسم تكون المنطقة كلها مستنقعا كبيرا وتصبح فاشودة نفسها جزيرة لكنها ليست عديمة النفع . انها تمثل المنطقة الوحيدة فى الشاطي الغربي الصالحة لإرساء البواخر ، لاتوجد منطقة صالحة لعشرات الأميال على طول النهر. كل الطرق ، مجرد طرق ضيقة للجمال ، تتجمع من المنطقة السفلي لكردفان ، فى حامية الحكومة ولكنها صالحة فقط فى الموسم الجاف . التربة خصبة ومع الكم الهائل للمياه وحرارة الشمس كل ذلك يجعلها صالحة لزراعة أى محصول . استطاع الضباط الفرنسيون بما عرف من ترف دولتهم ، أن يجهزوا مزرعة خضراوات بالرغم من مهاجمة فئران الماء ، كانت تمدهم بخضراوات تكسر تكرار الأكل الممل وتنوعة. إن الأهالى الأصليون من الدينكا والشلك ، لايرغبون فى العمل إلا بما يسد رمقهم ، و لما كانت الاحتياجات الضرورية يتم الحصول عليها بسهولة فلم تكن هناك أى زراعات الا القليل. وربما يقال أن خصوبة التربة هي السبب فى فقر البلاد. فى كل مواسم السنة يساعد الجو فى فاشودة على انتشار الحشرات، وحمي الملاريا تهاجم الأوربيين والمصرين ، وتكسر مقاومة أقوي الرجال وربما تسبب الوفاة فى بعض الحالات [1].

فى هذه البقعة النائية البعيدة عن المدنية والصحه والاستقرار عاشت حملة ما رشانده والحامية المصرية فى عداوات لكنها مؤدبة ،لأكثر من ثلاثة أشهر . شغلت الحملة الفرنسية الحامية فى الجزء الشمالى ، عسكر المصريون أمام أطلال المدينة القديمة . استمر تبادل المجاملات الاجتماعية ، رد الضباط البريطانيون على هدايا الخضروات الطازجة ، بارسال الصحف وضرويات أخري، الجنود السنغاليون كانوا على خلق ومنضبطين، سرعان ما قلد افراد الفرقة السودانية ضباطهم وردوا الهدية بأحسن منها . طغي شعور متبادل للاحترام بين العقيد جاكسون والرائد مارشاند . إن النائد المندفع للفرقة السودانية السادسة والذي حاز

---

(١)أن المكان غير صحي بالمرة، فى مارس ١٨٩٩ (أجف موسم فى السنة) من مجموعة ٣١٧ رجلا فى الحامية لم يكن صالحا للخدمة سوي ٣٧ رجلا جاء هذا فى تقرير سير وليام كارستن رقم ٥ عام ١٨٩٩ بمصر.

على أكثر من ١٤ ميدالية مصرية ، كان كريما فى إطرائه على المستكشف الفرنسي. وقد قدر مدي المصاعب والمشاكل التي تعرض لها، وبالتالى كان حريصا على الثناء لكل إنجازاته . وبما أن العقيد جاكسون كان يتحدث الفرنسية بطلاقة، فقد كان الانسجام والتفاهم بينهما كاملا، و لم يحدث أى سوء تفاهم يستحق الذكر. لكن بالرغم من المجاملات والمعاملات المهذبة ، إلا أنها كانت فى نطاق رسمي وغير ذلك كان الالتزام عظيم بالربط والضبط .

استكانت قبائل الدينكا والشلك فى البداية لرجال الحملة الفرنسية وكانت تمدهم بما يحتاجون من مؤن وأغذية ، كانوا قد سمعوا أن هناك رجلا بيض قادمون ، و لم يكن لهم علم بأن هنالك أجناس مختلفة بين ذوات البشرة البيضاء . كانوا يعتقدون أن حملة مارشاند هي مقدمة لقدوم جيش السبردار ، ولكن عندما علم الأهالى العدواة التي بينهما وأنهم فى واقع الأمر قبيلتان متنافستان ، ورغم أن خوفهم من العلم المصري كان واضحا فى البداية ، الا أنهم سارعوا بولائهم للقوي الأقوى وقاطعوا الفرنسين نهائيا .

فى منتصف اكتوبر وصلت رسائل لمارشاند من فرنسا عن طريق الباخرة ، عندما قرأها قرر السفر للقاهرة . العقيد جاكسون الذي كان حريصا على الإبقاء على الحالة الراهنة كما هي، توسل لمارشاندر أن يعطي أوامره لنائبه لضمان ذلك . وافق مارشاند بسرور وبعد أن أعطي أوامره سافر الى أم درمان . هناك شاهد أكوام الجيش والخراب الذي أنقذ منه وواصل الى القاهرة ، حيث تأثر بالخطب والدموع . أثناء غياب مارشاندر ، بدأ النقيب جيرمين الذي تولي القيادة من بعده فى التملص من تنفيذ الأوامر، ولما كان يتوق للفت الأنظار اليه ، بدأ فى تنفيذ سياسة مستفذه ومعادية احتل منطقة الدينكا غرب النهر .

أرسل طوق استكشاف للداخل ومنع شيوخ الدينكا من الحضور لفشودة لتقديم فروض الولاء والطاعة وأى طلبات لهم . ثم أرسل باخرته واللنش فىدهردي بعد أن رجع من الجنوب ، الى ما بعد المناطق الشمالية التى كان قد اتفق عليها الطرفان، وحددها السردار ووافق عليها مارشاند .

احتج العقيد جاكسون وأرسل الاحتجاج وراء الآخر ، لكن جريمين رد عليها بعجرفة، واستمر فى سياسته الاستفزازية . أخيرا أعلن الضابط البريطانى بأنه سوف يمنعها من الرجوع للنقطة الفرنسية لوأن جريمين أرسل أى بواخر داخل منطقة الدينكا ، أعلن جرمين

أنه سوف يقابل القوة بالقوة وارتفعت الانفعالات ، تشعلها حرارة الجو، الحمى، قلة الراحة والملل كانت الأحوال صعبة ، حكمة وصبر العقيد جاكسون وحدها هى التى منعت صداما كان سيكون له صدى فى كل أنحاء العالم . احتفظ بقواته بعيدا عن الحامية الفرنسية وبقيت على خطوطها بكل حزم .

كان هناك يوم أسود ، شوهد فيه الضباط الفرنسيون يعملون بقمصانهم فى عمل استحكامات يساعدهم جنودهم السنغاليون الخلصاء ، استعدادا لنضال يائس .

كانت الأحوال فى الجانب الآخر هادئة بدون نشاط يذكر. كانت الحامية المصرية بالرغم من أنها كانت تحت السلاح إلا أنها اختارت أن تكون بعيدة عن الأنظار . لكن الدخان المتصاعد من مداخن البوارج يعلن أن كل شىء جاهز . بعد فترة غياب وفى لحظة سعيدة عاد مارشاند ووبخ نائبه وقدم اعتذاره للعقيد جاكسون وأصبح معلوما أن الحكومة الفرنسية قد أمرت بالجلاء عن فاشودة، ثم مضت بضعة أسابيع فى التحضير لرحلة المغادرة .

جاء يوم الرحيل فى الساعة الثامنة والثلث من صباح يوم ١١ ديسمبر وأنزل الفرنسيون علمهم على أنغام البورجى بينما ظل البريطانيون يشاهدون هذه المراسيم كمتفرجين دون أن يتدخلوا . عندما نزل العلم جرى ضابط فرنسى وخلع العمود ورماه على الأرض وهو يلوح بقبضه يديه ويشد شعره فى مرارة وغيظ شديدين ولا يمكن لأحد إلا أن يتعاطف معه نسبة لمعاناتهم غير المجدية وما قاموا به من عمل. ركب أفراد الحملة فى الساعة التاسعة والنصف وتحركت مجموعتهم ، اللنش فى دهيردى يقطر وراءه صندل حديدى قديم ومركب حديدى، وسارت المركب الثلاث الأخرى فاردة أشرعتها وحاملة للجنود .

عندما مرت أمام قطع الأسطول النهرى الصغير على حامية المعسكر المصرى ، حياهم حرس شرف من الفرقة السودانية السادسة وعزفت الموسيقى سلامهم الوطنى ، رد على المجاملة أفراد الحملة بأن نكسوا أعلامهم ، فعل الجانب الآخر نفس الشىء ، نكست الأعلام المصرية والبريطانية ، استمرت المراكب حتى وصلت منحنى النهر ، نزلوا على الأرض . الآن قد حفظ الشرف ، توجه مارشاند وضباطه لتناول طعام الإفطار مع العقيد جاكسون . كان الاجتماع وديا جدا وتبادل جاكسون مع جيرمين عبارات المجاملة ، ثم أعطاهم القائد باسم

الفرقة السودانية السادسة ، علم الأمير الذى كان قد هاجمهم واستولت عليـــه الفرقـــة فى الكرنك . شد على أيدى الضباط وهم تمنوا لهم رحلة سعيدة .

مرة أخرى بدأ هؤلاء الضباط الثمانية الذين جاءو كل هذه المسافة وحققوا كل هـــذه الإنجازات رحلة العودة المنهكة عن طريق الحبشة الى الساحل ومن هناك للوطن الذى خدموه بإخلاص وتفان والذى سوف لن ينكر أو ينسى خدماتهم .

دعونا الآن ندلف للتداعيات العالمية لإعادة احتلال السودان ، طالما سنحت الفرصـة . تم تسوية المشكلة بين انجلترا وفرنسا بخصوص وادى أعالى النيل ، فيما يختـــص بالجـــانب المادى ،سويت نهائيا باتفاقية وقعت فى لندن يوم ٢١ مارس عام ١٨٩٩ بين لورد سالزبورى ومستر كامبون . اعتبرت الاتفاقية التى تحدد محاور مناطق نفوذ القوتين ، كاضافة للفقـــرة الرابعة من اتفاقية مؤتمر النيجر التى تم التوصل اليها العام السابق . النص الكامل كان موجـزا بحيث يمكن فهمه بعد دقائق معدودة ، مع دراسة الخريطة ، يمكن الرجوع اليه فى الملحـــق المرفق . كان العنصر الفعال للاتفاقية ينص على أن يحجز كل منابع وحوض النيل الى انجلـترا ومصر وتنص أن تكون لفرنسا يد مطلقة على كل أجزاء شمال أفريقيا غـــرب وادى النيـــل الخالية من أى احتلال أوربى ، فيما يختص بمناطق النفوذ . هذا التقسيم العجيـــب لنصـــف القارة بين القوتين الأوربيتين ماكان متوقعا أن يثير حماس القوى الباقية. ألمانيا وعدت باتبـاع سياسة " الباب المفتوح " معها بالنسبة لمناطق أعالى النيل ، إيطاليا احتجت بوداعة ، لحقـت بألمانيا . روسيا لم تكن لها رغبة فى هذا الربع . اتفقت انجلترا وفرنسا ، لم يتم التشاور مــــع بقية الدول ، والاتفاقية بناء عليه تعتبر بجازة من العالم بشكل عام .

لم يحن الوقت بعد لمحاولة إعلان من من بين القوتين قد نال أكبر الميزات ؟ . فرنسا قد حصلت بضربة واحدة وبدون أى صراع حربى أو معارك عسكرية ما قد يمكنها من احتـلال وضـم إقليم أفريقى كبير وما استولت عليه الآن يمكن اعتباره " منطقة تطلعات " تتحول مـــع مرور الزمن الى " مناطق نفوذ " والمستقبل البعيد ربما يشهد ضم كل الإقليم لهـــا . هنـــاك مصاعب كثيرة يجب التغلب عليها أولا . تفوذ "السنوسى" القوى لايزال قائما ويجب إزالته. المملكة المستقلة "لوداى" يجب أن تهزم ، دويلات كثيرة سوف تقاوم بضراوة . كان لفرنسـا ما يشغلها فى أفريقيا الوسطى لأعوام قادمة ، وحتى بعد أن ينتهى الصراع ، فلن تكون هـــذه

الاقاليم ذات نفع كبير . كانت تشمل صحراء ، منطقة الصحراء الكبرى ومساحات شاسعة من المستنقعات والكثبان غير المفيدة ونهر واحد فقط نهر "الشارى" يجرى خلال تلك المنطقة ولا يصل الى المحيط . حتى بحيرة تشاد التى يصب فيها نهر الشارى تبدو كأنها تتسرب فى مجرى خفية الى باطن الأرض وتتحول الى مستنقع .

بريطانيا العظمى ومصر فى الجانب الآخر قد حازت على إقليم رغم صغر حجمه بالمقارنة ، إلا أنه ولمدى كبير أكثر خصوبة ، سهل للمواصلات نسبيا وقد تم الاستيلاء عليه بالفعل وبه المجرى المائى لنهر النيل . فرنسا قد تستطيع تلوين أجزاء كبيرة من قارة أفريقيا باللون الأزرق والمنظر بالنسبة للقارة قد يسر عين الشخص الوطنى ، ولكن من الواضح أن عليها قبل أن تشرع فى تطوير ممتلكاتها ، تحويل التطلعات الى نفوذ والنفوذ الى احتلال ، وعليها أن تعمل بقوة ، وتدفع أكثر وتنتظر أطول للعائد ، من الملاك المتواضعين لوادى النيل. وحتى العائد المنتظر عندما يتحقق ، سوف لن يكون عائدا ذا قيمة كبيرة .

علينا الآن أن نناقش التسوية التى بين غزاة السودان . تحركت بريطانيا ومصر يدا بيد على النهر العظيم ، اشتركتا ، ولو بنسبة غير متعادلة فى التكاليف بالنسبة للحرب من مال ورجال . تكون الجائزة لهما معا . لو أعلنت بريطانيا ضم السودان المباشر ، لن يكون هذا عدلا بالنسبة لمصر ، مع العلم أن كل الدعاوى والمطالبة بمنطقة فاشودة قد استندت على حقوق مصر السابقة فى الإقليم . ومن ناحية أخرى إذا قدر للسودان أن يصبح مصريا مرة أخرى ، عليه تحمل أغلال ذلك البلد السجين . كل المشاكل فى دلتا النيل ستتحول لأعالى النيل ، السيادة العثمانية والمشاكل المكررة الثقيلة سوف تضاف لمشاكل السودان الإدارية تخليص البلد الجديد من لعنة العولمة ، كان هدفا فى غاية الأهمية و"اتفاقية السودان " بين بريطانيا ومصر التى نشرت فى ٧ مارس ١٨٩٩ تحقق هذا الغرض . ككل الأعمال الجيدة التى قامت بها الوكالة البريطانية لمصر ، مرت الاتفاقية بدون أن تلفت أى أنظار . تحت سلطة مصر قد تم إنشاء إقليم فى وادى النيل ، لا هو بريطانى أو عثمانى ولا أى شيء آخر متعارف عليه فى أوربا . المحكمون الدوليون قد واجهوا كيانا سياسيا جديدا تماما ، اكتشف بعد " دبلوماسى رابع " بريطانيا العظمى ومصر سوف تحكمان السودان معا . الغزاة الحلفاء أصبحا المالكان المشتركان .

سأل القنصل العام النمساوى اللورد كرومر " ماذا تعنى اتفاقية السودان هــــذه ؟" رد المندوب البريطانى الذى عرك الحياة السياسية المصرية وخبر خفاياها لأكثر من ٢٢ عامـــا " أنها تعنى هذه وبادر باعطائه نسخة من الوثيقة غير المفهومه ، هذه الوثيقة التى بموجبها ربمـــا يوما ما يخطو هذا القطر نحو السلام والرخاء .

الفصل الثامن عشر

على النيـــل الأزرق

إن سلطة الخليفة وقوة جيشه قد تم القضاء عليها فى الثانى من سبتمبر ، وكانت معركـة أم درمان ذروة النهاية الطبيعية لقصة الحرب هذه، يبقى للذين حاربوا ، وأكثر للذين سقطوا فى معارك لاحقة ، ذروة جاءت أخيرا شيئا ما . بعد النصر ، لم يعد السودان هو المصـــدر المهم للأخبار التى تهم الناس . رحلت آخر كتيبة بريطانية الى أسوان شمالا ، رحـــل آخـــر مراسل حربى إما للقاهرة أو الى لندن ، ولكن لم تنته المعارك الحربية بعد .

لقد تمت هزيمة العدو ، بقى إعادة غزو الإقليم . الدراويش فى حاميات المديريات كـانوا لايزالون يحتفظون بولائهم للخليفة ، بعض القوات مازالت فى الميدان . لم تتـــأثر مداخـــل كردفان أو دارفور البعيدة بالمعركة العظيمة على ضفاف مقرن النيلين . كانت الإشـــاعات تنتشر بوجود قوات أوربية فى أقاصى الجنوب . مكنت سيادة السردار على المجرى المائى من إتمام إعادة احتلال معظم أجزاء السودان المصرى ، كل المدن أو المحطات على طول النيـــل والأنهار الرئيسية وفروعها ، تعيش تحت رحمة البواخر الحربية ، لم يحتج الأمـــر إلا ارســـال البواخر لرفع العلم المصرى والعلم البريطانى. أرسلت حملتان للنيل الابيض والنيـــل الأزرق لإقامة الحاميات ولإخماد أى تمرد . كانت الحملة الأولى بقيادة السردار التى تركت أم درمان يوم ٨ سبتمبر وأبحرت على النيل الأبيض نحو فاشودة ، لقد سردنا الاحداث الـــتى تلـت الحملة . الحملة الثانية تكونت من البواخر " شيخ " "وحفىر " مع فرقتين وفرقة موســـيقى الكتيبة السودانية الخامسة يرأسها الجنرال هنتر ، غادروا أم درمان يوم ١٩ سبتمبر على النيل الأزرق الى أبو حراز . لحقت بقية الكتيبة الخامسة بمجرد أن تم الحصول علـــى البواخـــر ، كانت هذه مشغولة فى نقل القوات البريطانية الى عطبرة والعودة بالمؤن لأم درمان .

كان تقدم الحملة على النيل الأزرق احتفالية نصر مستمرة، اصطف العشرات من سكان المناطق المتاخمة لشاطىء النهر على الجانبين يهللون بأصوات عالية، نتيجة ربما لتخلصهم مـــن سطوة الخليفة الجبارة ، أو مآسى الحرب، ونتيجة للخوف أو الاستغراب. صاحبت جمـــوع الشعب البواخر من على الشواطىء وهى تزحف، الرجال يرقصـــون بســـيوفهم والنســـوة

يزغردن . كان الاحتفال طاغيا برجال الحملة وعند المرور بالمراكز الكبيرة تجمع الآلاف فى تأثر بالغ ، بلغ الحماس ببعض الأهالى أن اقتلعوا الأخشاب من منازلهم وأحضروها كوقود للبواخر . لا أجزم إن كانت هذه القصة حقيقية أم لا، ولكن الحقيقة أن البواخر قد تم تموينها بينما تتقدم الحملة كان الاستقبال حارا من قبل القبائل السوداء التى قاست من ظلم العرب (؟)

فى ٢٢ سبتمبر اكتشف أن قوات عثمان دقنه التى لم تشارك فى معركة أم درمان كانت تعسكر فى الجزيرة على بعد أميال قليلة شمال رفاعة . حضر الأمراء والشيوخ واستسلموا للجنرال هنتر ،ومعهم ٢٠٠٠ رجل. جمعت أسلحتهم ، وضعت القيود على أيدى موسى دقنه ابن أخت عثمان وأخذ كأسير .أما البقية الذين كانوا من منطقة سواكن، فقد طلب منهم الرجوع لاقليمهم وكانوا سعداء باطاعة هذا الأمر .

فى اليوم التالى وصل الجنرال الى وادمدنى حيث استسلمت حامية الدراويش وقوامها البالغة ألف رجل للباخرة " الشيخ " . هؤلاء الرجال الذين كانوا ضمن قوة الدراويش الدائمة تم ترحيلهم فى مراكب شراعية لأم درمان حيث انضموا لبقية الأسرى هناك . وصل جنرال هنتر الى الرصيرص يوم ١٩ سبتمبر ، وهى تبعد بنحو ٤٠٠ ميل من الخرطوم وتعتبر أقصى نقطة صالحة للملاحة على النيل الأزرق . وضع جامية فى يوم ٣٠ أكتوبر من الفرقة السودانية الخامسة فى الرصيرص ، فى كركوج وسنار (رئاسة الحكومة للأقليم) وفى وادمدنى . بعد أن ترك باخرة لعمل دوريات فى المنطقة ، رجع لأم درمان .

القوة الوحيدة للدراويش التى لم يكن فى حسباها الاستسلام للغزاة ، والتى تم القضاء عليها بعد ثلاث معارك شرسة ، هى قوة أحمد فضيل . أحمد من أخلص الرجال لدعوة الخليفة ، كان قد أرسل بعد الهزيمة على نهر عطبرة لجمع كل ما يستطيع من أفراد من منطقة القضارف والقلابات وإحضارهم الى أم درمان للانضمام إلى القوة الرئيسية ، عاد الأمير الوفى وقد أنجز مهمته على أكمل وجه وبصحبته قوة من ٨ آلآف رجل لنجدة سيده ، ولكن على بعد ٦٠ ميلا من أم درمان سمع بأخبار الانكسار الكبير فى الميدان فأوقف تقدمه. لم يشأ ان يعلن أخبار الهزيمة لجنوده ، فأخبرهم أن الخليفة انتصر وما عاد فى حوجة لهم ، برر ظهور البوارج على النيل الازرق ، بأنها بضع بواخر استطاعت العبور من بطاريات ام .

درمان ، وأن بقيتها قد دمرت ، لم يستمر اخفاء الحقيقة أكثر من هذا ، وصل مبعوثان من سلاطين والسردار إلى معسكر الدراويش وأعلنا ، أن جيش أم درمان قد هزم ودمر وأن الخليفة قد هرب وسقطت المدينة . كانت هناك شروط تسليم عرضت على أحمد فضيل، لكنه ثار وقتل أحد الرسل وترك الآخر ليذهب ويبلغ سلاطين بأنه لن يستسلم حتى النهاية للأتراك ، مرسلا سيلا من الشتائم مع المبعوث الحائر .

أنهى المعسكر وسار على شمال النيل الأزرق على أمل أن يقطع النهر عند التقائه مع نهر الرهد ثم يواصل للحاق بالخليفة فى كردفان. أفراد قوته ذكروا له أنهم تركوا عوائلهم فى القضارف وكمية كبيرة من الحبوب والذخيرة ، فى بادىء الأمر لم يوافق على الرأى الذى يطالب بالرجوع للقضارف ، لكنه عند وصوله نقطة التقاء النهرين شعر بخطورة العبور مع وجود البارجة المسلحة ودورياتها ، فقبل الرجوع للقضارف . كانت حامية القضارف تحت حراسة ثلاثة آلاف رجل .

فى الخامس من سبتمبر سمع العقيد بارسونز قائد منطقة كسلا عن طريق القنصل الإيطالى فى أريتريا بالانتصار فى أم درمان ، تأكدت الأخبار من انجلترا فى اليوم التالى وبناء على التعليمات المسبقة ، توجه الى القضارف يوم ٧ . كان معلوما أن الأمير أحمد فضيل قد توجه بقواته إلى أم درمان وأن الحراسة فى القضارف تتكون من فصائل قليلة ، لم يشأ بارسونز أن يضيع فرصة الاستيلاء على قاعدة مهمة للدراويش . كانت المهمة بائسة ، كل القوة كانت ١٣٥٠ رجلا بدون تجارب وقليل من النظام أعياهم الانتظار والمرض ، بدون فرسان ، بدون مدفعية أو رشاشات ومع عدد ٧ ضباط بريطانيين بما فيهم الطبيب احتلوا القضارف ومكثوا لحمايتها .

بعد مسيرة طويلة فى أرض صحراوية جرداء ليس بها نقطة ماء وصل العقيد بارسونز وقواته الى الفاشر على يمين شاطىء نهر عطبرة ، وهكذا بعد عقبة الصحراء وجدوا أنفسهم الآن أمام معبر مائى هادر . نهر عطبرة كان أيام الفيضان مليئا بالمياه ، قناة طويلة عميقة أعرض من نهر التايمز تحت برج لندن ويجرى بسرعة سبعة أميال فى الساعة ، شكل مانعا رهيبا للقوة . صنع الجنود طوقاً من البراميل الفارغة التى أحضرت خصيصا لهذا الغرض . صعد عشرة أفراد على الطوق كتجربة ، لم تكن النتيجة مشجعة . جرف التيار الطوق لمدة

خمس ساعات لمسافة ١٠ أميال مع التيار ثم عاد للرحلة الثانية فى عصر اليوم التالى . كان واضحا أنه لا مكان لهذه الوسيلة ولضمان النجاح يجب الوصول والاستيلاء على القضارف قبل رجوع أحمد فضيل، فهذا يتطلب السرعة وها هى الفرقة تعانى من تأخير يائس . بعد مشاورات كثيرة اقترح ضابط مصرى بناء مراكب . ثبت أن هذا العمل أسهل مما كان متوقعا. أشجار السنط أعطت الخشب لعمل الهياكل ثم استعمل مشمعا لغطاء الخشب ، انهمكت القوة فى صناعة المراكب الواحدة سعة ٢ طن وتمكنت الفرقة من تعدى هذا المانع النهرى الكبير .

استطاع عرب الشكرية تعدية الجمال و البغال والخيول بأن وضعوا قرب منفوخة تحت فك الحيوان فاستطاع أن يعوم للبر الثانى ، أسهمت براعة الشكرية فى تعدية كل حيوان مع فقد بغل واحد وجمل واحد فقط . انتهت هذه العملية يوم ١٦ واستمر التقدم غرب نهر عطبرة حتى وصلت القوة لمحطة المقطع يوم ١٨. بعد أن ملأوا قرب المياه ، نفضوا الغبار ودعا كل فرد للإله الذى يعبده تحركت القوة يوم ٢٠ واستمرت فى السير طيلة اليوم وسط الغابات التى تملأ الطريق من نهر عطبرة حتى القضارف، عسكرت المجموعة للراحة مساء ٢١ وهى على بعد ١٢ ميلا من القضارف . عند منتصف الليل وصل فرد هاربا من قوات الدراويش وأخطر العقيد بارسونز أن الأمير سعد الله ينتظر مع قوة تبلغ ٣٥٠٠ رجل على بعد ميلين من المدينة . كان الموقف خطيرا والتراجع فى مثل تلك الظروف وطبيعة الارض تجعله مستحيلا أمام قوة كبيرة من أفراد العدو كان لابد من الهجوم.

فى صبيحة يوم ٢٢، نفس اليوم الذى سلم فيه موسى دقنه ورجاله لجنرال هنتر على النيل الأزرق ، تحرك العقيد بارسونز وقواته من حامية كسلا إلى القضارف مصمما على خوض المعركة باى قوة لديه وضد اى عدو يلاقيه . سارت القوة بجوار مزارع الذرة والأعشاب الطويلة "الندار" التى كانت تغطى حتى الهجانة على ظهور الجمال ، تراجعت مزارع الذرة بالقرب من المدينة وخرجت القوة من الأدغال لمنطقة منخفض يعلوه أشجار الشوك وبعض الأعشاب . فى السابعة والنصف ظهرت أطواف لقوات العدو وتم تبادل إطلاق النيران غير المؤثرة ، فى الثامنة وصلوا إلى مرتفع يكشف كل المنطقة حتى القضارف على بعد ثلاثة اميال. ووقفت الفرقة ونزل العقيد وضباطه للاستطلاع .

هالهم المنظر المرعب ، على بعد أقل من ميل ظهرت قوة كبيرة من الدراويش تتقدم نحوهم بطول أربعة أميال بلباسهم الأبيض خرجوا من بين الأعشاب والقش الطويل، تنظيمهم وطول طابورهم مكن الضباط من إحصاء أعدادهم التى قدرت بأربعة آلاف رجل. دلت التحريات التى تمت لاحقا ان الأمير سعد الله قد خرج من القضارف على رأس ١٧٠٠ من حملة البنادق ، ٩٦٠٠ حملة حراب و ٣٠٠ حصان.

السرعة التى ظهر بها الدراويش وقصر المسافة بينهما رجحت أن يتم الصدام فى أقل من نصف ساعة . كان الوادي مليء بالأحجار والجريد والأعشاب ولكن على يمنته هناك تل مرتفع ، أعلى سطحه على شكل سرج حصان ، يطل على مدينة القضارف ويكشفها تماما .

الدراويش يعرفون طبيعة الأرض جيدا بينما يجهلها بارسونز جهلا كاملا، مثلث قمة التل موقع ممتاز،حتى لمجرد كشف الأرض من حوله ،لذلك قرر بارسونز احتلالها. الوقت ضيق، العدو يتقدم.

صدرت الأوامر، وأسرع أفراد الفرقة بخطوات مزدوجة عبر الوادى متجهين نحو القمة، شعر الأعداء بما ينويه القائد فأسرعوا الخطى على أمل أن تلتحم معهم وهم مندفعون الى أعلى التل أو حتى احتلال القمة قبل أن يصلوا إليها . تأخر الدراويش فاستطاع بارسونز الوصول إليها وفى دقائق معدودات شكل قوته تشكيل اصطفاف تقدم فى اتجاه القضارف، فى المقدمة الكتيبة العربية، بعدها الكتيبة المصرية ١٦ ثم القوات غير النظامية .

شاهد الدراويش أن قوة بارسونز احتلت التل وشاهدوا جنودة يتحركون على السفح فى اتجاه القضارف ، استداروا الى شمالهم وتقدموا للهجوم . فى تمام الساعة الثامنة والنصف استعدت الفرقة لمواجهة الهجوم . بالرغم من وقوف الجنود، وبرغم أن كان القصب حتى على سفح التل، كان بطول صدر الجندى إلا أنهم فتحوا نيران مدمرة لكن افراد العدو رغم الخسائر الثقيلة استمروا فى التقدم بشجاعة يردون على نيران الفرقة . عند التاسعة ، و لم يتحدد بعد مصير الهجوم الأمامى ، شاهد بارسونز قوة كبيرة للدراويش تتحرك شمال مؤخرة الفرقة لتهاجم مستشفى الميدان والمواصلات. أرسل مسرعا يحذر النقيب طبيب فليمنج، الذى كان يعمل كضابط طبى وقائد لقوة الترحيل ، من الهجوم القادم ناحيته، طلب منه تجميع الجمال ومواجهة الهجوم . شيوخ العرب الذين أنيط بهم حفظ النظام وإعطاء الأوامر

نسبة لعدم وجود ضباط ، ما إن جاءوا بالأخبار للضابط الطبي فليمنج حتى بدأ الهجوم على العدو الذى بلغت قوته ٣٠٠ هجموا بتصميم قوي نحو فصيل الترحيل، فتفرق الـ ١٢٠ عربيا غير النظاميين وهربوا واصبح الموقف يائسا، فتحرك روثفين مع ٣٠ من الهجانة لملاقاة العدو للدفاع عن الفصيل ودافعوا دفاعا مستميتا، بالرغم من ذلك ، تم كسر مؤخرة الفصيل هرب الناجون إلى قمة التل، بينما تراجع الضباط البريطانيون ومن معهم وانضموا لقوتهم الرئيسية .

فى هذه اللحظة شاهد النقيب روثفين احد الضباط المحليين مصابا ملقى على الأرض وعلى وشك الوقوع فى أيدى أعدائه ، وبالتالى نهايته. فحمله على ذراعيه وكان رجلا قوى البنية ، ثلاث مرات كاد يفتك به لكنه كان يضع الضابط الجريح على الأرض ويدافع عن نفسه بطبنجته ثم يحمله مرة اخرى وهكذا واصل تراجعه حتى وصل للقوة الرئيسية .

كانت قوات بارسونز بين نارين ، الهجوم الأمامى والعدو فى المؤخرة، الأمامى كان على بعد ٢٠٠ ياردة ، العدو فى المؤخرة بعد أن حقق الانتصار أخذ يستمر بقوة للأمام حتى بدا أن هزيمة الفرقة القادمة من كسلا أصبح مؤكدا . لكن فى قمة الهجوم الأمامى أصابت الدراويش خسائر كبيرة وبدأوا يترنحون ، عندها تقدمت الكتيبة العربية بمعاونة الكتيبة ١٦ المصرية للقضاء عليهم لكنهم تراجعوا وهربوا ، فى الحال أعطي بارسونز القوة أمرا بالدوران للخلف لمواجهة الهجوم القادم من المؤخرة. أما الكتيبة العربية التى عرفت بشجاعتها اكثر من نظامها تابعت ملاحقة العدو المهزوم على اسفل التل ، أما الفرقة المصرية ١٦ فقد انصاعت للأمر واستدارت بقيادة النقيب ماكريل للتصدى للهجوم الجديد.

أجبرت نيران الفرقة المركزة العدو على التوقف واستطاع النقيب فليمنج وباقى رجال الهجانه وهم يسيرون على أرجلهم والنقيب روثفين، وهو مازال يحمل الضابط الجريح الوصول إلى أعضاء الفرقة بسلام . استمر القتال العنيف باطلاق النيران من مسافة أقل من ١٠٠ ياردة وتم طرد العدو الذى كان يهاجم مجموعة الترحيل. انتهت المعركة الآن وبالنجاح الكامل . استمرت الكتيبة العربية وباقى غير النظاميين فى مطاردة العدو الى أن انسحب نحو القضارف. وفى الساعة العاشرة هزم الهجوم الأمامى وأيضا فى المؤخرة تشتت

قوات العدو وانتهت أى مقاومة له . عدم وجود سلاح فرسان أو مدفعية جعلت مطاردتهم أمرا مستحيلا .

استسلمت مدينة القضارف عند الظهر ، الأمير النور عنقرة الذى كان على رأس الحامية ومع ٢٠٠ فرد من حملة البنادق السود ومدفعين نحاس ، أسرع وسلم نفسه ، بقية القوات التى كانت مع الأمير سعد الله انطلقت فى تراجعها لتوصيل أخبار الهزيمة لأحمد فضيل .

خسائر فرقة كسلا من القتال كانت كبيرة بالنسبة لحجمها ولمدة القتال ، لم يصب، أى من الضباط البريطانيين السبعة ومن عدد القوة البالغ ١٤٠٠ رجل قتل ٥١ وجرح ٨٠ بمجموع ١٣١ وترك الدراويش ٥٠٠ قتيل فيهم أربعة أمراء من الصفوف .

لقد تحقق الانتصار وهزم العدو وسلمت المدينة، وجاء الآن دور الدفاع عنها . استولى العقيد بارسونز على الأبنية الرئيسية وبدأ فى تحويلها إلى سكنات دفاعية ، ساعد وضع المبانى فى هذه المهمة أن الموقع كان جيدا وإمكاناته طيبة. فقد كان يتكون من ثلاث زرائب كبيرة يمكنها أن تسع كل القوة مع وجود استحكامات تمكنها من الدفاع عن كل جزء عن طريق فتح النيران ، أمامها . جدار من الطوب بارتفاع ست أقدام . بدأت عمليات تجهيز الموقع للدفاع، أزيلت منازل الطين والقش من على جانبى السور وأقيمت متاريس داخل وخلف الحائط حتى أصبحت القلعة كأنها ثلاث طواب ، ثبت المدفعان الغنيمه واحد فى الجهة الشمالية والآخر فى الغرب على الأركان . بينما انشغل أفراد المشاة فى هذه الأعمال ، كان النقيب روثفين وأفراد من الهجانة يواصلون الاستطلاع خارج المدينة يبحثون عن أى أثر لأحمد فضيل .

لحسن حظ غير عادى وصلت من المقطع القافلة التى تحمل الذخيرة الى القضارف عصر يوم ٢٧ وفى فجر يوم ٢٨ بلغ روثفين ظهور طلائع قوة أحمد فضيل متجهين نحو المدينة . بدأ الهجوم فى الثامنة والنصف . الدراويش بشجاعتهم وإقدامهم المعروف هاجموا الواجهات الشمالية ، الجنوبية الغربية فى نفس التوقيت وكان يزحفون داخل قصب الذرة الطويل. حتى وصلوا الى مسافة ٣٠٠ ياردة من سور القلعة. المساحة التى تفصل بينهم وبين القوة قد تمت نظافتها من اى غطاء وانهمر رصاص المدافعين يمنع أى اقتراب من السور وحاول بعضهم تسلق السور بدون فائدة، لكن وجد بعضهم بعض المنازل التى لم يتسن لرجال المشاة إزالتها

وبدأ إطلاق النيران من داخلها . بعد ساعة من الضرب الشديد ضعفت مقاومة الدراويش الى أن توقفت بالكامل . استؤنف القتال مرة أخرى بعد وصول نجدة كبيرة للعدو ولكنهم صدوا أيضا . فى الحادية إلا ربعا وبعد أن خسروا ٥٠٠ رجل بين قتيل وجريح اعترف أحمد فضيل بالهزيمة وتقهقر مع باقي قوته الى منطقة أشجار نخيل على بعد ميلين غرب المدينة. كانت خسائر القوة المدافعة أن قتل خمسة أفراد جرح ضابط بريطانى (النقيب روير) و ١٣ رجلا. بقى الدراويش لمدة يومين فى منطقة أشجار النخيل حيث كان قائدهم يحثهم على الدوام على الهجوم وبالرغم من أنهم أحاطوا بالسور وتبادلوا اطلاق النار ، إلا أنهم شعروا أخيرا أنهم لا يمكنهم أن ينطحوا الجدار برؤوسهم لثالث مرة فاضطر أحمد فضيل للرحيل لمعسكر آخر يبعد مسافة ٨ أميال جنوب المدينة .

استمر لمدة ثلاثة أسابيع فى مناوشاته ، وبينما اكتفت فرقة كسلا بالاستمرار فى دفاعاتها. حتي استطاعت قوافل قليلة من المقطع أن تتسلل ليلا الى القضارف وتنضم الى الطابيات. يمكننا القول أن الحامية قد اكتمل حصارها. كما قللت خسائرهم فى القتال من قوتهم و لم تكن لديهم كميات كبيرة من الذخيرة. كذلك كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث المتعفنة داخل حقل الذرة وحول الحائط مع الجو غير الصحى وتراكم الأوساخ كانت مناخا مساعدا للأمراض. لهذا فقد أصابت القوات حمى مؤلمة لم ينج منها أحد كل الرتب تقريبا عانت منها، فقد تمدد ٢٧٠ فردا من جملة ٤٠٠ . الغارات الليلية المتكررة حرمت القوة من النوم حتى أصابهم الإرهاق ، تدهورت الحالة الى موقف غير مرض عندها اضطر العقيد بارسونز لأن يطلب المساعدة .

أما الجنرال رندل الذى آلت اليه القيادة فى غياب السردار، فقد جهز حملة إنقاذ سريعة مكونة من الفرق السودانية التاسعة، والثانية عشرة والثالثة عشرة مع ثلاث فرق هجانة تحت قيادة كولينسون، أرسلت الى مصب نهر الرهد وأرسلت المشاة بالبواخر من أم درمان، كما سافرت الهجانة على شاطىء النيل الأزرق قاطعة مسافة ١٣٠ ميلا فى ٥٦ ساعة. وهكذا تم حشد كل الحاميات على النيل الازرق ماعدا حامية الرصيرص . وصلت القوة يوم ٨ اكتوبر إلى منطقة أبوحراز ٥٠٠ جمل التى جاءت من أم درمان أضيف إليها أى حيوان يستطيع أن يكون ذا نفع فى الترحيل. تحركت الفرقة السودانية ١٢ يوم ٩ اكتوبر على نهر الرهد الى

عين اللويقة. حيث يترك الطريق النهر من هذه النقطة ويتجه لمسافة ١٠٠ ميل الى القضارف عبر الصحراء، فى كل هذا الطريق لا توجد مياه إلا فى جبال الفاو وعليه كان لابد ان تـزود الفرق بمياه كافية. ونسبة لمحدودية حيوانات النقل تقرر إرسـال الحملـة علـى دفعتـين. فتحركت الهجانة مع السودانية ١٢ الكونة من حوالى ١٢٠٠ رجل تحت إمرة كولينسـون يوم ١٧ من عين اللويقة وصلت القضارف بسلام يوم ٢٢.

أما أحمد فضيل الذى كان قد أغار على القوة بالليل ونتج عن هجومه جرح اثنين مـن الجنود السودانيين فقد علم بوصول النجدة وتأكد لا أمل عنده لاسـتعادة المدينـة فقـرر الانسحاب جنوبا. كانت القوة تخطط لمهاجمته ولكن بلغت أطواف استكشاف فى يـوم ٢٣ اكتوبر بأنه شوهد يتحرك مع قواته الى ناحية الجنوب مع قوة تحمى المؤخرة وفى نفس الوقت تمنع أى فرد من الهرب .

وهكذا كللت كل العمليات التى قام بها العقيد بارسونز بالنجاح ، كانت المصاعب التى واجهها جسيمة والاهوال عظيمة وكذلك النتائج عظيمة ولكن ونحن نحيى مـهارة القـائد وولاء رجاله نجد أنه من المستحيل ألا ننتقد السياسة الرعناء المتسرعة التى ترسل بقوة ضعيفة عديمة الإمكانات، مثل هذه القوة فى مهمة خطيرة بكل المقاييس .

كان القتال فى القضارف ودون أى ذنب على القائد ورجالة كاد يتحول الى مأسـاة، وكانت هناك مواقف ، حسن الحظ غير الطبيعى هو الذى أنقذ القوة من الهـلاك . أولا لم تكتشف الحملة حتى وصلت الى المقطع ، ثانيا لم تتم مهاجمتها داخل الغابات ، ثالثا دخـل الدراويش المعركة فى العراء بدلا من خوضها داخل المدينة، وكان مـن الصعب للقـوة زحزحتهم بدون سلاح مدفعية ، ورابعا ان الذخيرة الاحتياطية وصلت قبل هجـوم أحمـد فضيل .

قرر أحمد فضيل بعد هزيمة القضارف ، ان يركز فى فكرة الانضمام للخليفة فى كردفان، فانسحب جنوبا مع قوة يبلغ تعدادها ٥٠٠٠ رجل إلى نهر الدندر ، لم يكن فى اسـتطاعته عبور النيل الأزرق مع وجود البواخر المسلحة. ما كان يعتقد أنها تستطيع الملاحة إلى أعلـى النيل ففكر فى عبوره جنوب كركوج وسار على مهله ، مروعا الأهالى فى طريقه ووصل الى منطقة الدندر يوم ٧ نوفمبر. وهناك أوقف القوات وارسل اطواف للاستطلاع، كان يعتقـد

أن مجرى النهر من كركوج حتى الرصيرص ليس بالعمق الكافى للملاحة لكنه فوجىء بوجود باخرتين تناوران فى المنطقة . كتم غيظه وضيقه وقرر ان يسير ليعبر بعد الرصيرص حيث المياه ضحلة وغير صالحة لعبور البواخر بدون ادنى شك .

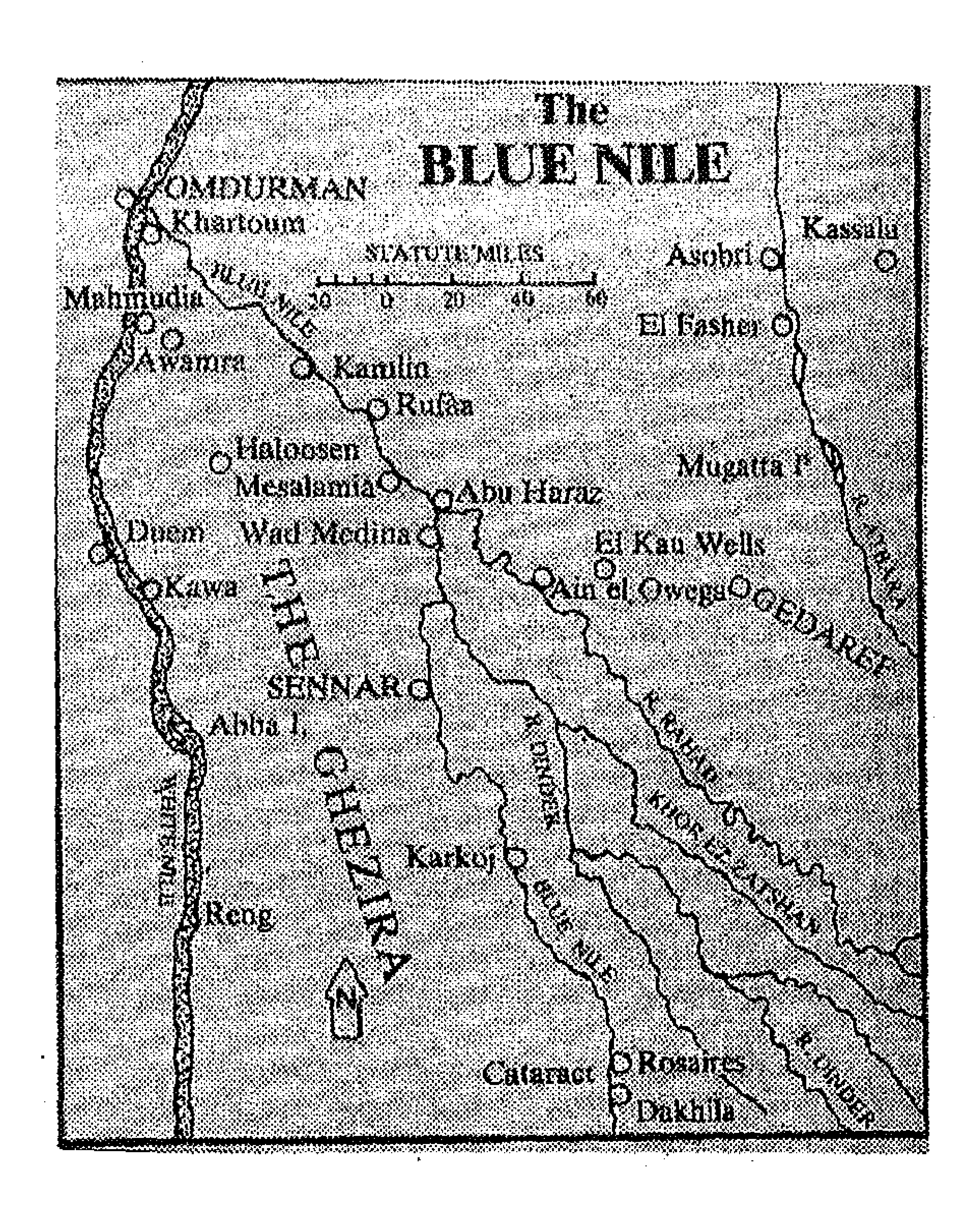
يوم ٢٢ اكتوبر تحرك العقيد لويس مع فرقتين هجانة وثلاث سرايا فرسان من أم درمان إلى الجزيرة بغرض فرض السلطة المصرية فى المنطقة . كان تقدمه ناجحا بكل المقاييس، فالاهالى استكانوا وفوضوا أمرهم بدون أدنى أسف الى الحكومة و لم يكن هناك أى خرق للقانون، إلجهة الوحيدة التي كانت ترتكب الجرائم هي فلول القوات غير النظامية التى كانت تحارب فى شرق النيل تحت قيادة الرائد ورتلى. فى كل قرية تم تعيين شيوخ باسم الخديوى واستمر ضباط سلاح الفرسان فى حل مشاكل الارض، المحاصيل والنساء ، التى انتهت لإرضاء الجميع . سارت القوة عن طريق العمارة ، الحلاوين والمسلمية ووصل لويس الى كركوج يوم ٧ نوفمبر ، وهو نفس التاريخ الذى وصل فيه أحمد فضيل الى الدندر .

استمرت تحركات القوتين لمدة ٦ أسابيع تماما كلعبة عسكر وحراميه. كان أحمد فضيل يحتمى داخل الغابات الكثيفة، يغير على القرى المحيطة التى تقع شرق النيل الازرق ويواصل مسيرته الى الشلال خلف الرصيرص. لقد حيرت المعلومات المضللة لويس الذى بقى فى منطقة كركوج وأرسل أطوافا كبيرة ليتحصل على معلومات موثوق بها، حاول مرارا أن يقطع خط الرجعة للغارات وعمل دوريات بالبواخر المسلحة على طول النهر . فى هذه الأثناء سقط أغلب أفراد قوته بالمرض، وباء الملاريا الذى اشتهرت به منطقة جنوب النيل الازرق كان فى قمته بعد موسم الأمطار. فقد أثرت الملاريا على ثلاثين بالمائة من قوة كل حامية أو نقطة وكل أفراد حامية الرصيرص سقطوا لآخر رجل، لم يبق سوى ضابطين بريطانيين فى الخدمة . سقط الضباط البريطانيون واحدا تلو الآخر يتمدد الواحد منهم تحت اشجار النخيل وجسمه يحترق من حرارة الحمى وليس فى مقدوره عمل شئ، أو يحمل الى البواخر الصديقة التى كان لها النصيب الأكبر من المعاناة . من بين قواتها البالغة ٤٦٠ فردا توفى ١٠ وأصبح ٤٢٠ غير صالحين للعمل فى ظرف شهر واحد بعد وصولهم الى كركوج.

مع نهاية نوفمبر حضر الشيخ بكر من القضارف الذى كان انفصل عن الدراويش بعد هزيمة المدينة ، ومعه ٣٥٠ مقاتلا غير نظامى ، واعلن أنه انتصر على قائده السابق عدة

مرات ولكى يدلل على ولائه وصدق دعواه أخرج جوالا مليئا برؤوس الأعداء. كان هـــذا برهانا لا يقبل الشك. طلب منه ملاحقة الدراويش وشجع بأنه من حقه الاستيلاء علــى أى غنائم له ولقوته .

استمر أحمد فضيل فى مسيرته البطيئة على شط خوز موازيا للنيل الأزرق ويبعـــد عنـــه بحوالى عشرين ميلا متجها جنوبا . بعد أن علم لويس بهذه الأخبار تحرك من كوكـــوج الى الرصيرص مع فصائل من الفرقة السودانية الخامسة التى انضمت لقوته لتعزيزها. وبقى بضعـة أيام بدون أمل كبير فى أن يمنع عبور العدو للنيل الأزرق. وفى يوم ٢٠ ديســـمبر وصلـــت إخبارية كاملة ولكن اتضح فيما بعد عدم دقتها مفادها أن أحمد فضيل قد وصل الى قريـــة الدخيلة على بعد ٢٠ ميلا جنوب نقطة الرصيرص وانه شخصيا وحرسه المتقدم قد عبر النهر


The
BLUE NILE
OMDURMAN
Khartoum
STATUTE MILES
20 0 20 40 60
Kassala
Asobri
El Fasher
Mahmudia
Awamra
Kamlin
Rufaa
Haloosen
Mesalamia
Abu Haraz
Mugatta F
Wad Medina
Duem
El Kau Wells
Ain el Owega
GEDAREF
Kawa
THE
SENNAR
GHEZIRA
Abba I.
R. RAHAD
R. DINDER
WHITE NILE
Karkoj
BLUE NILE
Reng
N
Cataract
Rosaires
Dakhila
R. DINDER

للشاطيء الغربي وأنه الآن بسبيل تعدية النساء والأطفال على معدية صنعت من عـروق الأشجار (رافت) .

يوم ٢٢ أرسل لويس الشيخ بكر لغرب النيل حتي يهاجم أي قوات للدراويش تكون قد عبرت بالفعل الى الشاطئ الغربي. فسافرت القوة غير النظامية لتنفيذ الأمر . فى اليوم التـالى جاءت الأخبار ان قوة الدراويش انقسمت لقسمين جزء على كل شاطئ. وفى ظهر يوم ٢٤ وصلت البواخر مليلك ودال من أم درمان تحمل قوة من ٢٠٠ رجل بقيادة الرائد فى رجسون من قوات الفرقة السودانية الخامسة و٣١ من السودانية الرابعة بقيادة النقيب سـير هـنرى هيل. بعد هذه الإضافة أصبحت القوة التى تحت إمرة لويس تتكون من نصـف السـودانية الخامسة وفصيله صغيرة من السودانية الرابعة و٢ مدفع مكسيم وطبيـب، وكـان بجـانب القوات النظامية، القوة التى مع الشيخ بكر عددها ٣٨٠ رجلا وكانت هناك مجموعة مـع شيخ الرصيرص حوالى ١٠٠ فرد وأفراد آخرين تابعين .

كان العقيد لويس مصمما على مهاجمة أي قوة لأحمد فضيل تكون موجـودة شـرق النيل. فى يوم عيد الميلاد (الكريسماس) فى الساعة الخامسة مساء جمع آخر رجل تحت إمرتـه واتجه نحو الدخيلة وكان يتحرك بصف واحد طويل داخل غابة كثيفة من أشجار الشـوك، وصلت القوة الى قرية أبو زغلي التى كان يعتقد أنها نصف المسافة للدخيله أو أقل من الثلث، فى حوالى الساعة الحادية عشرة من ليلة عيد الميلاد . هنا عسكرت القوة حتي الثالثة صباحـا يوم ٢٦ وواصلت السير تجاهد بنفس الطريقة داخل الأحراش، أشرقت الشمس وهم علـى بعد أميال من مواقع العدو، ولم تظهر نقاط مراقبة عدو إلا فى الثامنة صباحا. وبعد تبـادل عدة طلقات تراجع طوف العدو ، تتبعهم القوة حتي خرجت من الأحراش الى فسحة واسعة على ضفاف النيل يتخللها بعض أشجار الدوم والأعشاب الطويلة . انتشرت القوة على هذه الساحة، ووجدوا أمامهم النيل الأزرق يلمع بلونه الفضي مع أضواء الصباح ويجري مسـرعا على بعد مسافة داخلة ظهرت جزيرة من الرمال والتلال، التى كان قد اختارها الدراويـش كساتر ولكن فاجاتهم القوة فراحوا يركضون. بعد الجزيرة ظهر الشاطئ الغـربي وأشـجار طويلة وحولها بعض الأفراد تروح وتغدو على المنحدر والمرتفع على ضفاف النيل . أصـوات

متنافرة للطبول وموسيقي القرون بدأت تسبح فوق الماء ، والأعلام المتعددة كانت إعلانـــا بوجود قوات العدو ونواياه المعادية .

كان موقع الدراويش قد تم اختياره بعناية وله ميزات دفاعية جيدة . على بعد قليل شمال الدخيله ينقسم النيل الى قسمين قسم ضحل يتجه مباشرة للشاطئ الشرقي والآخر عميـــق يجري على شكل قوس ناحية الشاطئ الغربي يصب فيه باندفاع .

تتوسط هذين الفرعين جزيرة بطول ميل وربع الميل وبعرض ٤٠٠ ياردة وعلى هـــذه الجزيرة المحاطة بخندق طبيعي من مياه جارية ، كان "دم" وحصن الدروايش . فى الجـــانب الغربي للجزيرة ترتفع التلال المغطاة بالأعشاب والشجيرات الصغيرة مع انحدار عكس ناحيـة مقدمة شاطئ النهر وهنا كان توجد ثلاثة أرباع قوة أحمد فضيل، من خلفهم ذراع النيـــل العميق و لم يكن أمامهم خيار وفى الحقيقة لم تكن لديهم أي رغبة غير القتال. كان أمامـــهم صف طويل من عروق الأخشاب بمسافة ١٠٠٠ ياردة ، على أعدائهم المرور منه للوصـــول اليهم . خلفهم مياه النيل الهادرة والشاطئ الغربي الذي يرتفع لأكثر من خمسين قدما عـــن سطح الماء ، تحرسه قوة من ٣٠٠ رجل من حاملى البنادق ومن هذه النقطة الحصينة وقـــف أحمد فضيل وأربعة من أمرائه لمشاهدة وتوجيه ومساعدة القوات للدفاع عن الجزيرة . كانت القوة فى الجزيرة تتكون من رجال فرقة الأمير سعد الله صاحب تجربة القضارف، وكـــانت معهم قوات الأمراء الأربعة أيضا محتشدة هناك .

كان الموقف غير مطمئن ، فقد أساء لويس تقدير حجم وتنظيم قوة الدراويش ، كـــل التقارير كانت تشير الى أن هزائم القضارف قد حطمت روحهم المعنوية وقلصت قوتهـــم الى ٢٠٠٠ رجل على الأكثر. لويس سار للهجوم معتقدا أن نصف قوتهم على الشاطئ الغـــربي والنصف الأخر على الشرقي . التراجع الآن مستحيل. وموقف العدو قوى ، وقوته هائلـــة لكن كان الهجوم هنا خير وسيله للدفاع أو أفضل من التراجع لمسافة ١٩ ميلا داخل الغابات المشئومة التى تفصل بينهم وبين الرصيرص. هنا قرر الضابط البريطاني على الفور أن يتعـــامل مع العدو . وفى تمام التاسعة فتحت مدافع المكسيم وهي تمثل المدفعية بالنسبة للقوة الصغـيرة، من مواقع جيدة بينما اصطف جنود الفرقة السودانية الخامسة على الشاطئ الشرقي . فتحت النيران الآن من مدي بعيد ورد الدروايش ومن الدخان المنبعث من بنادقهم ظهرت أعدادهم

ومواقعهم وأيضا استحالة طردهم بنيران من مدي بعيد. وبالرغم من التفاوت العددي كان في غير صالحة، قرر أن يهاجم بالسلاح الأبيض السنج. ثم مر وقت حتى اكتشف كيف يمكن العبور منه لداخل الجزيرة، فبعد العاشرة تمكن الشيخ بكر وقوته من الوصول الى بعض التلال وأخذ مكانه على بعد ٨٠٠ ياردة من مواقع العدو ومعه الفرقة السودانية الخامسة وأصبحوا الآن على يمين العدو لتأمين عبور القوة الباقية .

كان العقيد لويس مصمما على الهجوم على شمال القوة من ناحية اليمين والهجوم عليهم من الجناح حتى يجبرهم على الاتجاه نحو الجزء العميق للنهر، واستمر بالفرقة السودانية الخامسة مع قيادة العقيد ناسون والرائد فيرجسون متجها شمالا على شاطئ النهر مستترا بحافة الشاطئ من النيران التي الآن بدأت تحدث خسائر إلى أن وصل للنقطة التي حددها للاقتحام، فأخذت الفرقة تشكيل تقدم الهجوم، واستدارت نصف شمال متقدمة بانحراف بقوة متتالية نحو المعبر الخشبي الذي يودي الى التلال الرملية، وبينما هم يتقدمون تصدت لهم قوة من ٢٠٠ درويش تمركزوا بمهارة على مرتفع ووجهوا نيرانهم على شمال جناح الفرقة. فانفصل الرائد فيرجسون لاخراجهم من ذلك الموقع ، واستمرت الفرق الأربع في الهجوم.

لقد أصبحت نيران العدو الآن كثيفة ، اكتست كل مقدمة الجزيرة بالدخان وخلفه من المرتفع على الشاطئ الغربي، اصطف أفراد في شكل نصف دائرة ووجهوا نيران بنادقهم نحو الـ ٤٠٠ جندي المتقدمين فاتحين خط نيران ثاني ، الكتل الخشبية في المعبر ظلت تقفذ كل ما أصابتها النيران ، كان صوت الرصاص المنهمر يصم الآذان ، بدأ أفراد الفرقة السودانية يتساقطون " تماما كما كان الدراويش في أم درمان " وامتلات الأرض بجثث الجرحي والقتلي. قال أحد الضباط "لم نكن نجرؤ على النظر للخلف" الجنود كالجن الذي لا يمكن قهره، استمروا في التقدم بثبات دون لحظة وجل أو تردد، ضغطوا مسرعين حتى يصلوا الى مواقع العدو ووصلوا إلى تل رملي واتخذوا ساترا تحته . كان ربع الكتيبة قد سقط على المعبر واهتز العدو من صدمة الهجوم العنيف. أمر لويس ناسون أن ينتظر برهة حتى يأخذ الأفراد نفسهم قبل الهجوم الأخير. فظن الدراويش أنهم صدوا الهجوم وجاءتهم الأوامر من أحمد فضيل عن طريق الطبول والبورجي تأمر بالهجوم. مع صيحات الانتصار والتكبير نهضت كل القوة في الجزيرة ملوحة بأعلامها، وعلى صياحها وتقدمت للهجوم من التلال العالية .. كان

الجنود السودانيون يلهثون لكنهم غير قابلين للهزيمة وردوا على أوامر ضباطهم البيض بصيحة عالية وصبوا من عند التلال التي احتموا خلفها نيرانا عنيفة على أعدائهم .

كان المدي قريبا والأثر كبيرا وفاعلا، فاندهش العرب وترنحوا وتراجعوا على طول الجبهة، وبينما الجنود وقادتهم النبلاء يدمرونهم من تل لآخر، حتي اصبح الذين لم يسقطوا قتلى أو جرحي، محصورين فى أقصي جنوب الجزيرة خلفهم المياه العميقة وامامهم جنود ثائرون غاضبون لضحايهم.

انضم شيخ بكر وقواته غير النظامية وباقى القوة الى السودانيين المنتصرين ومن ساتر التلال الذي فى قبضة القوة الآن ، انهمرت نيران قوية وموثرة على أفراد قوة الدراويش المكشوفن الآن فى حزام ضيق قبالة مقدمة الشاطئ . حاول البعض السباحة للجانب الغربي للحاق بأصدقائهم . غرق منهم عدد كبير بما فيهم سعد الله الذي غرق ومعه حصانه، واختفى آخرون تحت الماء حتي رؤوسهم خوفا من الرصاص وهرب الأغلبية إلى جزيرة صغيرة على بعد قليل الى أعالى النهر. لكن الغطاء كان سيئا والمياه العميقة منعت الهروب وبعد أن تعرضوا للنيران لأكثر من ساعة ونصف الساعة استسلم حوالى ٣٠٠ رجل، وأصبحت الجزيرة تحت احتلال القوة، لكن مازلت النيران تاتي من الشاطئ الغربي الفصيل الذي أرسل لإسكات نيران الدراويش الذين كانوا محاصرين خلف الساتر، وقد جرح الرائد فى رجسون جرحا عميقا وسقط ثلث قوته. ولكي تنسحب هذه الفصيلة كان لابد من إحضار مدافع المكسيم عبر النهر حتي تكون على مدي ٤٠٠ ياردة وكان امرا شاقا . انتهي القتال فى الساعة الثالثة عصرا وبدأ المنتصرون فى تعداد خسائرهم و ما حققوا من نتائج .

لم يكن لا الموقت ولا الظرف يسمح بتعداد خسائر العدو ولكن كان من المؤكد أن خسارة لا تقل عن ٥٠٠ قتيل داخل الجزيرة وأنه قد استسلم ٢١٢٧ مقاتلا ومئات من النساء والأطفال وتم الحصول على ٥٧٦ بندقية وكميات كبيرة من الذخيرة وتلال من الحراب والسيوف. وهرب أحمد فضيل مع مجموعة من أتباعه، عبر منطقة الجزيرة . لكن كانت هذه الهزيمة ذات أثر كبير فى نفوس الدراويش، حيث استسلم كل أفراد قوته للباخرة "المتمة" فى الرنك على النيل الأبيض فى يوم ٢٢ يناير ، واكتفى قائدهم العنيد بالذهاب الى كردفان للانضمام للخليفة وليس معه أكثر من ١٢ تابعا .

كانت خسائر القوة من القتال ٤١قتيلا و١٤٥جريحا بمن فيهم الرائد فى رجسون وفقدت الفرقة السودانية غير نظامية التى تحملت العبء الأكبر للمعركة٢٥قتيلا من ضابط وجنـدي، وجرح ضابط بريطاني و٦ضباط محليين و١١٧ضابطا وجنديا غير نظامي من مجموع القـــوة البالغ ٥١١ فردا.باقي الخسائر كانت بين٤٩٥فردا غير نظامي من الذين اشتركوا فى القتال. كانت هذه خاتمة المعارك التى أعادت كل المناطق النيلية إلى نفوذ الحكومة.

الفصل التاسع عشر

نهـــايـــة الخلـــيفة

بعد انتهاء العمليات التى جاء ذكرها فى الجزء الأخير أصبح كل الاقليم المتاخم للنهر خاليا تماما من أى قوات معادية ، تم إنشاء حاميات كثيرة وعادت السيادة المصرية ، ظـــل الخليفة فى كردفان . بعد ان نجح عبد الله فى الهروب من أرض المعركة فى أم درمان ،أســرع الى اتجاه الأبيض متحركا عن طريق آبار شط الزريقة التى كانت مليئة بالمياه خاصـــة بعـــد سقوط الامطار . بعد أن تأكد من انتهاء الفرقة غير النظامية من مطاردته أوقــــف ســيره، عسكر وبدأ فى تنظيم قوته المشتته ذلك فى قرية ابو شيراى . فى نوفمبر عندما تحولت بـــرك المياه الى برك طين رحل الخليفة الى قرية العجيجة فى الغرب هنا انضم اليه الأمير الختم مـــع حاميه الأبيض . كان هذا الأمير لم يشترك فى أى صدام ضد " الأتراك " فكــــان صنديـــدا ومتحملاً . كان لوصولهم أثر كبير على القوة التى حاول الخليفة حشدها ، انشأوا دم كبـيرا فى العجيجة فهنا تتوافر المياه فى ديسمبر وقضى الخليفة فترة هادئة. كان يرسل قواته للإغـارة على القرى لجلب الذرة وبعض المواد الأخرى .

عندما عاد السردار من إنجلترا وسمع بالانتصارات علـــى النيـــل الأزرق فى منطقـــة الرصيرص ، قرر أن يعمل محاولة لأسر الخليفة . طلب العقيد كتشنر ، كأعلى رتبة موجـودة وقرر منحه شرف قيادة هذه العملية . طلب منه تجهيز قوة مختلطة والذهاب بها الى كردفـــان للاستطلاع أو أن أمكن الهجوم على قوات الخليفة وأسره . كان يعتقد أن أتباعــــه حــوالى ١٠٠٠ رجل بدون سلاح كاف . كونت القوة التى عرفت باسم "قوات كردفان الميدانيـــة" كما يلى:-

القائد: العقيد كتشنر

المساعد: المقدم ميتفورد

نائب المساعد: الرائد ويليامز .

القـــوات:-

٢ سرايا فرسان فرقة مصرية - .

الفرقة الثانية المصرية - ٢ مدفع ماكسيم .

الفرقة الرابعة عشر السودانية - ٢ مدافع بغال .

فرقة سلاح هجانة .

جاءت جمال الترحيل من عطبرة والنيل الأزرق. ارسلت القوات بالبواخر الى الدويم واحتشدت هناك فى أول عام ١٨٩٩ . تجمعت الجمال فى الكوة وبالرغم من أن أغلب القوافل كان عليها أن تقطع ما يعادل ٤٠٠ ميلا، فقد وصل كل العدد فى العاشر من يناير .

كانت مشكلة المياه هى المشكلة التى تواجه العملية ، موقع الخليفة على بعد ١٢٥ ميلا من النيل الأبيض . الإقليم بين القوة والخليفة كثير البرك من مياه الأمطار التى تترك بحيرات صغيرة لكن أغلبها يجف فى يناير ويتحول الى برك من الطين، لذلك كان لزاما التزود بمياه كافية للرجال والحيوانات من خيول وبغال وجمال . الجمال يمكن لها أن تسير بدون ماء لمدة خمسة أيام الى أن تكتشف بركة ماء على الطريق ، كان الأهالى على معرفة بتلك المواقع . بالرغم من أن قوة تحمل الجمل للعطش معروفة إلا أن لها حدودا، لذلك يعانى كثيرا من مثل تلك الرحلات وربما يصاب بالإرهاق أو يموت. أثناء الحرب يهتم القادة فقط بقوة تحمل الحيوانات وكان الأمل فى حمل مياه بالقرب وللاستفادة من البركة واعتمادا على قوة تحمل الجمال، أن تتمكن الحملة المكونة من ١٢٠٠ رجل قطع ١٢٥ ميلا عبر الصحراء إنهاء مهمتها فى ثلاثة أيام ثم ترجع للنيل . هذه العملية التى أطلق عليها استطلاع شركيلا قد شغلت قوات كردفان الميدانية .

كان التقرير عن الطريق من كوهى مشجعا. والآبار فى الجديد سوف تساعد فى تزويد القرب الجلدية بالمياه والحفائر على بعد ٧ أميال من الآبار يمكن أن تسقى الجمال، لهذا استعدت الفرقة للرحلة. لقد تم رصد كل شىء يمكن أن يساعد فى حمل المياه وترشيد استهلاك الشاربين. وتقرر أن يذهب ١٢ خيالة فقط، وخفضت خيول وبغال مدافع المكسيم إلى أقل عدد وتم الاستغناء عن أي شخص أو شيء ليس ضروريا جدا ، حتى

الزخيرة تم خفضها لمائة دفعة لكل بندقية حتى تترك مجالا لحمل المياه. وحددت كمية مياه الشرب بمقدار لتر للفرد و٦ جالونات للحصان، وخمسة جالونات للبغل. وحتى يقلل الطلب على المياه قرر العقيد كتشنر السير ليلا لتفادى حرارة النهار. لقد أنشىء معسكر فى الجديد كنقطة متقدمة خزن فيها طعاما يكفى ليومين بالإضافة لهذا أعطى كل فرد من القوة عشرة تعينات و٧ تعينات لفرقة الترحيل لمدة ٧ أيام ، زيدت القوة بطعام حتى ٩ فبراير، وهكذا كان محور عملياتهم ، لولا أن تحددها المياه هو ١٩ يوما. ثم زودت هذه الفترة خمسة أيام إضافية بالإجراءات التى اتفق عليها على أن تقابلهم قافلة تقوم يوم ٣٠ يناير تتحرك عند العودة فى الطريق.

كانت الفرقة تضم ١٦٠٤ ضباط وجنود و١٦٢٤ جملا وحيوانات أخرى للترحيل. وتحركت من الفرقة كوهى الثالثة ظهرا بعد أن أرسلت قافلة صغيرة مقدما الى الجديد قبل ١٢ ساعة يوم ٢٣ يناير. الإقليم فى المسار الذى سوف يسلكونه أرض عارية جرداء كئيبة. وتقدموا الى محيط من الرمال المموجة بشجيرات الشوك والقش الناشف لكن بعض المرتفعات الحجرية قد اتاحت الرؤية لمسافات بعيدة حيث تظهر هذه الصحراء العقيمة تمتد الى ما لا نهاية من كل الأركان. بعد مسافة عشرة أميال بعد النيل اختفت أى حيوانات أو كائنات حية، الأرض صحراء ليست مفتوحة كالصحراء الكبرى ، ولكنها أدغال غير مفيدة تتناثر حولها شجيرات الشوك غير المنتجة والتى لاتتيح أى حياة لأي مخلوق كان بل يمكن أن تعترض الطريق. بين هذه الأدغال كان على الفرقة أن تشق طريقها أمامها العلم المصري الأحمر بالنهار ، ورتينه معلقة على عامود بالليل . تتحسس طريقها المنهك ، الحرس الأمامي يفتح الطريق بالفئوس وتعلم المسار بالجير الأبيض ، وحرس المؤخرة المصاحب للعفش يلتقط أى اغراض تسقط من القافلة فى المقدمة . بعد ثلاثة مشاوير طويلة وصلوا الى الجديد. يوم ٢٥ وصلت الفصيلة الأولى وحفرت الآبار لكنها لدي فتحتها ، لم تعط مياها كافية فقد كانت مياهها آسنه وواحدة وجد بها ثعبان طويل سام بطول ٨ أقدام كان هو الساكن الوحيد. وأرسلت الجمال لتشرب من الحفائر على بعد ٧ أميال وعلى أمل أن تملأ القرب أيضا ، ولكن الطفح الأخضر الموجود بالماء جعلها غير صالحة للاستعمال الآدمي فعادت قرب الجلود خاوية .


Shirkela Reconnaissance
STATUTE MILES
0
50
100
N
Duem
Kawa
Shat
Zeregia
KORDOFAN
Basata
Kohi
Abu Zeid
FORD
Abu Addel
EL OBEID
El Gedid
Abu Rokba
Abu Sheria
Om Agreim
Om Koyeka
Aigaula
Zereba
Shirkela
J. Ain
Reng
Shekan
J. Daier
GIMEH
BAGGARA
WHITE NILE
DAR TAKALLA
J. Gedir

استؤنف السير يوم ٢٦، وكانت الأشجار قد بدأت تظهر بشكل أكبر، الدغل أصبح غابة والأرض الرملية تحولت الى تربة حمراء اللون ، ولكن بخلاف ذلك ظلت هيئة الإقليم كما هي بدون تغير. عسكرت الفرقة للراحة فى أبو راكوبه حيث أشار بعض الأهالى من سكان القرية أشاروا الى قبر والد الخليفة والعشة المبنية من القش التى يبقي فيها الخليفة عند زيارته لقبر والده . أخيرا أعلنوا أن الخليفة قد ترك أبو عقيلة الى شركيلا ، وكان ياتي للزيارة حتى من تلك المنطقة .

بعد المشوار التالى الذي تم بالنهار ، استطاع الجلد والكرباج أن يعيدا للمرشدين ذاكرتهم ، فقادوا الفرقة الى حفير كبير يمتلي بالماء الطيب المذاق. شرب الكل حتى روي، شاكرين لله نعمته تم بنيت زريبة صغيرة لكنها قوية ، ترك بها بعض المرضي وكميات الغذاء الاحتياطية مع حامية حراسة تحت إمرة ضابط مصري. وواصلت الفرقة رحلتها، حتى وصلوا الى أبي عقيلة يوم ٢٩ هنا انتباهم دهشة تماما كتلك التى عبر عنها روبنسون كروزو عندما شاهد آثار الأقدام فى الرمال، فقد وصلوا الى معسكر الخليفة المهجور. لقد تم تجهيز هذا المعسكر باحكام ونظفت المنطقة من الأشجار والأدغال وتم بناء قطاطي من قصب الدخن باشكال هندسية رائعة تمتد فى صفوف طويلة بدون التواء لأميال عدة فتحت داخلها الشوارع والمربعات ، وكل شئ نظيف جدا ومنظم ، والأشجار التى نزعت منها الفروع السفلى أعطت منظرا رائعا للمعسكر .

كان منظر هذه القرية المهجورة التى تبدو كمقبرة صامته خرجت من بين تلك الأدغال مثيرا وتركت انطباعا عند كل من شاهدها أما حجمها فقد زاد هم القائد، إذ على أقل تقدير تسع هذه القرية لحوالى ٢٠ ألف شخص . كم من هؤلاء الرجال مقاتلون بالطبع ليس أقل من ٨ أو ٩ آلاف رجل، ومع ذلك أرسلت الحملة لتعقب مجموعة مقاتلين كان تقديرهم لا يزيد حجمها على ألف مقاتل هم التابعون مع الخليفة .

مع اتخاذ كافة التدابير الحربية اللازمة زحفت الفرقة الى الأمام، كانت الهجانة والفرسان تقدم الحماية لأفراد الفرقة فتبادلت إطلاق نار مع طوف من العدو . عسكرت على بعد ٣ أميال من هذا الموقع بعد تشييد زريبة قوية ، قضت الليلة مع توقع هجوم لكن مرت الليلة بسلام . فى الصباح الباكر أرسل متفورد مع بعض الأفراد الموالين للاستطلاع ورجع الساعة

العاشرة وأيد تقريره الاستنتاجات التي خرج بها القائد بعد مشاهدة معسكر عقيلة الكبير، فزحف لموقع مكنه من رصد المعسكر الذي أمامه، بعد أن ظهرت أعلام الدراويش فى صفوف على شكل هلال على أعلى التلال وإعداد تتحرك قدرها بأكثر من ٢٠٠٠ بنداقة فى الصف الأمامي . كم عدد البقية فى الاحتياط لا أحد يدري . تحصن الموقع جيداً فى وادي ضيق حوله حفائر المياه .

كانت هذه الأخبار خطيرة. القوة الصغيرة التي تفصلها عن قاعدتها ١٢٥ ميلا من الأرض الجرداء عديمة المياه ، وأمامها هذا الجيش القوي ، انعقد مجلس حرب لدراسة الموقف. كان السردار قد أمر بتشدد قوي ألا يكون هناك أى انتظار اما أن يهجم أو يتراجع ، قرر العقيد كتشنر التراجع. وبعد أن اتخذ القرار يجب الانسحاب باسرع ما يمكن بعيدا عن سطوة العدو، ولهذا بدأ التحرك فى نفس الليلة، لم تكن رحلة العودة بأقصر من رحلة الحضور أو أقل أهاكا وحُرم الجنود من أي شرف أو إثارة القتال. أثناء رحلة العودة للنيل أصابت لعنة الأرض واهوالها كل فرد ، أضافت الى المعاناة الانسانية ، صعوبة الأرض الخراب ، الحر وبرك الطين العفنة . الأهالى الجوعي خرجوا من جحورهم ومخابئهم،وكان يحدوهم الأمل فى الحصول على بعض مايسد الرمق بعد المعركة من أي مخلفات الآن وقد خاب أملهم، تسللوا ليلا فرداً أو أثنين على المعسكر وحملوا أى نوع من الطعام وجدوه، لم يفطن أحد لهذا النشاط ولم يتركوا أوقية واحدة من الغذاء الاحتياطي.

عند نهاية الرحلة ، بدأت الجمال تعاني من حرمانها من المياه فأخذت تتعثر وتموت، وعندما كانت الفرقة على عجل ولم يكن هناك أى وقت للانتظار، وقف جمل صغير ورفض السير حتي بعد أن أشعلت حوله النيران واضطرت القوة لقتله بالرصاص ، جمال أخرى سقطت وماتت وجاء هذا بمثابة غوث للأهالى الجوعي. بمجرد أن يترك جمل. ينظر الضباط للخلف فيشاهدون فردا يخرج من الغابة ، بعد قليل فرد أخر، متلصصين ينهالون على نهش لحم الضحية حتي قبل أن تفارقه الحياة كأنهم صقور جارحة .

يوم ٥ فبراير وصلت الفرقة الى كوهى، وتم حل قوات كردفان الميدانية دون تقصير من قائدها أو جنوده بعد أن عانوا من مشاكل كثيرة ومصاعب أكثر فى رحلة غير موفقة .

لم تتم أى عمليات ضد الخليفة لمدة عام كامل حيث بقى طيلة الربيع والصيف فى عام ١٨٩٩ هو الآمر والسيد على كردفان، ينظم صفوف أتباعه ويخرب الأقليم ، كخطر مستديم للحكومة ولعنة على الأهالى وعنصر كبير لعدم الاستقرار. طبيعة الأرض الجرداء وشح المياه ساهمتا فى صعوبة أى عمليات عسكرية ضده بالرغم من حشد قوة كبيرة فى الخرطوم إلا أن فترة الجفاف وأيضاً عدم معرفه أماكن وجوده قد أجلت أى تحرك ضده .

مع نهاية شهر أغسطس وصلت إخبارية لقسم الاستخبارات العسكرية عن أحد أفراد القبائل المتعاونة، تفيد أن الخليفة وقوته يعسكرون فى جبل قدير، نفس الجبل الذى كان المهدى قد لجأ اليه بعد معركة الجزيرة آبا قبل عشرين عاماً. هنا وسط الذكريات القديمة التى أثارها وعمقها وجوده أصبح أكثر تصوفا . ليلة بعد أخرى يرحل الى الحجر الذى كان ينام ويتعبد عليه المهدى ثم يخرج يحكي الرؤي التي جاءته فى الأحلام، كان تناول الناس هذه الرؤي يتم فى سرية ولكنها تنتشر حتي وصلت أقاصي الغرب وحتي الجزيرة والخرطوم. الآن بعد أن تأكد مكان وجودة وانه مازال يمثل خطورة بنشاطه، قد تقرر التحرك ضده .

تحركت الكتيبة السودانية الأولي يوم ١٣ أكتوبر من الخرطوم بالبواخر وفى يوم ١٩ تجمعت قوة من ٧ آلاف رجل مجهزة تجهيزاً كاملاً بجمال ترحيل تم حشدها فى كاكا، قرية على النيل الأبيض، على مسافة قصيرة شمال فاشودة وكانت المسافة من هنا لمواقع العدو تبعد بحوالى ٨٠ ميلاً، ٥٠ منها ليست بها مصادر مياه لذلك يجب أن تحمل القوة المياه فى فناطيز. رغم ذلك سير ريقنالد ونجت الذي كان قائدا لهذه القوة، وصل بصحبة الكتائب السودانية الرابعة والخامسة فى يوم ٢٣ أكتوبر الى فنقور التي تبعد ٣٠ ميلا عن جبل قدير ، لتجد الأخبار ، أن الخليفة ترك معسكره فى جبل قدير يوم ١٨أكتوبر وتراجع الى الصحراء بدون تحديد .

هكذا طاشت الطلقة وأي تقدم جديد سيكون محفوفا بالمخاطر والمصاعب المركبة، أمر لورد كتشنر الذي كان قد وصل الي كاكا، بوقف العلميات فرجعت كل القوة بمنتهي الغيظ وخيبة الأمل الى الخرطوم التي وصلوها أول نوفمبر .

كان الاعتقاد السائد لدي الجميع ، أن الخليفة قد قرر الانسحاب الى مناطق نائية بعيدة عن منال أعدائه ، الى الأبيض مثلا أو حتي الى جنوب دارفور وعليه قضي الضباط

والجيش١٤ يوما يقرأون البرقيات ويندبون حظهم السيئ الذي حرمهم من أي مهام قتالية . ظهرت بعض الشائعات الغريبة فى أسواق أم درمان تتحدث عن الاسلحة المدفونة وقرب تمرد ، جعل العاصمة تعيش في قلق وترقب . وفجأة جاء يوم ١٢ نوفمبر أخبار أكيدة ومدهشة. أن الخليفة لم يتراجع للغرب أو الجنوب بل إنه قادم لام درمان . وهي هدفه وليست الأبيض . تشجع من فشل وتراجع بحملتين ضده ، وبا أنباء لايدري احد مصدرها ومبالغ فيها عن الخراب الذي حل بالأتراك خارج حدود السودان ، قرر عبد الله أن يغامر بكل ما يملك ويضرب ضربة واحدة يستعيد بها عاصمته السابقة . وبناء عليه جاءت يوم ١٢ نوفمبر طلائع قواته وحرسه الى قبالة الجزيرة آبا على النيل الأبيض وفتحوا نيرانهم علانية على البارجة سلطان التى كانت تناور على النيل .

أن اسم الجزيرة آبا سوف يرجع بالقارئ دون شك الى بداية هذه القصة . هنا وقبل ١٨ عاماً عاش المهدي وصلي بعد خلافه مع الخليفة شريف ، هنا انضم اليه عبد الله ، هنا انطلقت أعلام الدعوة وها هنا تمت هزيمة الأعداء أفراد الجيش المصري لأول مرة ، وهنا عاش ، بل مازال يعيش أحد أولئك الأشقاء الذي استمر رغم كل الأهوال والصراعات التى هزت كل السودان، استمر فى صناعته المتواضعة فى بناء المراكب . هذه بلاشك لحظة غريبة فى تناسق التاريخ ، إن دمارا آخر آثار حركة المهدي ، سوف تشهده نفس البقعة التى شاهدت مولدها ! .

وصلت الأخبار الى الخرطوم وبدأت العجلة تدور . تم تجهيز الكتائب السودانية الرابعة والثالثة عشر يوم ١٣ نوفمبر وأرسلت فوراً الى جزيرة آبا تحت قيادة العقيد لويس كتشنر الذي عاد مسرعا من القاهرة يوم ١٨. قوة ميدان ٢٣٠٠ جندي ، وحدة فرسان ، بطارية الميدان الثانية كلها بطارية المكسيم الأولى ، سلاح الهجانة السودانية الرابعة والثالثة عشر وفرقة من المصرية الثانية تم حشدها تحت قيادة سير- رقنالد ونجت. كان هناك ٩٠٠ بنداقة عرب بالإضافة لقوة راكبة من غير النظامين . وصلت القوة الى فاششوية واجبرت هذه الخطوة الأمير أحمد فضيل على الانسحاب .

فى تمام الساعة الثالثة والنصف من عصر يوم ٢١ تحركت القوات متجهه ناحية الجنوب وراء أثر العدو .

توقفت القوات للراحة على بعد ١٠ أميال جنوب غرب الفاششوية، ثم واصلت سيرها على ضوء القمر حيث وصلت الى نفيسة. واجهتها دورية للدراويش من عشرة افراد تطوف ووجدوا فى نفيسة معسكر أحمد فضيل الخالى ، إلا من كميات من الحبوب كان قد جلبها من منطقة النيل ، ولكن أكثر قيمة هي وجود درويش مريض لكنه ذكى ، ذكر ان الامير قد تحرك الى نقطة تبعد ٥ أميال أسمها ابو عضال. أكد هذه المعلومات الضابط المصرى محمود حسين الذى كان قد قام باستطلاع جرىء مع دورية غير نظامية. كانت قوات المشاة محتاجة الى بعض الراحة ولقليل من الطعام لذلك أمر سير ريقنالدونجت الغقيد ماهون أن يسرع بكل القوة الراكبة ليتعامل مع العدو ويمنعه من التراجع قبل بداية العمليات.

تحركت الفرسان والهجانه ومدافع المكسيم والجنود غير النظاميين بخطى سريعة ورغم أنهم راجلون لكنهم أستطاعوا أن يوفقوا السير مع القوة الراكبة عند الساعة التاسعة والربع تحركت قوات المشاة، منتعشة بعد الشرب والأكل وكلما تقدموا زادت كثافات اشجار الشوك الصغيرة وأيضاً الأرض رخوة . فى تمام العاشرة ، سمعوا أصوات المكسيم وطلقات الرصاص فعلموا أن ماهون قد اشتبك، زاد ضرب النيران مع اقتراب القوة دلالة على ان المعركة على أشدها . كانوا قد احتلوا مرتفعاً صغيراً أمامه فسحة بدون أشجار يظهر من على بعد ٨٠٠ ياردة معسكر الدراويش مزدحما حول حفائر المياه. لقد كان توقيت وصول المشاة جيداً. قرروا الظهور والهجوم المباشر على القوة الراكبة بعد أن كانوا يطلقون النيران من استحكاماتهم على مدافع القوة، اندفعوا وصبوا نيرانا قوية بجرأة على مدافع الفرقة. كانت المسافة بينهم ٢٠٠ ياردة وكاد هجومهم ينجح وصلت الفرقة السودانية الرابعة والثالثة عشرة وأخذت مواقعها فى الثغرة بين مدافع ماهون وأفراد القوة الراكبة والراجلين والقوات غير النظامية. اثرت هذه النيران على العدو المتقدم، فانهزم وكسرت روحة المعنوية. شقيقان من الدراويش ربطا كل يد وقدما معاً واستشهدا على بعد ٩٥ خطوة من موقع المدافع. وقتل كثيرون وهرب البعض . سارعت كل القوة الآن فى مطاردتهم ، شوهد بعضهم يقف خلف القصب والأعشاب الطويلة من على بعد ميل وخمسة اميال وانقضت عليهم فرق الفرسان والهجانة . بلغ عدد الجثث ٢٣٠ ومثلهم جرحى وهرب أحمد فضيل

وبعض أعوانه جنوباً للانضمام للخليفة . كانت خسائر الفرقة المصرية خمسة جرحى، عسكرت القوات حوالى الساعة الرابعة صباحاً فى منطقة قريبة من موقع المعركة .

سؤال صعب ويدعو للقلق قد فرض نفسه . علم من بعض الأسرى أن الخليفة ومعه ٥٠٠٠ آلاف رجل يتحركون شمالاً إلى آبار الجديد ، وقد سمعنا عنها عندما تعرضنا لقوة استطلاع شركيلا ، وهى تبعد بنحو خمسة وعشرين ميلاً من منطقة القتال. كان أفراد القوة متعبين بسبب المجهودات التى بذلوها، مياه الحفائر آسنة لدرجة أن الجمال عافت أن تشرب منها واكثر من هذا فان المياه فى (الفناطيز) على وشك النفاد لذلك كان من الضروري الوصول الى آبار الجديد. ولكن لربما أن القوات التى تعانى من العطش وصلت آبار الجديد لتجدها محتلة من قوة كبيرة للدراويش. كان على سير ريقنالد ونجت اتخاذ القرار ، وقرر أن يأخذ المخاطرة ، وقبل منتصف الليل بقليل تحركت القوة مرة أخرى . كانت الأرض رخوة والليل خانق وكلما مرت الساعات، زادت معاناة أفراد المشاة وصدر أمر بعدم صرف أى كمية مياه قبل معرفة الموقف فى آبار الجديد، رفضت أى طلبات للماء بعزم وقوة، تحت هذه الظروف، أصبح المشاة المعروفون بقوة تحملهم، فى حالة قلق، وسقط بعضهم على الأرض . لذلك شعر الجميع براحة كبيرة عندما أعلن صباح ٢٤ فى الساعة التاسعة ان أفراد الفرسان قد احتلوا الآبار وبدون أى مقاومة، وعلى الفور تم توزيع كميات المياه المحمولة. بعد ان انتعش أفراد المشاة واصلوا السير الى أن وصلوا لمنطقة حفىر مياه نقية نسبيا فعسكروا هناك.

تم أسر درويش فى الجديد، كما حدث فى نفيسة ، هذه المرة كان شخصا كئيبا ، لكن استخلص منه أن الخليفة وجيشه يعسكرون على بعد ٧ اميال جنوب شرق الجديد . وضح على الفور انه فى موقف سيئ من الناحية الاستراتيجية . الاتجاه شمالا الأرض جرداء ، وجنوبا المياه غير متوافرة وهى منطقة غابات كثيفة . بالإضافة الى حقيقة الاستيلاء على الحبوب التى كان سيجلبها فضيل قد عقدت الأمور بالنسبة لتقدمه أو تراجعه وأنه لابد أن يتوقف ويقاتل . قرر ونجت مهاجمته قبل طلوع الفجر .

تركت قافلة الترحيلات مع حراسة كافية بالقرب من حفىر المياه وأمرت بالتحرك بعد الرابعة صباحا ، تحركت القوة عند منتصف الليل تسبقها بمسافة نصف ميل فرقة الفرسان وعلى أجنحتها الهجانة. كانت بعض المناطق فى الطريق تسدها الشجيرات ، أخطرت قوات

المشاة والمدفعية لفتح ممرات لعبور القوة . على بعد ٣ أميال من معسكر العدو تم نشر القوة فى تشكيلات قتالية. احتل حملة البنادق غير النظامين المقدمة، خلفهم السودانية الثالثة عشرة والرابعة يليهم مدافع المكسيم والمدفعية ، تحركت القوة فى صمت وبحذر، وعلى البعد تسمع أصوات الطبول والقرون، دلالة على أن العدو غير مستعد. دقائق بعد الرابعة احتلت القوة مرتفعا أمامه أرض فضاء خالية من الشجر واتخذته كموقع سحبت فرقة الفرسان الآن من المقدمة وترك بعض افراد المشاة للمراقبة، وتمددت القوة على العشب فوق المرتفع انتظارا لضوء النهار .

بعد ساعة زمن بدأت السماء ناحية الشرق تظهر ضوءا خافتا معلنا قرب طلوع الشمس، ومع ذلك الضوء الضيئل، شوهد طوف المشاة وهم يزحفون، وخلفهم بجوار الأشجار أشكال بيضاء غير واضحة بدأت تتجمع. هنا وخوفا من هجوم كاسح مفاجئ أمر ونجت الفرقة أن تقف وتفتح نيرانها ، وفجأة بعد الصمت الرهيب هدرت أصوات الرصاص وردت قوات العدو ، جاءت نيرانه من شبه نصف دائرة مركزة أكثر ناحية شمال الفرقة المصرية لذا تم تعزيزها. بعد أن وضحت الرؤية أكثر جاءت جماعات كثيرة من الدراويش وهي تصيح متقدمة ، لكن صدتها النيران القوية و لم يستطع أمراؤهم قيادتهم لأبعد من اطراف الغابة . عندما شاهد ونجت هذا الموقف أمر بالتقدم للهجوم العام، بدأت كل القوات التقدم بخطوات سريعة وهي تدمر أفراد قوات العدو أمامها بين الأشجار لمسافة ميل ونصف حتى وصلت المعسكر. ٦٠٠٠ آلاف أمراة وطفل وباقي أفراد القوة الذين لم يصابوا أثناء المعركة فى اكواخهم المصنوعة من القش، رافعين أيديهم علامة للتسليم وطالبين الرحمة . اعلن وقف اطلاق النار فى تمام الساعة السادسة والنصف. عندها فقط ظهر حجم خسائر الدراويش ، بالرغم من قرب المدي لم يتوقع الضباط أن تكون النتيجة بهذه القوة نسبة لتعسر الرؤية قبل الفجر ، لكن كتل الجثث المتكومة كانت دليلا قاطعا. فى منطقة لا تعدو بضع ياردات مربعة ، سقط أشهر أمراء السلطة المهدية. الخليفة عبد الله اخترقته مجموعة من الرصاص وهو يرقد على فروة الصلاة المصنوعة من جلد الشاة ، يرقد على يمينه على ودحلو وعلى شماله أحمد فضيل ، أمامهم جثث حرس الخليفة وخلفهم جثث بعض التابعين الأقل شهرة وبعد هؤلاء خيول ميته أو مجروحة . كان هذا هو المنظر البشع الذي صافح أنظار

الضباط البريطانين مع إطلالة الصباح والذي كان بالنسبة للبعض نهاية للعمل الخطر الـــذي استمر لسنوات طويلة . وبينماهم ينظرون بدون رهبة واندهاش طلع من بين الجثث شـخص سليم ، كان هو الأمير الصغير : يونس، أمير دنقلا الذي أضاف الصلات القليلة الضروريـة لاكتمال الحلقة .

كان الخليفة فى أم درمان راكبا خلف تلال سرغام ولكن هنا فى هذه المعركة الأخـيرة ، قد وضع نفسه فى مقدمة المعركة. بعد أول إطلاق للنار جاء ابنه عثمان شيخ الدين الـــذي جرح وأخلى من أرض المعركة، جاء يطلب منه الهرب والنجاة ، لكن الأخير بكرامة لاتوجد لدي أكثر القاتلين تحضرا رفض . ترجل من حصانه وأمر أمراءه ليحذو حذوه وجلس علـــى فروة الصلاة وانتظر اسوأ المواقف. وهكذا يمكن القول بأن الصراع مع المهدية قـــد أخلـــي المسرح من كل شخصياته الرئيسية، وعثمان دقنه الذي مازال على حرية وجـــيزة بهـــروب خسيس سوف يواجه بعد قليل، بعبودية أطول وأكثر خسة .

سلم ٢٩ أميرا و ٣ آلاف رجل و٦ آلاف أمرآة أتقـــهم كأسري . كـــانت خســـائر القوة المصرية ٣ قتلى و٢٣ جرحي .

وهكذا تقترب الأن القصة الطويلة من نهايتها . انتهت حرب النهر ، خلال مشـــوارها الذي امتد لأكثر من أربعة عشر عاما وتسبب فى تدمير أكثر من ٣٠٠ ألف نفس، شـــهدت خلالها كثيرا من التطرف وكثيرا من التناقضات . كانت هناك معارك هي عبارة عن مجـــزرة وأخزيات كانها طابور استعراض . كانت هنالك لحظات من الجبن المشين ولحظـــات مـــن البطولة النادرة المثيرة للاستغراب، هناك خطط ولدت فى لحظات سريعة وفى حالة طـــواري، ومشاريع وضعت بعد دراسة متأنية قصص بذخ فاحش، وتبذير بدون معنى قـــد تم تحقيـــق الأهداف والعلمان المصري والبريطاني يرفرفان فى كل أنحاء وادي النيل .

ماهي التكاليف والثمن الذي دفع للحصول على هذه الامتيازات ؟ علـــى القـــارئ أن يحكم بنفسه بالنسبة للخسارة من الرجال، وعليه وهو يستذكر مـــوت الضبـــاط والجنـــود الشجعان وليس أقل من هؤلاء تدمير العرب الصناديد، أن يتذكر أن هذه المذابح لا يمكـــن فصلها عن الحرب ، وإذا كنا نبرر الحرب فليس علينا الملام الفقد البشري . لكني أكتب عن التكلفة المادية واقتصاد الحملات، ويبينها الجدول الآتي :-

	(١) السك الحديد	(٢) التلغراف	(٣) البوارج	(٤) النفقك	المجموع
حملة دنقلا :					
حول سواكن					
فركة	١٨١و٨٥١	٨و٢٩٩	٦٥و٨٦٩	٤٦٩و٦٢٢	٧٢٥و٦٤١
صغير					
دنقلا					
العمليات الحربية الاحقة					
أبو حمد					
بربر					
عطبرة					
أم درمان	٦٩٩و٥٢١	١٣و٥٢٦	٨٩و٠٦٥	٥٢٦و٦٠١	١و٣٢٨و٧١٣
القضارف					
الرصيرص					
اضافة لسك حديد الخرطوم	٣٠٠و٠٠٠			-	٣٠٠و٠٠٠
المجموع جنية استرليني	١و١٨١و٣٧٢	٢١و٨٢٥	١٥و٩٣٤ ٤	٩٩٦و٢٢٣	٢و٣٥٤و٣٠٤

بتكاليف أقل قليلا من أثنين وتصف مليون جنيه استرليني ، ستمرت عمليات حربية نشيطة لأكثر من ثلاث سنوات وظف فيها جيش بقوة ٢٥ ألفا بعيدا عن قواعدهم، زيادة على ذلك فرق بريطانية مكلفة تعدادها ٨ آلاف رجل . أنتهت بهزيمة ساحقة لجيش كان يبلغ تعداده أكثر من ثمانين ألف مقاتل ، وإعادة احتلال إقليم مساحته ١٦٠٠ ميل من الشمال للجنوب و ١٢٠٠ ميل من الشرق للغرب ، كان يكفل العيش لعشرين مليون نسمة فى وقت من الأوقات . هذا ليس كل شئ ، من جملة المبلغ.٣٤٥و٣٥٤و٢ فان ٢٢٣و٩٦٦ يمكن اعتبارها تكاليف حربية ، وبما تبقي وهو ٣١٣و٣٥٨و١ امتلكت مصر خط سك حديد بطول ٥٠٠ ميل وتلغراف لمسافة ٩٠٠ ميل وأسطول نهري مكون من عدة بوارج . ربما يكون صحيحا أن عائدات السكة الحديد عن رأس المال المدفوع لن تكون كبيرة فى البداية ولكنها من المؤكد أنها سوف تحقق دخولا مناسبة تزداد مع مرور الأيام . التلغراف ليس مهما فقط للسكك الحديدية ولكن ضروري لتنمية البلاد ، تكاليف تقل كثيرا وخاصة

عندما يتم ربط الأنظمة المصرية وتتصل بجنوب أفريقيا سوف يكون التلغراف مصدرا مـهما للدخل .

وأخيرا هناك البوارج ، ليس للقارئ أدنى شك بفائدة هذه البواخر المسلحة أثناء الحـرب لن يكون هناك استثمار أجدى من امتلاك هذه البوارج وبعد انتهاء العمليات الحربية علـى النهر ، يمكن الاستفادة منها فى أعمال ملاحية عادية ، ربما تكون مكلفة كناقل للمسـافرين أو البضائع ولكنها جيدة الأداء ويمكن الاعتماد عليها . تحركات القوات ورواتبها الإضافيـة والإمدادات ووراءها صف طويل من المواصلات والاتصالات والذخيرة واستهلاك الملابـس والبدل العسكرية وتوابعها، المراسلات، الحوافز، كل هذه تكلف أقل مـن مليـون جنيـه استرليني وبهذا المليون ، استردت مصر السودان .

كان لابد من دفع مبلغ ٣٥٤ , ٣٥٤ , ٢ أثناء العمليات، دفعت بريطانيا مبلـغ ٨٠٠ ألف كقرض ، اعتبر فيما بعد هبة . كانت التكاليف بالنسبة لدافع الضرائـب البريطـانى لاسترداد السودان والاستيلاء الجزئى عليه، للمجد العسكرى والرغبة الجامحـة فى قلـوب الجميع "للانتقام لغردون" هى مجرد ٨٠٠ ألف ، و يمكن التصريح بكل الجدية، لم يشـهد كل التاريخ الانجليزى أن يتحقق هذا الرضاء القومى الشامل بمثل هذا الثمن البخس. بـاقى التكاليف قد تكفلت بها مصر هذا البلد العجيب الذى يمكن تشبيهه بالجمل الذى تعتمـد عليه كل ثروات البلد اضطرته الظروف عند عدم الإيفاء بالالتزامـات الى اللجـوء لمعـدة خامسة لتغذيته وتحيره حتى اولئك العارفين بأضابير السياسة المالية المصرية المذهلة ، قد صمد للشدائد .

كتب مستر جروست المستشار المالى للخديوى فى تقريره بتاريخ ٢٠ ديسـمبر ١٨٩٨ يقول " إن التكاليف غير العادية الخاصة بحملات السودان قد تم خصمها علـى حسـاب الاحتياطى الخاص ، فى الوقت الحاضر يبلغ عجزا قدره ٣٣٦ ألف جنيه استرليني ، وهنـاك متأخرات عبارة عن رسوم على الحملة تبلغ ٣٣٠ ألف جنية يكون العجز الكلي مبلغ ٦٦٦ ألف جنيه استرليني .

" من ناحية أخرى فان الحساب الخاص سوف يضاف إليه ، عند قفل حسابات السـنة، مبلغ ٣٨٢ جنية هى ما تبقى من نصيب الحكومة من فائض ميزانية عام ١٨٩٨ بعد خصـم

التجاوزات فى الصرف الإدارى لتلك السنة واضافة مبلغ ٩٠٠٠ جنية هى جزء من حصيلة بيع البوستة الخديوية . لذلك سوف يبلغ العجز الصافى ١٩٤,٠٠٠ جنية وإذا كانت سنة ١٨٩٩ هى سنة مزاهرة كالعام الحالى فانه من المؤمل أن يختفى العجز كلية عند قفل حسابات عام ١٨٩٩ ".

تبقى قضية عظمى ، ربما تشوبها الأكاديمية ، وهى الإجابة عن السؤال " هل كان الحق أو الحكمة يبرران الحرب ؟ .

إذا نظر القارىء الى خارطة النيل ، سوف يلاحظ على الفور وجه الشبه الكبير بين النيل وشجرة النخيل. فى أعلى الشكل تمثل الارض الخضراء الخصبة للدلتا ، الفروع والأوراق الخضراء تهفف فى كبرياء ، الجزع فى انحنائه ، النيل ايضا ينحنى انحناءة جبارة وهو يسير عبر الصحراء . جنوب الخرطوم تكتمل أوجه الشبه -جذور النخلة تمتد داخل السودان بعمق. لايمكننى أن أتخيل أى تصوير لمدى العلاقة الخاصة والعاطفة التى تربط مصر بالسودان أو المديريات الجنوبية للقطر . الماء وهو حياة الدلتا يأتى من السودان ، ويمر على مجرى النيل، كالعصارة تجرى داخل ساق للشجرة ، لتطرح محصولا طيبا رطبا على أعالى النخلة. المنافع لمصر لاجدال عليها، ولكن مصر لاتستفيد وحدها ، مزايا الارتباط وامتيازاته هى منافع مشتركة، إذا كان السودان قد وضعته جغرافيته وطبيعته أن يكون مكملا لمصر، فان مصر لا تقل أهمية لتنمية السودان. ما هى فائدة الجذور والتربة الغنية إذ ما قطعت الساق، وهى مصيرية لانتشار العطر فى الأجواء .

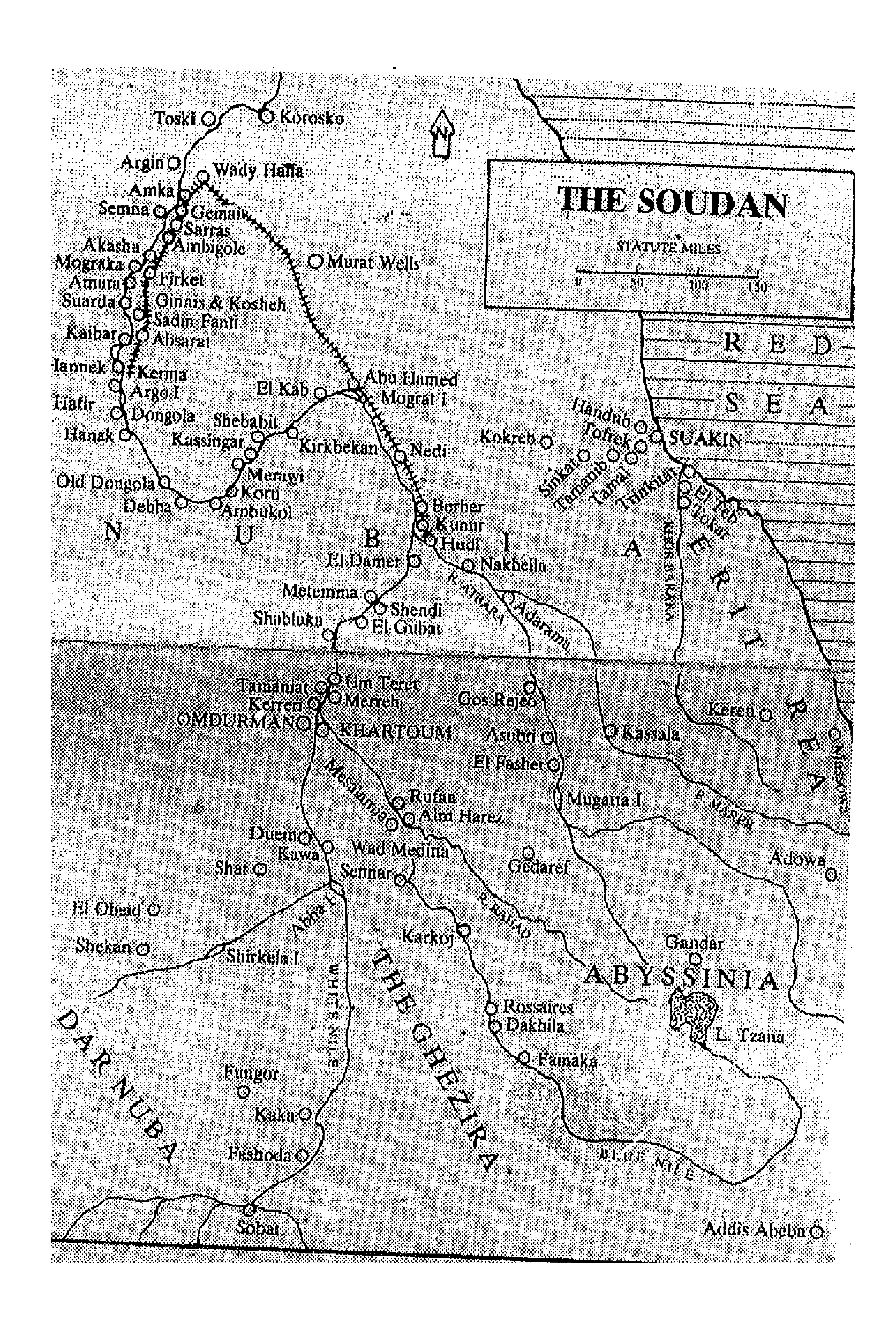
هذه هى إذن الإجابة الصادقة الأمينة لاسباب حرب النهر ، لكى يتحد إقليمان لايمكن أن يستمر انفصالهما الى مالانهاية ، لينصهر الشعبان لأن مستقبلهما ورخاؤهما يرتبطان بعضهما البعض بلا فكاك . بتجميع القدرات وحشدها لتنمية الأهداف المشتركة ، لتحقيق التقدم معا والذى لايمكن تحقيقه منفردا، هذه هى الأهداف التى سوف يسجلها التاريخ ويقرها بانها تبرر المشروع الكبير الذى تم إنجازه .

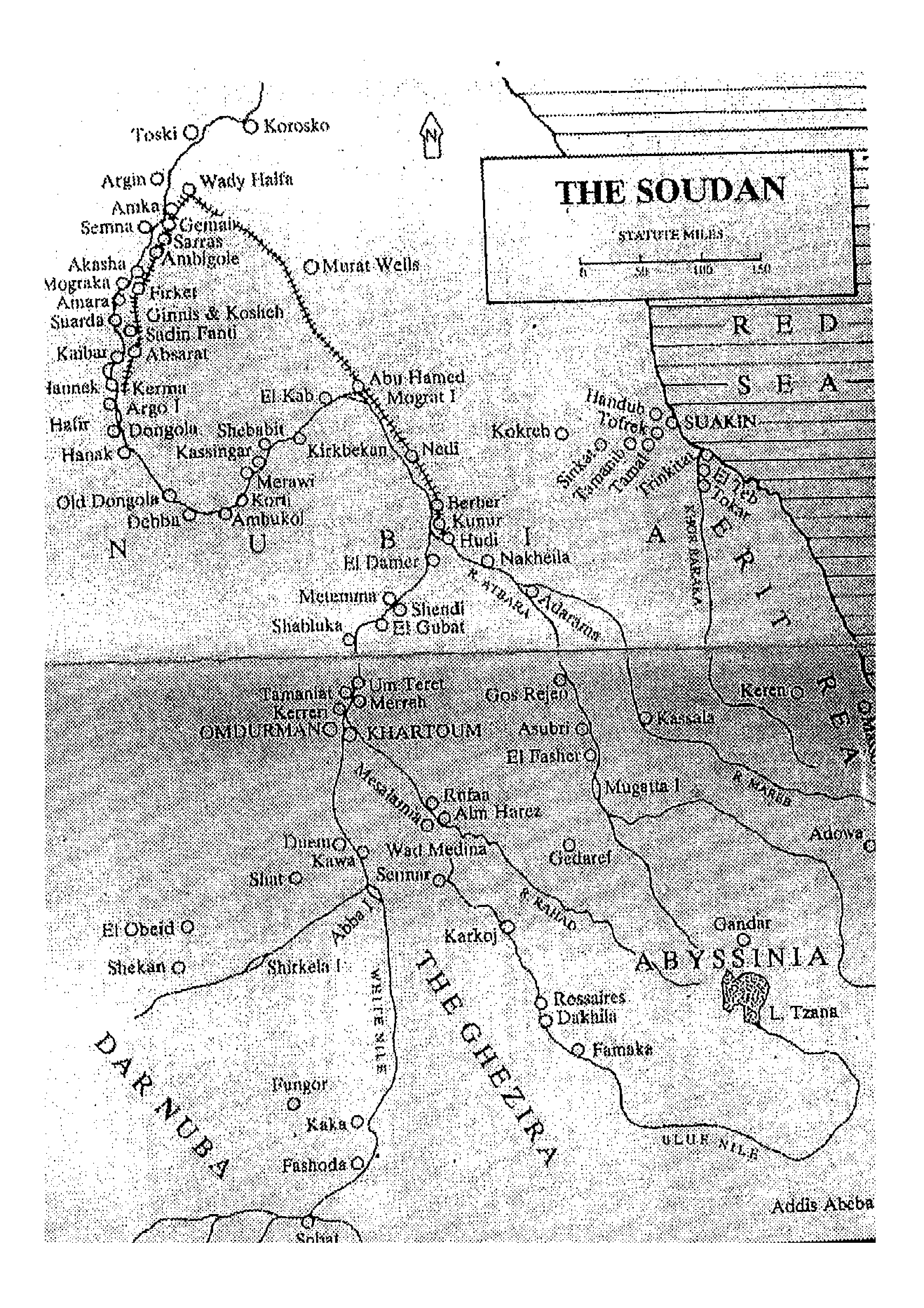
المنافع لبريطانيا العظمى لم تكن واضحة ، حتى للقلة التى تعتقد أن صلاتنا بمصر تماما كصلاتنا بالهند هى مصدر قوة . استحكمت قبضة انجلترا على مصر فى جبهتين نتيجة لاحداث الحرب. العمليات المشتركة وملكية الدولتين لحوض أعالى النيل ستشكل رابطة

قوية بين البلدين. السيطرة على النهر.سلاح لايقاوم . أنهى الصراع على فاشودة النفوذ الفرنسي الطاغي على الشخصية المصرية. بالرغم من أن فرنسا لاتزال تمتلك الصفة القانونية للتدخل ولتعرقل العمليات المالية فى مصر، إلا أن هذه القوة بدون نفوذ ، تبقى كالجسد الذى فقد الروح، يمكن أن يكون مستفزا وثقيلا، ولكن فى النهاية لابد أن يتحلل ويتحول الى تراب .

بصرف النظر عن العلاقات مع مصر ، فان بريطانيا قد استولت على إقليم مترامى الأطراف ومن السهل المبالغة فى تقدير قيمته ، لكنه كان مطمعا لكل القوى الكبرى فى أوربا. إن سياسة السيطرة على مصادر المياه الكبيرة التى سار عليها الساسة البريطانيون ، سواء بدون وعى أو عن إدراك أكيد والتى تم تنفيذها خلال القرون الثلاثة الماضية، قد تقدمت خطوة الى الأمام . بريطانيا سوف تستفىد تجاريا من وادى النيل ، البضائع الانجليزية يمكن ان تمر عن طريق النيل والوسيلة المكملة له ، السكك الحديد ، لتبادل منتجات البلاد الباردة مع منتجات أقاليم مدار السرطان ، يمكنها أن تستغل الرياح الشمالية لتحمل الحضارة الى الجنوب ، وتمكن مياه النيل من حمل الثروة والتجارة الى البحر .

النهاية


THE SOUDAN
STATUTE MILES
0
50
100
150
RED SEA
N U B I A
ERITREA
ABYSSINIA
DAR NUBA
THE GHEZIRA
Toski
Korosko
Argin
Wady Halfa
Amka
Semna
Gemai
Sarras
Akasha
Ambigole
Mograka
Murat Wells
Firket
Suarda
Ginnis & Kosheh
Sadin Fanti
Kaibar
Absarat
Kerma
Abu Hamed
El Kab
Mograt I
Dongola
Hanak
Kassingar
Shebabit
Kirkbekan
Nedi
Kokreb
Handub
Tofrek
SUAKIN
Sinkat
Tamanib
Tamai
Trinkitat
El Teb
Tokar
Merawi
Old Dongola
Korti
Debba
Ambukol
Berber
Kunur
Hudi
El Damer
Nakheila
Metemma
Shendi
Shabluka
El Gubat
Adarama
Tamaniat
Um Teref
Kerreri
Merreh
OMDURMAN
KHARTOUM
Gos Rejeb
Asubri
Kassala
Keren
El Fasher
Rufan
Abu Harez
Mugatta I
Duem
Kawa
Wad Medina
Shat
Sennar
Gedaref
Adowa
El Obeid
Abba I
Shekan
Shirkela I
Karkoj
Gandar
Rossaires
Dakhila
L. Tzana
Famaka
Fungor
Kaka
Fashoda
Sobat
Addis Abeba
WHITE NILE
BLUE NILE
R. ATBARA
R. RAHAD
R. MAREB
KHOR BARAKA


THE SOUDAN
STATUTE MILES
RED SEA
NUBIA
ERITREA
ABYSSINIA
DAR NUBA
THE GHEZIRA
Toski
Korosko
Argin
Wady Halfa
Semna
Gemai
Sarras
Ambigole
Akasha
Murat Wells
Amara
Firket
Ginnis & Kosheh
Absarat
Kerma
Argo I
Abu Hamed
Mograt I
El Kab
Dongola
Shebabit
Hanak
Kassingar
Kirkbekan
Nadi
Merawi
Korti
Old Dongola
Debba
Ambukol
Berber
Kunur
Hudi
El Damer
Nakheila
Metemma
Shendi
Shabluka
El Gubat
R. Atbara
Adarama
Kokreb
Handub
Tofrek
SUAKIN
Sinkat
Tamai
Trinkitat
El Teb
Tokar
Khor Baraka
Um Teret
Tamaniat
Merreh
Kerreri
OMDURMAN
KHARTOUM
Gos Rejeb
Asubri
El Fasher
Kassala
Keren
Mugatta I
R. Mareb
Rufaa
Abu Harez
Mesalamia
Adowa
Wad Medina
Gedaref
Kawa
Shat
Sennar
R. Rahad
El Obeid
Karkoj
Gandar
Shekan
Shirkela I
White Nile
Ressaires
Dakhila
L. Tzana
Famaka
Fungor
Kaka
Fashoda
Blue Nile
Addis Abeba
Sobat

APPENDIX

TEXT OF THE SOUDAN AGREEMENT OF THE 19TH *OF JANUARY,* 1899, *AND OF THE DECLARATION OF THE* 21ST *OF MARCH,* 1899

AGREEMENT BETWEEN HER BRITANNIC MAJESTY'S GOVERNMENT AND THE GOVERNMENT OF HIS HIGHNESS THE KHEDIVE OF EGYPT, RELATIVE TO THE FUTURE ADMINISTRATION OF THE SOUDAN

Whereas certain provinces in the Soudan which were in rebellion against the authority of His Highness the Khedive have now been reconquered by the joint military and financial efforts of Her Britannic Majesty's Government and the Government of His Highness the Khedive;

And whereas it has become necessary to decide upon a system for the administration of and for the making of laws for the said reconquered provinces, under which due allowance may be made for the backward and unsettled condition of large portions thereof, and for the varying requirements of different localities;

And whereas it is desired to give effect to the claims which have accrued to Her Britannic Majesty's Government, by right of conquest, to share in the present settlement and future working and development of the said system of administration and legislation;

And whereas it is conceived that for many purposes Wady Halfa and Suakin may be most effectively administered in conjunction with the reconquered provinces to which they are respectively adjacent:

Now, it is hereby agreed and declared by and between the Undersigned, duly authorised for that purpose, as follows:—

ART. I.

The word 'Soudan' in this Agreement means all the territories South of the 22nd parallel of latitude, which:

1. Have never been evacuated by Egyptian troops since the year 1882; or

2. Which having before the late rebellion in the Soudan been administered by the Government of His Highness the Khedive, were temporarily lost to Egypt, and have been reconquered by Her Majesty's Government and the Egyptian Government, acting in concert; or

3. Which may hereafter be reconquered by the two Governments acting in concert.

ART. II.

The British and Egyptian flags shall be used together, both on land and water, throughout the Soudan, except in the town of Suakin, in which locality the Egyptian flag alone shall be used.

ART. III.

The supreme military and civil command in the Soudan shall be vested in one officer, termed the 'Governor-General of the Soudan'. He shall be appointed by Khedivial Decree on the recommendation of Her Britannic Majesty's Government, and shall be removed only by Khedivial Decree, with the consent of Her Britannic Majesty's Government.

ART. IV.

Laws, as also Orders and Regulations with the full force of law, for the good government of the Soudan, and for regulating the holding, disposal, and devolution of property of every kind therein situate, may from time to time be made, altered, or abrogated by Proclamation of the Governor-General. Such Laws, Orders, and Regulations may apply to the whole or any named part of the Soudan, and may, either explicitly or by necessary implication, alter or abrogate any existing Law or Regulation.

All such Proclamations shall be forthwith notified to Her Britannic Majesty's Agent and Consul-General in Cairo, and to the President of the Council of Ministers of His Highness the Khedive.

ART. V.

No Egyptian Law, Decree, Ministerial Arrete, or other enactment hereafter to be made or promulgated shall apply to the Soudan or any part thereof, save in so far as the same shall be applied by Proclamation of the Governor-General in manner hereinbefore provided.

ART. VI.

In the definition by Proclamation of the conditions under which Europeans, of whatever nationality, shall be at liberty to trade with or reside in the Soudan, or to hold property within its limits, no special privileges shall be accorded to the subjects of any one or more Power.

ART. VII.

Import duties on entering the Soudan shall not be payable on goods coming from Egyptian territory. Such duties may, however, be levied on goods coming from elsewhere than Egyptian territory; but in the case of goods entering the Soudan at Suakin or any other port on the Red Sea Littoral, they shall not exceed the corresponding duties for the time being leviable on goods entering Egypt from abroad. Duties may be levied on goods leaving the Soudan, at such rates as may from time to time be prescribed by Proclamation.

ART. VIII.

The jurisdiction of the Mixed Tribunals shall not extend, nor be recognised for any purpose whatsoever, in any part of the Soudan, except in the town of Suakin.

ART. IX.

Until, and save so far as it shall be otherwise determined by Proclamation, the Soudan, with the exception of the town of Suakin, shall be and remain under martial law.

ART. X.

No Consuls, Vice-Consuls, or Consular Agents shall be accredited in respect of nor allowed to reside in the Soudan, without the previous consent of Her Britannic Majesty's Government.

ART. XI.

The importation of slaves into the Soudan, as also their exportation, is absolutely prohibited. Provision shall be made by Proclamation for the enforcement of this Regulation.

ART. XII.

It is agreed between the two Governments that special attention shall be paid to the enforcement of the Brussels Act of the 2nd of July, 1890, in respect to the import, sale, and manufacture of fire-arms and their munitions, and distilled or spirituous liquors.

Done in Cairo, the 19th of January, 1899.

Signed: BOUTROS GHALI—CROMER.

DECLARATION RELATIVE TO THE BRITISH AND FRENCH SPHERES OF INFLUENCE IN CENTRAL AFRICA.

(Signed at London, March 21st, 1899)

The Undersigned, duly authorised by their Governments, have signed the following declaration:–

The IVth Article of the Convention of the 14th of June, 1898, shall be completed by the following provisions, which shall be considered as forming an integral part of it:

1. Her Britannic Majesty's Government engages not to acquire either territory or political influence to the west of the line of frontier defined in the following paragraph, and the Government of the French Republic engages not to acquire either territory or political influence to the east of the same line.

2. The line of frontier shall start from the point where the boundary between the Congo Free State and French territory meets the water-parting between the watershed of the Nile and that of the Congo and its affluents. It shall follow in principle that water-parting up to its intersection with the 11th parallel of north latitude. From this point it shall be drawn as far as the 15th parallel in such manner as to separate, in principle, the Kingdom of Wadai from what constituted in 1882 the Province of Darfur; but it shall in no case be so drawn as to pass to the west beyond the 21st degree of longitude east of Greenwich (18° 40′ east of Paris), or to the east beyond the 23rd degree of longitude east of Greenwich (20° 40′ east of Paris).

3. It is understood, in principle, that to the north of the 15th parallel the French zone shall be limited to the north-east and east by a line which shall start from the point of intersection of the Tropic of Cancer with the 16th degree of longitude east of Greenwich (13° 40′ east of Paris), shall run thence to the south-east until it meets the 24th degree of longitude east of Greenwich (21° 40′ east of Paris), and shall then follow the 24th degree until it meets, to the north of the 15th parallel of latitude, the frontier of Darfur as it shall eventually be fixed.

4. The two Governments engage to appoint Commissioners who shall be charged to delimit on the spot a frontier-line in accordance with the indications given in paragraph 2 of this Declaration. The result of their work shall be submitted for the approbation of their respective Governments.

It is agreed that the provisions of Article IX. of the Convention of the 14th of June, 1898, shall apply equally to the territories situated to the south of the 14° 20′ parallel of north latitude, and to the north of the 5th parallel of north latitude between the 14° 20′ meridian of longitude east of Greenwich (12th degree east of Paris) and the course of the Upper Nile.

Done at London, the 21st of March, 1899.

(L.S.) SALISBURY.
(L.S.) PAUL CAMBON.

ملحق

نص اتفاقية السودان المؤرخة فى ١٩ يناير ١٨٩٩ وإعلان ٢١ مارس ١٨٩٩ .

اتفاقية بين حكومة صاحبة الجلالة البريطانية وحكومة صاحب السمو خديوي مصر فيما يختص بمستقبل إدارة السودان .

*حيث انه قد تم إعادة احتلال بعض مديريات السودان التي كانت قد تمردت على سلطة صاحب السمو الخديوي وذلك بالجهد العسكري والمادي المشترك لحكومتي صاحبة الجلالة وصاحب السمو الخديوي .

*وحيث أنه أصبح من الضروري اختيار نظم للإدارة وسن القوانين للمديريات التي أعيد احتلالها ، مع الاعتبارات التي يجب أن تراعي للمناطق المتخلفة او تلك التي لاتزال اجزاء منها بعيدة عن الاستقرار ، ومراعاة الاحتياجات الخاصة لبعض المناطق .

*ونسبة للرغبة فى الايفاء بمطالب حكومة صاحبة الجلالة التي نالتها بحق الاحتلال للمشلوكة فى التسوية الحالية أو مستقبل علاقات العمل والتطورات لنظم الإدارة والتشريع .

*وحيث إنه من المتوقع أن تكون ولأسباب إدارة كل من وادي حلفا وسواكن بفعالية بنفس طريقة إدارة المديريات المتاخمة لهما .

الأن نعلن أنه قد تم الاتفاق بين الموقعين أدناه والمفوضين رسميًا لهذا الغرض على البنود الآتية :-

المادة الأولي

أن كلمة السودان تعني فى هذه الاتفاقية كل المناطق التي تقع جنوب خط عرض ٢٢ والتي :

(١) لم يتم جلاء القوات المصرية عنها منذ عام ١٨٨٢. أو

(٢) التي كانت تحت إدارة حكومة صاحب السمو الخديوي قبل التمرد الأخير وفقدتها مصر موقتا وتم إعادة احتلالها بالتضامن مع حكومة صاحبة الجلالة .أو

(٣) المناطق التي يمكن أن تعيد احتلالها الحكومتان بالتضامن .

المادة الثانية

يستعمل العلمان البريطاني والمصري معا فى كـــل مـــن الأرض أو الميـــاه فى كـــل أنحـــاء السودان،ماعدا مدينة سواكن حيث يستعمل العلم المصري منفردا .

المادة الثالثة

إن السلطة العسكرية والمدنية العليا سوف توضع تحت سلطة ضابط واحد يعرف بـــ"حاكم عام السودان" .سوف يتم تعيينه بمرسوم خديوي بناء على توصية من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية ، وسوف يتم تغييره بمرسوم خديوي فقط بعد موافقة حكومة صاحبـــة الجلالـــة البريطانية .

المادة الرابعة

القوانين والأوامر واللوائح ألتي تتمع بقوة القانون الكاملة ، لضمان حكومـــة جيـــدة للسودان ، ولتقنين حقوق الملكية والممتلكات ، والاستغناء عنها أو انتقـــال أى ممتلكـــات موجودة داخل القطر ، تصدر من وقت لآخر أو يتم تعديلها أو إلغاؤها بإعلان صادر مـــن الحاكم العام للسودان.

هذه القوانين والأوامر أو اللوائح يمكنها أن تكون سارية المفعول لكل أنحاء السودان أو جزء منه ، ويمكنها صراحة أو حسب ما تمليه الضرورة تعديل أو إلغاء أي قانون أو لوائـــح سارية المفعول .

مثل هذه الاعلانات يجب أن يتم إخطارها فورا لمندوب حكومـــة صاحبـــة الجلالـــة البريطانية والقنصل العام بمصر وأيضا لرئيس مجلس الوزراء لسمو الخديوي .

المادة الخامسة

سوف لن يصدر أي قانون مصري،أو مرسوم أو أمر وزاري يحد أو ينشر أي تشريع فيما يختص بالسودان غير تلك التي يصدرها حاكم عام السودان،هوكما مبين فيما سبق ذكره.

المادة السادسة

في تعريف الإعلان الذي يعطي الحق لأي أوربي من أي جنسية ، حرية التجـــارة أو الإقامة في السودان وأن يمتلك أي ممتلكات داخل حدوده ، لن تكون هنـــالك أفضليـــة أو مميزات خاصة لمواطني دولة عن الأخري.

المادة السابعة

سوف لن تفرض رسوم استيراد على أي بضائع تدخل السودان من القطر المصــــري. ويمكن أن تفرض مثل تلك الرسوم على أي بضائع تدخل السودان من أقطار غـــير القطــر المصري. في حالة فرض رسوم على بضائع داخلة عن طريق ســـواكن أو أي مينـــاء علـــى شواطئ البحر الأحمر يجب ألاتزيد عن الرسوم الجمركية المفروضة على دخـــول البضـــائع الأجنبية الى مصر ، يمكن فرض رسوم على صادرات السودان من وقت لأخر حسب مـــا تنص عليه الإعلانات والأحكام .

المادة الثامنة

إن أحكام المحاكم المختلطة سوف لن تسري أو يعترف بها لأي سبب من الأسباب في أي جزء من السودان سوي مدينة سواكن . ؟

المادة التاسعة

حتي إشعار أخر أو حتي يتم الإعلان عنه سوف يظل السودان تحت الأحكام العـــرفية ما عدا مدينة سواكن .

المادة العاشرة

سوف لن يسمح لأي قنصل ، أو نائب قنصل ، أو منـــدوب قنصلـــي بـــالوجود في السودان بدون تصريح مسبق من حكومة صاحبة الجلالة البريطانية .

المادة الحادية عشرة

يمنع منعا باتا استيراد أو تصدير الرقيق من السودان ، سوف يصدر أمر ويتم الإعلان عنه لتنفيذ هذه التعليمات .

المادة الثانية عشرة

لقد تم الاتفاق بين الحكومتين على أن يراعي بصفة خاصة تطبيق قانون بروكسيل المؤرخ فى الثاني من يوليو ١٨٩٠ فيما يختص باستيراد وبيع أو صنع الأسلحة النارية أو ذخيرتها والخمور الكحولية بأنواعها المختلفة .

تم فى القاهرة يوم ١٩ يناير ١٨٩٩ .

الأمضاء : بطرس غالى – كرومر .

ملحق

إعلان خاص بمناطق النفوذ
لبريطانيا وفرنسا فى أواسط إفريقيا

(تم التوقيع عليه فى لندن ٢١ مارس ١٨٩٩)

الموقعون أدناه وبتفويض رسمي من حكوماتهم ، قد وقعوا على الإعلان التالى:-

المادة الرابعة لمؤتمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تضاف اليها المواد الآتية وتكون جزءا مكملا له:-

(١)تتعهد حكومة صاحبة الجلالة البريطانية بألا تمتلك مناطق او يكون لها نفوذ سياسي غرب الحدود التي يتم تحديدها فى الفقرة التالية ، وتتعهد حكومة جمهورية فرنسا بألا تمتلك مناطق أو نفوذا سياسيا شرق نفس الخط .

(٢)يبدأ الخط الفاصل للحدود من عند النقطة التي تحدد حدود دولة الكنغو الحرة - وعند التقاء المنطقة الفرنسية مع نهاية مغادرة مياه نهر النيل ونهر الكنغو وفروعه ، وتتبع من حيث المبدأ مغادرة المياه عند التقاطع فى خط عرض موازي ١١ شمالا . من عند هذه النقطة سوف يمتد حتي خط عرض ١٥ بحيث يفصل من حيث المبدأ مملكة واداي من المنطقة التي كونت منذ عام ١٨٨٢ مديرية دار فور ، مع الأخذ فى الاعتبار ان ألا يرسم هذا الخط تحت أي ظرف حتي يتعدي غرب خط طول ٢١ درجة شرق جرينتش (٤٠-١٨ شرق باريس) أو شرقا لايتعدي ٢٣ درجة خط طول شرق جرينتش (٤٠-٢٠ شرق باريس) .

(٣)يكون مفهوما من حيث المبدأ أنه الى شمال خط موازي ١٥ المنطقة الفرنسية سوف تتحدد الى الشمال الشرقي والشرق بخط يبدأ من نقطة التقاء مدار السرطان مع ١٦ درجة خط طولي شمال جرينتش (٤٠-١٣ شرق باريس) يستمر الى جنوب شرق حتي يلتقي مع ٢٤ درجة طولي شرق جرينتش (٤٠-٢١ شرق باريس) ثم يتبع خط

طولي ٢٤ درجة حتي يلتقي مع ٢٤ درجة عند خط عرض موازي ١٥الى حـــدود دار فور التي سوف تحدد لاحقا .

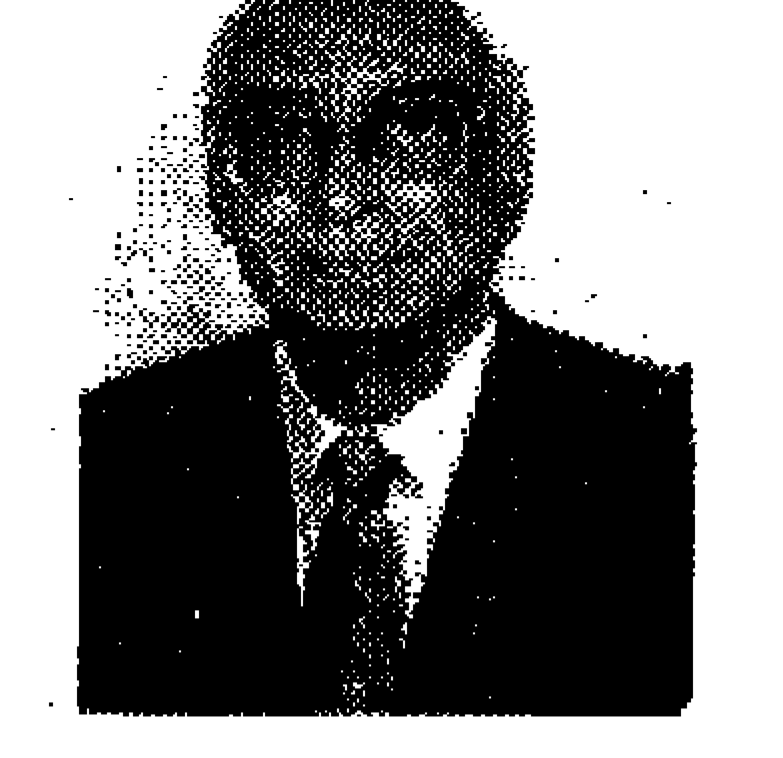
(٤)سوف تعين كل حكومة أعضاء لجان تؤول إليهم مسئولية تحديد وتخطيط الحدود علــى الطبيعة حسب ما جاء فى الفقرة الثانية من هذا الإعلان .سوف ترفع هذه اللجان نتـائج أعمالها كل لحكومته لإقرارها والموافقة عليها.

لقد تم الاتفاق على أن بنود المادة الخامسة لمؤتمر ١٤ يونيو ١٨٩٨ سوف تنطبق علـى كل المناطق التي تقع جنوب النقطة ٢٠-١٤ درجة خط عرض موازي شمال والى شمال خـط عرض ٥ شمال بين درجة ٢٠-١٤ الميرديان الطولي شرق جرينتش (١٢درجة شرق باريس) ومجري أعالى النيل .

تم فى لندن فى ٢١ مارس ١٨٩٩ .

-لورد سالزبوري .

-بول كامبون .



سطور عن المترجم

عز الدين محمود محمد

- ولد عام ١٩٣١ بمدينة القضارف ، مديرية كسلا ، شرق السودان
- تلقي دروس مبادئ القرآن فى خلوة جده الشريف أحمد محمد نـور زروق ، كتـاب القضارف ، الكلية القبطية بورتسودان ، وأم درمان الصناعية .
- اجتاز امتحان الخدمة المهنية. لكنه رفض الوظيفة الحكومية .
- اجتاز امتحان شهادة أكسفورد فى التاريخ ، الاقتصاد ، و اللغة العربية .
- تلقي دراسات إضافية : -

اقتصاد ، قانون تجاري ، إدارة أعمال بالمعهد الفني .

مبادئ اقتصاد ، و اقتصاد زراعي ، جامعة الخرطوم .

- التحق بشركة أي سي أي البريطانية ، القسم الزراعي .
- أرسل إلى إنجلترا بالمملكة المتحدة لدراسة كورس فى " الإدارة بالأهداف " .
- ترقي لمنصب مدير القسم الزراعي ، المبيدات و الأدوية البيطرية .
- بعد تأميم الشركة ، التحق بشركة فلسيكول للكيماويات الأمريكية .

بدأ مديرا للسودان و شـرق إفريقيا. ثـم ترقـي لمديـر دائـرة إفريقيا، ونقـل الى اليونان .

- آخر وظيفة له ، مدير إقليمي لافريقيا ، الشرق الأوسط ، و شبه القارة الهندية
- وصل لسن المعاش عام ١٩٩٤ م .
- بدأ اهتمامه بالأدب من سن مبكرة .
- عضو الندوة الأدبية بأم درمان .
- له مقالات بعنوان " محاولات فى النقد الفني " نشرت بمجلة الإذاعـة والتليفزيـون بالسودان .
- كتب أدب رحلات " خمسون يوما فى ربوع أوربا " نشرت فى جريدة الثورة.
- كتب " برامج ترشيد المنتج " .

دراسة للالتزام البيئي ،عن صحة و سلامة الإنسان و البيئة ،تحت النشر.

متزوج من مصرية ، وأبا لثلاثة ، ولد وبنتان .

«حرب النهر»

الفهـــرس

صدر فى هذه السلسلة

١ - مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤.

٢ - على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.

٣ - ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.

٤ - التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.

٥ - غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى،
د. علية عبد السميع الجنزورى، ١٩٨٧.

٦ - هؤلاء الرجال من مصر جـ١،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧.

٧ - صلاح الدين الأيوبى،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.

٨ - رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧.

٩ - صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧.

١٠ - توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزى، ١٩٨٧.

١١ - مائة شخصية مصرية وشخصية،
. شكرى القاضى، ١٩٨٧.

١٢ - هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . نبيل راغب، ١٩٨٨.

١٣ - أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،
د . عبدالعظيم رمضان، ط ١ ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤.

١٤ - مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.

١٥ - المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨.

١٦ - فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور الجمعية الخيرية (١٨٩٢-١٩٥٢)،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨.

١٧ - القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.

١٨ - الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمود، ١٩٨٨.

١٩ - مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.

٢٠ - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩: المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبدالرحمن فهمى،
د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.

٢١ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، جـ١،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٢ - نظرات فى تاريخ مصر،
جمال بدوى، ١٩٨٨

٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ٢ ، إمامَ التصوف فى مصر: الشعرانى ،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨ .

٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦) ،
د . نجوى كامل، ١٩٨٩ .

٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب،
تأليف: هاملتون جب وهارولد بووين،
ترجمة : د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩ .

٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د . سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩ .

٢٧ - فتح العرب لمصر جـ١ ،
تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .

٢٨ - فتح العرب لمصر جـ٢ ،
تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩ .

٢٩ - مصر فى عهد الإخشيديين،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩ .

٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على ،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٠ .

٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى، ١٩٨٩ .

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٢ ،
لمعى المطيعى، ١٩٨٩ .

٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د . خالد محمود الكومى، ١٩٨٩ .

٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د . يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠ .

٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٠ .

٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢ ،
تأليف : هاملتون بووين، ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠ .

٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
تأليف : د . سليمان صالح، ١٩٩٠ .

٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠ .

٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧) ،
د. جميل عبيد، ١٩٩٠ .

٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى، ١٩٩٠ .

٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية ،
د . رفعت السعيد، ١٩٩١ .

٤٢ - تكوين مصر عبر العصور،
محمد شفيق غربال، ط ٢ ، ١٩٩٠ .

٤٣ - رحلة فى عقول مصرية ،
إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠ .

٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر، فى العصر العثمانى،
د . محمد عفيفى، ١٩٩١ .

٤٥ - الحروب الصليبية جـ ١ ،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د . حسن حبشى، ١٩٩١ .

٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكيه (١٩٣٩ : ١٩٥٧) ،
ترجمة: د . عبد الرؤوف أحمد عمرو. ١٩٩١ .

٤٧ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث،
د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١ .
٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،
د . زبيدة عطا، ١٩٩١ .
٤٩ ـ العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ـ١٩٧٩) ،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ـ١٩٥٤) ،
د . سهير اسكندر، ١٩٩٣ .
٥١ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)،
أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢ .
٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين فى القرن الثامن عشر،
د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢ .
٥٣ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،
د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢ .
٥٤ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد عفيفى، ١٩٩٢ .
٥٥ـ الحروب الصليبية جـ٢ ،
تأليف : وليم الصورى ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٢ .
٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢ .
٥٧ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢ .
٥٨ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،
د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣ .
٥٩ـ الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧ـ١٩٦١) ،
د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣ .
٦٠ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،
عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣ .
٦١ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،
د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٢ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣ ،
لمعى المطيعى، ١٩٩٣ .
٦٣ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،
تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:
د. عبدالعظيم رمضان،١٩٩٣ .
٦٤ ـ مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣ .
٦٥ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ـ١٩١٧) ،
د . سهام نصار، ١٩٩٣ .
٦٦ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،
د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣ .
٦٧ ـ مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣ .
٦٨ـ الحروب الصليبية جـ٣ ،
تأليف : وليم الصورى
ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣ .
٦٩ـ نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ـ١٩٥١) ،
د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤ .

٧٠ ـ أهل الذمة فى الإسلام،
تأليف : أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشى، ط ٢، ١٩٩٤ .

٧١ ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤ـ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤ .

٧٢ ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية فى العصر الفاطمى (٣٥٨ـ٥٦٧هـ)،
د . أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤ .

٧٣ ـ تاريخ جامعة القاهرة،
.. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤ .

٧٤ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ١، فى العصر الفرعونى،
د . سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤ .

٧٥ ـ أهل الذمة فى مصر، فى العصر الفاطمى الأول،
د . سلام شافعى محمود، ١٩٩٥ .

٧٦ ـ دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى (زمن الإحتلال البريطانى)،
د . سعيد إسماعيل على، ١٩٩٥ .

٧٧ ـ الحروب الصليبية جـ٤،
تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتعليق: د . حسن حبشى، ١٩٩٤ .

٧٨ ـ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ـ١٨٩٩)،
نعمات أحمد عثمان، ١٩٩٥ .

٧٩ ـ تاريخ الطرق الصوفية فى مصر، فى القرن التاسع عشر،
تأليف : فريد دى يونج، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال، ١٩٩٥ .

٨٠ ـ قناة السويس والتنافس الاستعمارى الأوربى (١٨٨٢ـ١٩٠٤)،
د . السيد حسين جلال، ١٩٩٥ .

٨١ ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د . رمزى ميخائيل، ١٩٩٥ .

٨٢ ـ مصر فى فجر الإسلام، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤ .

٨٣ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤ .

٨٤ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٢ ـ القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥ .

٨٥ ـ تاريخ الإذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،
د. حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٥ .

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)،
د. أحمد الشربينى، ١٩٩٥ .

٨٧ ـ مذكرات اللورد كليرن، جـ ٢، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)،
إعداد : تريفور إيفانز، ترجمة وتحقيق: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥ .

٨٨ ـ التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٥ .

٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥ .

٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦ .

٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال، ١٩٩٦ .

٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦ .

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.
٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
٩٨ ـ هيكل والسياسة الأسبوعية،
د. محمد سيد محمد.
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى، أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان
١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى، اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور
١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة
١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. على بركات
١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧.
د. أحمد فارس عبدالمنعم
١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).
د. سليمان صالح
١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.
تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.
١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.
سليم النقاش
١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.
سليم النقاش
١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.
د. البيومى اسماعيل الشربيني.
١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.
د. البيومى إسماعيل الشربيني.
١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى
د. محمد محمد الجوادى.
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)
د. عز الدين إسماعيل.
١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن ـ ٠
أحمد شفيق باشا.
١١٦ ـ أديب اسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية
(١٥١٧ ـ ١٧٩٨).
عبد الرزاق إبراهيم عيسى
١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام
د. البيومى اسماعيل الشربينى
١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث
لويس جرجس
١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل (١٩٤٥ ـ ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوى
١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ ـ السيد أحمد البدوى
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨)،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم .
١٢٨ ـ معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوى.
١٢٩ ـ الدين العام (وأثره فى تطور الدين المصرى) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر، (١٩٨٧-١٩٩٧)
سمير فريد.
١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يولية ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمر.
١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ١
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ٢.
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى.
بقلم/ عزت حسن أفندى الدارندلى
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغنى.
١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية
(فى ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) د. محاسن محمد الوقاد
١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٣٨ ـ الإخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والإرهاب فى مصر
السيد يوسف
١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥هـ ١٨١١ ـ ١٨٤٨م.
طارق عبد العاطى غنيم بيومى
١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك
لطفى أحمد نصار
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩ .

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف .. ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية
فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦٠ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ، ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم
١٦٦ـ مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ

مصر)
السيد يوسف
١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. صفى على محمد عبدالله
١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى
١٦٩ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. صفى على محمد عبد الله
١٧٠ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
مجدى عبد الرشيد بحر
١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت
١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) الجزء الأول
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى) الجزء الثانى
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م
د. أحمد عبد الحليم دراز
١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل
١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية ١٥١٧ ـ ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان
١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية ازاء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم
١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام في القرن الثامن عشر
د. سحر على حنفى
١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د. عفاف مسعد السيد العبد
١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان
١٨١ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٢ ـ الحرب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة
١٨٤ ـ المنوفية فى القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق
١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م
د. أحمد أحمد سيد أحمد
١٨٦ ـ العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الإسلام والتصوف
د. أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ١
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ) جـ٢
د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠م
عرفة عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق (١٩٥١ ـ ١٩٦٣م)
د. عبدالحميد عبدالجليل أحمد شلبى

١٩١ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر جـ١
د. محسن على شومان

١٩٢ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى أوائل القرن التاسع عشر جـ٢
د. محسن على شومان.

١٩٣ ـ الامام محمد عبده بين المنهج الدينى الاجتماعى
د. عبدالله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية المصرية
د. فتحى الصنفاوى

١٩٥ ـ مجتمع أفريقيا فى عصر الولاة
د. نريمان عبدالكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطور الرى فى مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤م)
عبدالعظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة
د. عبدالحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الأيوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية
د. عادل عبدالحافظ حمزة

١٩٩ ـ المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية (تنظيمه الإدارى ودوره السياسى)
د. بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشماليةعبر العصور (أعمال الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الإسكندرية فى يومى ٢٢، ٢٣ ابريل ١٩٩٨م).
اعداد/ د. عبدالعظيم رمضان

٢٠١ - إمارة الحج فى مصر العثمانية (٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م)
سميرة فهمى على عمر

٢٠٢ - المندوبون الساميون فى مصر
د. ماجدة محمد حمود

٢٠٣ - الصراع الدولى على عدن والدور المصرى
فتحى أبو طالب

٢٠٤ - العلاقات الاقتصادية بين مصر وبريطانيا (١٩٣٥ - ١٩٤٥م)
مرفت صبحى غالى

٢٠٥ - تاريخ الغربية وأعمالها فى العصر الاسلامى (٢١ - ٥٦٧هـ / ٦٤٢ - ١١٧١م)
السيد محمد أحمد عطا

٢٠٦ - مصر للمصريين جـ٩
سليم خليل النقاش

٢٠٧ - الظاهر بيبرس
د. سعيد عبدالفتاح عاشور

٢٠٨ - الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت جـ١
لواء/ د. كمال أحمد عامر

٢٠٩ - الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت جـ٢
لواء/ د. كمال أحمد عامر

٢١٠ - قبرص والحروب الصليبية
د. سعيد عبدالفتاح عاشور

٢١١ - امارة الرها الصليبية
د. علية عبدالسميع الجنزورى

٢١٢ - العامة فى مصر فى العصر الأيوبى ٥٦٧ - ٦٤٨هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠م
شلبى ابراهيم الجعيدى

٢١٣ - الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى وأثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى ٦٤٨هـ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م
عثمان على محمد عطا

٢١٤ - الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى
د علية عبدالسميع الجنزورى

٢١٥ - الفتح الإسلامى لمدينة كابول (٣١هـ/ ٦٥١م)
د. إصلاح عبدالحميد ريحان

٢١٦ - الرأسمالية الأجنبية فى مصر الجزء الأول (١٩٣٧ - ١٩٥٧)
د. فرغلى يسن هريدى

٢١٧ - العيب فى الذات الملكية (١٨٨٢ - ١٩٥٢)
د. سيد عشماوى

٢١٨ ـ اقليم الغـــربيـــة من عـــصـــر
الأيوبيه والمماليك
د. السيد محمد أحمد عطا
٢١٩ ـ ثـــورة ١٩١٩ فـــــى ضـــــوء
مـذكرات سعد زغلول
د عبدالعظيم رمضان
٢٢٠ ـ التنظيمــات السيـاسيـة لثـورة
يوليو
(١٩٥٣ ـ ١٩٦١)
حماده حسنى أحمد محمد
٢٢١ ـ حرب النهر
تأليف: ونستون تشرشل
ترجمة: عزالدين محمود

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٩٤٤ /٢٠٠٢

I . S . B . N 977 - 01 - 7767 - 9

يتناول هذا الكتاب «حرب النهر» ويؤرخ لأحداث الثورة المهدية، وانتصاراتها وهزائمها، فى تسعة عشر فصلاً فيتناول ثورة المهدى، ومعارك نهر عطبرة، ومعركة أم درمان، وحادثة فاشوده، واتفاقية الحكم الثنائى للسودان.

والكتاب على هذا النحو يقدم رؤية السياسى الشهير ونستون تشرشل لتلك الفترة الصاخبة فى حياة وادى النيل، وهى رؤية مطلوبة لفهم سياسة بريطانيا.



٥٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب